

الموازنة بين الشعراء

الموازنة بين الشعراء

د. زكي مبارك

دار البنية

١٩٥١

جميع الحقوق محفوظة لدار الجيل
الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين.
أما بعد : فهذا كتاب « الموازنة بين الشعراء » أقدمه مرة ثانية إلى المنصفين من أهل الأدب والبيان، ولولا الشواغل لقدمت إليهم هذه الطبعة منذ سنين، فقد طوقني القراء بالجميل حين أنفدوا نسخ الطبعة الأولى في أقل من سنتين وحين دأبوا على استعجال الطبعة الثانية عدداً من السنين.

أقدم إلى القراء هذا الكتاب، وما أنكر أني به مفتون، فقد أنشأت فصوله، وأنا في غاية من عافية الذوق، وشباب القلب، وعنفوان الروح. فجاء مجدول الحقائق، مصقول الأضاليل، وفي الأدب الحقّ هدىً وضلال وربما كان من الخير أن أنبه القارئ إلى أن فصول الطبعة الأولى أنشئت في ربيع سنة ١٩٢٥، وأن ما أضيف إلى هذه الطبعة — وهو نحو مائتي صفحة — انشئ في ربيع سنة ١٩٣٦ فبين التليد والطريف من فصول هذا الكتاب عشر سنين، ولست أدري أي العنصرين أقوى وأجزل، وإن كنت أعلم علم اليقين أني كنت في العهدين من أحرص الناس على الحق والصدق، ومن أزهدهم في اللغو والفضول.

هذا كتابي أقدمه بيمينِي. وأنت يا رباه — تباركت وتعاليت — تعلم أنني
خدمت به لغة القرآن. ولم يبق عيرك — يا رباه — مَنْ أنتظر منه حُسْنَ الجزاء.
(وكَفَى بالله وَلِيًّا وكَفَى بالله نصيراً)

محمد زكي عبد السلام مبارك

البحث الأول

أهواء النقاد

— ١ —

فُطِرَ الناس على حُبِّ المفاضلة بين الوسائل التي ترمي إلى غرض واحد، والموازنة بين الأنواع التي نرجع إلى أصل واحد، وقد ظهرت هذه الفطرة واضحة جلية حين طهر الشعر، وتبارى في قرضه الشعراء.

وليست الموازنة إلا ضرباً من ضروب النقد، يتميز بها الرديء من الجيد، وتظهر بها وجوه القوة والضعف في أساليب البيان : فهي تتطلب قوه في الأدب، وبصراً بمناحي العرب في التعبير، ومن هنا كان القدماء يتحاكمون إلى النابغة تحت قبته الحمراء، في سوق عكاظ، إذ كان في نظرهم أقدر الشعراء على وزن الكلام.

وقد كلف الأدباء في مختلف العصور بالموازنة بين من ينبغون من الشعراء في عصر واحد : فوازنوا بين امرئ القيس، والناغة، وزهير، والأعشى في الجاهلية، وبين جرير، والفرزدق، والأخطل في الدولة الأموية، وبين أبي نؤاس، ومسلم بن الوليد، وأبي العتاهية، وبين ابن المعتز وابن الرومي، وبين أبي نمام والبُحتري في الدولة العباسية، وكذلك عُقدت الموازنات بين من نبغوا بعد أولئك الفحول إلى

العصر الذي نعيش فيه، والعهد قريب بما كتب في الموازنة بين شوقي وحافظ ومطران في الجرائد المصرية والسورية، ولا يزال الأدباء مختلفين في حكمهم على من تقدّمهم، أو عاصرهم من الشعراء.

* * *

ونريد أن نبين في هذه الفصول أغلاط النقاد الذين تصدّوا قدماً أو حديثاً للموازنة بين شاعرين : جمع بينهما عصرٌ واحد، أو اشتركا في الإبانة عن غرضٍ واحد، وأن نضع ميزاناً يُعتمد عليه في وزن ما للشعراء من الحسنات والسيئات ليستطيع المناذب الفصل بين شاعرين اختلف من أجلهما الناس.

وسبيلنا إلى ذلك أن نحدد شخصية الناقد الذي يرشّح نفسه للموازنة، وأن نميز الوحدة الأدبية التي يرجع إليها الناقد فيما يُعنى به الشعراء من تحرير المعاني، واختيار الألفاظ.

— ٢ —

يجب أن يصل من بنصدر للموازنة بين الشعراء إلى درجة عُليا في فهم الأدب، وأن يُصبح وله في النقد حاسة فنيّة تنأى به عما يُفسد حكمه من الأهواء والأغراض التي تحمل القاصرين من طلاب الأدب على البعد عن جادة الصواب، حين يوازنون بين الشعراء والكتاب والخطباء. فقد نجد من الناس من يطرب للشعر، لا لأنه شعر، بل لأنه طرق موضوعاً يحبه، وكشف عن معنى نمبل نفسه إليه، وقد لا يكون ما سمعه أو قرأه جميلاً من الوجهة الفنية، أفُعتبر هذا الإعجاب دليلاً على حُسن ما استَحَسَنَه هذا الذي تشبَّعت نفسه بغرضٍ خاص ؟

— ٣ —

ومن هنا نستطيع غضّ النظر عن أحكام المتأدبين الذين يُفضّلون القديم مطلقاً على الجديد، بحيث يرون الجديد نوعاً من الهُراء، أو يفضلون الجديد مطلقاً على القديم بحيث يرون القديم صورة من صور الجمود، وإنما نعصّ النظر عن أحكام

هؤلاء لأن التشيع للقديم أو الجديد صَرَفَهُم عن الاستعداد للحاسة الفنية التي تَطْرُب للجميل المُمْتَع من تروة القدماء والمحدثين.

وقد تنبه لهذا عبد العزيز الجرجاني حين قال : وما أكثر ما نرى ونسمع عن حُفَاط اللغة وجلّة الرواة ممن يَلْهَجُ بعيب المتأخرين، أن أحدهم بنشد البيت فيستحسنه ويستجيده ويعجب منه ويختار، فاذا نُسِبَ لبعض أهل عصره وشعراء زمانه، كذب نفسه، ونفض قوله، ورأى تلك الغضاضة أهون محملاً، وأقل مَرَزَأً من التسليم بفضيلة لمُحَدَث، والإقرار بالإحسان لمُؤَلِّد، وحكي عن إسحاق الموصلي أنه قال : أنشدت الأصمعي :

هَلْ إِلَى نَظَرَةٍ إِلَيْكَ سَبِيلُ فَبَيْلُ الصَّدَى وَيُشْفَى الْغَلِيلُ
إِنَّ مَا قَلَّ مِنْكَ يَكْثُرُ عِنْدِي وَكَثِيرٌ مِمَّنْ تُحِبُّ الْقَلِيلُ
فقال : هذا والله الديباج الحسروائي ! ولمن تنشدني ؟ فقلت إنهما ليلتهما.
فقال : لاجرَم، والله إن أثر التكلف فيهما ظاهر ! !

ومن أجل هذا جاز ما ابتدعه خَلَفُ الأحمر من الشعر باسم شعراء الجاهلية، لأن غرام الناس إذ ذاك بالقديم جعلهم يُسَبِّغُونَ أكثر ما أضيف إلى القدماء من ألوان الكلام ! !

— ٤ —

ونستطيع كذلك غض النظر عن الأحكام التي تَنَسَّم بِسَمَةِ الغيرة على الجنس والدفاع عن النوع : كالموازنة التي كانت تعقدها السيدة سُكَيْنَةُ بين الشعراء، وليس بصحيح ما ذكره أستاذنا المرحوم الشيخ محمد المهدي في محاضراته بالجامعة المصرية : من أن السيدة سُكَيْنَةُ كانت ترى فضل الشعر في الصدق، والرفق، وجميل الأحدث، استناداً إلى الحديث الذي نقله صاحب الأغاني، فسيرى القارىء أن نقد السيدة سكينة متأثر بالعطف على المرأة، بلا نظر إلى قيمة الشعر من الوجهة الفنية.

وقد يخرج الشعر على التقاليد الاجتماعية والدينية، ولكنه يظل قيماً في نظر الأديب الفنان.

وأنا أشرك القارئ في الحكم على ذلك الحديث. ذكر صاحب الأغاني أنه اجتمع في ضيافة السيدة سُكينة جرير والفرزدق وجميل وكثير ونصيب، فمكثوا أياماً، ثم أذنت لهم فدخلوا عليها، فقعدت حيث تراهم ولا برونها وتسمع كلامهم، ثم أخرجت وصيفة لها وضيعة قد روت الأشعار والأحاديث، فقالت : أيكم الفرزدق ؟ فقال، هأنذا. فقالت : أنت القائل :

هُمَا دُلَّتَانِي مِنْ ثَمَانِينَ قَامَةً كَمَا أَنْحَطَ بَارُ أَقْتَمِ الرَّيْشِ كَاسِرُهُ^(١)
فَلَمَّا اسْتَوَتْ رَجُلَايَ بِالْأَرْضِ قَالَتَا أَحَيِّ يُرَجِّي أَمْ قَتِيلٌ نَحَازِرُهُ
فَقُلْتُ ارْفَعُوا الْأُمْرَاسَ لَا يَشْعُرُوا بِنَا وَأَقْبَلْتُ فِي أَعْجَازِ لَيْلٍ أَبَادِرُهُ^(٢)
أَبَادِرُ بَوَائِينَ قَدْ وُكِّلَا بِنَا وَأَحْمَرُ مِنْ سَاجٍ تَبْصُ مَسَامِرُهُ^(٣)

قال : نعم ! قالت : فما دعاك إلى إفشاء سرها وسرك ؟ هلا سترت عليك وعليها ؟ خذ هذه الألف والحق بأهلك !

ثم دخلت على مولاتها وخرجت، فقالت أيكم جرير ؟ قال : هأنذا. قالت : أنت القائل :

طَرَفَتْكَ صَائِدَةُ الْقُلُوبِ وَلَيْسَ دَا وَقَتَ الزِّيَارَةِ فَارْجِعِي بِسَلَامٍ
نُجْرِي السَّوَاكَ عَلَى أَغْرٍ كَأَنَّهُ بَرْدٌ تَحْدَرُ مِنْ مُتُونٍ غَمَامٍ
قال : نعم ! قالت : أولاً أخذت بيدها، وقلت لها ما يقال لمثلها ؟ أنت عفيفٌ وفيك ضعف ! خذ هذه الألف والحق بأهلك !

ثم دخلت على مولاتها وخرجت، فقالت أيكم كثير ؟ فقال : هأنذا؛ فقالت : أنت القائل :

(١) الباري : صرب من الصفور.

(٢) الأمراس : الحمال.

(٣) تبص نلمع.

وَأَعْجَبَنِي يَا عَزُّ مِنْكَ خَلَائِقُ كِرَامٍ إِذَا عُدَّ الْخَلَائِقُ أَرْبَعُ
دُنُوكِ حَتَّى بَدَفَعَ الْجَاهِلُ الصَّبَا وَدَفَعُكَ أَسْبَابَ الْمُنَى حِينَ يَطْمَعُ
فَوَاللَّهِ مَا يَدْرِي كَرَبِّمْ مُمَاطِلٌ أَيْنَسَاكِ إِذْ بَاعَدْتَ أَوْ يَتَصَدَّعُ

قال : نعم ! قالت : ملحت وشكيت ! خذ هذه الألف والحق بأهلك.

ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت : أيكم نصيب ؟ قال : هأنذا. قالت :
أنت القائل :

وَلَوْلَا أَنْ يُقَالَ صَبَا نُصِيبُ لَقُلْتُ بِنَفْسِي النِّسَاءُ الصُّغَارُ
بِنَفْسِي كُلِّ مَهْضُومٍ حَسَاها إِذَا ظَلِمَتْ فَلَيْسَ لَهَا أَنْتِصَارُ

قال : نعم، فقالت : ريبتنا صغاراً، ومدحتنا كباراً ! خذ هذه الألف والحق
بأهلك.

ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت : يا جميل ! مولاتي تُقرئك السلام
وتقول لك : والله ما زلتُ مشتاقةً لرؤيتك منذ سمعت قولك :
أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أُبَيِّنَ لَيْلَةً بِوَادِي الْقُرَى إِنِّي إِذَا لَسَعِيدٌ^(١)
يَقُولُونَ جَاهِدْ يَا جَمِيلُ بِعَزْوٍ وَأَيُّ جِهَادٍ غَيْرُهُنَّ أُرِيدُ
لِكُلِّ حَدِيثٍ بَيْنَهُنَّ بَشَاشَةٌ وَكُلُّ قَتِيلٍ عِنْدَهُنَّ شَهِيدُ
جَعَلْتَ حَدِيثَنَا بِشَاشَةً وَقَتْلَانَا شُهَدَاءَ ! خذ هذه الألف والحق بأهلك.

وليس في هذا الحديث ما يدل على أن السيدة سكينة لم تهتم ولم تحرص إلا
على أخلاق الأدباء، وأنها ألقت عليهم درساً ما كان أحوجهم إليه — كما ذكر
أستاذنا المهدي — وإنما هو حديثٌ صريحٌ في الإبانة عن حرص السيدة سكينة
على نعيم المرأة بوجه خاص.

ألا نرى كيف أعقبت على قول جرير :
طَرَفَتْكَ صَائِدَةُ الْقُلُوبِ وَلَيْسَ ذَا وَقْتِ الزِّيَارَةِ فَارْجِعِي بِسَلامٍ

(١) وادي القرى : هو واد بين المدينة والشام أكثر من ذكره الشعراء.

إنها قالت له : أولاً أخذت بيدها، وقلت لها ما يقال لمثلها ؟ أنت عفيف، وفيك ضعف !

فالسيدة ترى أنه كان يجمل بالشاعر أن يأخذ بيدها، وأن يقول لها ما يقال لمثلها فكان يقول بالطبع « ادخلي بسلام » ونحن نعلم إلى أين يؤخذ بيد المرأة حين تطرق عاشقها بليل !

ثم ما معنى هذه الجملة « أنت عفيف، وفيك ضعف » أما والله إني لأحب أن يُعفيني القارئ من شرح ما في هذه الجملة من ألوان الفتون !.

وقد رضيت السيدة سكية عن تلك الفتاة اللعوب، التي تدنو حتى يركب الجاهل رأسه، ويُسخر لصباه، وتفر حتى تتقطع بالعوي أسباب المني والمطامع والتي لا تزال تلعب حتى يُغلب الحب على أمره، فما يدري أيصدف وينسى، أم يُسمي وهو مُتَيَّم مجروح الفؤاد.

وفي هذا الحكم خضعت السيدة لحاستها الفنية، فلم تذكر إلا أنه ملخ وشكل^(١)، وأنه بلغ بذلك غاية البيان.

وما الذي أعجبها في شعر نُصَيْب ؟ أعجبها أنه ربّاهنّ صغاراً، ومدحهنّ كباراً ! وهذا ما أردته من الغيرة على الجنس، والدفاع عن النوع، ولهذا أعجبها من جميل أنه جعل حديثهنّ بشاشة وقتلاهنّ شهداء !

ويؤيد هذا الرأي ما ذكر من أنها قالت مرة لراوية جميل : أليس صاحبك الذي يقول :

أَلَا لَيْتَنِي أَعْمَى أَصَمُّ تَقُودُنِي بُيْنَةُ لَا يَخْفَى عَلَيَّ كَلَامُهَا

قال : نعم ! قالت : رحم الله صاحبك إن كان صادقاً في شعره.

ألا تراها رَضِيَتْ بما رَضِيَ الشاعر لنفسه من العمى والصمم مع سلامة محبوبته، وهي التي أنكرت على الفرزدق أن يفرع ويُروّع حين فرعت ورُوّعت من أحله صاحبتاه ؟

(١) شكل على وزن فرح . من الشكل بالكسر، وهو رقه العزل

ونستطيع أيضاً أن لا نبالي بأحكام المتأدين الذين يخضعون لغير الفكرة الأدبية : كالفقهاء والمتصوفة، ومن إليهم ممن يقيسون بمقياس العُرف، والمألوف، والمستحسن من خصال الناس، فقد قيل لعمرو بن عبّيد : ما البلاغة ؟ فقال ما بلغ بك الجنة، وعدل بك عن النار، وما بصرك مواقع رشدك، وعواقب غيِّك.

فهو يقيس جودة الكلام بمقياس الدعوة إلى الرشد، والنهي عن الغي، والتنفير من طاعة الهوى. مع أن من الكلام ما يهوي بصاحبه إلى أعماق الجحيم، وهو في الوقت نفسه يسمو به إلى أعلى مراتب البيان.

ولقد أذكر أن بعض العلماء قرأ كتاب (حب ابن أبي ربيعة وشعره)، ثم قال بلهجة جدّية : لا عيب في هذا الكتاب إلا أنه لم يختم بفصلٍ في النهي عن العبث بالنساء (١)

وليس معنى هذا أن الشعر يفسد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن معناه أن للشعر نزعة أخرى غير النزعة الدينية، وأريد النزعة الدينية الصرفة التي تخلو من النفحة الشعرية، ومن ذلك ما حدثوا أن بعض الشعراء أنشد المأمون في مدحه :

أَضْحَى إِمَامُ الْهُدَى الْمَأْمُونُ مُشْتَغِلاً بِالْأَدِينِ وَالنَّاسِ بِالدُّنْيَا مَشَاغِلاً

فغضب لذلك ولوى وجهه مع أن هذا البيت يُصوّر مطامع كثير من النفوس التي يحسب أصحابها أن الإنسان لا يقرب من ربه إلا إذا شغله دينه عن دنياه، ولكن نفس المأمون الوثابة الطمّاحة لم ترض عن هذه المنزلة، ولم تشأ الزهد في طيات الحياة.

قلت لك : إن الشعر قد يُسائر الأغراض الدينية، وتبقى له حين تغلب فيه

تلك النزعة قيمته الفنية، وعندى لهذا شاهدٌ بديع، وهو قول بعض
في دم جماعة من عبید الراح :

لَوْ كُنْتُ أَحْمِلُ خَمْرًا يَوْمَ زُرْتُكُمْو لَمْ بُنْكِرِ الْكَلْبُ أَنِي ص
لَكِنْ أَتَيْتُ وَرُوحَ الْمِسْكِ يَفْعَمُنِي وَعَنْبَرُ الْهِنْدِ أَذْكِيهِ ع
فَأَنْكَرَ الْكَلْبُ رِيحِي حِينَ أَبْصَرَنِي وَكَانَ بَعْرِفُ رِيحِ النَّ

فهذا نهي عن الخمر، ولكنك لا تستطيع أن تضع في صفه قول ابر
وَدَعِ الْخَمْرَةَ إِنْ كُنْتَ فَنَى كَيْفَ يَسْعَى فِي جُنُونٍ
لأن هذا بقلصه ما يُبنى عليه الشعر من رائع الخيال.

وأحب أن لا ينسى القارئ أننا نتكلم في الأدب لا في الأخلاق، فإ
نقول، على أنني قد أعود إليه لأحدد معه أغراض الشعر الجيد والنثر الب
معه نظرية « الفن للفن » لنعرف أكانت غاية الأدب تهذيب الأخلا
الأذواق^(١).

(١) عرض المؤلف لهذه النظرية في كتاب « النار المعني ».

البحث الثاني

عود إلى أهواء النقاد

بينت للقارئ في الكلمة الماضية أنه يجب أن لا يخضع الناقد عند الموازنة لغير الحاسة الفنية، وذكرت له بعض الآفات التي نذهب بقيمة النقد : كالتعصب للعديم أو الجديد، والتشيع بالأفكار الدينية، أو الصوفية، والدفاع عن الجنس في حكم بعض النساء بين الشعراء.

والآن أسير مع القارئ في هذه السبيل لنعرف بقية الموانع التي تحول بين الناقد وبين الصواب حين يوازن بين الشعراء.

— ١ —

لا ينكر أحد أن ابن الرومي كان من الشعراء الفحول، والشاعر أبصر بالشعر من سواه، فلحكمه قيمة خاصة تفوق أحكام المتأدبين من رجال اللغة والرواية، ومع هذا فأنا أستطيع أن أحكم بأن ابن الرومي حكم مرة بالجمال لقطعة من الشعر، وكان في حكمه من الخاطئين، وإليك البيان :

كان ابن الرومي مُسرفاً في التطير، وكاد إسرافه فيه يصل به إلى الجنون، فقد كان يلبس أثوابه كل يوم ويتعوّذ، ثم يصير إلى الباب والمفتاح معه فيضع عينه

على ثقب في خشب الباب فتقع على جار له كان نازلاً بإزائه، وكان أحذب،
يقعد كل يوم على بابه، فاذا نظر إليه رجع، وخلع ثيابه، وقال : لا يُفتح الباب !
فكان بيته يظل مغلق الأبواب إلى أن يُشرف مَنْ فيه على الهلاك ! وعلم معاصروه
بافراطه في التطير، فأقبل عليه أحدهم وأنشده :

وَلَمَّا رَأَيْتُ الدَّهْرَ يُؤْذِنُ صَرْفُهُ
بِتَفْرِيقِ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ الْحَبَائِبِ
رَجَعْتُ إِلَى نَفْسِي فَوَطَّنْتُهَا عَلَى
رُكُوبِ جَمِيلِ الصَّبْرِ عِنْدَ النَّوَائِبِ
وَمَنْ صَحِبَ الدُّنْيَا عَلَى جَوْرِ حُكْمِهَا
فَأَيَّامُهُ مَحْفُوفَةٌ بِالْمَصَائِبِ
فَخَذَ خِلْسَةً مِنْ كُلِّ يَوْمٍ تَعِيشُهُ
وَكَُنْ حَذِيراً مَنْ كَامَنَاتِ الْعَوَاقِبِ
وَدَعْ عَنْكَ ذِكْرَ الْفَالِ وَالزَّجْرِ وَأَطْرَحْ
تَطْبِيرَ جَارٍ أَوْ تَفَاؤُلَ صَاحِبِ

فبقي ابن الرومي باهتاً ينظر إليه، ثم تبين الحاضرون أنه شغل قلبه بحفظ
هذه الأبيات.

أفبحسب القارئ أن مثل هذه القطعة — وهي وَسَطٌ في ألفاظها ومعانيها —
كانت تشغل مثل ابن الرومي، وتظفر باحتلال قلبه، لولا بغضه للتطير، وملله
من تلك الوسوسة التي كدّرت عليه موارد الحياة ؟

إن الناقد مفروضٌ فيه البرء من جميع الأغراض، لأن النقد نوع من القضاء،
فاذا سيطرت عليه فكرة خاصة صَيَّرَتْ حِكْمَهُ طُعْمَةً للظنون، وسواء في ذلك
الأفكار الدينية، والنزعات الجنسية، والاتجاهات العقلية التي تصبغ التفكير بلون
خاص.

إن الشعر الوَسَطَ قد يؤثر تأثير الشعر البديع حين تستعد له النفس، ولكن هذا التأثير لا يسمو بالشعر الوَسَطَ إلى منزلة الشعر الجيد، ومن أمثلة ذلك ما روي من أن بعض الأعراب تزوج جارية من رَهْطه وطمع في أن تلد له غلاماً، فولدت له جارية، فهجرها وهجر منزلها، وصار يأوي إلى غير بيتها، فمرّ بخبائها بعد حول، وإذا هي تُرقص ابنتها، وهي تقول :

مَا لِأَيِّ حَمَزَةٍ لَا يَأْتِينَا يَظَلُّ فِي الْبَيْتِ الَّذِي يَلِينَا
غَضَبَانِ أَنْ لَا نَلِدَ الْبَيْنَا تَاللهَ مَا ذَلِكَ فِي أَيْدِينَا
وَأِنَّمَا نَأْخُذُ مَا أُعْطِينَا وَنَحْنُ كَالزَّرْعِ لِزَارِعِينَا
نُنْبِتُ مَا قَدْ زَرَعُوهُ فِينَا

فلما سمع الأبيات أقبل يعدو نحوها حتى ولى عليها الخباء، فقبلها وقبل ابنتها، وقال : ظلمتكما ورب الكعبة !

فأنت ترى أن هذه أبياتٌ عادية في ألفاظها ومعانيها، ولكن لا تنس أن الرجل الذي نالت من نفسه، وراضته بعد جُمُوحه : رجلٌ ينزع قلبه بالرغم منه إلى زوجه وأبنته، والشرارة الضئيلة كافيةٌ لاحتراق الهشيم ! فليست تدل هذه الحادثة على قيمة أدبية لهذه الأبيات، وإنما هي شاهدٌ « على ضرب من المعاملات، وعلى أحوال الاجتماع، وعلى ما للمرأة من لين الجانب ورقة الأخلاق »^(١). وكذلك يجب درس حالة الناقد النفسية قبل الاعتداد بما أصدر من الأحكام لأن الحكم يتبع ما للنقاد من ألوان النفوس، وصُور العقول.

ونستطيع كذلك غض النظر عن الأحكام التي يخضع أصحابها لفكرة قومية، أو حزبية، فقد أسرف النقاد في الظلم حين تصدّروا للفصل بين شعراء الأحزاب،

(١) كذلك قال الأستاذ الدكتور ضيف في مقدمته ص ٦٦.

وإنك لتجد أمثلة ذلك منشورة هنا وهناك : حين ترحع للعصور التي اصطدمت فيها الدولة العباسية بالدولة الأموية، وحين تُراجع التنافس الذي كان بين أدباء قرطبة وأدباء بغداد.

وهذا عبد الملك بن مروان كان من أبصر أهل عصره بنقد الشعر، فلما دخل عليه الأخطل وأنشده :

نَفْسِي فِدَاءُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا	أَبْدَى النَّوَاجِذَ يَوْمَ عَارِمٍ ذَكَرُ ^(١)
الْخَائِضُ الْعَمْرَةَ الْمَيْمُونُ طَائِرُهُ	خَلِيفَةُ اللَّهِ يُسْتَسْقَى بِهِ الْمَطَرُ
فِي نَبْعَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ يَعْصِمُونَ بِهَا	مَا إِنْ يُوَازَى بِأَعْلَى نَبْتِهَا الشَّجَرُ
حُشْدٌ عَلَى الْحَقِّ عَيَّافُو الْخَنَا أَنْفٌ	إِذَا أَلَمْتُ بِهِمْ مَكْرُوهَةٌ صَبَرُوا
لَا يَسْتَقِيلُ ذُوو الْأَضْعَانِ حَرْبَهُمُو	وَلَا يُبَيِّنُ فِي عِيدَانِهِمْ خَوَرُ
شُمُسُ الْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ	وَأَوْسَعُ النَّاسِ أَحْلَامًا إِذَا قَدَرُوا ^(٢)
هُمْ الَّذِينَ يُبَارُونَ الرِّيَّاحَ إِذَا	قَلَّ الطَّعَامُ عَلَى الْعَافِينَ أَوْ قَتَرُوا
بَنِي أُمَيَّةَ نُعْمَاكُمْ مُجَلَّلَةً	تَمَّتْ فَلَا مِنَّةَ فِيهَا وَلَا كَدْرُ

أقول : لما أنشد الأخطل هذه القصيدة طرب عبد الملك وقال : أناادي في الناس أنك أشعر العرب ؟ فقال الأخطل : حسبي شهادتك يا أمير المؤمنين !

ولم يكن الأخطل أشعر العرب إذ ذاك، فقد كان جرير والفرزدق في الميدان، ولكن عبد الملك خضع في حكمه للمصلحة الذاتية لا الحاسة الفنية، فقد كان الأخطل سليل اللسان، خبيث الهجاء، وكان عبد الملك قد استعان به على لَدْع من يُناوئه من رجال السياسة وشُعراء الأحزاب، ومن هنا كانت ذَلَّة الأخطل عليه، وكان ما رَوَوْا من أنه كان يجيئه وعليه جبة خبز، وفي عنقه صليب ذهب، وفي ملاحه نشوة الصهباء، مع أن عبد الملك خليفة المسلمين، والدين في عنفوانه، والناس على نصره جِراض، ولكن السياسة، وحاجة الملك إلى الدعاة من كُتَّاب

(١) العارم الشديد، والواحد . الأناب.

(٢) شمس : جمع شمس، وهو الصعب المراس.

وخطباء وشعراء، والحرص على تحقير المعارضين، كل أولئك أغرى عبد الملك بحب الأخطل، والحكم بأنه أشعر الناس !.

ولو أن ابن رشيقي تنبّه لهذا الغرض لما ظنّ أن المسلمين سكنوا عن الأخطل لجمال شعره، ولما عجب من جهره بتحقير الفرائض الإسلامية حين قال :
وَلَسْتُ بِصَائِمٍ رَمَضَانَ طَوْعاً وَلَسْتُ بِأَكِلٍ لَحْمِ الْأَصْحَابِ
وَلَسْتُ بِزَاجِرٍ عَنْسَاءَ بُكُوراً إِلَى بَطْحَاءِ مَكَّةَ لِلنَّجَاحِ^(١)
وَلَسْتُ مُنَادِياً أَبَدًا بِلَيْلٍ كَمَثَلِ الْغَيْرِ حَيٍّ عَلَى الْفَلَاحِ
وَلَكِنِّي سَأَشْرِبُهَا شُمُولاً وَأَسْجُدُ قَبْلَ مُبْلَجِ الصَّبَاحِ^(٢)

ولكن ابن رشيقي حسب عبد الملك سكت عن هذا الشاعر لحسن شعره، وتقدمه على معاصريه، ولذلك قال « ومن الفحول المناخرين الأخطل، واسمه غياث ابن غوث، وكان نصرانياً من تغلب، بلغت به الحال في الشعر إلى أن نادى عبد الملك بن مروان وأركبه ظهر جرير بن عطية الخطفي، وهو تقي مسلم ». ثم قال : « وهجا الأنصار ليزيد بن معاوية لما شبيب عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بعمته فاطمة بنت أبي سفيان، وقيل بل بأخته همد بنت معاوية، ولولا شعره لُقِيَ دُونَ أَقْلٍ مِنْ ذَلِكَ، وَقَدْ رَدَّ عَلَى جَرِيرٍ أَقْبَحَ رَدًّا، وَتَنَاولَ مِنْ أَعْرَاضِ الْمُسْلِمِينَ وَأَتْرَافِهِمْ، مَا لَا يَنْجُو مَعْ مِثْلِهِ عَلَوِيٌّ فَضْلاً عَنْ نَصْرَانِيٍّ ».

وقد بيّنت لك أن الشعر وحده لم يكن كافياً لنجاة الأخطل من أن يؤخذ بجرائره، ولكنّ دفاعه عن بني أمية، وهجاءه لخصومهم، كانا سبباً في تعصب الأمويين له حتى حكم عبد الملك بتقدمه على الشعراء.

— ٤ —

وكما كان عبد الملك يؤثر شعر الأخطل كان الرسيدي يُؤثّر شعر منصور التميمي ولكن لا تنس أن رجال السياسة لا يحبون الشعر للشعر، ولا العلم للعلم، وإعما

(١) العنس : الباقه الصلبة.

(٢) الشمول : هي الحمر التي نعصف بالعمل كما نعصف بالبيات ربح الشمال

يتخذون الشعراء والعلماء مطايا لأغراضهم السياسية، فمن البله أن نظن أن جودة الشعر هي التي أدنت الثميري من الرشيد، أو أن اتصال النسب كان سبب تلك الخطوة كما توهم بعض مؤرخي الآداب العربية، وإنما أدنى الرشيد هذا الشاعر لميله الى إمامة العباس وأهله ومنافرته لآل علي بن أبي طالب، فقد ذكروا أنه قال في تسفيهم هذه الأبيات :

بني حَسَنٍ وَقُلِّ لِبَنِي حُسَيْنٍ عَلَيْكُمْ بِالسَّوَاءِ مِنَ الْأُمُورِ
أَمِيطُوا عَنْكُمُ كَذِبَ الْأَمَانِي وَأَحْلَاماً يَعِدُنَ عِدَاتِ زُورِ
تُسْمُونَ النَّبِيَّ أَبَا وَيَئِي مِنَ الْأَحْزَابِ سَطْرٌ فِي سَطُورِ

يريد قوله تعالى في سورة الأحزاب ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ، وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾. ويذكرون أن الرشيد قال له : ما عَدَوْتَ ما في نفسي ثم أمره أن يدخل بيت المال فيأخذ ما أحب، كما قال صاحب زهر الآداب، مع أن للآية وجهاً غير هذا الوجه، وتأويلا غير هذا التأويل.

ويؤيد ما أسلفناه أن الرشيد لما بلغه قوله :

آلَ النَّبِيِّ وَمَنْ يُحِبُّهُمْ يَتَطَامَنُونَ مَخَافَةَ الْقَتْلِ^(١)
أَمِنَ النَّصَارَى وَالْيَهُودُ وَمَنْ مِنْ أُمَّةٍ التَّوْحِيدِ فِي أَزْلِ^(٢)
إِلَّا مَصَالِيَتَ يَنْصُرُونَهُمْ بِطُلَا الصَّوَارِمِ وَالْقَنَا الذُّبُلِ^(٣)

لما بلغ الرشيد هذا القول أمر بقتله. فمضى الرسول فوجده قد مات. فقال الرشيد : لقد هَمَمْتُ أَنْ أَنْبِشَ عِظَامَهُ فَأَحْرِقَهَا!^(٤)

(١) يتطامنون : يسكنون.

(٢) الأزل : الشدة.

(٣) المصاليات : جمع مصلت، وهو المقدام، والقنا الذبل : هي الظماء إلى الدم، والمفرد ذابل، ويجمع أيضاً على ذوابل.

(٤) في كتاب : « المدائح النبوية في الأدب العربي ». فصل مطول عن إخلاص بعض الشعراء في حب أهل البيت.

وأنا أكتفي بهذين المثالين في تعرض من يوازن بين الشعراء للظنّة حين تسيطر عليه حزبية، أو قومية، ولولا أنني أعرف في شعراء العصر ضيق الصدر لذكرت لك نماذج من شعرهم في مُسَايَرَةِ الأحزاب، خوفاً من النقد والموازنة تحت وَحْي الأغراض، ولهم العذر في هذا الدهاء، فإن الأمة التي تكاد تصدّق أكثر ما يقال، إنما تحمل الشعراء على أن يحسبوا حساباً لما يكتب عنهم في الصحف التي لا تعرف الفرق بني الشخصية الأدبية، والشخصية السياسية، فقد أكون عدوك لأنك تناصر حزباً غير الحزب الذي أناصره، وأكون في الوقت نفسه نصيرك كعالم أو أديب، أو فنان.

البحث الثالث

أنفس الشعراء

— ١ —

قد رَأَيْتَ أن الموازنة نوعٌ من النقد، وهي كذلك نوع من الوصف، فالذي يوازن بين شاعرين إنما يصف ما لكل منهما وما عليه بأدق ما يمكن من التحديد، فمن واجب الناقد إذاً أن يتعمق في دراسة حياة الشاعر الذي يضع شعره في الميزان، وأن يجتهد في أن يرى الأشياء بعينه، ويدركها بشعوره، ليستطيع وزن ما يقول، فإن الشاعر إنما يؤدي « رسالته » إلى جيل خاص في قُطر خاص، ومن التحكم أن تُطالبه بأن يرى الأشياء بعينك، ويدركها ببصيرتك، وبتدوقها بوجدانك، مع أن بينك وبينه مئات الفروقات، وهو لم يعك معك ولا لك، وإنما نخضع في شعوره لغبر ما نخضع له من ظروف الزمان والمكان. وقد رأيتُ من الأدباء من يستنكر قول زهير في دار محبته، وقد نال منها العفاء :

وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عَشْرِينَ حِجَّةً فَلَأْيَا عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ نَوَّهِمْ^(١)

(١) لأياً عرفتها، وعرفتُها بعد لأي : أي بعد مشقة، وهو تعبير جاهلي لم يحيه في العصر الحديث إلا المفلوطي رحمه الله. والحجة : السنة

وهو يرى أن هذا وَصَفٌ ضَعِيلٌ للدُّرُوس والعفاء، وذلك غفلةٌ ظاهرة فإن
منازل الأعراب تغفو وتدرُس في أقلّ من عشرين سنة، فكيف بطلب لدروسها
عشرات العقود ؟

ورأيت من يستهجن ابتداء كعب بن زهير بقوله :
بَانتْ سَعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتْبُولُ
مُتَيِّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفَدَ مَكْبُولُ
وَمَا سَعَادُ غَدَاةَ الْبَيْنِ إِذْ رَحَلُوا
إِلَّا أَغْنُ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولُ

وذلك أن هذه القصيدة أنشِدتْ في حضرة النبي عليه السلام، فمن الأدب
أن لا تبدأ بالنسيب، وهذا أيضاً خطأ لأن بدء الشعر بالغزل كان من التقاليد
العربية المسمّلة، ولم يكن أحد ينكرها إذ ذاك حتى يُنسب كعبٌ إلى ما هو
منه براء.

— ٢ —

وكان الجاحظ يقول : لا أعرف شعراً يَفْضُلُ قول أبي نواس :

وَدَارِ نَدَامَى عَطَّلُوهَا وَأَذَلُّوهَا	بَهَا أَثَرٌ مِنْهُمْ جَدِيدٌ وَدَرَّاسُ
مَسَاجِبُ مِنْ جَرِّ الزَّفَاقِ عَلَى الثَّرَى	وَأَصْعَاثُ رِيحَانٍ جَنِّيٍّ وَيَاسِسُ
حَبَسْتُ بِهَا صَحْبِي فَجَدَّدْتُ عَهْدَهُمْ	وَإِنِّي عَلَى أَمْثَالِ تِلْكَ لَحَاسِسُ
نَدَارُ عَلَيْنَا الرَّاحُ فِي عَسَجَدِيَّةٍ	حَبَّتْهَا بِأَنْوَاعِ التَّصَاوِيرِ فَارِسُ
قَرَارَاتُهَا كَسَرَى وَفِي جَنَابَاتِهَا	مَهَا تَدْرِيبُهَا بِالْقَيْسِيِّ الْفَوَارِسُ
فَلِلْخَمْرِ مَا زُرْتُ عَلَيْهِ جُيُوبُهَا	وَلِلْمَاءِ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْقَلَانِسُ

ثم جاء صاحب المثل السائر، فقال « فصاحة هذا الشعر عندي هي الموصوفة
لا هذا المعنى، فانه لا كبير كُلفَةٍ فيه لأن أبا نواس رأى كأساً من الذهب ذات
تصاوير فحكّاها في شعره، والذي عندي في هذا أنه من المعاني المشاهدة، فإن

هذه الخمر لم تحمل إلا ماء يسيراً، وكانت تستغرق صور هذه الكأس إلى مكان جيوبها، وكان الماء فيها قليلاً بقدر القلانس التي على رؤوسها وهذا حكاية حال مشاهدة بالبصر».

فانظر كيف صَغُرَتْ قيمة الشعر في عين هذا الناقد حين كان : « حكاية حال مشاهدة البصر ». مع أنه إنما عَظُمَ لذلك في عين الجاحظ.

ورأيت من ينكر قول ابن الدمينية :
وَلَوْ أَنِّي أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ كُلَّمَا ذَكَرْتُكَ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيَّ ذُنُوبٌ^(١).
واستند في إنكاره إلى أن هذه (عبارة فقهية) وكان عليه أن يذكر أن روح الشاعر مصبوغ بصبغة دينية، وأنه قال هذه الكلمة العذبة، قبل أن يوجد التكلف في الفقه، وقبل أن تثقل أرواح الفقهاء !

ومن النقاد من فضَّلَ قول مسلم بن الوليد :
تَظَلَّمُ الْمَالُ وَالْأَعْدَاءُ مِنْ يَدِهِ لَا زَالَ لِلْمَالِ وَالْأَعْدَاءِ ظَلَامًا
واستقبح قول أبي نواس :
بُحَّ صَوْتُ الْمَالِ مِمَّا مِنْكَ يَشْكُو وَيَصِيحُ
استناداً إلى أن المال لا صوت له. وهذا أيضاً خطأ : لأن أبا نواس قريب العهد بمال الأعراب، ومال الأعراب ناطق، وطالما اضطربت الإبل لسكّين الجزار عند قدوم الضيَّفان.

— ٣ —

فَعَلَى الناقد أن يتبين العهد الذي عاش فيه الشاعر، وأن يُعْنَى فوق ذلك بمعرفة ما درسه من الأدب القديم لما لذلك من الأثر في أذواق الشعراء.

(١) ابن الدمينية : شاعر رقيق النسيب، وهو صاحب هذا البيت النفيس :
ولاني لأستحييك حتى كأنما علي بظهر الغيب منك رقيب

فقد أنكروا على شوقي قوله :

ارْفَعِي السُّتْرَ وَحِييِ بِالْجَبِينِ وَأَرِينَا فَلَقَ الصُّبْحِ الْمُيِّنِ
وَقَفِّي الْهُودَجَ فِينَا سَاعَةً نَقْتَبِسُ مِنْ نُورِ أُمِّ الْمُحْسِنِينَ
وَأَتْرُكِي فَضْلَ زِمَامِيهِ لَنَا نَتَنَاقَشُ نَحْنُ وَالرُّوحُ الْأَمِينُ

مع أن أم المحسنين إنما ركبت يومئذ سيارة تنهب الأرض، ولكن هكذا بقي الهودج في ذهن شوقي، لإمعانه في دراسة الشعر القديم...

وأنكروا عليه قوله في سيارة الدكتور محبوب :

لَكُمْ فِي الْخُطِّ سَيَّارَهُ حَدِيثُ الْجَارِ وَالْجَارَةِ
واستخفوا كلمة : « حديث الجار والجاره ». وفاتهم أن الدكتور محبوب
يسكن في حيٍّ قد لا يعرف أهله غير الخيل، والبغال، والحمير !

واستنكروا قول حافظ على لسان اليتيم :

أَمْشِي يُرْتَحْنِي الْأَسَى وَالْبُؤْسُ تَرْيِيحَ الشَّرَابِ
لأن اليتيم البائس قد لا يعرف كيف يترنح السكران، ولكن حافظاً يرى هذه
المناظر في الصباح والمساء^(١).

واستضعفوا قول مطران في رثاء اسماعيل صبري :

شُهْبٌ تَبِينُ فَمَا تَوُوبُ فَكَأَنَّهَُا حَبَبٌ يَذُوبُ
أَرَأَيْتَ فِي كَأْسِ الطَّلَا دُرّاً وَقَدْ صَعِدَتْ تَصُوبُ
هُوَ ذَاكَ فِي لُجِّ الدُّجَى طَفُو الدَّرَارِي وَالرُّسُوبُ
لَا فَرْقَ بَيْنَ كَبِيرِهَا وَصَغِيرِهَا فِيمَا يُتُوبُ

لأن مقام الرثاء يجل عن ذكر الحب والكأس، وليس لك أن تشبه الشهاب
حين يغيب، بالحب حين يذوب، ولكن يجب أن نعرف كيف يعيش مطران
لنعرف قيمة هذا التشبيه في نفسه الممراح.

(١) عاتبنا حافظ رحمه الله على هذا التأويل.

وكذلك نقول في توجيه كلمة شوقي في رياء محمد تيمور :

ضَرَبُوا الْقِيَابَ عَلَى السَّبَابِ	وَتَوَوَّا إِلَى يَوْمِ الْحَسَاتِ
هَمَدُوا وَكُلُّ مُحَرَّكَ	يَوْمًا سَيَسْكُنُ فِي الثَّرَابِ
نَزَلُوا عَلَى ذُئْبِ الْبَلَى	فَتَضَيَّفُوا شَرَّ الذَّنَابِ
وَكَانَهُمْ صَرَغَى كَرَى	بِالْقَاعِ أَوْ صَرَغَى شَرَابِ
فَإِذَا صَحَّوْا وَتَنَبَّهُوْا	فَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْمَنَابِ

فإن تشبيهه الموقى بصرعى الشراب لا يدل على غفلة الشاعر عن رعاية مقتضى الحال وإنما يشير بطرف خفي إلى ما لحياته من شتى الألوان، كما أفصح شعره عن ألوان حياته في قوله من كلمة تانية :

مَا أَنْتِ يَادُنْيَا أَرُؤِيَا نَائِمٍ ؟ أَمْ لَيْلُ غُرْسٍ ؟ أَمْ بِسَاطُ سُلَافٍ
نَعْمَاؤُكَ الرَّيْحَانُ إِلَّا أَنَّهُ مَسَّتْ حَوَاشِيهِ نَقَبَعُ زُعَافٍ

وقال أحد أنصار ابن الرومي يلومه : لم لا تشبه كُنشبيهاً ابن المعنز ؟ فقال
أنشدني من قوله الذى استعجزتني عن مثله. فأنشده قوله في الهلال :
أَنْظُرْ إِلَيْهِ كَزُورَقٍ مِنْ فِضَّةٍ قَدْ أَثَقَلَتْهُ حَمُولَةٌ مِنْ عَنَبٍ
فقال له زدني، فأنشده :

كَأَنَّ آذْرِيُونَهَا غِبَّ سَمَاءٍ هَامِيَةٍ
مَذَاهِنُ مِنْ ذَهَبٍ فِيهَا بَقَايَا غَالِيَةٍ

فصاح : واغوثاه ! لا يكلف الله نفساً إلا وسعها. ذلك إنما بصف ماعون بيته لأنه ابن حليفة، وأنا أي شيء أصف ؟ ولكن انظر إذا وصفت أين بقع قولي من الناس، فهل لأحد قط مثل قولي في قوس الغمام :

وَقَدْ نَشَرْتُ أَيْدِي الْجَنُوبِ مَطَارِفًا
مِنْ الْجَوِّ دُكْنًا وَالْحَوَاشِي عَلَى الْأَرْضِ
يُطَرِّزُهَا قَوْسُ السَّحَابِ بِأَخْضَرٍ
عَلَى أَحْمَرَ فِي أَصْفَرٍ إِتْرَ مُبَيَضٍّ

كَاذِبًا لِحُودٍ أَقْبَلَتْ فِي غَلَائِلٍ مُصْبَغَةٍ
وَالْبَعْضُ أَقْصَرُ مِنَ بَعْضٍ

وقولي في صانع الرقاق :

مَا أَنْسَ لَا أَنْسَ خَبَّازًا مَرَرْتُ بِهِ
يَدْحُو الرِّقَاقَةَ مِثْلَ اللَّحْمِ لِلْبَصْرِ
مَا بَيْنَ رُؤُوتِهَا فِي كَفِّهِ كُرَّةٌ
وَيَبْنِ رُؤُوتِهَا قَوْرَاءَ كَالْقَمَرِ
إِلَّا بِمَقْدَارِ مَا تَنْدَاخُ دَائِرَةً
فِي لُجَّةِ الْمَاءِ يُلْقَى فِيهِ بِالْحَجَرِ

فليس لك أن تقدم ابن المعتز على ابن الرومي لأنه استطاع نسيبه الآذريون بعد المطر بمداهن الذهب فيها بقايا الغالية، وليس لك أن تقدم ابن الرومي على ابن المعتز لأنه أجاد وصف الخباز، وهو يدحو الرقاق، فان سبق هنا وهناك يرجع إلى الظروف التي أتاحت لكل من الشاعرين ومهدت السبيل إلى الوصف الدقيق، وإنما يجب عليك أن نعلم إلى الشاعر وتسبر أغوار نفسه لترى مبلغ شعوره بما وصفه من الأشياء، فقد يكون ابن الرومي في وصف الرقاق أشعر من ابن المعتز في وصف الهلال.

— ٤ —

وكذلك ليس لك أن تقدم الأوصاف الحضرية على الأوصاف البدوية، لأن الحضارة في ذوقك أنضر من البداوة، فقد يكون البدوي في بداوته أشعر من الحضري في حضارته، كما قال أستاذنا المهدي، ومعنى ذلك أن البدوي قد يكون شعوره بالريح السَّمُوم في مجاهل البيداء أفوى من شعور الحضري بالنسيم العليل في الروضة الغناء.

فليس قول خزيمة بن نهد في ريق محبوبته :

فَتَاةٌ كَأَنَّ رُضَابَ الْعَبِيرِ فِيهَا يُعَلُّ بِهِ الزَّنْجَبِيلُ

بأقل من قول الشريف الرضي :

يَيْسُمْنُ عَنْ بَرْدِ الْفَحَامِ وَبُرْدِهِ رَيَّانَ يُعَبِّقُ بِالْمُدَامِ وَيُصَبِّحُ

ولا يفضلهما من قال : « كأني ألتقط من فيها حبَّ الرمان ». لأن الأمر في ذلك يرجع إلى قوة إدراك الشاعر، بغضَّ النظر عن تفاوت الأوصاف، فقد يكون الزنجبيل أجمل ما تُعطر به الأفواه في البادية كما تكون الخمر، أو حبَّ الرمان، أحلى ما تُعطر به الثنايا في الحاضرة، ولكل شعب وجهة في تناول الأشياء.

ألم تر إلى المتوكل وقد أنشده ابن الجهم في مدحه :

أَنْتَ كَالْكَلْبِ فِي حِفَاطِكَ لِلوُدِّ وَكَالتَّيْسِ فِي قِرَاعِ الْخُطُوبِ

لقد طرب المتوكل لهذا الشعر، وإن كان جاسيَ اللفظ باديَ الخيال، لأنه أعجبَ بما له من قوة الشاعرية، وهي روحُ البيان، ثم أسكنه قصرًا من قصور بغداد، واستدعاه بعد ذلك، وقد صفقته الحضارة، فأنشده تلك الرائية البديعة التي يقولُ في أولها :

عُيُونُ الْمَهَا بَيْنَ الرُّصَافَةِ وَالْجُسْرِ

جَلَبْنَ الْهَوَى مِنْ حَيْثُ أَذْرِي وَلَا أَذْرِي

أَعْدَنَ لِي الشُّوقُ الْقَدِيمَ وَلَمْ أَكُنْ

سَلَوْتُ وَلَكِنْ رِذْنُ جَمْرٍ عَلَى جَمْرٍ

سَلِمْنَ وَأَسْلَمْنَ الْقُلُوبَ كَأَنَّمَا

تُشَكُّ بِأَطْرَافِ الْمُتَقَفَّةِ السُّمْرِ^(١)

خَلِيلِي مَا أَحَلَّى الْهَوَى وَأَمَرَهُ

وَأَعْرَفَنِي بِالْحُلُوِّ مِنْهُ وَبِالْمُرِّ

بِمَا بَيَّنَّنَا مِنْ حُرْمَةٍ هَلْ عَلِمْتُمَا

أَرْقَ مِنْ الشُّكْوَى وَأَقْسَى مِنَ الْهَجْرِ

(١) المثقفة السمر : هي الرماح.

والخلاصة أن الناقد إنما يوازن بين عبقرية وعبقرية، ويفاضل بين بصيرة وبصيرة، ويقارن بين إدراك وإدراك، بغضّ النظر عن الفروق الموضوعية التي يقضي بها اختلاف الأقاليم، والفوارق الزمنية التي يوجبها اختلاف العصور. وهذا يتطلب من الناقد تضحية خطيرة، ولكنها ضرورية : يتطلب هذا أن ينسى الناقد شخصيته، وأن يفنى في شخصية الشاعر الذي يدرسه : بحيث يبصر بعينه، ويسمع بأذنه، ويفقه بقلبه، لَيْسْبُرَ كما قلت، أغوار نفسه، وليرى مبلغ شعوره بما وصفه من الأشياء.

البحث الرابع

شعراء الأحزاب

— ١ —

ويجب على الناقد حين يُوازن بين شاعرين أن يعرف حياتهما بالتفصيل، وأن يثبت مما أحاط بهما من مختلف الظروف، وعلى الأخص إذا مرّت حياتهما في غمرة من الغمرات الدنيوية، أو فتنة من الفتى السياسية، فقد يكون أحد الشعاعين من الحزب الغالب، وثنائهما من الحزب المغلوب، ثم تعصف الفتى بما ترك شاعر الأقلية من الشعر الرائع، وتبقى العصبية الحزبية على مانرك شاعر الأكثرية من العثّ والسّمين، والويل كل الويل للمغلوب !

ولقد حان الوقت لمحو تلك الخرافة التي كاد يجمع عليها مؤرخو الآداب العربية : وهي أن الشعر كان في خمود في زمن البعنة والخلافة الراضدة، استناداً إلى ندره ما روي من شعر ذلك العهد، وفلة مَنْ عُرفَ فيه من الشعراء.

ولو تنبه الباحثون إلى تلك الحملة الشديدة التي وجهها الشريعة إلى الشعر والشعراء لترتبوا في الحكم أو احترسوا بعض الاحتراس، فقد كان الشعر في زمن البعثة قوياً وعزيراً، وكان الشعراء في كثرة وعزّة، ولكن النبي عليه السلام رأى أكثرهم من معارضيه، فعمد إلى إخفات صوته، وكان ما أراد.

فإن كنت في رب من ذلك فحدثني عن سبب نزول هذه الآية :
﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ
مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ .

ثم أذكر أن عبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، وحسان بن ثابت قالوا: يا
رسول الله لقد أنزل الله هذه الآية، وهو يعلم أننا شعراء، هلكنّا ! فأنزل الله :
﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا
ظَلَمُوا ﴾ .

فدعاهم رسول الله فتلاها عليهم^(١).
ومعنى ذلك أن الشعر لا يُذمّ إلا إن أعدت به حملة على النبوة، وإلا فقد
روي أن النبي عليه السلام قال ليلة وهو في بعض أسفاره : أين حسان بن ثابت ؟
فقال حسان : لبيك يا رسول الله وسعديك ! قال : اُحْدُ ! فجعل يُنشدُ ويُصغي
إليه، فما زال يستمع إليه وهو سائق راحلته حتى فرغ من إنشاده، فقال عليه
السلام : لَهَذَا أَشَدُّ عَلَيْهِمْ مِنْ وَقْعِ التَّبْلِ، وروي أيضاً أنه قال له : اهجهم ! فوالله
لهجاؤك أشدُّ عليهم مِنْ وَقْعِ السَّهَامِ، في غَلَسِ الظَّلام ! وكذلك كان حسان يقول
لأهل مكة :

عَدِمْنَا خَيْلًا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا	تَبِيرُ التَّقَعَّ مَوْعِدُهَا كِدَاءُ ^(٢)
بُنَارِغِنَ الْأَعْنَةَ مُصْغِيَاتٍ	عَلَى أَكْنَافِهَا الْأَسْلُ الظَّمَاءُ ^(٣)
تَظِلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطَّرَاتٍ	تَلَطُّمُهُنَّ بِالْحُمْرِ النَّسَاءُ ^(٤)
فَإِذَا تُعْرِضُوا عَنَّا آعْتَمَرْنَا	وَكَانَ الْفَتْحُ وَأَنْكَشَفَ الْعِطَاءُ
وَإِلَّا فَاصْبِرُوا لِجَلَادِ بَوْمٍ	يُعِزُّ اللَّهُ فِيهِ مَنْ بَسَاءُ
وَقَالَ اللَّهُ قَدْ يَسَّرْتُ جُنْدًا	هُمْ الْأَنْصَارُ عَرَضْتُهَا اللَّفَاءُ ^(٥)

(١) راجع أسباب النزول

(٢) كداء بفتح الكاف بأعلى مكة عند المحصب.

(٣) الأسل . الرماح، وممردها أسلة، والأعنة جمع عنان، وهو اللجام.

(٤) ممطرات : مسرعات، وتلطمهن النساء . تمسح ما عليهن من العبار.

(٥) العرضة بالضم . الهمة.

لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍّ
فَنُحَكِّمُ بِالْقَوَائِي مَنْ هَجَانَا
وَجَبْرِيلُ أَمِينُ اللَّهِ فِينَا
أَلَا أُلِغَ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي
بَأَنَّ سُيُوفَنَا تَرَكَتْكَ عَبْدًا
هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ
أَتَهْجُوهُ وَلَسْتُ لَهُ بِكُفٍّ
سَبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هِجَاءٌ
وَنَضْرِبُ حِينَ تَخْتَلِطُ الدَّمَاءُ
وَرُوحُ الْقُدْسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءٌ
مُغْلَغَلَةٌ فَقَدْ بَرِحَ الْخَفَاءُ^(١)
وَعَبْدُ الدَّارِ سَادَتُهَا الْإِمَاءُ
وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ
فَشِرْكُكُمْ لَخَيْرُكُمْ الْفِدَاءُ

ولمّا نقلت لك هذه القطعة من شعر حسان لأنها تمثل خصومة ذلك العهد
أصدق تمثيل، فليس عندي شك في أنه كان لقريش شعراء فحول يقارعون شعراء
الرسول، وليس عندي شك في أنه كان لليهود شعراء يجمعون بين حُسن القول
وظُلْمَة الارتياب، وحسبك أن تعرف أنه كان فيهم من يقول :
فَلَوْ كَانَ مُوسَى صَادِقًا مَا ظَهَرْتُمْو عَلَيْنَا وَلَكِنْ دَوْلَةٌ ثُمَّ تَذَهَبُ

ولكن رأى النبي أن يقضي قضاء مُبرماً على من عارضه من شعراء قريش،
وشعراء اليهود : لأن الدين في نفسه أعزّ من أن يُهادن أعداءه أو يفتّر عن حرب
خصومه من الشعراء، وكذلك بادّ وانقرض ما ترك حزب المعارضة لذلك العهد
من الآثار الأدبية والفنية، وما خلف من الآراء الفلسفية والاجتماعية، وأصبحنا
لا نعرف من الحركة العقلية في ذلك العصر غير ما رواه المسلمون، وهم لا يروون
بالطبع إلا ما فيه للإسلام نصر وتأييد، وصار من المتعذر على الباحث أن يضع
لذلك العصر صورة صحيحة مضبوطة، لم تلونها الأغراض والأهواء، وأقول :
الأغراض والأهواء لأن القضاء على آثار الحزب المعارض لعهد النبوة إنما كان طاعة
للأهواء الجامحة التي لم يعرف أصحابها خطر هذه الجناية على تقدير قوة الإسلام
من الوجهة الروحية، والعقلية والاجتماعية.

أفتحسب أن من مجد الإسلام أن تثبت أن العالم كان محطماً الأركان، مهتدم

(١) المغلّة : الرسالة تحمل من بلد إلى بلد.

الجوانب، وأن العقول كانت خلّت من روعة الإيمان، ثم جاء الإسلام، فلم يجد غير أنقاض من الهمم، وأطلال من العزائم، وخرائب من العقول والقلوب ؟

هيهات هيهات !

إن مجد الإسلام في أن تثبت خطر العهد الذي نشأ فيه من الوجهة العقلية، لترى كيف تقارعت الحجج، وتداولت البراهين، ولترى كيف انتصر النبي على خصومه الأقوياء، الذين وصفهم القرآن بقوة النطق حين قال :

﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِاللِّسَانِ حِدَادٍ ﴾ . وبعنف الخصومة حين قال: ﴿ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا ﴾ . وبسحر البيان حين قال: ﴿ أَلَيْهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ . وبشدة المكر حين قال : ﴿ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَيَتَزَوَّلَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ . وبرجاجة العقل حين قال : ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴾ .

— ٢ —

ونعود فنذكر أن الحملة التي وجهت إلى الشعر على أثر ما كان من لدن شعراء اليهود، وتوثب شعراء المشركين، أثرت تأنيراً عميقاً في حياة المسلمين من الوجهة الأدبية، فرأيناهم يسرفون في بُغْضِ الشعر، والنيل من الشعراء، وكان من ذلك أن قيل لسعيد بن المسيب : إن قوماً بالعراق يكرهون الشعر فقال : نسكوا نسكاً أعجمياً ! وسئل ابن سيرين في المسجد عن رواية الشعر في رمضان — وقد قال قوم : إنها تنقض الوضوء — فقال :

نُبِئْتُ أَنَّ فَتَاةً كُنْتُ أَخْطُبُهَا عُرْقُوبُهَا مِثْلُ شَهْرِ الصَّوْمِ فِي الطُّولِ

ثم قامَ فأَمَّ الناس !

وسئل ابن عباس : هل الشعر من رفث القول ؟ فأُشْد :

وَهُنَّ يَمْشِينَ بَنَاتُ هَمِيسَا إِنْ تَصَدَّقَ الطَّيْرُ نَبِيَّكَ لَمِيسَا

وقال : إنما الرفث عند النساء، ثم أحرم للصلاة !

ثم جرى على ألسنة الجماهير أن الشعر لا يليق بالفقهاء والمحدثين، فرأيناهم

يسألون عبيد الله بن عبد الله بن عتبة : أتقول الشعر في فقهك وورعك ؟
فأجاب : لا بُدَّ للمصدر أن ينفث !

وهذا الفقيه هو صاحب هذه الأبيات الرائعة :
شَقَقْتُ الْقَلْبَ ثُمَّ ذَرَرْتُ فِيهِ هَوَاكِ فَلَيْمَ فَالْتَأَمَ الْفُطُورُ
تَعَلَّلَ حُبُّ عَثْمَةَ فِي فُؤَادِي فَبَادِيهِ مَعَ الْحَافِي بِسِيرُ
تَعَلَّلَ حَيْثُ لَمْ يَتْلُغْ شَرَابٌ وَلَا حُزْنٌ وَلَمْ يَتْلُغْ سُرُورُ

ورأيانهم يزعمون أن الإمام الشافعي قال :
وَلَوْ لَا الشُّعْرُ بِالْعُلَمَاءِ يُزْرِي لَكُنْتُ الْيَوْمَ أَشْعَرَ مِنْ لَبِيدِ
ولا يزال شيوخ الأزهر مختلفين في بدء الشعر بالبسملة لأنه فيما يرون ليس
من الأمور ذوات البال !

ولا أدل على هوان الشعر في نظر الفقهاء من قول الغزالي : « وأما الشعر فكلام
حسنه حسنٌ وقبيحه قبيح ». وهذا كله من أثر الحملة التي وجهت إلى الشعر
والشعراء.

ولكن الشعر من الفنون الفطرية التي كلف بها الإنسان منذ عهد بعيد،
والمسلمون ككل الأمم لم يكن لهم بُدٌّ من حياة الفنون، وكذلك نهضوا داعين
إلى رواية الشعر وإجارة الشعراء، ولكنهم لم يدعوا إلى الشعر باعتبار أنه فن جميل،
وإنما دعوا إليه باسم الدين، فقالوا : إن النبي كان يرتجز بقول ابن رواحة، وقد
أصيبَتْ إصبعه في إحدى المواقع :

هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعُ دَمِيٍّ وَفِي سَيْلِ اللَّهِ مَا لَقِيْبِ
وحجروا الفصول الضافية في أشعار الخلفاء والقضاة والفقهاء : فنسبوا لأبي
بكر الصديق قصيده طويلة مطلعها :

أَمِنْ طَيْفٍ سَلَمَى بِالرَّمَّاحِ الدَّمَائِثِ أَرِقْتَ أَوْأَمْرِ فِي الْعَسِيرَةِ حَدِيثِ
ونسبوا إلى عمر وعثمان طائفة من المقطوعات، ونسبوا إلى علي طائفة من
القصائد، ونقل الفيروزابادي عن المازني وصوبه الزمخشري أنه لم يصح

أن علي بن أبي طالب تكلم بشيء من الشعر غير هذين البيتين :
تِلْكُمْ فُرْشُ تَمَنَانِي لِتَقْتُلَنِي فَلَا وَرَبِّكَ مَا بَرُّوا وَلَا ظَفَرُوا
فَإِنْ هَلَكْتُ فَرَهْنٌ ذِمَّتِي لَهُمْ بِذَاتِ وَدَقِينَ لَا يَعْفُو لَهَا أَثَرُ

وقال ابن رشيبي بعد أن ذكر طائفة من شعر الأئمة والقضاة :
« وقد كان جماعة من أصحاب مالك بن أنس يرون الغناء بغير آلة جائزاً، وهو مذهب جماعة من أهل مكة والمدينة والغناء حلة الشعر إن لم يلبسها طويت، ومحال أن يحرم الشعر من يحل الغناء به ».

وحسب الشعر هواناً أن تقول إنه مباح !
أفترى بعد هذا البيان أن مقدور الناقد أن يوازن بين حسان بن ثابت مثلاً وبين واحد ممن عاصروه من شعراء المشركين واليهود ؟ كيف، وقد عصفت الحوادث بما ترك شعراء الحزب المغلوب، وبقي شعر حسان بفضل ما صاغ له رسول الله من عقود الثناء ؟ على أن هذا لا يمنع أن يكون حسان سيد الشعراء في عصره، ولكن هات ما ترك أقرانه لنستطيع الموازنة، ولنصل بها إلى علم اليقين، فقلما تنفع الظنون.

وإنك لتجد ما يدعوك إلى الحذر إذا نخطيت عهد النبوة، وانحدرت إلى عهد بني أمية، أو عصر بني العباس : هياك ترحم نفسك من التوغل في بيداء الضلال، وهناك تجد شعراء العلويين في عهد بني أمية، وشعراء الأمويين في عصر بني العباس، تجد هؤلاء وأولئك يقاسون ألوان العنت وصنوف الجهد في كتم ما ينم عن مشاربهم الاجتماعية، ومنازعهم السياسية، وأكتفي الآن بمثال واحد، ولو شئت لضربت لك عشرات الأمثال :

ذكروا أن المتوكل على الله كان في اجتيازه إلى دمشق قد وجد في حائط من حيطان دير الرصافة رقعة ملصقة فيها هذه الأبيات :

أَيَا مَنْزَلاً بِالْدَّيْرِ أَصْبَحَ خَالِياً تَلَاعَبُ فِيهِ شِمَالٌ وَدُبُورُ
كَأَنَّكَ لَمْ تَسْكُنْ بَيْضَ أَوَانِسٍ وَلَمْ تَتَبَخَّرْ فِي فِنَائِكَ حُورُ
وَأَبْنَاءُ أَمْلَاحٍ عَبَاشِمُ سَادَةٌ صَغِيرُهُمْ عِنْدَ الْأَنَامِ كَبِيرُ

إِذَا لَبَسُوا أَذْرَاعَهُمْ فَعَنَابِسٌ
عَلَى أَنَّهُمْ يَوْمَ اللَّقَاءِ ضَرَاغِمٌ
لَيَالِي هِشَامٍ بِالرُّصَافَةِ قَاطِنٌ
إِذِ الْعَيْسُ غَضٌّ وَالْخِلَافَةُ لَذَنَةٌ
وَرَوْضُكَ مُرْتَاضٌ وَنُورُكَ نَيْرٌ
بَلَى فَسَقَاكَ اللَّهُ صَوْبَ سَحَائِبٍ
تَذَكَّرْتُ قَوْمِي خَالِيًا فَبَكَيْتُهُمْ
لَعَلَّ زَمَانًا جَارَ يَوْمًا عَلَيْهِمُو
فَيَفْرَحَ مَحْزُونٌ وَيَنْعَمَ بَائِسٌ
رُؤْيَاكَ إِنَّ الْيَوْمَ يَتَّبَعُهُ غَدٌ
وَإِنْ لَبَسُوا تَيَجَّانَهُمْ قَبْدُورٌ^(١)
وَأَنَّهُمُو يَوْمَ النَّوَالِ بُحُورٌ
وَفِيكَ آبْنُهُ يَا دَيْرٌ وَهُوَ أَمِيرٌ
وَأَنْتَ طَرِيرٌ وَالزَّمَانُ غَرِيرٌ
وَعَيْشُ بَنِي مَرْوَانَ فِيكَ نُضِيرٌ
عَلَيْكَ بِهَا بَعْدَ الرَّوَاحِ بُكُورٌ
بِشَجْوٍ وَمِثْلِي بِالْبُكَاءِ جَدِيرٌ
لَهُمْ بِالنَّهْيِ تَهْوَى النَّفُوسُ يَدُورُ
وَيُطْلَقُ مَنْ ضَيْقِ الْوَثَاقِ أُسِيرُ
وَإِنْ صُرُوفَ الدَّائِرَاتِ تَدُورُ

قال ياقوت : فارتاع المتوكل عند قراءتها واستدعى الديراي وسأله عنها، فأنكر أن يكون علم من كتبها، فهُمَّ بقتله، فسأله الندماء فيه، وقالوا : ليس ممن يتهم بميل إلى دولة دون دولة. فتركه. ثم بان أن الأبيات من شعر رجل من ولد روح ابن زنباع الجذامي من أنحوال ولد هاشم بن عبد الملك.

وكذلك عصفت السياسة بما ترك شعراء الأحزاب، وتهدمت صروح من الآداب بما ضاع من الشعر السياسي فيما خلا من العصور، وكلنا يذكر ما لقي شعراء البرامكة من عنف الرشيد.

ومن هنا وجب على الناقد حين يوازن بين شاعرين أن يعرف ما أحاط بهما من مختلف الظروف ليكون في حكمه قريباً من الصواب، فقد رأينا كيف تطمس القوة معالم الشعر البليغ.

(١) العباس : الأسود.

البحث الخامس

نفسية الناقد

— ١ —

قلت فيما سلف : إن الموازنة نوع من القضاء، والآن نريد أن نبين أن الناقد كالقاضي، فكما يجب على الحكم أن يُنَزَّه نفسه عن جميع الأغراض حين يتقدم للحكم بين الناس، كذلك يجب على الناقد أن يرى نفسه من جميع الأغراض حين يتقدم للموازنة بين الشعراء.

فإذا أردت أن توازن بين شاعرين فامتحن نفسك قبل ذلك، فإن رأيت في نفسك الميل لتفضيل أحدهما على الآخر لسبب لا تُسيطر عليه الحاسة الفنية، فاعلم أنك في ترجيحك متهم ظنين، وإن رأيت نصرة الأدب والحق تغلب على جميع ما لك من النوازع، وأنست في نفسك القدرة على مقاومة ما يعترضك من التقاليد — ولعالم الأدب أيضاً رسوم وتقاليد — فتقدم إلى الموازنة، وثق أن الرغبة في نصرة الحق حليفة الفوز المبين.

وأنا ذاكر لك من الشواهد على ما بفعل الغرض بالموازنة ما نقله صاحب زهر الآداب عن الحاتمي إذ قال :

جمعني ورجلين من مشايخ البصرة، ومن يؤبه إليه في علم الشعر، مجلس بعض

الرؤساء، وكان خبره قد سبق إليّ في عصبيته للبحثري، وتفضيله إياه على أبي تمام، ووجدت صاحب المجلس مؤثراً لاستماع كلامنا في هذا المعنى، فأنشأت قولاً أنحيت فيه على البحثري إنحاءً أسرفت فيه، واقتدحت زناد الرجال : فتكلم وتكلمت، وخضنا في أفانين من التفضيل والمماثلة، غلوت في جميعها غلوّاً شهده جميع من حضر، وخضنا في أفانين في المجلس، وكانوا جلّة الوقت وأعيان الفضل، فاضطّر إلى أن قال : ما يحسن أبو تمام أن يتدبّر، ولا أن يخرج، ولا أن يختم، ولو لم يكن للبحثري عليه من الفضل إلا حسن ابتدائه، ولطف خروجه، وسرعة انتهائه، لوجب أن يقع التسليم له، فكيف بأوابده التي تزداد على التكرار غضاضة وجدة ؟

ثم أقبل عليّ فقال : أين يُذهَبُ بك عن ابتدائه :
عَارَضْنَا أَصْلًا فَقُلْنَا الرَّبْرُبُ حَتَّى أَصَاءَ الْأَقْحَوَانُ الْأَشْنَبُ^(١)
وَأَخْضَرَ مَوْشِيَّ الْبُرُودِ وَقَدْ بَدَا مِنْهُنَّ دِيْبَاجُ الْخُدُودِ الْمُذْهَبُ

وأين لأبي تمام مثل خروجه حيث يقول :
أَدَارَهُمُ الْأُولَى بَدَارَةَ جُلْجُلٍ سَقَاكِ الْحَيَا رِيْحَانُهُ وَبَوَاكِرُهُ
وَجَاءَكَ يَحْكِي يُوسُفَ بْنَ مُحَمَّدٍ فَرَوْتُكَ رِيَّاهُ وَجَادَكَ مَاطِرُهُ

وأني لأبي تمام مثل حسن انتهائه حيث يقول :
إِلَيْكَ الْقَوَافِي نَازِعَاتٍ شَوَارِدًا يُسَيِّرُ ضَافِي وَشِيْهَا وَيُنَمِّنُ
وَمُشْرِقَةً فِي النَّظْمِ غُرًّا يَزِيدُهَا بَهَاءً وَحُسْنًا أَنَّهَُا لَكَ تُنْظَمُ
وقوله في هذا المعنى :

أَلَسْتُ الْمُوَالِي فِيكَ نَظْمَ قَصَائِدٍ هِيَ الْأَنْجُمُ أَقْتَادَتْ مَعَ اللَّيْلِ أَنْجُمَا
ثَنَاءً تَخَالُ الرُّوْضَ فِيهِ مُنَوَّرًا ضَحَى وَتَخَالُ الْوَسْطَى فِيهِ مُمَنَّمَا
ولقد تقدم البحثري الناس كلهم في قوله :

(١) الأشنب : من الشنب بفتحين، وهو برد ورقة وعدوة في الأسنان.

لَوْ أَنَّ مُشْتَقًّا تَكَلَّفَ فَوْقَ مَا فِي وَسْعِهِ لَسَعَى إِلَيْكَ الْمُنْبَرُ

هذه خلاصة الجزء الأول من هذه المحاور التي وضعت في الموازنة بين أبي تمام والبحتري، وقبل عرض الجزء الثاني نلفت نظر القارئ إلى اختبار « نفسية » الحاتمي صاحب هذا الحديث، فانا نجد أنه كان يعلم عصبية مناظره للبحتري، وتفضيله إياه أبي تمام، ويذكر أنه تعمد الإنحاء على البحتري ليقترح زناد خصمه وأنه غلا في المماثلة غلوًّا شهده جميع من حضر، وأنه اضطرَّ خصمه إلى أن يزعم أن أبا تمام لا يحسن الابتداء، ولا الخروج، ولا الانتهاء، إلى آخر ما قال.

فكيف إذن تقبل هذه الموازنة، وهي مصحوبة بهذا العمد، ومسبوقة بذلك الإصرار ؟ ثم قال : « وكنت ساكتاً إلى أن استتم كلامه، وكأن الجماعة أعجبهم ذلك عصبية عَلَيَّ لا على أبي تمام، لأنني كنت كالشحا معترضاً في لهواتهم، وأسرَّ كل واحد منهم إلى صاحبه سرّاً يومئ به إلى استيلاء الوجل عليّ، فلما استتم كلامه، وبرقت له بارقة طمع في تسليمي له ابتدأت فقلت : لست ممن يُقَعِّعُ له بالحصي، أو نقرع له العصا، لا إله إلا الله ! استتت الفصل حتى القرعى ! هل هذه إلا عَوَانُ مفترعة، قد تقدم أبو تمام إلى سَبْكِ نضارها، وافتضاض أبكارها : وجرى السحري على وتيرته في انتزاع أمثالها وأتباعها ».

وهذه القطعة تدل كذلك على أن هذه ليست موازنة بين شاعرين، وإنما هي مُقَارعة بين خصمين يريد كل منهما أن يقهر صاحبه، وأن يفوز بإعجاب الحاضرين، ألا ترى كيف فطن الحاتمي إلى رضا الجماعة عن فوز البحتري، وأن ذلك كان عصبية عليه لا عَلَيَّ أبي تمام، وكيف أسرَّ كل واحد منهم إلى صاحبه مشيراً إلى استيلاء الوجل عليه، ثم انظر كيف غضب وكيف نار : لثرى أنه لم يغضب للحق، وإنما غضب لنفسه ولم ينتصر للأدب، وإنما انتصر لهواه.

ثم اندفع يذكر أن قول البحتري في صفة الغيث مخاطباً الدار :
وَجَاءَكَ يَحْكِي يُوسُفَ بْنَ مُحَمَّدٍ فَرَوْتُكَ رِيَّاهُ وَجَادَكَ مَاطِرُهُ

مأخوذ من قول أبي تمام :

وَيُؤْتِيهَا فِي الْقَلْبِ نُورِي شَفِّهِ
وَكَأَنَّمَا اسْتَسْقَى لَهْنٌ مُحَمَّدٌ
وَلَهُ بِظَاعِنِهَا وَبِالْمُتَخَلِّفِ
مِنْ سَوْمِيهِنَّ مِنَ الْحَيَا فِي زُخْرَفِ

وأن البحترى أخذ قوله :

لَوْ أَنَّ مَشْتَقًا تَكَلَّفَ فَوْقَ مَا
فِي وَسْعِهِ لَسَعَى إِلَيْكَ الْمَنْبَرُ

من قول أبي تمام الذي تقدم فيه كل أحد لفظاً رقيقاً ومعنى دقيقاً :

دِيمَةٌ سَمَحَةُ الْقِيَادِ سَكُوبُ
لَوْ سَعَتْ بُقْعَةٌ لِإِعْظَامِ نُعْمَى
مُسْتَعِيثٌ بِهَا الثَّرَى الْمَكْرُوتُ
لَسَعَى نَحْوَهَا الْمَكَانُ الْجَدِيبُ

وأن قوله في صفة القوافي :

يُسِيرُ ضَافِي وَشِيهَا وَيُتَمَّنُ

وقوله في صفتها :

تَنَاءٌ تَخَالُ الرُّوضَ فِيهِ مُوَرَّاً
ضَحَى وَتَخَالُ الْوَشْيَ فِيهِ مُنَمَّماً

إنما أخذه من قول أبي تمام :

حَلُّوا بِهَا عُفْدَ التَّسِيمِ وَتَمَتُّمُوا
مِنْ وَشِيهَا نَشْراً لَهَا وَقَصِيداً

ومن قوله الذي أبدع فيه :

وَاللَّهِ لَا أَنْفَكُ أَهْدَى شَوَارِداً
تَخَالُ بِهِ بُرْداً عَلَيْكَ مُحَبَّراً
أَلَدُّ مِنَ السَّلْوَى وَأَطْيَبَ نَفْحَةً
أَخَفَّ عَلَى قَلْبِي وَأَثْقَلَ قِيَمَةً
إِلَيْكَ نَحْمَلُنَ التَّنَاءَ الْمُبَجَّلَا
وَتَحْسِبُهُ عِقْداً عَلَيْكَ مَفْصَّلاً
مِنَ الْمِسْلِكِ مَفْتُوناً وَأُبَسَرَ مَحْمَلاً
وَأَقْصَرَ فِي قَلْبِ الْجَلِيسِ وَأُطَوَّلَا

وأن قول البحترى :

هِيَ الْأَنْجُمُ اقْتَادَتْ مَعَ اللَّيْلِ أَنْجُمَا

مأخوذ من قول أبي تمام مقصراً عن استيفاء إحسانه حيث يقول :

أَصْبَحَ تَسْتَمِعُ حُرَّ الْقَوَافِي فَإِنَّهَا
وَلَا يُمَكِّنُ الْإِخْلَاقُ مِنْهَا فَإِنَّمَا
كَوَائِبُ إِلَّا أَنَّهُنَّ سُعُودُ
يَلْدُ لِبَاسُ الْبُرْدِ وَهُوَ جَدِيدُ

وبعد بيان هذه المآخذ يذكر الخاتمي أنه قال لما نظره :
 « فهذه خصال صاحبك فيما عدّته من محاسنه التي هتكت بها ستر عواره،
 ونشرت مطوّي أسرارهِ. حتى استوضحت الجماعة أن إحسانه فيها عارية مرتجعة،
 وودبعة منتزعة ».

والعناد ظاهر في هذا الكلام.
 ثم أخذ يسرد طائفة من ابتداءات أبي تمام وانتهاءاته، ونماذج من حسن نخلصه،
 ولطف اقتضابه، وبراعة وصفه للقوافي، فاستحسن ابتداءه إذ قال :
 لَا أَنْتِ أَنْتِ وَلَا الدِّيَارُ دِيَارُ حَفَّ الْهَوَى وَتَقَضَّتِ الْأَوْطَارُ
 وزعم أن لن يستطيع أحد أن يبتدئ بمثل ابتدائه حيث يقول :
 طَلَّلَ الْجَمِيعَ لَقَدْ عَفَوْتَ حَمِيدَا وَكَفَى عَلَى رُزْئِي بَذَاكَ شَهِيدَا
 دِمْنٌ كَانَ الْبَيْنَ أَصْبَحَ طَالِبَا دَيْنَا لَدَى آرَامِهَا وَحُقُودَا
 وحيث يقول :

مَا فِي وَقُوفِكَ سَاعَةً مِنْ بَاسٍ نَقْضِي حُقُوقَ الْأَرْبَعِ الْأَدْرَاسِ
 فَاعْلُ عَيْنُكَ أَنَّ تَجُودَ بِدَمْعِهَا وَالِدَمْعُ مِنْهُ خَاذِلٌ وَمُوَاسِي
 واستملح اقتضابه حين قال :
 الْحَقُّ أَبْلَجُ وَالسُّيُوفُ عَوَارٍ فَحَذَارٍ مِنْ أَسَدِ الْعَرِينِ حَذَارٍ
 واستجاد تخلصه إذ يقول :

إِنَّ الَّذِي خَلَقَ الْخَلَائِقَ قَاتَهَا أَقْوَاتَهَا لِتَصْرُفِ الْأَحْرَاسِ
 فَالْأَرْضُ مَعْرُوفُ السَّمَاءِ قَرَى لَهَا وَبَنُو الرَّجَاءِ لَهُمْ بَنُو الْعَبَّاسِ
 الْقَوْمُ ظِلُّ اللَّهِ أَسْكَنَ دِينَهُ فِيهِمْ وَهُمْ جَبَلُ الْمُلُوكِ الرَّاسِي

وزعم أن أبا تمام هو الذي وصف القوافي بما لم يستطيع أحد وصفها به فقال :
 جَاءَتْكَ مِنْ نَظْمِ اللِّسَانِ قِلَادَةٌ سِمْطَانٍ فِيهَا اللُّلُؤُ الْمَكْنُونُ
 إِنْسِيَّةٌ وَخَشِيَّةٌ كَثُرَتْ بِهَا حَرَكَاتُ أَهْلِ الْأَرْضِ وَهِيَ سُكُونُ
 يَتْبُوعُهَا خَضِلٌ وَحَلِي قَرِيضُهَا حَلِي الْهَدَى وَنَسِيغُهَا مَوْضُونُ

قَدْ حَاكَهَا صَنَعُ الضَّمِيرِ يَمُدُّهَ حَسَبٌ إِذَا نَضَبَ الْكَلَامَ
أَمَّا الْمَعَارِي فِيهِ أَبْكَارٌ إِذَا نُصَّتْ وَلَكِنَّ الْقَوَافِي عٌ

هذا أهم ما ورد في حديث الخاتمي، وهو طويل ذكره برمته صاحب الآداب، والذي يعنيني منه هو ما فيه من العمد إلى النيل من البحري والإي على كَبَتِ منافسه، وظهوره عليه، وظفره به، وانظر كبف يقول في ختام الحديث: «هل يستطيع أحد أن ينسب هذا، أو شيئاً منه إلى الاختلاس؟ وهل يستطيع مماثلته بشيء من شعر البحري، أو أن المحدثين في عصره، من قبله؟ فعيي عن الجواب قصوراً، وأحجم المساجلة تقصيراً، وحكمت الجماعة لي بالقهر، وعليه بالنصر، ولم ينص عن المجلس حتى اعترف بتقديم أبي تمام في صنعة البديع واختراع الـ على جمع المحدثين، وكان يوماً مشهوداً»^(١).

— ٢ —

وهذا النوع من النقد لا قيمة له، ولكنه مع الأسف ظاهر كل الظهور مناهج القدماء، فقد كان بشار يقول: أنا أشعر الناس، فإذا سُئِلَ في ذلك أ بأن له اثني عشر ألف قصيدة لا تخلو واحدة منها عن بيت نادر، ومن ند اثنا عشر ألف بيت فهو أشعر الناس. وكانوا يختلفون في الموازنة بين والفرزدق، ثم يفضلون جريراً لأنه قال:

إِنَّ الَّذِينَ غَدَوْا بِلُبِّكَ غَادَرُوا وَشَلًّا بِعَيْنِكَ مَا يَزَالُ مَ
غِيْضَ مِنْ عِبْرَاتِهِنَّ وَقُلْنَ لِي مَاذَا لَقِيتَ مِنَ الْهَوَىٰ وَ

فإذا سألتهم كيف سما جريراً بهذين البيتين حتى بدَّ الفرزدق؟ أجابوك الفرزدق في فسوقه وفجوره، لم يُجدِ التشبيب كما أجاده جرير في تعرّجه وع

(١) ومع هذا التحامل كان الخاتمي من أئمة النقد الأدبي. انظر ما كتب عنه بالجزء الثاني كتاب «النثر الفني» لتري قيمة هذا الناقد، وتعرف ما له وماعله.

وقد يقولون : جرير أشر لأل الفرزدق ماتت امرأته فلم ييكها إلا برائية حرير
في امرأته، وهي القصيدة التي مطلعها :
لَوْلَا الْحَيَاءُ لَهَاجَنِي أَسْتَعْبَارُ وَلَزُرْتُ فَبَرَكِ وَالْحَبِيبُ يُزَارُ
وكانوا إذا ذكر شعراء الجاهلية قدم فريق منهم امرأ القيس لقوله :
قِفَا نَبْكَ مِنْ ذُكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ بِسِقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ
وقالوا : إنه بكى واستبكى وذكر الأوبة في بيت واحد ! !

وقدم آخرون النابعة الذبياني لقوله :
نُبِئْتُ أَنَّ أَبَا قَابُوسَ أَوْعَدَنِي وَلَا قَرَارَ عَلَى زَائِرٍ مِنَ الْأَسَدِ
أو لقوله :
فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُتَنَائِي عَنْكَ وَاسِعُ
ومنها من زعم أن أغزل بيت قاله العرب قول بشار :
أَنَا وَاللَّهِ أَشْتَهِي سِحْرَ عَيْنَيْكَ وَأَخْشَى مَصَارِعَ الْعُشَاقِ
وأن أحكم بيت قاله العرب قول أبي ذؤب الهذلي :
وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَبَتْهَا وَإِذَا تُرِدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

— ٣ —

وكان يجدر بأدباء هذا العصر أن يضعوا خطة جديدة، لنقد الشعر والنثر غير
ذلك المنهج الذي يركز على تأمل الشطرة في نقد الشعر، والفقرة في نقد النثر،
ولكنهم نسجوا على منوال المتقدمين، فتراهم بُعِنُونَ حين يظهر كتاب جديد
بالبحث عن مسلكه في استعمال الألفاظ وربما رجعوا إلى معجم اللغة ليتبينوا الفرق
بين الوضع القديم والوضع الجديد وقد أذكر أن الأستاذ صادق عنبر نقد كتاب
البؤساء، فلم يجد وجهاً لتخطئة المترجم غير استعمال بعض الألفاظ، فرد عليه
الأستاذ علام سلامة يصحح استعمال تلك الألفاظ، فحافظ إبراهيم مخطيء في

نظر صادق عنبر لبعده عن معجم اللغة، وهو مصيب في نظر علام سلامة لقربه من المعجم !

والحق أن الاعتماد على نقد الشطرة، والفقرة، واللفظة، لا يقدم ولا يؤخر في الموازنة بين الكتاب والخطباء والشعراء، فلا يمكن أن تصبح الخطبة، أو الرسالة، أو القصيدة جيدة : لأن ألفاظها جميعاً مختارة، ولا أن تمسي سقيمة لأن فيها ألفاظاً نائية، وإن كان تخير اللفظ من أهم ما يُعنى به الكاتب، والشاعر، والخطيب، وسأعود إلى هذا البحث حين أشرح نظرية : « الصور الشعرية ». وحين أتكلم عن إعجاز القرآن.

وأرجو أن يكون القارئ اقتنع بما بينته من عقم تلك الطريقة التي تركز على استقراء الأبيات المختارة في الموازنة بين الشعراء، فإن كان في ريب مما أسلفناه فليُجب على هذا السؤال : أبرضيه أن أقول إن شوقي أشعر الناس لقوله :

وَطَنِي لَوْ شِغِلْتُ بِالْخُلْدِ عَنْهُ نَارِغَتْنِي إِلَيْهِ فِي الْخُلْدِ نَفْسِي

ومطران أشعر الناس لقوله :

بَنَاتِ الدَّهْرِ عُوجِي لَا تَهَابِي خَلَا الْوَادِي مِنَ الْأُسْدِ الْغَضَابِ

وحافظ أشعر الناس لقوله :

عَمِلْتُمْ عَلَى عِزِّ الْجَمَادِ وَذُلِّنا فَأَغْلَيْتُمُو طِيناً وَأَرْخَصْتُمُو دَمًا

إنك أيها القارئ لا ترضى عن هذه الخطبة المبهمة، لأنها تبيح لمثلي أن يزعم أنه أشعر الناس لأنه يقول :

بَقِيَّةٌ مِنْ صَبَاكَ الْغَضِّ بَاقِيَةٌ وَجَذْوَةٌ مِنْ غَرَامِي وَقَدْهَا بَاقِي
تَعَالَ نُحْيِ شَهِيدَ اللَّهِو ثَانِيَةٌ وَنَصْرَعِ الْهَمَّ بَيْنَ الْكَاسِ وَالسَّاقِي

البحث السادس

الحاسة الفنية

— ١ —

هذا تعبيرٌ حديثٌ يقابل : « سلامة الذوق ». أو : « الذوق السليم ». في عُرف المتقدمين، والحاسة الفنية في نظري أدق من سلامة الذوق لأن فيها من معنى الفاعلية والإحاطة مالا نجده في التعبير القديم، وهي ترجمة لكلمة sens التي يُراد بها في هذا المقام أن تؤدي معنى ملكة التمييز، أو قوة الإدراك، ومع أنها أدق فهي تشمل سائر الفنون بخلاف كلمة : « الذوق ». فإنها قد تكون بمعنى الشعور بالحسن، وقد تكون عبارة عن الميل الخاص.

وقد بينا في البحث الأول : أنه يجب أن يصل من يتصدر للموازنة بين الشعراء إلى درجة عليا في فهم الأدب، وأن يصبح وله في النقد حاسة فنية تنأى به عن كل ما يفسد حكمه من الأهواء والأغراض، وذكرنا أن من الناس من يطرب للشعر لا لأنه شعر، بل لأنه طَرَق موضوعاً يحبه، وكشف عن معنى تميل نفسه إليه، وقد لا يكون ما سمعه، أو قرأه جميلاً من الوجهة الفنية، ثم ضربنا لذلك الأمثال.

والآن نعود إلى « الحاسة الفنية » بشيء من التفصيل : فنذكر كيف عَوَّل عليها

المتقدمون من رجال البيان، ونبين الوسيلة إلى الظفر بهذه الموهبة العزيزة المنال، ثم نميط اللثام عن حقيقة هذه الحاسة، التي لا تظهر ظهوراً جلياً إلا حين نمعن في الخفاء.

— ٢ —

يرى صاحب المثل السائر « أن مدار علم البيان على حكم الذوق السليم، الذي هو أنفع من ذوق التعليم، وأن الدربة والإدمان أحدى على القارئ نفعاً، وأهدى بصراً وسمعاً، وأنهما يُريانه الخير عياناً، ويجعلان عسره من القول إمكاناً، وكل جارحة منه قلباً ولساناً ». ويقول القارئ كتابه « فخذ من هذا الكتاب ما أعطاك، واستنبط بإدمانك ما أخطأك، وما منّلي فيما مهدته لك من هذه الطريق إلا كمن طَبَعَ سيفاً، ووضعه في بمينك لتقاتل به، وليس عليه أن يخلق لك قلباً، فإن حمل النصال غير مباشرة القتال »^(١).

ومعنى هذا أن كتب القواعد لا تُورث القارئ « الذوق » ولا تمسحه « الحاسة الفنية ». وإنما يُكسب ذلك بالدربة والإدمان على مطالعة الكلام البليغ، والقواعد لا تنفع من لا ذُوق له : كما لا ينفع السيف من لا قلب له. وَإِنَّمَا يَتْلُغُ الْإِنْسَانُ طَاقَتَهُ مَا كُلُّ مَا شِئَةٍ بِالرَّحْلِ شِمْلَالُ^(٢)

ولكن لا تحسب أن إدمان الاطلاع كاف لكسب الذوق، بل يجب أن نكون المطالعات مصحوبة بالفهم، والذوق لجمال القول وسحر البيان. أما إذا كان الغرض من القراءة حفظ الشواهد والأمثال — كما يفعل رجال اللغة والرواية — فإنه يبعد أن يظفر القارئ بالحاسة الفنية، وهذا أبو العباس المبرد كان في عمله واطلاعه يذكر أنه كان يحتاج إلى اعتذار من قَلْتة، أو التماس حاجة، فيجعل المعنى الذي قصده نصب عينيه، ثم لا يجد

(١) ص ٣ من المثل السائر.

(٢) الشملا . الناقة الحفيمة.

سبيلا إلى التعبير عنه بيد ولا لسان.... ولا سبب لذلك فيما يرى إلا أن المبرد لم يعنَ بدرس أسرار البلاغة، وإنما انصرفت همته إلى اللغة والرواية، والنحو، والتصريف. ومن هنا لم يحسن الاختيار.

قال الجاحظ: طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا ينفل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب، فلم أظفر بما أردت، لا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات.

ولم يبين الجاحظ سبب هذا ولا فسر له ابن رشيق، وقد بينت لك أن تقدم الكتاب على الرواة في فهم البلاغة إنما يرجع إلى كلف الكتاب وشغفهم بالوقوف على سر البيان، لأنهم يزاولون البلاغة من طريق الأداء، لا من طريق النقل، والفرق بين الوجهتين بعيد، ومن ثم كان الكتاب: «أرق الناس في الشعر طبعاً، وأملحهم تصنيفاً، وأحلاهم ألفاظاً وألطفهم معاني، وأقدرهم على التصرف، وأبعدهم من التكلف»^(١). وكانوا يرونهم دهاقين الكلام، ويستملحون ما يجودون به من حين إلى حين، كقول إبراهيم بن العباس الصولي:

ابْتَدَأَ بِالتَّجَنُّبِ	وَأَقْبَضَ بِالتَّظَنُّبِ
وَأَشْتَفَى بِتَجَنُّبِي	لَكَ لِأَعْدَائِكَ مِنْنِي
بِأَبِي قُلْ لِي لِكِي أَغْدُ	لَمْ لِمَ أَعْرِضْتَ عَنِّي
قَدْ تَمَنَّى ذَاكَ أَغْدَا	ئِي فَقَدْ نَالُوا التَّمَنِّي

وكقول محمد بن عبد الملك الزيات:

قَامَ بِقَلْبِي وَقَعْدُ	لَمَّا نَفَى عَنِّي الْجَلْدُ
يَا صَاحِبَ الْقَصْرِ الَّذِي	أَسْهَرَ عَيْنِي وَرَقْدُ
وَأَعْطَشَنِي إِلَى فَمِ	يُمِجُّ خُمْراً مِنْ بَرْدُ
إِنْ قَسِمَ النَّاسُ فَحَسْبُ	بِي بِكَ مِنْ كُلِّ أَحَدُ

(١) عبارة صاحب «العمدة» في أشعار الكتاب.

وكقول ابن رشيق :

قَدْ أَحْكَمْتُ مِنِّْي التَّجَا رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ غَيْرِ جُودِي
أَبْدًا أَقُولُ لَنْ كَسْبُ تُ لَا قَبْضَنَ يَدَيَّ شَدِيدِ
حَتَّى إِذَا أَثَرَيْتُ عُذْ تُ إِلَى السَّمَاحَةِ مِنْ جَدِيدِ
إِنَّ الْمُقَامَ بِبُئْلِ حَا لِي لَا يَتِمُّ مَعَ الْقُعُودِ
لَا بُدَّ لِي مِنْ رَحْلَةٍ تُذْنِي مِنَ الْأَمَلِ الْبَعِيدِ

وكان أستاذنا المرحوم الشيخ محمد المهدي يقول : « كما أن اللسان لا يمرن على النطق بالصواب إلا بالمحاكاة كذلك الذهن لا يمرن على الفهم الصحيح، ولا يجول في ميدان فسيح من المعاني، ولا يقدر الأشياء قدرها، إلا بالمقارنات الكثيرة التي تمثل في النفس لكل شاعر صورة وتقرر له حكماً غير مزعزع ولا مدافع ».

وما نسميه (الحاسة الفنية) كان يسميه (ملكة الأدب)، وكانت السبيل عنده لتحصيل هذه الملكة هي المقابلة بين المعاني والألفاظ، والمقارنة بين المفردات والأساليب، وتعليل كل تحسين وتقبيح بما يقنع المنادب، ويدنيه من الفهم الصحيح.

— ٣ —

وأعود فأذكر أن الحاسة الفنية عزيزة المنال، ومع هذا يدّعيها جميع الناس، وإنما كانت عزيزة المنال، لأننا نزن بها البيان، والبيان كالحمال كثير التعقيد. ألا نرى أنك لا تعتدّ برأي من يحسب البياض نصف الحسن، ويرى تمام الصباحة في الجمع بين سواد الشعر وبياض الجبين ؟ وكان ذلك لأن الجمال نوعان : معقد وبسيط، وأريد بالجمال البسيط ذلك النوع من الوسامة الذي يدركه أكثر الناس، والذي يُعرف بشاسب الأعضاء، وهذا النوع في سهولته وبساطته يشبه الألوان الأخاذة التي يَهْش لها صغار الأحلام من النساء والأطفال. أما الجمال المعقد — وما أروع الجمال المعقد — فهو ذلك النوع الخطر الذي لا يفهمه إلا أصحاب الأذواق،

وهذا النوع من الصبابة لا يرجع إلى فتنة الحدود، وسحر العيون، وإنما يرجع إلى ما هو أخطر من ذلك، يرجع إلى دقائق من الحس، وغرائب من الملاحظة، لا يعرف تأويلها غير الراسخين في علم الجمال.

حدثني برّك كم في هذه «الأعداد» التي تراها في طريقك ممن يتذوّق جمال اللفتة، والخطرة، والمشية؟، وكم فيهم ممن يتخطى سواد العين، ثم يحاول فهم ما في العين من رموز وألغاز، وفي العين ما شئت وشاء السحر من اللبس والتعقيد!!
وكم فيهم يعذر أبا الأسود إذ يقول:

أَبَى الْقَلْبُ إِلَّا أَمَّ عَمْرٍو وَحُبَّهَا عَجُوزًا وَمَنْ يُحِبُّ عَجُوزًا يُفْنَدِرْ
كَبُرِدِ الْيَمَانِي قَدْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ وَرُقِعَتْهُ مَا شِئْتَ فِي الْعَيْنِ وَالْيَدِ

وهذا الجمال المعقد هو الذي أسمعك صرخة الحكم الخصري حين قال:
فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي أَزِيدَتْ مَلَاخَةً وَحُسْنًا عَلَى النَّسْوَانِ أَمْ لَيْسَ لِي عَقْلٌ
وهو الذي صدق في وصفه أبو نواس إذ يقول:

يَزِيدُكَ وَجْهُهُ حُسْنًا إِذَا مَا زِدْتَهُ نَظْرًا

وكذلك البيان يا صاح فيه مُعَقَّد وبسيط. أما البيان البسيط فهو ذلك النوع السهل الذي يفهمه سواد الناس كقول طرفة بن العبد:
سَتُبْدِي لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ
وكقول لبّيد:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلٌ

وكقول شوقي:

وَإِنَّمَا الْأُمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنْ هُمُو ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا

ويكثر هذا النوع في القرآن حين تمس الحاجة إلى ترغيب الجماهير، كقوله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ : وكقوله عز شأنه : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا يَمَسُّهُمْ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ . وكقوله تبارك اسمه : ﴿ قُلْ لَا أُمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

وهذا النوع من البيان هو المرجع في المعاملات، وقد تجب فيه البساطة المطلقة حين يُسْتَخْدَم في تحرير الاتفاقات والمعاهدات والعقود، وما إلى ذلك مما تُحدد به العلاقات بين الأمم والأفراد، وهذا النوع لا يحتاج إلى الحاسة الفنية، وإنما يحتاج إليها البيان المعقد الذي قيل فيه : « إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا » . والذي قيل فيه : « شَيْئَانِ لَا نِهَايَةَ لِهَمَا : الْبَيَانُ وَالْجَمَالُ » . وفي الناس من بفتنه إشراق الدباجة، وتخلبه رشاقة الأسلوب كما يسحره الجبين المشرق، ويضله القدر الرشيق.

والتعقيد الذي أعنيه غير التعقيد المعروف في علم المعاني، فلست أريد اللبس والغموض المعقد، وإنما أصف البيان والحسن بالتعقيد حين يكون للوجه الوسيم، والأسلوب الجميل، قوة في التأثير يحار في تحليلها اللبيب، ومن هنا كان الأقدمون يظنون أن الشعر من وحي الشياطين، ومن أقدر من الشيطان على العبث بالعقول ؟.

والقصة المشهورة التي جاء فيها أن أحد أقيال اليمن قدم إلى دار الندوة فبُصِر فيها بالنبي عليه السلام، وهو إذ ذاك غلام مراهق، فقال لمن حضر من القوم : إن هذا الغلام ينظر إليكم بعيني كبوءة، وتارة بعيني عذراء خفيرة، فلو أن نظرتي الأولى كانت سهماً لانتظمت أفئدتكم فؤاداً فؤاداً، ولو أن نظرتي الثانية كانت نسيماً لأنشرت أموانكم ! هذه القصة فيها شيء من التعليل للجمال المعقد، ولكن يظهر أننا انتقلنا إلى عالم النفس، ويظهر أيضاً أن الحمال لا يُعَقَّد إلا حين تُعَقَّد النفس، والنفس لا تُعَقَّد إلا حين تصبح كالبحر تصطبغ فيه الأمواج، أو كال ميدان تشتجر فيه الرماح أو كالقلب تقتل فيه الأشجان،

ومن يُدرينا لعل جمال يوسف عليه السلام كان من هذا القبيل... فما نظن أن صواحبته قطّعن أيديهن، وعذرن فيه امرأة العزيز : لأسالة خدّه، وسواد شعره، وإشراق جبينه، وإنما نحسب أن تلك النفس النبوة التي تُضمّر ما تضمّر من دقائق الغيوب، تلك النفس الجبارة السحّارة، القهارّة، تلك النفس الممرّدة في عالم النفوس، هي التي جعلت لجمال يوسف ذلك السحر الذي تقطعت به الأبدى بعد تمزيق القلوب. وسبحان من يعلم ما كان يجول بخاطر ذلك الغلام الجميل أينظر بعيني لبوءة، أم بعيني عذراء خفيرة ؟ وحسبنا أن نذكر أن الله كان بُعده لحمل الرسالة، ويرشّحه لتبليغ تلك الدعوة التي لا يزال صداها يرنّ في أجواز الوجود.

وللبیان المعقد مثل هذا النصيب من بُعد الغور، ودقة المدلول، فهو ذلك النوع المعجز الذي تسكن إليه القلوب، وتحرّ في تعليله العقول، هو ذلك النوع الذي يقرّؤه سواد الناس فيفهمونه، ثم يقرّؤه الخاصة فيفتنون به، ويحارون في تحليل حُسنه، ثم لا يُحسن واصفهم إلا أن يقول : هذا هو السحر الحلال.

— ٤ —

على أنه يمكن الناقد أن يذكر بعض خواص هذا النوع من البيان : فهو تارة يرتكز على سمو الخيال، كقول بعض الحكماء : « من غَمَسَ يده في مال السلطان، فقد مَسىَ بقدمه على دمه ». ففي هذه الكلمة من روعة التخيل، وحسن التصوير، ما يدهش العقول، ويحيّر الألباب. وكقول أُرطاة بن سُهيّة المُرّي :
فلو أنّ ما نُعطِي من المَالِ نبتغي
به الحمد يُعطِي مثله زانجرُ البَحْرِ
لظنّ قرّاقير صيّا مَـ بِظَاهِرِ
من الضّحَلِ كانت قبلُ في لججٍ خُضِرِ^(١)

(١) القراقير السم : والمفرد قرقر على وزن عصفور، وصيام السف : ركودها والضحل : الماء الفليل لاعمق له، واللجج الخضر : هي السود.

فقد صور لك البحر الذي عجزت عن حربه الليالي بصورة بَشعة خفيفة يهابها الوهم وتتحامها الظنون، فهو يذكر أن البحر الزاخر، الذي يُجَنّ مَا يُجَنّ، ويُظهر ما يُظهر، والذي يروعك منظره، ويهولك مخبره، يذكر أن ذلك البحر لو بذل مثل ما يبذل قوم هذا الجواد في سبيل الحمد لأصبحت السفن راكدة فوق صُباباتٍ من الماء، وقد كانت قبل في لُججٍ رهيبة السواد، وهذه الصورة هي التي بررت مبالغة الشاعر في وصف قومه الأجواد، وإن عزّ البحر عن النظائر، وجلّ عن الأشباه.

ومن رائع الخيال قول أبي نواس :

أَلَا لَا أَرَى مِثْلِي آمْتَرَى الْيَوْمَ فِي رَسْمِ
تَعَصُّ بِهِ عَيْنِي وَيَلْفِظُهُ وَهْمِي
أَتَتْ صُورُ الْأَشْيَاءِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ
فَظَنَّنِي كَلَاظِنٌ وَعِلْمِي كَلَاْعِلْمِ

فأنت تراه، وقد وقف أمام ذلك الرسم الذي نال منه العفاء، وغيره الدّروس حتى ارتاب فيه، وغصت به عينه، ولفظه وهمه، ثم أغرقك في بحر من التخيل حين قال :

أَتَتْ صُورُ الْأَشْيَاءِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ
فَظَنَّنِي كَلَاظِنٌ وَعِلْمِي كَلَاْعِلْمِ

وعليك أن تستوعب هذا المعنى، فقد فتحت لك الباب.

وكان الرشيد يعجب بقول صريع الغواني :

إِذَا مَا عَلَتْ مِنَّا ذُؤَابَةٌ شَارِبٍ تَمَشَّتْ بِهِ مَشْيَ الْمُقَيَّدِ فِي الْوَحْلِ

وكان يقول قاتله الله ! ما كفاه أن جعله مقيداً حتى جعله في وحل ! وهذا كما ترى أبدع ما يُصور به النشوان.

ولا تنس القرآن، فإنه غاية الغايات في روعة الخيال، وانظر قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ، مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ۖ ﴾ .

ولا يدرك هذا المعنى الفخم إلا من ذاق بأساء الحياة، ورأى كيف يكون

هَوَجَ الرِّيحَ، وَجَنُونَ المَوْجَ، وَعَسَفَ الظَّلامَ، وَكَمْ فِي الحَيَاةِ مِنْ أَهْوَالٍ !
وقد يركز البيان المعقد على بساطة الأداء، وهذا أحسن تأويل لكلمة :
« المَطْمَعُ المَمْتَنِعُ » فقد تقرأ الكلام السهل البسيط فتحسب أنك على مثله قدير،
حتى إذا حاولت أن تأتي بشيء من مثله عزّ عليك وامتنع، وإليك قول ابن الدمينّة
يوصي حبيبته بالقسوة على الوشاة، وبالصلابة حين يجور اللائثمون :
وَكُونِي عَلَى الْوَأَشِينَ لَدَاءَ شَعْبَةٍ كَمَا أَنَا بِالْوَأَشِيِّ أَلَدُ شُعُوبُ
وَكُونِي إِذَا مَالُوا عَلَيْكَ صَلِيبَةً كَمَا أَنَا إِنْ مَالُوا عَلَيَّ صَلِيبُ
فهذا كلام سهل، يسكن إليه القلب، وتخلد إليه النفس، ولكنه يعز على من
يرومه، ويطول على من يسمو إلى محاكاته. ومثله في بساطته ودقته قول بعض
الأعراب :

إِذَا اجْتَمَعَ الْجُوعُ الْمُبْرِحُ وَالْهَوَى عَلَى الرَّجُلِ الْمِسْكِينِ كَادَ يَمُوتُ
وهي فكاهة رقيقة يبسم لها ثغر الحزين.
وأظرف منه قول الآخر، وقد تمردت عليه امرأته وضرّيت على إيذائه :
يَا رَبِّ إِنْ قَتَلْتَهَا فَعُدْ لَهَا فَلَنْ تَمُوتَ أَوْ تُجِيدَ قَتْلَهَا
فقد مثلها بالحية النضناض، التي يُقْتَلُها المرء تقتيلاً، ثم لا تزال تبدو لعينيه،
وكانها تسعى.

— ٥ —

وقد يرجع تعقيد البيان ودقته وسحره إلى نفس المبين : من شاعر، أو كاتب
أو خطيب، فإن هناك نفوساً خطيرة قد تُضِلُّكَ وقد تهديك حين يكتب أصحابها
وحين يتكلمون. وانظر قول موسى بن جابر، وقد رأى تجمّع الأعداء وتوثّبهم :
وَقُلْتُ لِزَيْدٍ لَا تُتَرَتِّرْ فَإِنَّهُمْ
يَرَوْنَ الْمَنَايَا دُونَ قَتْلِكَ أَوْ قَتْلِي
فَإِنْ وَضَعُوا حَرْباً فَضَعَهَا وَإِنْ أَبَوْا
فَعَرَضْتُ عَضَّ الحَرْبِ مِثْلَكَ أَوْ مِثْلِي

وَإِنْ رَفَعُوا الْحَرْبَ الْعَوَانَ الَّتِي تَرَى
فَشُبُّ وَقُودِ الْحَرْبِ بِالْحَطَبِ الْجَزْلِ

فهذه النفس المعقدة في أغراضها ومراميها هي التي وقفتك موقف الحيرة أمام هذه الأبيات، فأنت ترى فتى شجاعاً مقداماً لم تنسه شجاعته، ولا إقدامه ما يحيط به من عظام الأخطار، فهو ينصح لرفيقه ويوصيه بالحذر والرفق، ويدعوه إلى وضع الحرب إن وضعها الأعداء، وإلى شُبِّ وَقُودِهَا بالحطب الجزل إن أبوا إلا القتال، وهذا هو الجمع بين الحزم والشجاعة، وقل من يجمع بينهما من أفذاذ الرجال.

وانظر قول الآخر يتوَّجّع من الوحدة والعُرّة في بلاد الأعداء :
وَقُلْتُ لِعَلَّاقٍ بِعُرْنَانَ مَا تَرَى
فَمَا كَذَّابِي عَنْ ظَهْرِ وَاضِحَةٍ يُبْدِي
تَبَسَّمَ كَرَهَا وَاسْتَبَنْتُ الَّذِي بِهِ
مِنْ الْحَزَنِ الْبَادِي وَمِنْ شِدَّةِ الْوَجْدِ
إِذَا الْمَرْءُ أَعْرَاهُ الصَّدِيقُ بَدَتْ لَهُ
بِأَرْضِ الْأَعَادِي بَعْضُ الْوَانِيهَا الرُّبْدِ

— ٦ —

وتلك أيها القارئُ خواص يُراد بها التقريب لا التحديد، فإن المرجع إلى الحاسة الفنية، وهي قد تدقّ حتى يعجز صاحبها عن تعليل ما يستجده من الكلام البليغ. والآمدي يضرب المثل بالفرسين السليمين من كل عيب، وفيهما جميع علامات العتق والجودة والنجاة، ويكون أحدهما أفضل من الآخر بفرق لا يعلمه إلا أهل الخبرة والدراية، وبالجاريتين البارعتين في الجمال السليمتين من كل عيب يفرق بينهما العالم بالرقيق حتى يجعل في الثمن بينهما فضلاً كبيراً، بدون أن بقدر على عبارة توضح وجه ذلك الفرق، وإنما يعرفه بطبعه وكثرة دربته وطول

ملا بسته، وكذلك الشعر كما يقول الآمدي، قد يتقارب البيتان الجيّدان النادران، فيعلم أهل العلم بصناعة الشعر أيهما أجود : إن كان معناه واحداً، وأيهما أجود في معناه إن كان معناه مختلفاً^(١).

وحكى إسحاق الموصلي قال : سألتني محمد الأمين عن شعرين متقاربين وقال : اختر أحدهما. فاخترت فقال : من أين فضلت هذا على هذا، وهما متقاربان ؟ فقلت : لو تفاوتا لأمكنني التبيين، ولكنهما تقاربا ففاضلت بينهما بشيء تشهد به الطبيعة ولا يعبر عنه اللسان.

والطبيعة في كلام إسحاق هي ما نريده من الحاسة الفنية. وفي هذا القدر كفاية فقد طال بنا الحديث.

(١) انظر تفصيل رأي الآمدي في الجزء الثاني من كتاب : « الشر الفني ».

البحث السابع

خطر الإبهام والغموض

— ١ —

ومن شروط الموازنة أن يكون النقد مؤسساً على قواعد واضحة صريحة لا إبهام فيها ولا غموض، ليظفر الناقد باقتناع القارئ، وليكون نقده مادة جديدة في عالم البيان.

وأخطر ما يعرض للنقد والمماثلة أن يعتمد الموازن إلى التعابير المصنوعة في قوالب المجاز، فإنها بمس الأداة في الفصل بين الشعراء، كأن يقول : « هذا شعر أبدت صدوره متونه، وزهت في وجوهه عيونه، وانقادت كواهل لهواديته، وأشبه الروض في وشي ألوانه وإشراق أنواره، وابتهاج أنجاده وأغواره، وأشبه الوشي في اتفاق رقومه واتساع رسومه، وتسطير كفوفه، وتحجير حروفه، وحكى العقد في التثام فصوله وانتظام وصوله، وازديان ياقوته بدرّه، وفريده بشذره، قد كشف الإيجاز موارده وصقلت مداوس الدربة مناصله، وشحذت مدارس الأدب فواصله ».

وهذه التعابير المجازية المبهمة مأخوذة من فصل لأبي العباس الناشئ في وصف الشعر الجميل، وهو صاحب هذه المنظومة :

الشَّعْرُ مَا قَوَّمتَ زَيْعَ صُدُورِهِ وَشَدَدْتَ بِالْتَّهْذِيبِ أُسْرَ مُتُونِهِ

وَرَأَيْتَ بِالْأَطْنَابِ شَعْبَ صُدُوعِهِ وَفَتَحْتَ بِالْإِيجَارِ غُورَ عُيُونِهِ
وَجَمَعْتَ بَيْنَ قَرِيْبِهِ وَبَعِيدِهِ وَوَصَلْتَ بَيْنَ مُجْمَعِهِ وَمَعِينِهِ
وَعَهَدْتَ مِنْهُ لِكُلِّ أَمْرٍ يَقْتَضِي شَبْهًا بِهِ فَقَرْنَتْهُ بِقَرِينِهِ

وهي منظومة طويلة عني بها المتقدمون، كما عنوا بمنظومته الأخرى التي يقول فيها :

إِنَّمَا الشُّعْرُ مَا تَنَاسَبَ فِي النَّظْمِ وَ إِنْ كَانَ فِي الصِّفَاتِ فُتُونًا
فَأَتَى بَعْضُهُ يُشَاكِلُ بَعْضًا قَدْ أَقَامَتْ لَهُ الصُّدُورُ الْمُتُونَا
كُلُّ مَعْنَى أَتَاكَ مِنْهُ عَلَى مَا تَتَمَنَّى لَوْ لَمْ يَكُنْ أَنْ يَكُونَا
فَتَنَاهَى مِنَ الْبَيَانِ إِلَى أَنْ كَادَ حُسْنًا يَبِينُ لِلنَّاطِرِينَا
فَكَانَ الْأَلْفَاظُ فِيهِ وَجُوهٌ وَالْمَعَانِي رُكْبَنٌ فِيهِ عُيُونَا

وعيب هذا الضرب من الوصف أنه لا يغني في تحديد الموصوف : بل يلقي عليه أستاراً من اللبس والغموض، فإنه لاقيمة لمدح الشعر بتقويم زَيِّغ صدوره، وَشَدُّ أَسْرِ مُتُونِهِ، والجمع بين قريبه وبعيده، والوصل بين مجمه ومعينه، وما إلى ذلك من الصفات المبهمة التي يغرم بها المتكلفون.

— ٢ —

ومن أمثلة هذا النوع ما ذكره بديع الزمان في إحدى مقاماته إذ قال: « جلسنا يوماً نتذاكر الشعرَ والشعراء، وتلقأنا شاباً قد جلس غير بعيد ينصت وكأنه يفهم، ويسكت وكأنه لا يعلم، حتى إذا مال الكلام بنا ميله، وجر الجدل فينا ذيله، قال أصبتم عُذِيْقَهُ، ووافيتم جُذَيْلَهُ، ولو شئت للفظت، ولو أردت لسرَدْتُ، ولجلوت الحقَّ في معرض بيان يسمع الصُّمُّ، ويردي العُصم، فقلت : يا فاضل ادن فقد منيت، وهات فقد أثنيت، فدنا وقال : سلوني أجيبكم، واستمعوا أعجبكم.

قلنا : فما تقول في امرئ القيس ؟ قال : هو أول من وقف بالديار وعرصاتها،

واغتدى والطير في وكناتها، ووصف الخيل بصفاتها، ولم يقل الشعر كاسباً، ولم يُجد القول راغباً، ففضل من تفتق للحيلة لسانه، وانتجع للرجبة بنانه.

قلنا : وما تقول في النابغة ؟ قال : ينسب إذا عشق، ويثلب إذا حنق، ويمدح إذا رغب، ويعتذر إذا رهب، فلا يرمي إلا صائباً.

قلنا فما تقول في طرفة ؟ قال : هو ماء الأشعار وطينتها، وكنز القوافي ومدينتها، مات ولم تظهر أسرار دفائنه، ولم تطلق عتاق خزائنه.

قلنا : فما تقول في جرير والفرزدق ؟ قال : جرير أرق شعراً، وأغزر عُدرًا والفرزدق أمتن صخرًا، وأكثر فخرًا، وجرير أوجع هجواً، وأشرف بوماً والفرزدق أكثر رَوماً، وأكرم قوماً، وجرير إذا نسب أشعجى، وإذا ثلب أردى وإذا مدح أسنى، والفرزدق إذا وصف أوفى، وإذا احتقر أزرى.

قلنا : فما تقول في المحدثين من الشعراء والمتقدمين منهم ؟ قال : « المتقدمون أشرف لفظاً، وأكثر في المعاني حظاً، والمتأخرون أَلطف صنْعاً، وأرق نسجاً ».

ولو عُدنا لهذه الموازنة لوجدناها جملة من الصفات الفضفاضة التي تصلح لبوساً لكل موصوف، فكل شاعر فيما أظن : « بنسب إذا عشق، ويثلب إذا حنق، ويمدح إذا رغب، ويعتذر إذا رهب ». ومن اللبس أن نقول في وصف شاعر : « هو ماء الأشعار وطينتها، وكنز القوافي ومدينتها » أو أن تقول : « إنه أمتن صخرًا أو أكثر روما ». ومن المجازفة أن تقول : « المتقدمون أشرف لفظاً، وأكثر في المعاني حظاً ». وقد ظُرف من لاحظ أن الاغتداء والطير في وكناتها من خواص اللصوص، وهذا بالطبع لا يقدرح في سمو تلك العبارة إلا حين تُرسل بلا تقييد، وقد قيدها امرؤ القيس حين قال :

وَقَدْ أَغْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وَكُنَاتِهَا يَمُنْجَرِدُ قَيْدِ الْأَوَابِدِ هَيْكَلِ .

على أن هذا البيت لا يدل على أن : « صاحبه أول من اغتدى والطير في وكناتها » كما قال بديع الزمان .

وقال ابن دريد : سألت أبا حاتم عن أبي نواس فقال : إن جدّ أحسن، وإن هزل ظرف، وإن وصف بالغ، يلقي الكلام على عواهنه لا يبالي من أين أخذه. قلت : فبشار بن برد ؟ قال : نظار غواص مطيل مجيد يصف ما لم يره كأنه رآه، على أن في شعره خللاً كبيراً.

قلت : فمروان بن أبي حفصة ؟ قال : شاعر راض عن نفسه، يستحسن كل ما جاء منه، مُعجب لا يرى أن أحداً يتقدّمه، كثر الصواب، كثير الخطأ، ليس لشعره صعة.

قلت : فمسلم بن الوليد ؟ قال : خَلِيجٌ صافٍ ينزع من بحر كدر، كالزند، يورى تارة، ويصلد أخرى.

قلت : فأبو العتاهية ؟ قال غشاء جم، واقتدار سهل، وشعر كخرز الزجاج وربما أشبه الياقوت والزبرجد.

قلت : فعباس بن الأحنف ؟ قال : بُلْفى دلوه في الدلاء، فيغترف الصفو أحياناً والحماة أحياناً، على أن كدره أكثر من صفوه.

قلت : فسلم الخاسر ؟ قال : مُقَلٌّ مداح، شعره ديباج وعهن، يمّوه الرديّ حتى يُشبهه الجيد.

قلت : فأبو الشيص ؟ قال : جدّه كلّ فيه حلاوة وبشاعة، كالسّدرّة التي نفضت فيها المستعذب والمستبتع.

قلت : فعليّ بن جبلة ؟ قال : بحاث عن الكلام الفخم، والمعنى الرائع، لا بنال مرتبة القدماء، ويجلّ عن منزلة النظراء.

قلت : فأبو تمام ؟ قال : مسيلّ كثير الغشاء، غزير الغمار، جم النطاف، فإذا صفا فهو السلاف بالماء الزلال.

قلت : فعبد الصمد بن المعدّل ؟ قال : خراج ولّاج : يعتسف تارةً ويهتدي أخرى.

قلت : فعليّ بن الجهم ؟ قال : كلامٌ رصين، ومسلكٌ وعرٌ، عقله أغلب على شعره من طبعه.

قلت : فبكر بن النطّاح ؟ قال : تشبّه بالأعراب فأفرط، وتجاوز حد المولّدين فأسهب، فهو الساقط بين القرينين.

ولا ننكر أن في هذا الضرب من القول بياناً لبعض خصائص الشعراء، ولكننا نستنكر أن تحدد شاعرية شاعر بأنه : « خراج ولّاج، يعتسف تارةً ويهتدي أخرى » أو بأنه : « خليج صاف ينزع من بحر كدر » أو بأنه : « لا ينال مرتبة القدماء ويجل عن منزلة النظراء ».

ومما يؤسف له أن الميل إلى الإبهام كان يغلب على المتقدمين، ولم يسلم منه الجاحظ على بصّره بالبيان والتبيين، فقد كان يصف شعر أبي العتاهية بأنه : « ملس المتون ليس له عيون » وهي عبارة مجازية لا تؤدي إلى معنى محدود.

— ٤ —

ويضاف إلى هذا إغفالهم ضرب الأمثال، وإطلاقهم الحكم بلا بينة ولا دليل في حين إن الموازنة لا يُراد بها غير التمييز والفصل بين ما قال الشعراء في مختلف الأغراض وقد سرت هذه العدوى إلى شعراء العصر وكتّابه، فنجد مصطفى الرافعي يقول في وصف الشعر : « لو كان طيراً يُغرّد لكان الطبع لسانه، والرأس عشه، والقلب روضته، ولكان غناؤه ما نسمعه من أفواه المجيدين من الشعراء ».

ونجد محمداً السباعي يصف شكسبير بأنه : « منحة الطبيعة وجائزة الدهر ». ونجد حافظ إبراهيم يصف شعر فيكتور هيغو فتكون غايته أن يقول :
ما تُغورُ الزُّهرِ في أكاميها ضاحكات من بُكاءِ الشُّحْبِ

نَظَمَ الْوُسْمِيُّ فِيهَا لَوْلُؤًا كَثَايَا الْغِيدِ أَوْ كَالْحَبِّ
عِنْدَ مَنْ يَقْضِي بِأَبْهَى مَنَظَرًا مِنْ مَعَانِيهِ الَّتِي تَلْعَبُ بِي
بَسَمَتْ لِلذَّهْنِ فَاسْتَهَوَتْ نُهَى مُغْرَمِ الْفَضْلِ وَصَبَّ الْأَدَبِ

ولا يزال الأدباء يذكرون قول المنفلوطي في الأستاذ الشيخ عبد العزيز
جاويش : « لولا مقامه في اللواء، ومذهبه في الهجاء، لكان هو وفريد وجدي
سواء ».

وقوله في المرحوم قاسم أمين : « ما رأيت باطلاً أشبه بالحق من باطله ».
وتلك كلها عبارات مبهمه لاتقنع طلاب البيان.

— ٥ —

- إنما يجب على الناقد الذي استوفى ما أسلفناه من الصفات :
- ١ — أن يذكر حياة من يُوازن بينهم من الشعراء، وأن يُعين ما في حياة كل
شاعر من ألوان الشدة، أو صنوف الرخاء.
 - ٢ — وأن يبين الحالة الصحية لكل شاعر ليعرف ما قد يعرض لمزاجه من
الاعتلال.
 - ٣ — وأن يقدر السن التي قيل فيها ما يُريد وَزَنَهُ ونَقَدَهُ.
 - ٤ — وأن يحدّد الصفات التي اشترك فيها من يُوازن بينهم، والصفات التي انفرد
بها كل واحد منهم، ثم يتغلغل في تحليل المعاني، والألفاظ، والأساليب،
ويوازن بين القصائد والمقطوعات، والأبيات اليتيمة.
 - ٥ — وأن يدقّق النظر في تمييز المعاني المبتدعة من المعاني المسبوقة، ويبين كيف
تناول الشاعر المعنى الذي سبق إليه، وكيف هذّبه، وكيف بسّطه، حين
يَجُود أخذه، وتلطف سرقة، وكم في الشعراء من سارق لطيف !
 - ٦ — وأن يعدّ ما برّز فيه الشاعر من المطالع والمقاطع، وما أجاد أخذه، وما
ابتكره وما انفرد به، فقد يبتكر الشاعر المعنى، ثم يُغلب عليه حين يقصر
في تأديته، وقد يبتكر المعنى، ثم ينفرد به حين يبلغ الغاية في الأداء.

- ٧ — وأن يبين الفرق بين الساعرين حين يشتركان في الإبانة عن غرض واحد وحين يختلفان في ذلك.
- ٨ — وأن يبين أسباب السبق، وأسباب التحلف، مع التعمق في استقراء ما لكل شاعر من خطرات النفس، ولفتات القلب، ونوازع الوجدان.
- ٩ — وأن يعدّ ما لكل شاعر من المعاني الموضعية، التي اقتضاها زمانه ومكانه والمعاني الإنسانية، التي تصلح لجميع الناس، على تباين الأمكنة واختلاف العصور.
- ١٠ — وأن يذكر بعد ذلك كله ما لكل واحد من : « الصور الشعرية ». وسنعود إلى هذا المعنى الأخير بالبسط والبيان.

البحث الثامن

الصور الشعرية

— ١ —

هذا فن حديد في نقد الشعر والموازنة بين الشعراء. ألقت عنه محاضرة في الجامعة المصرية في سنة ١٩٢١، ثم اخترته للمناقشة العلنية في امتحان الدكتوراه، فساعدني ذلك على تحديده، وضبط المراد منه، وكشف ما يعتوره من الغموض، وإلى القارئ البيان :

الصورة الشعرية هي أثر الشاعر المُفلق الذي يصف « المراتب » وصفاً يجعل قارئ شعره ما يدري أيقراً قصيدة مسطورة، أم يشاهد منظراً من مناظر الوجود والذي يصف « الوجدانيات » وصفاً يخيل للقارئ أنه بناجي نفسه، ويحاور ضميره لا أنه يقرأ قطعة مخنارة لشاعر مجيد.

والصورة الشعرية لا تكمل إلا حين يحيط الوصف بجميع أنحاء الموصوف فليس منها قول أي نواس في وصف الراح :

صَهْبَاءُ تَبْنَى حَبَاباً كُلَّمَا مُزِجَتْ كَأَنَّهُ لَوْلُو يَتْلُوهُ عَقِيَانُ
كَانَتْ عَلَى عَهْدِ نُوحٍ فِي سَفِينَتِهِ مِنْ حُرٍّ شُحَّتِهَا وَالْأَرْضُ طُوفَانُ
فَلَمْ نَزَلْ تَعْجِمُ الدُّنْيَا وَتَعْجِمُهَا حَتَّى تَخَيَّرَهَا لِلْخَبَاءِ دِهْقَانُ

فَصَانَهَا فِي مَعَارِ الْأَرْضِ فَاخْتَلَفَتْ عَلَى الدَّفِينَةِ أَزْمَانٌ وَأَزْمَانُ
بِبَلَدَةٍ لَمْ تَصِلْ كُلُّ بِهَا طُنْبًا وَلَا خِباءٌ وَلَا عَبْسٌ وَذُبْيَانُ
لَيْسَتْ لِدُھْلٍ وَلَا شَيْبَانِهَا وَطَنًا لَكِنَّهَا لِبَنِي الْأَحْرَارِ أَوْطَانُ
أَرْضٌ تَبْنَى بِهَا كِسْرَى دَسَاكِرُهُ فَمَا بِهَا مِنْ بَنِي الْأَعْرَابِ إِنْسَانُ
وَمَا بِهَا مِنْ هَشِيمِ الْعُرْبِ عَرْفَجَةٌ وَلَا بِهَا مِنْ غِذَاءِ الْعُرْبِ خُطْبَانُ
لَكِنْ بِهَا جُلُنَارٌ قَدْ تَفَرَّعَهُ آسٌ وَكُلُّهُ وَرْدٌ وَسُوسَانُ

ولو عُرضت هذه القصيدة على رجل من أدباء العصر، أو لو أنها عُرضت على رجل من الأدباء في الأعصر الخالية لوصفت على الأقل بأنها رشيقة الأسلوب متينة التركيب، ولكننا سنبين أنها قصيدة جوفاء، لا حظ لها من الروعة، ولا نصيب لها من الجمال.

أراد أبو نواس أن يصف الخمر، ولكن هل وضع صورة شعرية تنتظم مع ما للخمر من اللون والعبير، وما لها من العبث بالعقول، واللعب بالنفوس ؟ كلا ! لم يصنع شيئاً من ذلك، ولكنه ذكر فقط أنها كلما مزجت تبني حباباً كأنه لؤلؤ يتلوه عقيان ثم اندفع يذكر أنها عتيقة، وأن عهدها بالوجود قديم، وقد جره ذلك إلى الإغراب في الكذب، فذكر أنها كانت خير ما شحن في سفينة نوح، وأنها ما زالت تغالب الدهر، وتصانع الحدثان، حتى ظفر بها دهقان ماكر دفنها في مغار الأرض، وأخفاها عن عيني الزمان، ولم يكفه ذلك، بل ذكر أن الأرض التي دفنت فيها هذه الخمر أرض كسروية، لم ينصب فيها خباء لعبس ولا ذبيان، ولم ينبت بها عرفج ولا خطبان بل زينها الجلنار، والورد، والآس والسوسان.

إذاً أخطأ أبو نواس حين غلا في الإشادة بعق الصهاء، لأن عشاقها لا يشعرون بالحاجة إلى إقامة البيئة على أنها من عهد الطوفان، مهما أحبوا أن تكون قديمة العهد بالوجود، فقد يكفيهم أن توصف بالقدم، وأن تكون لقدمها كما قال ابن الرومي :

لَطُفْتُ فَقَدْ كَادَتْ تَصِيرُ مُسَاعَةً فِي الْجَوِّ مِثْلَ شُعَائِهَا وَنَسِيمِهَا
أو كما قال ابن المعتز :

جَرَتْ حَرَكَاتُ الدَّهْرِ فَوْقَ سُكُونِهَا فَدَابَتْ كَذَوْبِ التَّيْرِ أَخْلَصَهُ السَّبْكُ
فَقَدْ خَفِيتُ مِنْ صَفْوِهَا فَكَانَهَا بَقَايَا يَقِينٍ كَادَ يُدْرِكُهُ الشُّكُّ

ويكاد القارئ لقصيدة أبي نواس يتوهم أنه يقرأ شيئاً غير وصف الخمر ويكاد يحسب أنه يقرأ موازنة بين ما تنبت البلاد العربية، وما تنبت البلاد الفارسية إذ يرى الشاعر يشيد بما بنى كسرى من دساكر، وما بأرض الفرس من ورد وآس ويسخر مما للعرب من طنب وخباء، وما بأرضهم من عرفج وخطبان.

ولو لم يضل في بيداء هذا الفضول لكان للغلو في وصف الخمر بالقدم شيء من الروعة، أو كان على الأقل مما تسيغه النفوس، فما نظن أحداً يستنكر قول البحرى في وصف الشمول :

بَكُرْتُ تَقَدَّمَتِ الزَّمَانُ بَعْرِيهَا إِنْ كَانَ قَبْلَ الدَّهْرِ شَيْءٌ يُعْرَسُ
ولنفرض أن أبا نواس أجاد في وصف الخمر بالقدم، وأنه في ذلك غير مسبوق أفيكفي أن يوصف الشيء من ناحية واحدة مهما كان وصفها سابغاً ليصبح الموصوف وهو ممثل من جميع الجوانب ؟ إن هذا لبعيد !

ولا ننكر أن الصفة الغالبة لشيء من الأشياء قد تصرف الشاعر عما عداها من الصفات، وليس قدم الخمر من ذلك في كثير ولا قليل، فقد تكون الراح جبارة قهّارة، وهي في مَبْعَةِ الصبا وعنفوان الشباب، وغيري عنده الخمر اليقين.

— ٢ —

ولننظر قول أبي نواس من كلمة ثانية :

دَعُ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءُ وَدَاوِي بِالَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ
صَفْرَاءُ لَا تَنْزِلُ الْأَحْزَانُ سَاحَتَهَا لَوْ مَسَّهَا حَجَرٌ مَسَّتْهُ سَرَاءُ
قَامَتْ بِإِبْرِيْقِهَا وَاللَّيْلُ مُعْتَكِرٌ فَلَاخَ مِنْ وَجْهَهَا فِي الْبُتِّ لَأَلَاءُ
فَارْسَلَتْ مِنْ فَمِ الْإِبْرِيْقِ صَافِيَةً كَأَنَّمَا أَخَذَهَا بِالْعَيْنِ إِغْفَاءُ
جَفَّتْ عَنِ الْمَاءِ حَتَّى مَا يُلَاثِمُهَا لَطَافَةٌ وَجْفا عَنْ شَكْلِهَا الْمَاءُ

فَلَوْ مَزَجْتَ بِهَا نُورًا لَمَازَحَهَا حَتَّى تَوَلَّدَ أَنْوَارٌ وَأَضْوَاءُ

وهذه صورة شعربة للراح، ألّم فيها الشاعر بصفاتها المختلفة، أو بأشهر ما لها من الصفات، وقد ابتدأ ذلك بنبد ملامة اللائمين، بل جعل اللوم نوعاً من الإغراء، واستصرخ الساقى ليسعفه بالتي كانت الدواء، لما أورثت من داء، ثم اندفع بذكر أنها صفراء اللون، وأن الحزن لا يحل لها ساحة، وأن الحجر لو مسها مسته السراء، وأنها حين قامت بابريقها هتكت الظلماء، بما لوجهها من لألاء، وأنها حين أرسلت صافية من فم الإبريق أخذت تلعب بالعيون كأنها الإغفاء، وأنها لطفت حتى ما تلائم الماء، ولا يشاكلها الماء، فلا سبيل إلى أن تشعشع بالعذاب الفرات، فإن عجز المصطبيح أو المغتبق عن شرها صرفه فليمزجها بالنور فانه لها مزاج، وهي له لباس، ومنهما نتولد الأنوار والأضواء.

— ٣ —

وقد يُلاحظ أن هذا الوصف بعيد عن تناول العقول، ونجيب بأنه لا جمال للشعر إلا إذا أضيف إلى الحقيقة شيء من الخيال، وقد يكون هذا الخيال حقيقة ثاني لا فرق بينها وبين الأولى إلا أن احدهما في الواصف وأخرهما في الموصوف، لأن الشاعر لا يصف شيئاً إلا متأثراً بحسنه أو قبحه، فهو حين يذكر الشيء الدميم يذكر بجانبه نفرتة من الدمامة، وحين يصف الشيء الجميل يصف بجانبه غرامه بالجمال، وربما خضع الشاعر لعاطفته، فانتقل من وصف إلى وصف، كأن يترك الحديث عن الراح وينحدر إلى وصف الساقى مثلاً، وهنا لا مندوحة من أن ينتقل الناقد مع الشاعر ليعرف أقصر في وصف ما انتقل إليه أم أجاد، وتكون الصورة الشعرية للموصوف الثاني، مثال ذلك قول ابن عَنِين :

وَمُدَامَةٍ لَمْ يَبْقَ طُولُ ثَوَائِهَا	فِي خِذْرِهَا إِلَّا وَمِضُّ شُعَاعِ
مِنْ كَفِّ مَصْقُولِ الْعَوَارِضِ آيَسٍ	يَرْنُو بِمُقْلَةٍ جُوْذَرِ مُرْتَاعِ
وَقَفْتُ عَوَارِضُ صُدْغِهِ فِي خَدِّهِ	خَيْرَى وَبَانَتْ فِي الْقُلُوبِ سَوَاعِ
رَاضَتْ خَلَائِقُهُ الْعُقَارُ وَبَدَّلَتْ	نَزَقَ الصَّبَا بِمَوْفَرِ مِطْوَاعِ

وعلماء الأدب يذكرون هذه القطعة في وصف الخمر، وليست من ذلك في شيء إنما هي تسبيب، ومثلها قول البحري، وقد صرعت نديمه الصهباء :
ونديم حُلِّو الشَّمَائِلِ كالدَّبِّ نَارِ مَحْضِ النَّحَارِ عَذْبُ الْمَصْفَى
بُتُّ اسْقِيهِ صَفْوَةَ الرَّاحِ حَتَّى وَضَعَ الْكَأْسَ مَائِلًا يَتَكَفَّى
قُلْتُ عَبْدَ الْعَزِيزِ نَفْدِيكَ نَفْسِي ! قَالَ لَبَّكَ ! قُلْتُ لَسِيكَ الْفَا !
هَآكِهَآ ! قَالَ هَاتِيهَا ! قُلْتُ خُذْهَا قَالَ : لَا أُسْتَطِيعُهَا، ثُمَّ أَغْفَى
وهذا النوع من الحوار يسمى عند علماء البديع بالمراجعة، ولبس جمال هذه الأبيات في ترديد القول كما يظنون، ولكن جمالها في هذه الصورة الشعرية البديعة التي تمثل لك رفق النديم، وجناية الكأس عليه، واستسلامه للإغفاء بعد هذا الحوار الرقيق.

— ٤ —

وفضل الصورة الشعرية هو تمكين المعنى في نفس القارئ والسماع، ألا نرى أن قول بعض الأندلسيين :
أَخَافُ عَلَيْكَ مِنْ عَيْنِي رَقِيبِي وَمِنْ عَيْنِي وَعَيْنِكَ وَالرَّيْمَانِ
وَلَوْ أَنِّي وَضَعْتُكَ فِي عُيُونِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا كَفَانِي
أقل تأثراً في النفس من قول ابن الرومي :
أَعَانِقُهُ وَالنَّفْسُ بَعْدَ مَشُوقَةٍ إِلَيْهِ وَهَلْ بَعْدَ الْعِنَاقِ تَدَانِ
وَالنَّمُ فَاهُ كَيْ نَزُولِ حَرَارَنِي فَيَسْتَدُّ مَا أَلْقَى مِنَ الْهَبَمَانِ
وَلَمْ يَكْ مِقْدَارُ الدِّي بِى مِنَ الْجَوَى لِيَرْوِيَهُ مَا تَلْتُمُ الشَّفْتَانِ
كَأَنَّ فُؤَادِي لَيْسَ يَرْوِي غَلِيلَهُ سِوَى أَنْ يَرَى الرُّوحَيْنِ يَمْتَرِجَانِ
لأن ابن الرومي وضع لكلفه صورة شعرية تامة الأجزاء، وتنقل بالقارئ السامع من حال إلى حال، وذكر أموراً فطرية يشعر بمنزلها كل متيم مسغوف، ثم علل شرهه في صبونه بخطر لوعته وفرط حواه، وتحليل المعنى وتعليله من أقرب الوسائل إلى تمكبه في النفوس، وفي تحليل المعاني وتعليلها تتفاوت أقدار الكتاب والخطباء والشعراء.

البحث التاسع

أهمية الصور الشعرية

عرف القارئ شيئاً عما أريده من الصور الشعرية، ولكنه شيء يسير لا يغني في إمطة اللثام عن هذا الفن الجديد، وسأعود بعد قليل إلى تحقيق الفرق بين الصورة الشعرية، والتمثيل المعروف في علم البيان، فقد ظن بعضهم أن الصورة الشعرية هي الاستعارة التمثيلية، وهو خطأ مبين.

والآن أرجع إلى توضيح ما ذكرته في الكلمة الماضية من أن فضل الصورة الشعرية إنما هو تمكين المعنى في النفس، لأن غاية الكلام البليغ من نثر أو شعر إنما هي التأثير، والصورة الشعرية لما فيها من تحليل المعنى وتعليقه كافية في تحقيق غاية البيان، ولنضرب لذلك الأمثال.

— ١ —

من الحكم الماثورة قول أبي الدرداء : « مَنْ لَكَ بِأَخِيكَ كَلَهُ ». يريد أن الصديق لن يكون من كل نواحيه ملكاً لأخيه. هذا هو أصل المعنى، وتلك هي صورته الأصلية، فلننظر كيف بَسَطَهُ بَشَار بن برد حين قال :

إِذَا كُنْتُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ مُعَاتِباً صَدِيقَكَ لَمْ تَلَقَ الَّذِي لَا تُعَاتِبُهُ

فَعِشْ وَاحِداً أَوْ صِلْ أَخَاكَ فَإِنَّهُ إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِراراً عَلَى الْقَذَى مُقَارِفُ ذَنْبٍ مَرَّةً وَمُجَانِبُهُ ظَلَمْتَ وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهُ

فإذا وازنت بين هذه الآيات وبين كلمة أبي الدرداء رأيت أن كلمة : « من لك بأخيك كله ». كلمة مُبْهَمَةٌ لا تقر في النفس إلا بعد التأمل والترديد : ورأيت صاحب هذه الآيات الثلاثة يخاطب عقلك ووجدانك، إذ يذكر أنك إن عاتبت صديقك في كل الأمور فلن تلقى الصديق الذي لا تعاتبه، لأنه يندر أن يخلو صديق من العيوب، وأنت مضطر إلى إحدى اتنتين : إما أن ترضى الوحدة، وإما أن تصل أخاك، فقد يقارف الذنب مرة ويجانبه مرة أخرى، وإذا لم تشرب « مراراً » على القذى ظممت، وأي الناس تصفو مشاربه في هذا الوجود ؟ !

فأنت ترى أن كلمة بشار أوقع في النفس، وأملاً للقلب، من كلمة أبي الدرداء، وإليك كلمة الشريف الرضي في نفس المعنى :

وَكَمْ صَاحِبٍ كَالرُّمَحِ زَاغَتْ كُعُوبُهُ أَبَى بَعْدَ طُولِ الْغَمْرِ أَنْ يَتَّقَوْمَا تَقَبَّلْتُ مِنْهُ ظَاهِراً مُتَبَلِّجاً وَأَدْمَجَ دُونِي بَاطِناً مُتَجَهِّمًا فَأَبْدَى كَرُوضَ الْحَزَنِ رَقَّتْ فُرُوعُهُ وَأَضْمَرَ كَاللَّيْلِ الْخِدَارِيَّ مُظْلِمًا وَلَوْ أَنَّنِي كَشَفْتُهُ عَنْ ضَمِيرِهِ أَقَمْتُ عَلَى مَا بَيْنَنَا الْيَوْمَ مَا تَمَّا وَلَا فَاغِراً بِالذَّمِّ إِنْ رَأَيْتَنِي فَمَا فَلَآ بِاسِطاً بِالسُّوءِ إِنْ سَاءَنِي يَدَا كَعُضُو رَمَتْ فِيهِ اللَّيَالِي بِقَادِحِ إِذَا أَمَرَ الطَّبُّ اللَّيْبُ بِقَطْعِهِ إِذَا أَمَرَ الطَّبُّ اللَّيْبُ بِقَطْعِهِ صَبَرْتُ عَلَى إِيلَامِهِ خَوْفَ نَقْصِهِ هِيَ الْكَفِّ مَضَ تَرْكُهَا بَعْدَ ذَائِهَا أَرَاكَ عَلَى قَلْبِي وَإِنْ كُنْتَ عَاصِياً حَمَلْتُكَ حَمْلَ الْعَيْنِ لَجَّ بِهَا الْقَذَى دَعِ الْمَرْءَ مَطْوِياً عَلَى مَا ذَمَّتْهُ إِذَا الْعُضْوُ لَمْ يُؤْلَمَكَ إِلَّا قَطْعَتُهُ وَمَنْ لَمْ يُوَطَّنْ لِلصَّغِيرِ مِنَ الْأَذَى

أَبَى بَعْدَ طُولِ الْغَمْرِ أَنْ يَتَّقَوْمَا
وَأَدْمَجَ دُونِي بَاطِناً مُتَجَهِّمًا
وَأَضْمَرَ كَاللَّيْلِ الْخِدَارِيَّ مُظْلِمًا
أَقَمْتُ عَلَى مَا بَيْنَنَا الْيَوْمَ مَا تَمَّا
وَلَا فَاغِراً بِالذَّمِّ إِنْ رَأَيْتَنِي فَمَا
وَمَنْ حَمَلَ الْعُضْوَ الْأَلِيمَ تَالَمَا
أَقُولُ عَسَى ضِئلاً بِهِ وَلَعَلَّمَا
وَمَنْ لَامَ مَنْ لَا يَرْعَوِي كَانَ الْوَمَا
وَإِنْ قُطِعَتْ شَانَتْ ذِرَاعاً وَمِعْصَمًا
أَعَزَّ مِنَ الْقَلْبِ الْمَطِيعِ وَأَكْرَمًا
فَلَا تَنْحَلِي يَوْماً وَلَا تَبْلُغِ الْعَمَى
وَلَا تَنْشُرِ الدَّاءَ الْعُصَالَ فَتَنْدَمَا
عَلَى مَضْضٍ لَمْ تُبْقِ لَحْماً وَلَا دَمَا
تَعَرَّضَ أَنْ يَلْقَى أَجَلٌ وَأَعْظَمَا

فهذه صورة شعرية يدور أن تجد مثلها في هذا المعنى لعبير الشريف الرضي، وانظر كيف حدثك عن صديقه الذي صبر عليه، وكيف شبهه بالرمح الذي زاغت كعوبه، وأنى بعد طول الغمز أن يتقوم، وكيف تقبل من ذلك الصديق ظاهره المتبلج، وتغافل عن باطنه المتجهّم، وكيف مثّل ما أبداه بروض الحزن رفّت فروعه، وما أضمره بظلمة الليل، وانظر كيف راعك حين ذكر أنه لو كشف صديقه عن ضميره لأقام على ما بينهما مأتماً أيّ مأتم، ومع ذلك لا يبسط يده بالسوء إن ساءه، ولا يفتح فاه بالذم إن رابه، ثم انظر كيف صوّر هذا الصديق الذي كثر دغله وساءت طويته بصورة العضو الذي رمته الليالي بفادح، والذي يؤلم حمله، ولكنه مع هذا مرجو البرء مأمول الشفاء، ومن ذا الذي يجهل أن داء الكف مضى بغيبض، ولكن من ذا الذي يرضى أن يشين بقطعها المعصم والذراع؟

ولم يقف الشريف الرضيّ، عند ذلك، بل مثّل صديقه بالعين لجّ بها القذى، وهو أفضل من العمى على كل حال، ثم أرسل هذه الحكمة الرائعة :
دع المرء مطوّياً على ما ذمّمته ولا تنشر آلداء العضال فتندما
إذا العضو لم يؤلمك إلا قطعتة على مضض لم تُبق لحماً ولا دماً
وهل ينكر أحد بعد هذا التفصيل أن كلمة بشار أولاً، وكلمة الشريف الرضيّ ثانياً، أدعى لتمكين المعنى في النفس من كلمة أي الدرداء، لما فيهما من تحليل المعنى وتعليله، وذلك داعية التأثير، وهو ثمرة الكلام البليغ؟

— ٢ —

رثى مؤيلك المزموم امرأته أمّ العلاء فقال :
أمرّز على الجدث الذي حلّت به أمّ العلاء فناديها لو تسمع
أنى حللت وكنت جدّ فروفة بلداً يمرّ به الشجاع فيفزع
صلّى عليك الله من مفقودة إذ لا يلائمك المكان البلقع
فلقد تركت صغيرة مرحومة لم تدر ما جزع عليك فتجزع

فَقَدْتُ شَمَائِلَ مِنْ لِزَامِكِ حُلْوَةً فَتَبَيْتُ تُسَهِّرُ أَهْلَهَا وَتُفَجِّعُ
وَإِذَا سَمِعْتُ أَيْنَهَا فِي لَيْلِهَا طُفِقْتُ عَلَيْكَ شَوْوَنَ عَيْنِي تَدْمَعُ

وهذه قطعة مختارة في بكاء المرأة تخلي طفلها وتروح إلى عالم الفناء، وهي بعد التحليل ترجع إلى فكرتين : الأولى التعجب من قرار هذه المرأة الهيوب في ذلك المكان البلقع. والثانية الأسف على ما لقيت طفلها من فقد شمائلها الحلوة. وقد سرد الشاعر هاتين الفكرتين بشيء من الجفاف، وكان في مقدوره أن يزيد الفكرة الأولى شيئاً من الوضوح، وأن يعتمد في الفكرة الثانية إلى أن يشرك معه القارئ في حزنه وبئته، لأن الغرض من الشعر إنما هو التأثير.

وإلى القارئ ما يقوله في هذا المعنى محمد بن عبد الملك الزبات :

أَلَا مَنْ رَأَى الطُّفْلَ الْمُفَارِقَ أُمَّهُ بُعِيدَ الْكَرَى عَيْنَاهُ تَبْتَدِرَابِ
رَأَى كُلَّ أُمٍّ وَأَبْنَاهَا غَيْرَ أُمِّهِ يَبْتَائِ تَحْتَ اللَّيْلِ يَنْتَجِيَانِ
وَبَاتَ وَحِيداً فِي الْفِرَاشِ تَحْتُهُ بَلَابِلُ قَلْبٍ دَائِمِ الْخَفَقَانِ
أَلَا إِنْ سَجَلَاً وَاحِداً قَدْ أَرَفْتُهُ مِنْ الدَّمْعِ أَوْ سَجَلَيْنِ قَدْ شَفَيَانِي
فَلَا تَلْحَيَانِي إِنْ بَكَيْتُ فَإِنَّمَا أَدَاوِي بِهِدَا الدَّمْعِ مَا تَرَيَانِ
وَإِنْ مَكَاناً فِي الثَّرَى خُطَّ لَحْدُهُ لِمَنْ كَانَ فِي قَلْبِي كُلِّ مَكَانِ
أَحَقُّ مَكَانٍ بِالزِّيَارَةِ وَالْهَوَى فَهَلْ أَتُّمَّا إِنْ عُجْتُ مُنْتَظِرَانِ
فَهَبْنِي عَزَمْتُ الصَّبْرَ عَنْهَا لِأَنِّي جَلِيدٌ فَمَنْ بِالصَّبْرِ لَابِنِ ثَمَانِ
ضَعِيفُ الْقَوَى لَا يَعْرِفُ الْأَجَرَ حِسْبَةً وَلَا يَأْتِسِي بِالنَّاسِ فِي الْحَدَثَانِ
أَلَا مَنْ أُمِّيهِ الْمُنَى فَأَعِدُّهُ لِعَشْرَةِ أَيَّامِي وَصَرَفِ زَمَانِي
أَلَا مَنْ إِذَا مَا جِئْتُ أَكْرَمَ مَجْلِسِي وَإِنْ غَبْتُ عَنْهُ حَاطَنِي وَرَعَانِي
فَلَمْ أَرْ كَالْأَقْدَارِ كَيْفَ يَصْنَعُنِي وَلَا مِثْلَ هَذَا الدَّهْرِ كَيْفَ رَمَانِي

فاذا وازنا بين هذه القطعة وبين تلك وحدنا في الأخير صورة شعرية بديعة، تمثل الطفل المفجع في أمه، والرحل المفجع في زوجه. وانظر كيف صور الطفل اليتيم بقوله :

رَأَى كُلَّ أُمٍّ وَأَبْنَاهَا غَيْرَ أُمِّهِ يَبْتَائِ تَحْتَ اللَّيْلِ يَنْتَجِيَانِ

وَبَاتَ وَحِيداً فِي الْفِرَاشِ نَحْتُهُ تَلَايِلُ قَلْبٍ دَائِمِ الْخَفَقَانِ
وانظر كيف علل جزع الطفل بضعف قواه، وجهله بالأجر والتأسي، وتأمل
كيف فهم قدر الحليلة، وكيف تغلغل في وصف ما للحلائل من الوفق، وما للرحل
من الأنس بزوجه حين يطارحها الأحاديث بالليل، وكيف اعتمد فأعدها لعنة
أيامه وصرف زمانه، وكم في الأيام من عثرات، وكم في الدهر من صروف !
وأي كلام أبلغ في وصف الحليلة الرفيقة الأمينه من فوله في تلك الفقيده
الغالية :

أَلَا مَنْ إِذَا مَا جِئْتُ أَكْرَمَ مَجْلِسِي وَإِنْ غِبْتُ عَنْهُ حَاطِنِي وَرَعَانِي
وأحب لو أعاد القارئ النظر في هذين البيتين :
وَإِنْ مَكَاناً فِي الثَّرَى خُطَّ لَحْدُهُ لِمَنْ كَانَ فِي قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانٍ
أَحَقُّ مَكَانٍ بِالزُّيَارَةِ وَالْهَوَى فَهَلْ أَنْتُمَا إِنْ عَجْتُ مُتَظَرِّانِ
فإنهما غابة في تمثيل الحنو على القبر المأهول برفات الحبيب، وسفى الله كل
بقعة من هذا القبيل !

— ٣ —

أراد الطغرائي أن يستعطف أحبابه، وأن يذكرهم بأن في صروف الدهر ما
بغني عن القطيعة، وذلك قوله:
وَيَا رُفْقَةً مَرَّتْ بِجَرْعَاءِ مَالِكٍ تَوُّمَ الْحَمَى أَنْضَاؤُهَا وَالْمَطَالِيَا
نَسَدْتُكُمْ بِاللَّهِ إِلَّا نَشْدُنُمُو بِهِ شُعْبَةً أَضَلَلْنَاهَا مِنْ فُؤَادِيَا
وَقُلْتُمْ لِحَيٍّ نَازِلِينَ بِقُرْبِهِ أَقَامُوا بِهَا وَاسْتَبَدُّوا بِجَوَارِيَا
رَوَيْدَكُمْ لَا نَسْبِقُوا بِقَطِيعَتِي صُرُوفَ اللَّيَالِي إِنْ فِي الدَّهْرِ كَافِيَا

وأصل هذا المعنى لإياس بن القائف إذ يقول :
فَأَكْرَمَ أَخَاكَ الدَّهْرَ مَا عَشْتُمَا مَعَا كَفَى بِالْمَمَاتِ فُرْمَةً وَتَنَائِيَا
إِذَا زُرْتُ أَرْضاً بَعْدَ طُولِ اجْتِنَابِهَا فَقَدْتُ صَدِيقِي وَالْبِلَادُ كَمَا هِيَا

ولنظر كيف تناول سعيد بن حميد هذا المعنى حين قال :

أَقْلِلْ عِتَابَكَ فَالْبَقَاءُ قَلِيلٌ وَالذَّهْرُ بَعْدُ تَارَةً وَبِمِيلٍ
لَمْ أَبْلُكْ مِنْ زَمَنٍ ذَمَمْتُ صُرُوفَهُ إِلَّا بَكْتُ عَلَيْهِ حِينَ يَزُولُ
وَلِكُلِّ نَائِبَةٍ أَلَمْتُ مُدَّةً وَلِكُلِّ حَالٍ أَقْبَلْتُ تَحْوِيلُ
وَالْمُتَمَتُّونَ إِلَى الْإِخَاءِ جَمَاعَةٌ إِنْ حُصِّلُوا أَفْنَاهُمْ التَّحْصِيلُ
وَلَعَلَّ أَحْدَاثَ الْمُنِيَّةِ وَالرَّدى يَوْمًا سَتَصْدَعُ بَيْنَنَا وَتَحُولُ
فَلَيْسَ سَبَقْتُ لَتَبَكَيْنَ بِخُسْرَةٍ وَلَيَكْثُرَنَّ عَلَيَّ مِنْكَ عَوِيلُ
وَلَتُفْجَعَنَّ بِمُخْلِصٍ لَكَ وَامِقٍ حَبْلُ الْوَفَاءِ بِحَبْلِهِ مُوصُولُ
وَلَيْسَ سَبَقْتُ وَلَا سَبَقْتُ لَيَمْضِينَ مَنْ لَا يُشَاكِلُهُ لَدَيَّ خَلِيلُ
وَلَيَذْهَبَنَّ بِهَاءِ كُلِّ مُرْوَعَةٍ وَلَيُفْقَدَنَّ جَمَالَهَا الْمَاهُولُ
وَأَرَاكَ تَكَلَّفَ بِالْعِتَابِ وَوُدُنَا صَافٍ عَلَيْهِ مِنَ الْوَفَاءِ دَلِيلُ
وَدُّ بَدَا لِدَوِي الْإِخَاءِ جَمَالُهُ وَبَدَتْ عَلَيْهِ بِهِجَةٌ وَقَبُولُ
وَلَعَلَّ أَيَّامَ الْحَيَاةِ قَصِيرَةٌ فَعَلَامَ يَكْثُرُ عَثْبُنَا وَيَطُولُ

وهذه غاية في تحليل المعنى وتعليقه : فانا نراه ابتدأ بشكوى الزمان، ونصح صديقه بانتهاب الفرص السوانح، ثم أخذ يقنع صديقه بأن الحرّ في الدنيا قليل، وبأن من الحزم ألا ينجنى المرء على صديق لا ذنب له، فقد صدع بينهما أحداث المنية، أو عاديّات الليالي.

وقد بلغ غاية الرفق حين شرع يذكر لصديقه أنه إن سبقه إلى الموت فسيكثر عويله عليه، وستعظم فجيعة فيه، وهذا اعتراف منه لصديقه بالوفاء، وهذا الاعتراف نفسه نوع من التألف والاستعطاف. وانظر كيف دق ولطف في قوله : وَلَيْسَ سَبَقْتُ — وَلَا سَبَقْتُ — لَيَمْضِينَ

مَنْ لَا يُشَاكِلُهُ لَدَيَّ خَلِيلُ
ولعل الجملة الاعتراضية لم تقع موقعاً أدق من هذا ولا أظرف. وهذه القصيدة من الصور الشعرية البديعة، وهي بلا شك أوفى من أبيات ابن القائف، وأبرع من أبيات الطغراني، وهي فوق ذلك نص فيما قصد الشاعر إليه : من ردّ صديقه إلى شرعة الإلفة، وصرفه عن موارد الصدود.

أراد العباس بن مرداس السلمي أن ينصف أعداءه، وهو يفخر بقومه ويذكر صبرهم على الجلاء، وصدقهم في اللقاء، فقال :

وَلَمْ أَرْ مِثْلَ الْحَيِّ حَيًّا مُصَبِّحًا وَلَا مِثْلَنَا يَوْمَ التَّقِينَا فَوَارِسَا
أَكْرَرُ وَأُحْمَى لِلْحَقِيقَةِ مِنْهُمْ وَأَضْرَبَ مِنَّا بِالسُّيُوفِ الْقَوَانِيسَا^(١)
إِذَا مَا شَدَدْنَا شِدَّةً نَصَبُوا لَنَا صُدُورَ الْمَذَاكِي وَالرِّمَاحِ الْمَدَاعِيسَا^(٢)
إِذَا الْخَيْلُ جَالَتْ عَنْ صَرِيحٍ نَكُرُهَا عَلَيْهِمْ فَمَا يَرْجِعُنَّ إِلَّا عَوَابِيسَا

ولهذه الأبيات قيمة أي قيمة : ولكن أتراها تبلغ في تقرير المعنى، وتمكينه في النفس، ما يبلغه قول عبد الشارق بن عبد العزى الجهني :

أَلَا حُيِّتِ عَنَّا يَا رُدَيْنَا نُحْيِيهَا وَإِنْ كَرُمْتَ عَلَيْنَا
رُدَيْنَةُ لَوْ رَأَيْتِ غَدَاةَ جِئْنَا عَلَى أَضْمَانِنَا وَقَدْ آخَتُونِنَا^(٣)
فَأَرْسَلْنَا أَبَا عَمْرٍو رَيْبًا فَقَالَ أَلَا أَنْعَمُوا بِالْقَوْمِ عَيْنَا
وَدَسُّوا فَارِسًا مِنْهُمْ عِشَاءً فَلَمْ نَعْدِرْ بِفَارِسِهِمْ لَدُنْنَا
فَجَاءُوا عَارِضًا بَرْدًا وَجِئْنَا كَمِثْلِ السَّيْلِ نَرْكَبُ وَازْعَيْنَا
تَنَادَوْا يَا بُهَّةَ إِذْ رَأُونَا فُقُلْنَا أَحْسِنِي ضَرْبًا جُهَيْنَا
سَمِعْنَا دَعْوَةً عَنْ ظَهْرِ غَيْبٍ فَجَلْنَا جَوْلَةً ثُمَّ أَرْغُونَا
فَلَمَّا أَنْ تَوَاقَفْنَا قَلِيلًا أَنْخَنَا لِلْكَلاَكِلِ فَأَرْتَمِينَا^(٤)
فَلَمَّا لَمْ نَدْعِ قَوْسًا وَسَهْمًا مَشِينَا نَحْوَهُمْ وَمَشُوا إِلَيْنَا
تَلَالُؤَ مُزْنَةٍ بَرَقَتْ لِأُخْرَى إِذَا حَجَلُوا بِأَسْيَافِ رَدِينَا^(٥)
شَدَدْنَا شِدَّةً أُخْرَى فَجَرُّوا بِأَرْجُلِ مِثْلِهِمْ وَرَمَوْا جُوينَا^(٦)

(١) جمع قونس، وهو أعلى الرأس.

(٢) من الدعس، وهو الطعن.

(٣) الأضمانات : الأحقاد، والاحتواء : خلو الجوف من الطعام.

(٤) الكلاكيل : الصدور.

(٥) حجل : تربث في مشيه على رجله، وردى : أسرع.

(٦) جوب : هو أحو الشاعر وسيرثيه أشرف رثاء بالبيت التالي.

وَكَانَ أَخِي جُوَيْنٌ ذَا حِفَاطٍ وَكَانَ الْقَتْلُ لِلْفَتَيَانِ زَيْنَا
فَأَبُوا بِالرَّمَاكِ مَكْسَّرَاتٍ وَأَبْنَا بِالسُّيُوفِ قَدِ آنَحَيْنَا
وَبَاتُوا بِالصَّعِيدِ لَهُمْ أَحَاخٌ وَلَوْ خَفَّتْ لَنَا الْكَلَمَى سَرِينَا

فهذه صورة شعرية مثل الشاعر بها الموقعة أحسن تمثيل. وإنك لتراه ينتقل من وصف إلى وصف في سهولة ورفق، ونراه في الوفت نفسه صادقاً فيما يقول، إذا لم يرد في قصيدته ما يحمل القارئ على تكذيبه، أو رمية بالغلو والإسراف، وانظر كيف اكتفى في رثاء أخيه حين صرع بهذا البيت السهل المقبول:

وَأَيُّ فِتْنَى لَا يَتَمَنَّى أَنْ يَرْمِيَ بِنَفْسِهِ فِي سَعِيرِ تِلْكَ الْحَرْبِ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا هَذَا
الْفَتَى النَّبِيلُ، وَهُوَ فِيمَا يَقُولُ غَيْرَ ظَنِينَ :

تَنَادَوْا يَا بُهْتَةً إِذْ رَأَوْنَا فَقُلْنَا أَحْسِنِي ضَرْباً جُهَيْنَا
سَمِعْنَا دَعْوَةً عَنْ ظَهْرٍ غَيْبٍ فَجُلْنَا جَوْلَةً ثُمَّ أَرْعَوَيْنَا
فَلَمَّا أَنْ تَوَافَقْنَا قَلِيلًا أَنْخَا لِلْكَلاَكِلِ فَأَرْنَمِينَا
تَلَأَلُوْا مُزْنَةً بَرَقَتْ لِأُخْرَى إِذَا حَجَلُوا بِأَسْيَافٍ رَدَيْنَا

والشاعر الواحد قد يكلف بترديد معنى من المعاني فلا يزال يبدأ ويعيد حتى يضع له صورة شعرية يصل بها إلى ما يريد، كالعباس بن الأحنف في ولوعه بكتمان الوجد، وجحود الحب، فقد افتنن في هذا المعنى ووضع له صوراً عديدة، فتارة يعتذر عن هجره فيقول :

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا أَرَدْتُ بِهَجْرِكُمْ إِلَّا مُصَانَعَةَ الْعَدُوِّ الْكَاشِحِ
وَعَلِمْتُ أَنَّ تَبَاعُدِي وَتَسْتُرِي أَذْنَى لِرِوْضِكَ مِنْ دُنُوِّ فَاضِحِ

وأحلى من هذا قوله في تعيين نوع الصدود :

سَاهُجُرُ الْفِي وَهَجْرَانَهَا إِذَا مَا التَّقِينَا صُدُودُ الْخُدُودِ
كِلَانَا مُجِبٌّ وَلَكِنَّنَا نُدَافِعُ عَنْ حُبِّنَا بِالصُّدُودِ

وتارة يُعَلِّلُ الكتمان فيقول :

سَأَسْتُرُ وَالسَّتْرُ مِنْ شَيْمَتِي هَوَى مَنْ أُحِبُّ بَمَنْ لَا أُحِبُّ
وَلَا بَدَ مِنْ كَذِبٍ فِي الْهَوَى إِذَا كَانَ دَفْعُ الْأَذَى بِالْكَذِبِ

وحيناً يصف اضطراب الناس في الحديث عن وجده فيقول :
قَدْ سَحَبَ النَّاسُ أَذْيَالَ الظُّنُونِ بَنَّا وَفَرَّقَ النَّاسُ بَيْنَا قَوْلَهُمْ فِرْقًا
فَجَاهِلٌ قَدْ رَمَى بِالظَّنِّ غَيْرَكُمْ وَصَادِقٌ لَيْسَ يَدْرِي أَنَّهُ صَدَقَا

وأظنه لم يبلغ من البيان ما أراد إلا حين قال :
كَذَبْتُ عَلَى نَفْسِي فَحَدَّثْتُ أَنِّي سَلَوْتُ لِكَيْمَا يُنْكِرُوا جِينَ أَصْدُقُ
وَمَا مِنْ قَلْبٍ مِنِّي وَلَا عَنْ مَلَالَةٍ وَلَكِنِّي أُبْقِي عَلَيْكَ وَأُشْفِقُ
عَظَفْتُ عَلَى أَسْرَارِكُمْ فَكَسَوْتُهَا قَمِيصاً مِنَ الْكُثْمَانِ لَا يَتَخَرَّقُ

وللقارئ أن يحلل هذا المعنى، فقد مهدت له السبيل^(١)

(١) ارجع إلى هذه المعاني الوجدانية في الطبعة الثانية من كتاب : (مدامع العشاق) .

البحث العاشر

اختلاف الصور الشعرية

— ١ —

وقد نجد للموصوف الواحد صورتين مختلفتين لاختلاف العاطفة عند شاعرين، فمن ذلك قول ابن الزيات في برذون أشهب كان المعتصم أخذه منه، وكان أحمد ابن خالد ذكره له، ووشى به إليه :

قَالُوا جَزَعْتَ فَقُلْتُ إِنَّ مُصِيبَةً ^(١)	جَلَّتْ رَزِيَّتُهَا وَضَاقَ الْمَذْهَبُ
كَيْفَ الْعِزَاءُ وَقَدْ مَضَى لِسَبِيلِهِ	عَنَّا فَوَدَّعْنَا الْأَحْمُ الْأَشْهَبُ
دَبَّ الْوُشَاةُ فَأَبْعَدُوهُ وَرُبَّمَا	بَعْدَ الْفَتَى وَهُوَ الْحَبِيبُ الْأَقْرَبُ
لِلَّهِ يَوْمَ غَدَوْتَ عَنِّي طَاعِنًا	وَسُلِبْتُ قُرْبَكَ أَيَّ عِلْقٍ أُسْلِبُ
الآنَ إِذْ كَمَلْتُ أَدَاتَكَ كُلُّهَا	وَدَعَا الْعُيُونَ إِلَيْكَ لَوْ مُعْجَبُ
وَأَخْتِيرَ مِنْ سِرِّ الْحَدَائِدِ خَيْرُهَا	لَكَ خَالِصًا وَمِنْ الْحُلِيِّ الْأَغْرَبُ
وَعَدَوْتَ طَنَانَ اللَّجَامِ كَأَنَّمَا	فِي كُلِّ عُضْوٍ مِنْكَ صَنْجٌ يُضْرَبُ
وَكَأَنَّ سَرَجَكَ إِذْ عَلَاكَ غَمَامَةٌ	وَكَأَنَّمَا تَحْتَ الْعِمَامَةِ كَوَكَبُ

(١) ان — هنا — حرف جواب بمعنى نعم، ولها شواهد كثيرة ذكرها النحويون.

وَرَأَى عَلَيَّ بِكَ الصَّدِيقُ مَهَابَةً وَعَدَا الْعَدُوُّ وَصَدْرُهُ بَتْلَهَبُ
أَنْسَاكَ؟ لَا بَرَحْتُ إِذَا مَنْسِيَّةً نَفْسِي وَلَا زَالَتْ بِمِثْلِكَ تُنْكَبُ

وهذه صورة شعرية لجواد انتزع من صاحبه، فلنذكر صورة شعرية لحصان

لم يفجع صاحبه فيه، كقول البحري :

وَأَغْرَ فِي الزَّمَنِ الْبَهِيمِ مُحَجَّلٍ قَدْ رُحْتُ مِنْهُ عَلَى أَغْرٍ مُحَجَّلٍ
كَالْهَيْكَلِ الْمَبْنِيِّ إِلَّا أَنَّهُ فِي الْحُسْنِ جَاءَ كَصُورَةٍ فِي هَيْكَلٍ
وَفِي الصُّلُوعِ يَسُدُّ عَقْدَ حِزَامِهِ يَوْمَ اللِّقَاءِ عَلَى مُعِمِّ مُخُولٍ
أَخْوَالُهُ لِلرُّشْتُمِينَ بِفَارِسٍ وَجُدُوهُ لِلتَّبْعِينَ بِمَوْكِلٍ^(١)
يَهْوَى كَمَا تَهْوَى الْعُقَابُ وَقَدْ رَأَتْ صَيْدًا وَيَتَصَيَّبُ أَنْتِصَابَ الْأَجْدَلِ
ذَنْبٌ كَمَا سُجِبَ الرِّشَاءُ يَذُّ عَنْ عُرْفٍ، وَعُرْفٌ كَالْقِنَاعِ الْمَسْبَلِ
ذَهَبُ الْأَعَالِي حَيْثُ تَذْهَبُ مُقْلَةٌ فِيهِ بِنَظَرِهَا حَدِيدُ الْأُسْفَلِ
صَافِي الْأَدِيمِ كَأَنَّمَا عُنِيتَ بِهِ لِيَصْفَاءَ نِقْبَتِهِ مَدَاوِسُ صَيْقِلٍ^(٢)
وَتَرَاهُ يَسْطَلُ فِي الْغُبَارِ لَهْيُهُ لَوْنًا وَشَدًّا كَالْحَرِيقِ الْمُشْعَلِ
هَزَجُ الصَّهِيلِ كَأَنَّ فِي نَعْمَاتِهِ نَبْرَاتٍ مَعْبَدَةٍ فِي الثَّقِيلِ الْأَوَّلِ
مَلِكُ الْعُيُونِ فَإِنْ بَدَا أُعْطِيَتْهُ نَظَرَ الْمُحِبِّ إِلَى الْحَبِيبِ الْمُقْبِلِ

والموازنة بين هاتين القصيدتين تتوقف على معرفة السبب الذي قيلت فيه القصيدة الأولى، والسبب الذي قيلت فيه القصيدة الثانية، ومتى عرفنا أن الشاعر الاول : وصف حصانه وهو جازعٌ محزون، وأن الشاعر الثاني : وصف حصانه وهو فرح مختال، استطعنا أن نعرف السبب فيما بين القصيدتين من الفروق، فقد ابتداء ابن الزيات فشرح حُزْنَهُ على ذلك الحصان المسلوب بما يشبه أن يكون مرثبة لغلام نكب به، وهذا الجزء من القصيدة اقتضته « ظروف » ابن الزيات، فهو في الوصف غير محسوب ثم انتقل إلى وصف الفرس فابتدأه بأبيات هي أنموذج في الرثاء، ألا تراه يقول :

(١) موكل على وزن مقعد : حبل أو حصن، وفرس ربعة س غرالة السكوي . « فاموس » .

(٢) الصقل : شحاذ السوف، والمداوس جمع مدوس، وهو المصقله.

الآن إذ كملت أداتك كلها ودعا العيون إليك لو أن معجب
وأختير من سرّ الحدايد خيرها لك خالصاً ومن الحلي الأغرب
وغدوت طنان اللجام كأنما في كل عضو منك صنج يضرب

وهذا النمط في التعبير كان شائعاً في الرثاء لذلك العهد، ومنه قول بعض الشعراء :

الآن لما صرت أكمل من مشى وافتتر نأبك عن شبة الفارح
وتكاملت فيك الشمائل كلها وغدوت ربّ مدائح ومنايح

ويدلّك على أن ابن الزيات إنما يصف حزنه على ذلك الجواد أنك تراه يطنب في وصف المظاهر الأخاذة التي تبهر الناظرين، ليكشف عن سر الثيمة التي رزاه بها ابن خالد عدوه اللدود، وإلا فما معنى قوله :

وكان سرجك إذ علاك غمامة وكأنما نحت الغمامة كوكب
ورأى عليّ بك الصديق مهابة وغدا العدو وصدره يتلهب

وكان ذلك لأن ابن الزيات محقق مغیظ لا يفكر في عتق فرسه أكثر مما يفكر في نكته بذلك العدو الذي سدّ عليه طريق الخيلاء حين أغرى المعتصم بأخذ برذونه الجميل.

وجملة ما وصف به ابن الزيات برذونه أنه كامل الأداة، وأنه يروق العيون، وأنه اختار له من الحديد سره، ومن الحلي أغربه، وأنه طنان اللجام، وأن سرجه كالغمامة، وهو من تحته كالكوكب، وأنه يكبت العدو، ويسر الصديق.

وهذه أوصاف لاتماثل ولا توازن بأوصاف البحري لجواده، فقد ذكر أنه أغر محجّل، وأنه في نكوينه :

كالهيكَل المَبْنِيّ إِلَّا أَنَّهُ فِي الْحُسْنِ جَاءَ كَصُورَةٍ فِي هَيْكَلٍ

وأنه وافي الضلوع، وأنه أصيل : أخواله في بلاد الأكاسرة، وأجداده في بلاد التبابعة، وأنه يهوي هويّ العقاب حين الصيد، ثم ينتصب انتصاب الأجلد، وأنه برّاق الجوانب : تنوهم في جبينه البدر، وفي أرساغه الجوزاء، وأن ذنبه لطوله

كالرداء المسحوب، وأنه صافي الأديم كأنما سهرت على لونه الصياقل، وأنتك تحسب بريق سنايكه في الغبار ناراً يعلوها دخان، وأنه هزج الصهيل حتى لتحسب في نغماته نبرات معبد في صوته الرخيم، وأنه ملك العيون، حتى لتنظر إليه نظر المحب إلى الحبيب المقبل.

وليس عجباً أن يجيد البحري هذه الإجابة في وصف جواد كان يهتك بغرته ظلمة الليل، وينحدر به في الفضاء، كما تنحدر الصخرة الصماء عن القمة السماء. أما ابن الزيات فهو حريب سليب، لم يذكر من جواده غير شياته الظاهرة، التي أجمت في صدر حسوده نار العداوة والبغضاء.

— ٢ —

ذلك هو اختلاف الصورة الشعرية، وفي مقدور الناقد أن يتبين الصورة الموحدة عند شاعرين، ثم يوازن بين براعهما في التصوير، ولنضرب المثل بوصف الحمامة الباكية، فقد أكثر منه الشعراء، فنجد قول أبي محلم الشيباني من قصيدة اقترحها عليه طاهر بن الحسين، وقد كبرت سنه، وطالت غربته :

وَأَرْقَنِي بِالرَّيِّ نَوْحُ حَمَامَةٍ	فَنُحْتُ وَذُو الشَّجْوِ الْعَرِيبُ يَنْوَحُ
عَلَى أَنَّهَا نَاحَتْ وَلَمْ تُذَرِ دَمْعَةٌ	وَنُحْتُ وَأَسْرَابُ الدُّمُوعِ سُفُوحُ
وَنَاحَتْ وَفَرَحَاحَا بِحَيْثُ تَرَاهُمَا	وَمِنْ دُونِ أَفْرَاجِي مَهَامُهُ فَيَحُ ^(١)

وتجد قول ابن الدمينه :

أَلَا يَا حَمَامَاتِ اللَّوَى عُدْنَ عَوْدَةً	فَإِنِّي إِلَيَّ أَصَوَاتِكُنَّ حَزِينُ
فَعُدْنَ فَلَمَّا عُدْنَ كِدْنَ يُمِثَّنِّي	وَكِدْتُ بِأَشْجَانِي لَهُنَّ أُيِّنُ
فَلَمْ تَرَ عَيْنِي مِثْلَهُنَّ بَوَاكِياً	بَكَيْنَ وَلَمْ تَذْرِفْ لَهُنَّ عُيُونُ

ونجد قول ديك الجن :

(١) فبح : جمع أفبح، وهو الواسع العرض.

حَمَائِمُ وُرُقٌ فِي حِمَى وَرَقٍ خُضِرُ
لَهَا مُقْلٌ تُجْرِي الدُّمُوعَ وَلَا تُجْرِي
تَكَلَّفَنَ إِسْعَادَ الْعَرِيَّةِ إِنْ بَكَتْ
وَأِنْ كُنَّ لَا يَذْرِيْنَ كَيْفَ جَوَى الصَّدْرِ
لَهَا حُرْقٌ لَوْ أَنَّ خَنَسَاءَ أَغَوَلَتْ
بِهِنَّ لَأَدَّتْ حَقَّ صَخْرٍ إِلَى صَخْرٍ
فَقُلْتُ لِتَنْفِسِي هَاهُنَا طَلَبُ الْأَسَى
وَمَعْدِنُهُ إِنْ فَاتَنِي طَلَبُ الصَّبْرِ

ونحن إذا تأملنا أبيات أبي محلم، وأبيات ابن الدمينه، وأبيات ديك الجن لم نجد فيها صورة شعرية، ويظهر الفرق واضحاً إذا قابلناها بقول الطغرائي من قصيدة طويلة :

أَيْكِيَّةٌ صَدَحَتْ شَجَوًّا عَلَى فَنَنِ
نَاحَتْ وَمَا فَقَدَتْ إِلْفًا وَلَا فُجَعَتْ
طَلِيقَةً مِنْ إِسَارِ الْهَمِّ نَاعِمَةً
تَشَبَّهَتْ بِي فِي وَجْدِي وَفِي طَرْبِي
مَا فِي حَشَاهَا وَلَا فِي جَفْنِهَا أَثَرُ
يَارَبَّةَ الْبَانَةِ الْعَنَاءِ تَحْضُنُهَا
إِنْ كَانَ نَوْحُكَ إِسْعَادًا لِمُعْتَرِبٍ
فَقَارِضِيْنِي إِذَا مَا اعْتَادَنِي طَرْبُ
أَوَّلًا فَقَضْرُكَ حَتَّى أُسْتَعِينَ بِمَنْ
مَا أَنْتَ مِنِّي وَلَا يَعْنِيكَ مَا أَخَذْتُ
كِلِي إِلَى الْغَيْمِ إِسْعَادِي فَإِنَّ لَهُ

فَاشْعَلَتْ مَاخَبًا مِنْ نَارِ أَشْجَانِي
فَذَكَّرْتَنِي أَوْطَارِي وَأَوْطَانِي
أَضَحَتْ تُجَدِّدُ وَجْدَ الْمُؤْتِنِ الْعَانِي
هَيْهَاتَ مَا نَحْنُ فِي الْحَالِكِينَ سَيَّانِ
مِنْ نَارِ قَلْبِي وَلَا مِنْ مَاءِ أَجْفَانِي
خَضِرَاءُ تَلْتَفُ أَغْصَانًا بِأَغْصَانِ
نَاءٍ عَنِ الْأَهْلِ مَمْنُوءٍ يَهْجُرَانِ
وَجَدًّا يَوْجِدُ وَسَلْوَانًا بُسْلُوَانِ
يَعْنِيهِ شَأْنِي وَيَأْسُو كَلَمَ أَحْزَانِي
مِنْهُ الْهُمُومُ وَلَا تَذْرِيْنَ مَا شَانِي
دَمْعًا كَدَمْعِي وَإِرْنَانًا كِإِرْنَانِي

وهذه صورة شعرية بديعة تمثل حال الموضع الحزين، وقد هاجته الحماسة الباكية، وإنك لترى الشاعر يوازن بين حاله وبين حال تلك الأيكية الساجعة موازنة دقيقة تروع القلب، وتهيج الوجدان، وانظر كيف يقول :

طَلِيقَةٌ مِنْ إِسَارِ الْهَمِّ نَاعِمَةٌ أَضَحَّتْ تُجَدِّدُ وَجَدَ الْمُؤَثَّقِ الْعَانِي

وهذا غابة في وصف الحزن، واليأس من السلوان، فإن وصف الحمامة بالتصنع في بثها وشجائها أدل على لوعة الشاعر وأسأه، ولا كذلك الافتناع بحزن الحمام الشاديات، فإن فيه شيئاً من الراحة لأنس الحزين بالحزين.

ولك أن تذكر أن هنا شيئاً من اختلاف الصورة، فإن أبا محلم يأسى لغربته، ويتفجع لبعد أطفاله، في حين إن الحمامة تبكي وقد جمع بينها وبين أفرانها غصن واحد، فماذا تبغي وقد وقاها الله بتبديد السمل وفرقة الأحباب !

وابن الدمينه تراجع حمامات اللوى، ويسألهن العوده، ثم يذكر أنه كاد يفصح عن أسرارهِ حين بكيّن بجانبه، وإن لم تذرف لهن عيون، ودبك الجن يردد معنى قريباً من معنى ابن الدمينه، أما الطغرائي فقد أتى بفكرة طريفة، وسلك مسلكاً يدل على عنايته بتحديد ما يقول.

وأريد بهذا الفصل الوجيز أن ألفت نظر الناقد إلى ما يجب عليه من اختيار الصور الشعرية وإدراك ما بينها من دقائق الاختلاف والائتلاف : فإن الموازنة نوع من الوصف وبيان ما بين الصور من مختلف الفروق.

البحث الحادي عشر

الصور الشعرية في القرآن

ولقد رأيت من رجال الأدب من يحسب الصورة الشعرية نوعاً من الاستعارة التمثيلية، وفي تصحيح ذلك الخطأ نسوق هذا الحديث.

— ١ —

الاستعارة التمثيلية هي ضرب من التشبيه يكون فيه المشبّه والمشبّه به هيئةً منتزعةً من عدّة أمور متحقّقة أو مُتَخَيَّلَة، ومن هذه الاستعارة ينكون أكثر الأمثال السائرة، فيكون لبعضها موارد حقيقية، ولأكثرها موارد خيالية.

وللأمثال — كما قال المرحوم أستاذنا المهدي — أربعة أضرب :

الأول — ما له مورد حقيقي كمواعد عُرقوب في قول كعب بن زهير :
كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلًا وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا الْأَبَاطِيلُ

الثاني — الخيالي الممكن، وهو ما نُسب الكلام والعمل فيه إلى عاقل كما جاء في أمثال لقمان أن صبيّا كان يستحم في نهر، ولم يكن يحسن السباحة، فأشرف على الغرق، فاستغاث برجل عابر في الطريق، فأقبل عليه، وجعل يلومه على نزوله إلى النهر، فقال الصبي : « يا هذا ! خلّصني من الموت ثم لُمّني ! ».

الثالث — الخيالي المستحيل، وهو ما جاء على ألسنة الحيوان والجماد للاعتبار به، كما فعل نصر بن منيع، وكان خارجاً على المأمون، فسير إليه جيشاً ظفر به، فلما مثل بين يدي المأمون أمر بضرب عنقه، فقال : يا أمير المؤمنين ! أسمع مثلاً حَطَرَ على بالي ؟ فقال : قل، فانشأ يقول :

زَعَمُوا بَأَنَّ الصَّقْرَ صَادَفَ مَرَّةً عُصْفُورٌ بِرٍّ سَاقَهُ التَّفْدِيرُ
فَتَكَلَّمَ الْعُصْفُورُ تَحْتَ جَنَاحِهِ وَالصَّقْرُ مُنْقَضٌ عَلَيْهِ يَطِيرُ
إِنِّي لِمِثْلِكَ لَا أَتَمُّ لُقْمَةً وَلَئِنْ شُيْتُ فَإِنِّي لِحَقِيرُ
فَتَهَاوَنَ الصَّقْرُ الْمُدِلُ بِصَيْدِهِ كَرَمًا وَأَفْلَتَ ذَلِكَ الْعُصْفُورُ

الرابع — الخيالي المختلط من الممكن والمستحيل، وهو ما جمع بين الناطق وغيره، كحديث الحية والأخوين : فقد زعموا أن أخوين هبطا بغنمهما وادياً فيه حية تحميه، وبينما كان أحدهما يرعى غنمه إذ نهشته الحية فقتلته. فقال أخوه : والله ما في الحياة خير بعده، ولأطلبن الحية. فلما لقيها وهما يقتلها قالت : ألا ترى ألي قتلته وندمت على ما كان مني ! فهل لك في الصلح، فأدعك في هذا الوادي آمناً، وأعطيك دية أخيك كل يوم ديناراً ؟ فصالحها على ذلك، وحلفت له وحلف لها، وما زالت تعطيه حتى كثر ماله. فلما أحس الغنى قال : كيف ينفعني هذا العيش، وأنا أرى قاتل أخي ! فعمد إلى فأس فأحدها ثم انتظر، فلما مرت به ضربها فشجها وأخطأ مقتلها، فقطعت عنه الدنار وتوعدته فخاف شرها، وقال: هل لك أن نتعاهد على المودة كما كنا ؟ فقالت: لا ! لأبك كلما نظرت إلى قبر أخيك وجدت عليّ، وكلما ذكرت الشحة التي في رأسي وجدت عليك ! وفي ذلك يقول النابغة الذبياني من قصيدة يعاتب بها بني مرة:

وَإِنِّي لَأَلْقَى مِنْ ذَوِي الضُّعْنِ مِنْهُمْو وَمَا أَصْبَحْتُ تَشْكُو مِنْ الْوَحْدِ سَاهِرَةً
كَمَا لَقِيتُ ذَاتُ الصَّفَا مِنْ حَلِيفِهَا وَمَا انْفَكَّتِ الْأُمُثَالُ فِي النَّاسِ سَائِرَةً
فَقَالَتْ لَهُ أَدْعُوكَ لِلْعَقْلِ وَافِيَا وَلَا تَعْشِيَنِي مِنْكَ بِالظُّلْمِ بَادِرَةً^(١)

(١) العقل — هنا — هو الدية.

فَوَاتَّقْهَا بِاللَّهِ حِينَ تَرَاضِيَا
فَلَمَّا تَوَفَّى الْعَقْلُ إِلَّا أَقْلَهُ
تَذَكَّرَ أَنِّي يَجْعَلُ اللَّهُ فُرْصَةً
فَلَمَّا رَأَى أَنَّ ثَمَرَ اللَّهِ مَالَهُ
أَكْبَّ عَلَى فَأْسٍ يَحُدُّ غُرَابَهَا
فَقَامَ لَهَا مِنْ فَوْقِ جُحْرِ مُشِيدٍ
فَلَمَّا وَقَاهَا اللَّهُ ضَرْبَةً فَأَسِهُ
فَقَالَ تَعَالَى نَجْعَلُ اللَّهُ بَيْنَنَا
فَقَالَتْ يَمِينُ اللَّهِ أَفْعَلُ إِنِّي
أَبَى لِي قَبْرٌ لَا يَزَالُ مُقَابِلِي

فَكَانَتْ تَدِيهِ الْمَالَ غِبًّا وَظَاهِرَهُ
وَجَارَتْ بِهِ نَفْسٌ عَنِ الْحَقِّ جَائِرَهُ
فَيُصْبِحُ ذَا مَالٍ وَيَقْتُلُ وَائِرَهُ
وَأَثَلَ مَوْجُودًا وَسَدَّ مَفَاقِرَهُ
مُذَكِّرَةً مَثْنِ الْمَعَاوِلِ بَاتِرَهُ
لِيَقْتُلَهَا أَوْ تُخْطِئَ الْكَفَّ بَادِرَهُ
وَلِلْبَرِّ عَيْنٌ لَا تُعْمَضُ نَاطِرَهُ
عَلَى مَالِنَا أَوْ تُنْجِزِي لِي آخِرَهُ
رَأَيْتُكَ غَدَارًا يَمِينُكَ فَاجِرَهُ
وَضَرْبَةً فَأَسٍ فَوْقَ رَأْسِي فَاقِرَهُ

— ٢ —

وفي القرآن أمثال كثيرة لها موارد خيالية، من ذلك قوله تعالى :

﴿ وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ
وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي
فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ
مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّدَقُ الَّذِي كَانُوا
يُوعَدُونَ . وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفْ لَكُمْمَا أْتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ
مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفْغِيَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا
أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ
مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾

فإن هذا تشبيه وتمثيل يراد به تصوير حال الأبرار والفجار، وما لهؤلاء من
الحزى، وما لأولئك من النعيم.

وأُصرح من هذا قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا
جَهُولًا ﴾

فإنه لم يحصل عرض ولا إباء ولا إسفاق، وإنما المراد تصوير التكليف وما
فيها من المشقة، وتصوير الإنسان وما يغلب عليه من الغرور والجهل بخقائق
الأشياء.

وكذلك قوله عز شأنه : ﴿ قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ تُكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي
يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا
وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمِئِذٍ
السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾

فإن الغرض تصوير القدرة الإلهية، وما لها من السلطان المطلق في الأرض
والسما. وتظهر قيمة هذا التصوير إذا نظرنا في الآيات التي قصدها الترغيب
والترهيب كقوله تبارك اسمه :

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ
اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ وَأُشْرِقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ
الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ. وَوُفِّيَتْ
كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾

فإنك تراه يصور ما سيكون بصورة الواقع الخيف، ثم تراه يتبع ذلك بقوله :
﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ
لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ
يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ. قِيلَ ادْخُلُوا
أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَيُخْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾.

هذا في الترهيب، ثم قوله في التشوين إلى دار النعيم :

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ. وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾.

قال صاحب الطراز : ومن التمثيل الرائق قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾. وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾.

فَهُمْ لِإِعْرَاضِهِمْ عَنِ الدِّينِ، وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى الْمُخَالَفَةِ لَمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَبُلُوغِ الْغَايَةِ فِي الصَّدِّ وَالنَّكَوَصِ، مُمَثِّلُونَ بِحَالٍ مِنْ جُعَلٍ عَلَى قَلْبِهِ كَنَانٌ فَهُوَ لَا يَفْقَهُ مَا يُقَالُ لَهُ، وَلَا يَرَعُو لِقَبُولِهِ، وَبِحَالٍ مِنْ ضَرْبٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَرَادِهِ بَسَدٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ فَهُوَ لَا يَهْتَدِي إِلَيْهِ، وَلَا يُمْكِنُهُ الْوُصُولُ إِلَى بَغِيَّتِهِ بِحَالٍ.

والتمثيل تشبيه حالة بحالة كقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾.

فإن الشبه كما قال عبد القاهر الجرجاني منتزع من أحوال الحمار، وهو أنه يحمل الأسفار التي هي أوعية العلوم، ومستودع ثمر العقول، ثم لا يحس بما فيها، ولا يشعر بمضمونها، ولا يفرق بينها وبين سائر الأعمال التي لبست من العلم في شيء، ولا من الدلالة عليه بسبيل، فليس له مما يحمل حظ سوى أنه يتقل عليه، ويكد جبينه، فهو كما ترى مقتضى أمور مجموعة، ونتيجة لأشياء ألفت، وقرن بعضها إلى بعض^(١).

ولعلماء البيان كلام كثير في الفرق بين الاستعارة والكناية والتمثيل وإنما يعني أن يعرف القارئ أن هذا النوع من التعبير ليس من الصور الشعرية التي أسلفت عنها الحديث، وإن كان في ذاته نوعاً من التصوير لما فيه من روعة الخيال.

(١) راجع أسرار البلاغة.

ويمكن أن يقال إن الاستعارة التمثيلية صورة للمعنى، أما الصورة الشعرية فهي مثال للغرض، فقوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ تمثيلٌ يراد به تقرير معنى خاص : هو قدرة الله. أما تصوير الغرض بصورة شعرية فكقوله تعالى في آخر سورة المائدة :

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ : يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ . مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ آعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تُغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

فإنه لا شك في أن هذا تصوير للغرض، لا للمعنى، والمعنى جزء من الغرض، فإن هذا الحوار البديع الذي جرى بين رب العزة وبين عبده ورسوله عيسى عليه السلام يمثل غرضاً كلياً يشتمل على طائفة من المعاني الجزئية، فتصوير المعنى الجزئي هو الاستعارة أو التمثيل، وتصوير الغرض الكلي هو الصورة الشعرية التي يراد بها الوصول إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه من التأثير الذي هو غاية البيان.

ومن الصور الشعرية قوله تعالى في تحديد موقف المسلمين أمام أعدائهم من المشركين :

﴿ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُمْ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ. فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُواهُمْ وَاحْضَرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ. كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ. أَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ. فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكَفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ. أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهُمْ يُبَايِعُوكُمْ وَهُمْ يَدْعُوكُمْ أُولَ مَرَّةٍ أَنْ تَخْشَوْهُمْ فَاذْكُوا شُحْمَكُمْ أَلَا تَخْشَوْنَ أَنْ تُخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨٩﴾

وأحب أن يذكر القارئ أي أتكلم عن القرآن من الوجهة الأدبية بغض النظر عما في مثل هذه الآيات من أحكام القتال، وما قد ينظر فيه الفقيه من وجوه النسخ وضروب التأويل، وأقرر أن هذه الصورة تكاد تكون خطبة في الدعوة إلى الجهاد.

وتمتاز الصور الشعرية في القرآن بتثبيت المعنى وتأكيده حين يقتضي المقام ذلك والقرآن لا يرى غضاظة في التكرار حين يحتاج إليه، بل يراه واجبا محتوما الأداء وإنك لتجده في هذه الآيات يُبدى ويبعد في لعن المشركين وتحقيرهم، والدعوة

إلى تعذيبهم، وإذلالهم. وتقبلهم، إذ كان ذلك من أغراضه الأساسية. ألا تراه يوصي بالرفق حين يقول :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾. ثم يصرخ صرخة الغضب تتفجّر من جوانبه الدماء، فيقول : ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ. كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾. ثم لا يكفيه هذا بل يقول : ﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَفُضِدُوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾. ثم لا يكفيه هذا بل يقول : ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾. ثم يعود فيقول : ﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾. ثم يثور فيقول : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ صُدُورِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ. وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

وأودّ أن يذكر القارئ أن العهد الذي نزل فيه القرآن كان عهد فتنة وعماية وضلال، وكانت هذه الغضبة التي تفبّض بها جواب القرآن غضبة طبيعية، لا إثم فيها ولا عُدوان. أقول ذلك ليعرف القارئ السر في أني أجعل من القرآن صوراً شعرية، وإن لم يكن النبي عليه الصلاة والسلام من الشعراء، فلبس القرآن من الكتب التي يراد بها التشريع المحض، وإنما هو يذكر القوانين في بساطة وسهولة، ثم يدعو إلى تأييدها وتنفيذها بالقوة والجبروت.

— ٥ —

ومن الصور الشعرية البديعة التي وردت في القرآن قوله عزّ شأنه : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ : إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُ لَهَا عَافِيَيْنَ. قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ، أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ

يَضْرِبُونَ. قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ. قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ. أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ. فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ. الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ. وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ. وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ. وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ. وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ. رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ. وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ. وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ. وَاعْفُ عَنِّي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِينَ. وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُنْعَثُونَ. يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ. ﴿٢٠﴾

اتل هذا أيها القارئ مرة ثانية وثالثة، وحدثني أتجد أعذب من هذا الحديث الممتع ؟ وهل تجد أخف منه على السمع، وأحب منه إلى القلب، وأرفق منه بالنفس ؟ ألا ترى الحسن يجري في هذا الحديث كما يجري السحر في الطرف الكحيل، ويتغلغل الإيمان في قلب قارئه كما ينغلغل الحب في صدر الوالد يرفق به ابنه الوحيد ؟ ؟ .

— ٦ —

ومن الصور الشعرية الرائعة قوله تبارك اسمه :

﴿ كَذَّبْتَ عَادَ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ. أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ. وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ. وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا. وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ. أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ. وَجَنَّاتٍ وَغَيْرِهَا. إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعُظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ. إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ. وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ. فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ. ﴾

* * *

وأنا أستطيع إيراد المثات من الصور الشعرية في القرآن، لو سمح الوقت، ولكن هيهات ! فليكتف القارئ بذلك، وليعلم أن في هذا المنهج غناء أيّ غناء، لمن يريد الموازنة بين الكتاب والخطباء، فإن التأثير يتركز على ما في الخطب والرسائل من الصور الشعرية التي تفعل ما تفعل بالعقول والقلوب. وكم في خطب علي بن أبي طالب ورسائل الجاحظ من الصور الفتانة، التي تسكن إليها شوارد النفوس !

البحث الثاني عشر

المعاني والأغراض

قد رأيتَ حينَ حدثناكَ عن الصور الشعرية في القرآن أننا فرقنا بين المعنى والغرض. والآن نعود إلى إيضاح هذا الرأي، الذي نرجو أن يكون له شيء من النفع في عالم البيان.

— ١ —

كان النقد يتركز على وحدة البيت عند نقد الشعر، وعلى وحدة الفقرة عند نقد النثر، بغضِّ النظر عن وحدة الغرض الذي سيق من أجله الكلام، وكانوا يقولون فيمن يندر له بيت : لو قال هذا وسكت لكان أشعر الناس ! ونحن في تعويلنا على « الصور الشعرية » التي تُمثل الأغراض، لا ننكر أهمية الألفاظ المختارة، والأخيلة الرائعة، التي تأتي في نضاعيف المنظوم والمشور فتمثل المعاني أصدق تمثيل.

أما اللفظ المختار فكقول كثير :

بِأَيِّ وَأُمِّي أَنْتِ مِنْ مَظْلُومَةٍ طَبَنَ الْعَدُوُّ لَهَا فَغَيَّرَ حَالَهَا^(١)

(١) طبن بمعنى فطن، وهو طبن : عالم. وطبنت النار : دفنتها لئلا تطفأ في الطابون، وهو مدفها. وأهل مصر يسمون الخبز : « الطابونة » ولذلك أصل فصيح

لَوْ أَنَّ عَزَّةً خَاصَمَتْ شَمْسَ الضُّحَى فِي الْحُسْنِ عِنْدَ مُوَفَّقٍ لَقَضَى لَهَا
وَسَعَى إِلَيَّ بِصَرْمٍ عَزَّةً نِسْوَةً جَعَلَ الْمَلِكُ حُدُودَهُنَّ نِعَالَهَا

وهذه أبيات عادية، ولكن كلمة « موفّق » في قوله :

لَوْ أَنَّ عَزَّةً خَاصَمَتْ شَمْسَ الضُّحَى فِي الْحُسْنِ عِنْدَ مُوَفَّقٍ لَقَضَى لَهَا

كلمة دقيقة بارعة تمثل مراد الشاعر أصدق تمثيل، لأنه يريد أن يخيّل إليك أن عزة كالشمس في الحسن والإشراق، وأنها لو خاصمت الشمس في الحسن لاشتبه الأمر على من بفصل في هذه الخصومة، وأنه لا بُدّ من التوفيق ليحكم بتفوّق هذه المحبوبة على الشمس، ولا يحتاج الحكم إلى التوفيق إلّا حين يلبس الحق، ويتعذر الفصل وحسب هذه الحسناء أن تفتن الناظر، وأن تكون في نفس المنصف أولى من الشمس بالحمال.

وأما الخيال الرائع فكقول النابغة الذبياني في وصف الليل :

تَطَاوَلَ حَتَّى قُلْتُ لَيْسَ بِمُنْقَضٍ وَلِبْسَ الَّذِي يَرْعَى النُّجُومَ بَآئِبَ

فقد صور النجوم بصورة الإبل تسرح وتمرح في أديم السماء، وصوّر الصبح بالراعي الغائب الذي يخشى أن لا يؤوب، وفي أوبته صرف هذه النجوم.

اذكر هذا ثم تعال ننظر : أهذا هو الغرض الذي سيو من أحله الحديث ؟ كلا ! فإن الغرض أوسع من ذلك، وغرض النابغة أن يشكو إلى محبوبته هجوم الهم على صدره في ظلمة الليل، وقد أفصح عن هذا الغرض في هذه الأبيات :
كَلَيْنِي لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبٍ وَلَيْلٍ أَقَاسِيهِ بَطِيءِ الْكَوَائِبِ
تَطَاوَلَ حَتَّى قُلْتُ لَيْسَ بِمُنْقَضٍ وَلَيْسَ الَّذِي يَرْعَى النُّجُومَ بَآئِبَ
وَصَدْرِي أَرَاكِ اللَّيْلُ غَازِبَ هَمِّهِ تَضَاعَفَ فِيهِ الْحُزْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

وهذه صورة شعربة لتمثيل الغرض الذي قصد إليه الشاعر في مطلع قصيدته فقد تحدث عن همّ الممضّ الموجه، وليله الذي طال بطوله بثّه وشجاه، وصدره الذي أراح الليل ما عذب من همّه، وهذا أيضا خيال رائع : فقد صوّر الهموم بصورة الإبل تسرح بهاراً، ثم تُراح ليلاً إلى الحظيرة، وكذلك يُسغل المرء عن

همومه بالنهار فإذا انقطعت شواغله بالليل دبت الهموم إلى صدره فاحتلتته من جديد.

وهذا المعنى أروع من قول امرئ القيس :
أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطُّوبَى أَلَا أَنْجِلْ بِصُبْحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْتَلٍ
وإن قال العتبي بغير ذلك في الحدث الذي ذكره صاحب زهر الآداب^(١).
وفي مثل الغرض الذي أفصح عنه النابغة يقول حندج بن حندج المري.
فِي لَيْلٍ صَوْلٍ تَنَاهَى الْعَرْضُ وَالطُّولُ
كَأَنَّمَا لَيْلُهُ بِاللَّيْلِ مَوْضُولُ
لَا فَارِقَ الصُّبْحِ كَفِّي إِنْ ظَفِرْتُ بِهِ
وَإِنْ بَدَتْ عُرَّةٌ مِنْهُ وَتَحْجِيلُ
لِسَاهِرٍ طَالَ فِي صَوْلٍ تَمَلُّهُ
كَأَنَّهُ حَيَّةٌ بِالسَّوْطِ مَقْشُولُ
مَتَى أَرَى الصَّبْحَ قَدْ لَاحَتْ مَخَايِلُهُ
وَاللَّيْلُ فَدَ مُزَّقَتْ عَنْهُ السَّرَايِلُ
لَيْلٌ تَحِيرَ مَا يَنْحَطُّ فِي جَهَّةٍ
كَأَنَّهُ فَوْقَ مَتْنِ الْأَرْضِ مَشْكُولُ
نُجُومُهُ رُكَّذٌ لَيْسَتْ بِزَائِلَةٍ
كَأَنَّمَا هُنَّ فِي الْجَوِّ الْقَنَادِبِلُ
مَا أَقْدَرَ اللَّهَ أَنْ يُدْنِي عَلَيَّ شَحْطِ
مَنْ دَارُهُ الْحُزْنُ مِمَّنْ دَارُهُ صَوْلُ
اللَّهُ يَطْوِي بِسَاطِ الْأَرْضِ بَيْنَهُمَا
حَتَّى بُرَى الرَّبْعُ مِنْهُ وَهُوَ مَأْهُولُ
وفي هذه القصيدة يظهر الفرق واضحاً بين المعنى والغرض، ففي كل بيت

(١) ص ١٦٦ ح ٣ من الطبعة الأولى.

معنى خاص، ومن مجموع هذه المعاني يتكون الغرض، فليس هناك ريب في أن قوله :

لَا فَارَقَ الصُّبْحُ كَفِّيَ إِنْ ظَفِرْتُ بِهِ وَإِنْ بَدَتْ غُرَّةٌ مِنْهُ وَتَحْجِيلُ
فيه معنى جميل، وخیال رائع، ولكنه لا يمثل الغرض الذي قيلت من أجله القصيدة. وكذلك قوله :

لَيْلٌ تَحِيرُ مَا يَنْحَطُّ فِي جِهَةٍ كَأَنَّهُ فَوْقَ مَتْنِ الْأَرْضِ مُشْكُولُ
فيه خیال یخلب العقول، وأی خیال أروع من حيرة الليل، وتقيدده فوق متن الأرض بشكال ! ولكن هب الشاعر قال هذا البيت مفرداً لا سابق له ولا لاحق، فأی تأثير يكون له في النفس وهو في ذلة الیتیم !

وكذلك قول أشجع بن عمرو السُّلَمي في رثاء محمد بن منصور بن زياد :

أُنْعَى فَتَى الْجُودِ إِلَى الْجُودِ مَا مِثْلُ مَنْ أُنْعَى بِمَوْجُودِ
أُنْعَى فَتَى مَصْرَ الثَّرَى بَعْدَهُ بَقِيَّةَ الْمَاءِ مِنَ الْعُودِ
وَأَنْتَلَمَ الْمَجْدُ بِهِ ثُلَمَةً جَانِبُهَا لَيْسَ بِمُسْدُودِ
فَالآنَ تُخْشَى عَثْرَاتُ النَّدَى وَصَوْلَةُ الْبُخْلِ عَلَى الْجُودِ

ففي كل بيت معنى جميل، وفي كل بيت خیال رائع، ولكن الصورة الشعرية لا تتم إلا بضم هذه المعاني بعضها إلى بعض، ومنها يتكون الغرض، وهو ذهاب المجد بفقد هذا الجواد.

— ٢ —

على أن الغرض قد يتشعب حين يوجد ما يقتضي ذلك، فقد ذهب النكل برشد طريف بن أبي وهب العبسي، فقال يرثي ابنه بهذه الكلمات الموجعات التي أصبحت لذهوله كثيرة الأغراض :

أَرْبَعُ مَهْلًا بَعْضَ هَذَا وَأَجْمَلِي فَنِي الْيَأْسِ نَاهِ وَالْعَزَاءُ جَمِيلُ

فَإِنَّ الَّذِي تَبْكِينَ قَدْ حَالَ دُونَهُ تُرَابٌ وَزُورَاءُ الْمَقَامِ دَحُولُ^(١)
نَحَاهُ لِلْحَدِّ زَبْرَقَانَ وَخَالِدًا فِي الْأَرْضِ لِلْأَقْوَامِ قَبْلَكَ غُولُ
وَأَيُّ فِتْنَى وَارَوْهُ ثُمَّتَ أَقْبَلَتْ أَكْفُهُو تَحْشُو مَعًا وَتَهِيلُ
وَوَظَلَّتْ بِي الْأَرْضُ الْفَضَاءُ كَأَنَّمَا نَصَعْدُ بِي أَرْكَانَهَا وَتَجُولُ
وَشَدَّ إِلَيَّ الطَّرْفَ مَنْ كَانَ طَرَفُهُ لِعَهْدِ عُيَيْدِ اللَّهِ وَهُوَ كَلِيلُ
لَعْنُ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ خَلَّى مَكَانَهُ عَلَى حِينِ شَيْبِي بِالشَّبَابِ بَدِيلُ
لَقَدْ بَقِيتُ مِنِّي قَنَاءُ صَلِيلَةٍ وَإِنْ مَسَّ جُلْدِي نَهْكَةٌ وَذُبُولُ
وَمَا حَالَةٌ إِلَّا سَتُصْرَفُ حَالَهَا إِلَى حَالَةٍ أُخْرَى وَسَوْفَ تَزُولُ

فقد تنقل الشاعر من معنى إلى معنى، ومن غرض إلى غرض، تحت وطأة الحزن الذي مشى به من العزاء إلى الجزع، ومن الجزع إلى العزاء، فإنك نراه يروض نفسه على الصبر حين يقول :

أَرَابِعُ مَهْلًا بَعْضَ هَذَا وَأَجْمِلِي فَفِي الْيَأْسِ نَاهٍ وَالْعَزَاءُ جَمِيلُ

ثم تراه يغري بنفسه ثائرة الحزن حين يقول :

وَشَدَّ إِلَيَّ الطَّرْفَ مَنْ كَانَ طَرَفُهُ لِعَهْدِ عُيَيْدِ اللَّهِ وَهُوَ كَلِيلُ

ثم يعود فيقول :

وَمَا حَالَةٌ إِلَّا سَتُصْرَفُ حَالَهَا إِلَى حَالَةٍ أُخْرَى وَسَوْفَ تَزُولُ

وكذلك يطرب المحزون فلا يستقر على حال.

— ٣ —

والنثر كالشعر في المعاني والأغراض، وعندنا كتاب بديع الزمان الهمداني^(٢) إلى القاضي أبي القاسم علي بن أحمد في شكوى أبي بكر الحبري، وفيه طائفة من الصور الشعرية بقدر ما فيه من الأغراض، وانظر قوله في وصف العلم :

(١) الدحول : هي الحفرة الغامصة.

(٢) راجع مذاهب بديع الزمان الإنشائية في الجزء الأول والثاني من كتاب (النثر المي).

« والعلم أطل الله بقاء القاضي شيء كما تعرفه بعيد المرام، لا يصاد بالسهم ولا يقسم بالأزلام، ولا يرى في المنام، ولا بضبط باللحام، ولا يورت عن الأعمام ولا يكتب للثام، وزرع لا يزكو في كل أرض حتى يصادف من الحرص ثرى طيباً ومن التوفيق مطراً صيباً، ومن الطبع جواً صافياً، ومن الجهد روحاً دائماً، ومن الصبر سقياً نافعا، والعلم علّق لا يباع ممن زاد، وصيد لا يألف الأوغاد، وشيء لا يدرك إلا بنزع الروح، وغرض لا بصاب إلا بافتراش المدّر، واستناد الحجر، وردّ الصّجر، وركوب الخطر، وإدمان السهر، واصطحاب السفر، وكثرة النظر، وإعمال الفكر، ثم هو معتاص على من ركا زرعه، وكرم أصله وفرعه، ووعى بصره وسمعه، وصفا ذهنه وطبعه. فكيف يناله من أنفق صباه على الفحشاء، وشغل سلوته بالغنى وخلوته بالعناء، وأفرغ جده على الكيس وهزله على الكاس؟ والعلم ثمر لا يصلح إلا للغرس ولا يغرس إلا في النفس، وصيد لا يقع إلا في البذر، ثم لا ينشب إلا في الصدر وطائر لا يخدعه إلا قفص اللفظ، ثم لا يعفله إلا شرك الحفظ، وبحر لا يخوضه الملاح ولا تطيقه الألواح، ولا تهيجه الرياح، وجبل لا يتسنّم إلا بخطا الفكر، وسما لا نصعد إلا بمعراج الفهم، ونجم لا بلمس إلا بيد المجد، أيكفي أن يصبح المرء بين الزق والعود، ويمسي بين موجبات الحدود، حتى يتم شبابه، ويشيب أترابه، ثم يلبس دنّته، ليخلع ديبته، ويسويّ طيلسانه، ليحرف يده ولسانه، ويقصر سباله، ليطيل حباله، وييدي شقاشقه، ليغطي مخارقه، ويبيض لحيته ليسود صحيفته، ويظهر ورعه، لبخفي طمعه، ويغني شحابه، ليملا جرابه، ويكثر دعاءه، ليحشو وعاءه، وبرجو أن يخرج من بن هذه الأحوال عالماً، ويفعد حاكماً ! هذا إذا المجد كالوه بقفزان ! »

فهذه طائفة من المعاني ترجع إلى غرض واحد : هو أن العلم شيء عزيز لا ياله بعد الجهد إلا كرام النفوس^(١).

ويمكن للناقد أن يجد في بعض هذه المعاني شيئاً من الضعف، ولكنه لن ينكر

(١) وهذا لا سائي أن عرض الكاتب هو التحريض على كبت عدوه الخيري.

على الكاتب أنه أفصح عن غرضه، وبلغ دعوته، بل وصل بها إلى قرار القلوب. وأهمية الصور الشعرية كما أسلفنا القول ترجع إلى تمكين المعاني في النفس، والوصول إلى التأثير الذي هو عابة البيان.

وانظر قول بديع الزمان في وصف هذا القاضي ووصف قومه :
« وأقسم لو أن اليتيم وقع في أنياب الأسود، بل الحيات السود، لكانت سلامته منها أحسن من سلامته إذا وقع بين غيانات هذا القاضي وأقاربه، وما ظنك بقوم يحملون الأمانة على متونهم، ويأكلون النار في بطونهم، حتى تغلظ قصراتهم من مال اليتامى، وتسمن أكفأهم من مال الأبامى ؟ وما ظنك بدارٍ عمارتها حراب الدُّور وعطلة القدور، وخلاء البيوت، من الكسوة والقوت ؟ وما قولك في رجل يعادي الله في الفلُس، ويبيع الدين بالتمن البخس، ومن حاكم يبرز في ظاهر أهل السميت وباطن أصحاب السبت، فعله الظلم البحت، وأكله الحرام السحت ؟ وما رأيك في سوس لا بقع إلا في صُوف الأيتام، وجراد لا يسقط إلا على الزرع الحرام، ولص لا ينقب إلا خزانة الأوقاف، وكردى لا يُغير إلا على الضعاف، وذئب لا يفنرس عباد الله إلا بين الركوع والسجود، ومحارب لا ينهب مال الله إلا بين العهود والشهود ؟ ! وما زلت أبغض حال القضاء طبعاً وحبلاً، حتى أبغضتهم ديناً وملة، وألغنهم دربة حتى لغنهم قربة، بما شاهدت من هذا الحيري وقاست، وعانيت من خطبه وخبطه ما عانيت ».

وهذه صورة شعرية تمثل الظالمين من القضاة في جميع الأقطار، وفي جميع العصور، لأن نزعات الإنسانية واحدة، أو كآبها واحدة في الخير والشر. والوصف الصادق يعذب ويستملح في كل قطر وفي كل جيل.

— ٤ —

ولك أن تتخطى الشر المحبّر إلى الكلمات المأنورة التي حاءت بها البديهة، لنرى كيف نكون المعاني والأغراض.

فمن ذلك ما ذكره الجاحظ عن تمّني يزيد الرقاشي وقد تمّني بحصره فومّ

فقال : أتمنى كما تمنيتم ؟ قالوا : تمنّهُ ! قال « ليتنا لم نُخلَقْ، وليتنا إذا خُلِقْنَا لم نعصِ، وليتنا إذ عصينا لم نمُتْ، وليتنا إذ متنا لم نبعث، وليتنا إذ بعثنا لم نُحاسِب، وليتنا إذ حُوسِبنا لم نَعذَّب، وليتنا إذ عُدِّبنا لم نُخلد ». .

وفي مثل هذا المعنى يقول الحجاج « ليت الله إذ خلقنا للآخرة كفانا أمر الدنيا فرفع عنا الهمّ بالمأكل والمشرب والملبس والمنكح، أو ليتهُ إذ أوقعنا في هذه الدار كفانا أمر الآخرة، فرفع عنا الاهتمام بما ينجي من عذابه ». .

وفي هاتين الأمنيتين وصفٌ دقيقٌ لحيرة النفس الإنسانية التي مازالت تكذب وتكدهج في استكناه أسرار الغيب، ثم سقطتْ صريعة الإغواء، بعد مرارة الإخفاق !

وأحب أن لا يغفل القارئ عن دقة الترتيب في هذه الصورة الشعرية، وأريد بالترتيب السير مع حركات النفس، فقد ابتدأ الرقاشي بهذه الصرخة « ليتنا لم نُخلق ! » وهي أول نفثة يجود بها المكروب، ثم أخذ يُجِيل نظر الحيرة، ويتمنى إذ خُلِق لو وقاه الله المعصية، ويتمنى إذ عصا لو نجا من الموت، إلى آخر ما قال.

وقيل لبعض العرب: أي شيء تتمنى، وأي شيء أحب إليك ؟ فقال: لواء منشور، والجلوس على السرير، والسلام عليك أيها الأمير !

وهذه صورة يبسم لها القارئ، ولكنها على ذلك صورة صادقة لكثير من النفوس. وأدق منها قول الآخر، وقد قبل له، أجزعت من الموت ؟ وقد صلب ركعتين فأطال، وكان أمر بقتله. فأجاب « إن أجزع فقد أرى كفناً منشوراً، وسيفاً مشهوراً، وقبراً محفوراً ». .

وهذه صورة دقيقة لذلك الموقف الرهيب !

وقال أعرابي لسليمان بن عبد الملك : إني أكلمك يا أمير المؤمنين بكلام فاحتمله، فإن وراءه إن قبلته ما تحبه. قال هاته يا أعرابي فنحن نجود بسعة الاحتمال على من لا نأمن غيبتة، ولا نرجو نصيحته، وأنت

المؤمن عيباً، الناصح جيباً. قال : فأني سأطلق لساني بما خرست عنه
الألسن تأديةً لحق الله تعالى : إنه قد اكتنفك رجالٌ أساءوا الاختيار لأنفسهم،
وابتاعوا دنياك بدينهم، ورضاك بسخط ربهم، وخافوك في الله ولم يحافوا
الله فبك، فهم حربٌ للآخرة وسَلَمٌ للدنيا، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله
عليه، فإنهم لم يألوا الأمانة تضييعاً، والأمة كسفاً وخسفاً. وأنت مسؤول
عما اجترموا وليسوا مسؤولين عما اجترمت. فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك :
فإن أعظم الناس عند الله غبناً من باع آخرته بدنيا غيره. فقال سليمان :
أما أنت يا أعرابي، فقد سللت لسانك وهو سيفك. قال : أجل يا أمير
المؤمنين لك لا عليك !

وفي هذا الحوار كما يرى القارئ طائفة من المعاني ينكون منها غرضٌ
واحد. وكذلك نستطيع حين نوازن بين الكتاب والخطباء والشعراء أن نفرق
بين المعاني والأغراض.

* * *

وأرجو أن أوفق في الأبحاث الآتية إلى مراعاة ما وضعته من القواعد
الأصول^(١).

(١) كل ما سلف من الفصول كان مقدمة لشرح قواعد النقد كما يفهمه المؤلف، وهي فصول
كتبت أول مرة سنة ١٩٢٥ ومن المؤكد أن القارئ كان ينتظر أن يصيف المؤلف إلى هذه
الطبعة ماجد له من الآراء في مدى عشر سنين. ولكنا اكتفينا بما أثبتناه في الطبعة الأولى :
لأن كتاب « النثر الفني » انتهت كل ما وفقنا إليه بعد ذلك من الأفكار النقدية، وليس من
الحزم أن نقلها ما سجلناه هناك.

البحث الثالث عشر

الحصري وشوقي

بينّا في الأبحاث الماضية ما يجب أن ينوّر في الناقد السوارن من الشروط، وبسطنا القول في نظرية الصور الشعرية التي نعتمد عليها في النقد بعد مراعاة ما عُني به الأقدمون من اختيار الألفاظ والأساليب، والآن نأجل في بحث جديد لم يسلكه أحد من قبل : هو الموازنة بين القصائد المشهورة التي حترت شمرى المعارضة والمماثلة كما فعل ابن المعتز في معارضة الحسين بن الضحاك، وابن عبد ربه في معارضة مسلم بن الوليد، وابن درّاج في معارضة أبي نواس، والبارودي في معارضة أبي فراس، الخ.

ولهذا البحث أهمية كبيرة، لأنه سيمكّننا من دراسة عرائس الشعر دراسة منظمه دقيقة، وسيرينا كيف تتناول العقول، وكيف تتسابق القرائح، إذ كانت معارضة الشاعر للشعر نوعاً من السباق في عالم البيان.

ولنبداً بالموازنة بين دالية الحصري « ياليل العصب متى عده » ودالية شوقي « مضناك جفاه مرقده » فإن لهاتين القصيدتين أثراً في أندية الأدب وشمالس العاء، ومن الخير أن نعط اللثام عما فيهما من مواطن الحسن، ومظانّ الضعف، وأن نبين أي الشاعرين أبرع لفظاً، وأشرف معنى، وأسمى حيوياً.

والحصري^(١) — بضم الحاء المهملة، وسكون الصاد المهملة، وبعدها راء مهملة هو أبو الحسن علي بن عبد الغني الفهري المقرئ الضرير القيرواني، وهو ابن خاله أبي إسحاق الحصري صاحب كتاب رهر الآداب، وقد ذكر ابن بسام في الذخيرة أن أبا الحسن الحصري كان بحر براعة، ورأس صناعة، وزعيم جماعة، وأنه طرأ على الأندلس منتصف المائة الخامسة من الهجرة بعد خراب وطنه من القيروان، والأدب بأفق الأندلس يومئذ نافق السوق، معمور الطريق، فتهداه ملوك الطوائف نهادي الرياض بالنسيم، وتنافسوا فيه تنافس الديار بالأنس المقيم.

ولكنه فيما نقل لم يطمئن هناك، فاحتمل على مضض بين زمانه، وبُعد قُطره، ثم اشتملت عليه مدينة طسجة بعد خلع ملوك الطوائف، وتوفي بها رحمه الله، سنة ٤٨٨ وله قصيدة طويلة في قراءات نافع، وله ديوان شعر^(٢)، وهو القائل :

أَقُولُ لَهُ وَقَدْ حَيًّا بِكَأْسٍ لَهَا مِنْ مِسْكِ رِقَّتِهِ نِحْتَامُ
أَمِنْ خَدَيْكَ تُعْصِرُ قَالَ كَلَّا مَتَى عُصِرَتْ مِنْ الْوَرْدِ الْمُدَامُ

ويقول ابن بسام في وصفه « على أنه كان فيما بلغني ضيق العطن، مشهور اللسن، يتلفت إلى الهجاء، تلفت الظمان إلى الماء ».

وكنا نودّ لو حفظ لنا التاريخ صورة مضبوطة لأخلاق هذا الشاعر المجيد، فإن كلمة ابن بسام لا تفيد غير الظن، وأين الظن من اليقين.

ويمكن الحكم بأنه كان خبيراً بأسرار اللغة العربية، فإن في الاغتراب وصحبة الملوك عوناً على فهم دقائق الوجود.

أما شوقي فنشاعر معروف في مصر والشرق، وله كلف معارضة القدماء، وهو كذلك خبير بأسرار اللغة العربية، وبصير بشؤون الحياة، وهو كالحصري افتتح قصيدته بالنسيب، واختتمها بالمديح ولكنى سأقتصر في الموازنة على صدر

(١) ذكر ابن حلكان أنه منسوب إلى الحصر التي تفرش، وقد حدثنا السيد حسني عبد الوهاب أنه منسوب إلى « الحصر » وهي قرية قديمة بالقرب من القيروان.

(٢) راجع ومات الأعيان.

القصيدتين، إذ كان النسيب هو السبب فما برجى لهما من الخلود، إن كان لهذا العالم حظ من الخلود^(١).

قصيدة الحصري

أَيَّامُ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُ	يَا لَيْلُ الصَّبِّ مَتَى غَدُهُ
أَسْفُ لِلْبَيْنِ يُرَدِّدُهُ	رَقَدَ السَّمَارُ وَأَرْقَاهُ
مِمَّا يَرَعَاهُ وَيَرْضُدُهُ	فَبَكَاهُ النَّجْمُ وَرَقَّ لَهُ
خَوْفُ الْوَاشِينَ يُشَرِّدُهُ	كَلِفُ بَعْزَالٍ ذِي هَيْفٍ
فِي النَّوْمِ فَعَزَّ تَصِيُّدُهُ	نَصَبَتْ عَيْنَايَ لَهُ شَرَكَا
لِلسَّرْبِ سَبَانِي أَغْيَدُهُ	وَكَفَى عَجْبًا أَنِّي قَنْصُ
أَهْوَاهُ وَلَا أَتَعَبُهُ ^(٢)	صَنْمٌ لِلْفِتْنَةِ مُنْتَصِبٌ
سَكْرَانُ اللَّحْظِ مُعْرِبُهُ	صَاحِ وَالْخَمْرُ جَنَى فِيهِ
وَكَانَ نُعَاسًا بُعِيدُهُ	يَنْضُو مِنْ مُقْلَتِهِ سَيْفًا
وَالْوَيْلُ لِمَنْ يَتَقَلَّبُهُ	فَيُرِيْقُ دَمَ الْعُشَاقِ بِهِ
عَيْنَاهُ وَلَمْ تَقْتُلْ يَدُهُ	كَلا لَا ذَنْبَ لِمَنْ قَتَلَتْ

وَعَلَى خَدَّيْهِ نَوْرُدُهُ	يَأْمَنُ جَحَدَتْ عَيْنَاهُ دَمِي
فَعَلَامَ جُفُونِكَ تَجَحَّدُهُ	خَدَاكَ قَدِ اعْتَرَفَا بِدَمِي
وَأُظُنُّكَ لَا تَتَعَمَّدُهُ	إِنِّي لِأَعِيدُكَ مِنْ قَتْلِي
فَلَعَلَّ خَيْالَكَ يُسْعِدُهُ	بِاللَّهِ هَبِ الْمُشْتَاقَ كَرِي
صَبِّ يُذْنِيكَ وَتُبْعِدُهُ	مَا ضَرَّكَ لَوْ دَوَّيْتَ ضَنْيَ

(١) للشاعر شوقي حظ عظيم من عناية المؤلف، وقد كتب عنه فصولا أخرى نقد بها مدامه الشعرية والاحتمابة، ويمكن الرجوع إليها في الجزء الأول والثاني من كتاب (الدائع).

(٢) الصم: هو النمل، ولا نزال هذه الكلمة على ألسنة أهل المغرب، وإن كان في مصر مما بكر الدوق.

لَمْ يُقِرْ هَوَاكَ لَهُ رَمَقًا فَلَيْبِكَ عَلَيْهِ عَوْدُهُ
وَعَدًا يَقْضِي أَوْ بَعْدَ غَدٍ هَلْ مِنْ نَظَرٍ يَزَوِّدُهُ
يَا أَهْلَ الشُّوقِ لَنَا سَرَقٌ بِالدَّبْعِ يَفِيضُ مُورَدُهُ
يَهْوَى الْمُشْتَاقُ لِقَاءَ كُمُو وَصُرُوفُ الدَّهْرِ تُبْعِدُهُ

* * *

مَا أَخْلَى الْوَصْلَ وَأَعْدَبَهُ لَوْلَا الْأَيَّامُ تُنَكِّدُهُ
بِالْبَيْنِ وَبِالْهَجْرَانِ فَيَا لَفُؤَادِي كَيْفَ تَجْلُدُهُ

قصيدة شوقي

مُضْنَاكَ جَفَاهُ مَرْقَدُهُ وَبَكَاهُ وَرَحْمَ عَوْدُهُ
حَيْرَانُ الْقَلْبِ مُعَذِّبُهُ مَقْرُوحُ الْجَفْنِ مُسَهِّدُهُ
أَوْدَى حُرْقًا إِلَّا رَمَقًا يُبْقِيهِ عَلَيْكَ وَتُفْقِدُهُ
يَسْتَهْوِي الْوُرْقَ تَأْوُهُهُ وَيُذِيبُ الصَّخْرَ تَنْهَدُهُ
وَيُنَاجِي النَّجْمَ وَيَتَّبِعُهُ وَيُقِيمُ اللَّيْلَ وَيُقْعِدُهُ
وَيُعَلِّمُ كُلَّ مُطَوِّقَةٍ سَجْنًا فِي الدَّوْحِ تُرَدِّدُهُ
كَمْ مَدَّ لِطَيْفِكَ مِنْ شَرِكٍ وَتَلَادَّتْ لَا بَتَّصِيْدُهُ
فَعَسَاكَ بَعْمُضٍ مُسْعِفُهُ وَلَعَلَّ خِيَالَكَ مُسْعِدُهُ
الْحُسْنُ حَلَفْتُ يُيُوسِفُهُ وَالسُّورَةُ أَنَّكَ مُفَرِّدُهُ
قَدْ وَدَّ جَمَالَكَ أَوْ قَبَسًا حَوْرَاءُ الْخُلْدِ وَأَمْرَدُهُ
وَتَمَنَّتْ كُلُّ مُقْطَعَةٍ يَدَهَا لَوْ تُبْعَثُ تَشْهَدُهُ
جَحَدْتُ عَيْنَاكَ زَكِيَّ دَمِي أَكْذَلِكُ خَدُّكَ يَجْحَدُهُ
قَدْ عَزَّ شُهُودِي إِذْ رَمَتَا فَأَشْرَتْ لِحْدُكَ أَشْهَدُهُ
وَهَمَمْتُ بِجِيدِكَ أَشْرُكُهُ فَأَبَى وَأَسْتَكْبِرُ أَضِيدُهُ
وَهَزَرْتُ قَوَامَكَ أَعْطِفُهُ فَتَبَا وَتَمْنَعُ أَمْلُدُهُ
سَبَبٌ لِرِضَاكَ أَمَّهْدُهُ مَا بَالُ الْخَضِرِ يُعَقِّدُهُ

بَيْتِي فِي الْحُبِّ وَيُنْكَ مَا	لَا يَقْدِرُ وَاشِ بِنَفْسِهِ
مَا بَالُ الْعَاذِلِ يَفْتَحُ لِي	بَابَ السُّلُوفِ وَأَوْصِدُهُ
وَيَقُولُ تَكَادُ تُجَنُّ بِهِ	فَأَقُولُ وَأَوْشِكُ أُغْبِدُهُ
مَوْلَايَ وَرُوحِي فِي يَدِهِ	قَدْ ضَيَّعَهَا سَلَمْتُ بِهِ
نَاقُوسُ الْقَلْبِ يَذُقُ لَهُ	وَحَنَائِي الْأَضْلَعِ مَعْبِدُهُ
حَسَادِي فِيهِ أَغْدِرُهُمْ	وَأَحِقُّ بَعْدَ رِي حُسَّادِهِ
قَسَمًا بِثَنَائِي لَوْلِيهَا	فَسَمِ الْيَاقُوتِ مُنْضَدُهُ
وَرُضَابِ يُوعَدُ كَوَثَرُهُ	مَقْتُولِ الْعَشَقِ وَمُشْهَدُهُ
وَبَخَالٍ كَادَ يُحَاجُّ لَهُ	لَوْ كَانَ يُقْبَلُ أَشْوَدُهُ
وَقَوَامٍ يَرْوِي الْغُضْنَ لَهُ	نَسَبًا وَالرَّمْحَ يُفْنِدُهُ
وَبَخْصَرٍ أَوْهَنَ مِنْ جَلْدِي	وَعَوَادِي الْهَجْرِ تُبَدِّدُهُ
مَا خُتُّ هَوَاكَ وَلَا خَطَرْتُ	سَلْوَى بِالْقَلْبِ تُبَرِّدُهُ

الموازنة

ولنذكر أولاً ما في القصيدتين من الأغراض، وإنا لنجد الحصري تكلم عن طول الليل، وطيف الخيال، وخمر الرضاب، وسيف المقلّة، وجناية العين، وحمرة الخد، واستعطاف الحبيب، وفناء المحب. ونجد شوقي تكلم عن لوعه المضني، وطيف الخيال، وجمال المحبوب، وجناية العين، وحسن القدّ والجيد، ودقة الحصر، والصبر على الوشاة، وتفدية الحبيب، والرفق بالحساد، والحرص على الحب، والبراءة من السلوان، فقصيدة شوقي إذاً أحفل بالأغراض.

مواطن الحسن

ولنوازن بين المطالع، وإنا لنجد الحصري يقول :

يَأْتِيْلُ الصَّبِّ مَتَى غَدُهُ	أَقِيَامُ السَّاعَةِ مَوْعَدُهُ
رَقْدُ السَّمَارِ وَأَرْقَاهُ	أُسْفُ لِلْبَيْنِ بُرْدَدُهُ

فَبَكَاهُ النَّجْمُ وَرَقَّ لَهُ مِمَّا يَرْعَاهُ وَيَرْصُدُّهُ
ونجد شوقي يقول :

مُضْنَاكَ جَفَاهُ مَرَقَدُّهُ	وبكاهُ وَرَحَّمَ عُودُهُ
حَيْرَانُ الْقَلْبِ مُعَذِّبُهُ	مَقْرُوحُ الْجَفْنِ مُسَهِّدُهُ
أَوْدَى حُرْقًا إِلَّا رَمَقًا	يُبْقِيهِ عَلَيَّكَ وَتَنْفِدُهُ
يَسْتَهْوِي الْوُرْقَ تَأْوُهُهُ	وَيُذِيبُ الصَّخْرَ تَنْهَدُهُ
وَيُنَاجِي النَّجْمَ وَيَتَّبَعُهُ	وَيُقِيمُ اللَّيْلَ وَيُقْعِدُهُ
وَيُعْلِمُ كُلَّ مُطَوَّقَةٍ	شَجْنًا فِي الدَّوْحِ تُرَدِّدُهُ

والمطلع في رأينا هو أول صورة شعرية، لا أول بيت، ومطلع شوقي أوفى وأروع
من مطلع الحصري، وخطاب الحبيب في قول شوقي :

مُضْنَاكَ جَفَاهُ مَرَقَدُّهُ وَبَكَاهُ وَرَحَّمَ عُودُهُ
أرق من خطاب الليل في قول الحصري :

يَأْتِيْلُ الصَّبِّ مَتَى غَدُهُ أَقِيَامُ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُ
وقول شوقي في حيرة الحب وعذابه وفنائه :

حَيْرَانُ الْقَلْبِ مُعَذِّبُهُ	مَقْرُوحُ الْجَفْنِ مُسَهِّدُهُ
أَوْدَى حُرْقًا إِلَّا رَمَقًا	يُبْقِيهِ عَلَيَّكَ وَتَنْفِدُهُ
يَسْتَهْوِي الْوُرْقَ تَأْوُهُهُ	وَيُذِيبُ الصَّخْرَ تَنْهَدُهُ

هذه الأبيات أوفى وأمتع من قول الحصري :
رَقَدَ السُّمَارُ وَأَرْقَاهُ أَسْفُ لَيْلِيْنِ يُرَدِّدُهُ

وقول شوقي :
وَيُنَاجِي النَّجْمَ وَيَتَّبَعُهُ وَيُقِيمُ اللَّيْلَ وَيُقْعِدُهُ

أقرب في صدقه إلى الواقع من قول الحصري :
فَبَكَاهُ النَّجْمُ وَرَقَّ لَهُ مِمَّا يَرْعَاهُ وَيَرْصُدُّهُ

وقول الحصري في تصيّد الطيف :

نَصَبْتُ عَيْنَايَ لَهُ شَرَكًا فِي النَّوْمِ فَعَزَّ تَصْيِدُهُ
وَكَفَى عَجَبًا أَنِّي قَنَصُ لِلسَّرْبِ سَبَانِي أَغْيِدُهُ

أبرع من قول شوقي :

كَمْ مَدَّ لَطِيفُكَ مِنْ شَرَكٍ وَتَأَدَّبَ لَا يَتَصَيَّدُهُ
فَعَسَاكَ بِغَمُضٍ مُسْعِفُهُ وَلَعَلَّ خَيْالَكَ مُسْعِدُهُ

لأن الحصري حدثنا عن حقيقة صادقة، وهي تمنع الطيف : فليس في طوق
الحب أن يظفر بطيف حبيبه كلما مدّ له الأشرار.

ولا يعجبني تأدب شوقي في قوله :

كَمْ مَدَّ لَطِيفُكَ مِنْ شَرَكٍ وَتَأَدَّبَ لَا يَتَصَيَّدُهُ

لأن التأدب هنا ضعف، ولو ذكر أنه يهاب أن يتصيده لحمدنا له هيبة الحسن،
وإن الحسن لمهيب الجناح^(١).

ويروقني قول شوقي :

مَوْلَايَ وَرُوحِي فِي يَدِهِ قَدْ ضَيَّعَهَا سَلِمَتْ يَدُهُ
نَاقُوسُ الْقَلْبِ يَدُقُّ لَهُ وَحَنَائِي الْأَضْلَعِ مَغْبِدُهُ
حُسَادِي فِيهِ أَعْدَرُهُمْ وَأَخَقُّ يُعْذِرِي حُسْدُهُ

فإن فيه صورة للوعة الحب يشفق بمحبوبه ويحنو عليه، في ظلمه وعدوانه،
ولم يعرض الحصري لمثل هذا المعنى البديع، وأخلق بهذه الأبيات أن تكون
صلاةً للحسن، إن قَضَى اللهُ أَنْ نَصِلِّيَ لَهُ، كما يصلي فريق للشمس عند
الشروق، والهوى — كما قيل — إله معبود.

وما أرفق شوقي وأرقه حين يقول :

(١) هذه اللمعة تذكر بقول الشاعر :

حمى نفسه الحسن أضعاف ما حمى نفسه الجمر لما التهب

قَدْ وَدَّ جَمَالَكَ أَوْ قَبَسًا حَوْرَاءُ الْخُلْدِ وَأَمْرَدُهُ
فإن الحسن لا يُعبد بأرقّ من هذا الوصف، وهل العبادة إلا وصف المعبود
بالتفرد والجلال.

وقول الحصري :

صَاحِ وَالْخَمْرُ جَنَى فَمِهِ سَكَرَانُ اللَّحْظِ مُعْرِبْدُهُ
أروع وأبدع من قول شوقي :
وَرُضَابِ يُوعَدُ كَوَثْرُهُ مَقْتُولُ الْعِشْقِ وَمُشْهَدُهُ

وأرى من الظلم أن نوازن بين هذين البيتين، فإن بيت الحصري بيت فذّ نادر
المثال، وفيه وحده صورة شعرية رائعة، وما ردّدته إلا فتنت به فتنة جديدة وظهر
لي منه معنى جديدة، كالوجه المشرق لا نهاية لحسنه، ولا حدّ لقدرته على تصريف
القلوب.

ولك أن تتأمل كلمة « جنى » في قوله :

صَاحِ وَالْخَمْرُ جَنَى فَمِهِ سَكَرَانُ اللَّحْظِ مُعْرِبْدُهُ
وما هذه العريضة يا صاح ؟ إنها الأشرار التي يقيدك بها اللحظ، وأنت تنهل
من وَرْدِهِ العذب الجميل !

وقول شوقي :

جَحَدْتُ عَيْنَاكَ زَكِيَّ دَمِي أَكْذَلِكَ خَدُّكَ يَجْحَدُهُ
قَدْ عَزَّ شُهُودِي إِذْ رَمَتَا فَأَشْرْتُ لِيْخَدُكَ أَشْهَدُهُ

أرق من قول الحصري :

يَا مَنْ جَحَدْتُ عَيْنَاهُ دَمِي وَعَلَى خَدَّيْهِ تَوَرَّدُهُ
خَدَّاكَ قَدْ اعْتَرَفَا بِدَمِي فَعَلَامَ جُفُونُكَ تَجْحَدُهُ

لأن الاستفهام في قول شوقي أعطى المعنى شيئاً من الحسن، وزاده تمكيناً في
النفس، على ما فيه من الابتدال.

وقد أجاد الحصري في استعطاف الحبيب إذ يقول :

لَمْ يُتَقِ هَوَاكَ لَهُ رَمَقاً فَلَيْبِكَ عَلَيْهِ غَوْدُهُ
وَعَدّاً يَقْضِي أَوْ بَعْدَ غَدٍ هَلْ مِنْ نَظَرٍ بَسْزُودُهُ

ولا نجد هذه النغمة المخزنة في قصيدة شوقي. وإنما لتذكرنا بهذا البيت الحزين :

وَأَرَى الْأَيَّامَ لَا تُدْنِي إِلَيَّ أُرْتَجِي مِنْكَ وَتُدْنِي أَجْلِي

مِظَانُ الضَّعْفِ

وإني لأستقل الصنم المنتصب في قول الحصري :

صَنَمٌ لِلْفِتْنَةِ مُنْتَصِبٌ أَهْـوَاهُ وَلَا أُتَعَبُهُ

لأن كلمة « الصنم » كلمة غير شعرية^(١). والعرب تسنملح « الدمية » في وصف المرأة الجميلة. والدمية هي الصورة المنقشة من الرحام، والجمع دُمى، قال بعض الأعراب :

وَإِنِّي لِأَهْدَى بِالْأَوَانِسِ كَالدُّمَى وَإِنِّي بِأَطْرَافِ الْقَنَا لِلْعُوبِ
وَإِنِّي عَلَى مَا كَانَ مِنْ عُنْجُهِتِي وَلَوْثَةِ أَغْرَابِيَّتِي لِأَدِيبِ

وكذلك أستضعف قول الحصري :

مَا أَحْلَى الْوَضْلَ وَأَعَذَبَهُ لَوْ لَا الْأَيَّامُ تُكَذِّدُهُ
بِالْبَيْنِ وَبِالْهَجْرَانِ فِيَا لِفُؤَادِي كَيْفَ تَجْلُّدُهُ

وأضعف منه قول شوقي :

بَيْنِي فِي الْحُبِّ وَيَيْنِكَ مَا لَا يَفْدُرُ وَاشِ بِنَفْسِهِ
مَا بَالُ الْعَاذِلِ يَفْتَحُ لِي بَابَ السُّلُوفِ وَأَوْصِدُهُ

ولا أدري ما قيمة التعجب في البيت الثاني من هذين البيتين، وهو لا يزيد

(١) لكثرة ما ورد في ذم الأصنام، وقد أشربا في هامش سلف إلى أن هذه الحلة لا يرال حمة على ألسنة أهل العرب، وهم يقولون « صنم » حتما بشرون إلى المثال.

شيئاً عن الصوت العامي المشهور « كِيد العواذل كايَدني بسّ اسمع شوف ».

وكذلك لا قيمة لقوله :

وَبَخْصِرْ أَوْهَنَ مِنْ جَلْدِي وَعَوَادِي الْهَجْرِ تُبَدِّدُهُ
وهي مبالغة مردودة، لأن الذي يستملح الخصر الدقيق لا يرضيه أن يكون
أوهن من صبر المحب تعدو عليه عوادي الصدود.

وقد ظلم شوقي نفسه حين قال :

وَقَوَامُ يَرْوِي الْغُصْنَ لَهُ نَسَباً وَالرُّمَحُ يُفْنِيْدُهُ
كما أساء الحصري إلى شعره إذ قال :
إِنِّي لِأَعِيْذُكَ مِنْ قَتْلِي وَأَظْلُنُكَ لَا تَتَعَمَّدُهُ
فإن هذا خيال فقهاء، لا خيال شعراء !

روعة الخيال

وإنه لَيَجْمُلُ بنا بعد هذا أن نوازن بين ما للحصري وشوقي من الخيال الرائع،
وإنّا لنستجيد قول الحصري :

يَنْضُو مِنْ مُقْلِتِهِ سَيْفًا وَكَأَنَّ نُعَاسًا يُعْمِدُهُ
فَيْرِيْقُ دَمَ الْعُشَّاقِ بِهِ وَالْوَيْلُ لِمَنْ يَتَقَلَّبُهُ
كَأَنَّ لَأَذَنْبَ لِمَنْ قَتَلَتْ عَيْنَاهُ وَلَمْ تَقْتُلْ يَدُهُ

وإن البيت الأول لَمِنْ وَنَبَات الخيال، وفي البيت الثاني ضعف، والثالث مع
ضعفه مستملح مقبول.

ونستجيد كذلك قول شوقي :

نَاقُوسُ الْقَلْبِ يَدُقُّ لَهُ وَحَنَائِيَا الْأَضْلَعِ مَعْبَدُهُ
وللقارئ أن يلومنا في اسنجادة هذا البيت، وأن يذكر أن هذا أيضاً خيال
فقهاء، لا خيال شعراء. ولنا أن نذكر القارئ بأن المعابد والنواقيس من الألفاظ

التي استملحها العرب، لكثرة ما تحدث عنها الشعراء وهم يتغنون بمعالم اللهو، وملاعب الشباب، ولهم في الأديار شعر ممتع غُنيت بتفصيله في غير هذا الحديث^(١)، وكذلك ظرف شوقي حين تحدث عن المعبد والناقوس، وكان خياله قريباً في الحسن من خيال الحصري، إذ توهم اللحظ سيفاً يكادُ بغمده العاس، وإني لمفتون بهذا الخيال.

البراعة في تناول المعاني

وإنا لنرى شوقي أبرع من الحصري في تناول المعاني، ومن السهل أن نعلل هذا : فإن الحصري لم يَجْرِ في قصيدته إلا على الفطرة، وكان من ذلك أن رَضِيَ بعفو الخاطر. أما شوقي فمعارض من همه أن يظفر بالسبق، وكان من ذلك أن غُنِيَ بترتيب المعاني، واختيار الألفاظ، وتنوُّع الأغراض. على أن هذا التكلّف لم يَمْضِ بلا عيوب، فإنه لا معنى لقول شوقي :

وَبِخَالٍ كَادَ يُخَجُّ لَهُ لَوْ كَانَ يُقْبَلُ أُسُودُهُ

ولا رونق لقوله :

وَتَمَنَّتْ كُلُّ مُقَطَّعَةٍ يَدَهَا لَوْ تُبْعَثُ تَشْهُدُهُ

الحكم

وللقارئ — إن شاء الحكم — أن يرجع إلى ما أسلفنا القول عنه من مواطن الحسن، ومظانّ الضعف، ومواقع الخيال : ليرى أيّ الشاعرين أولى بالسبق، وأيُّهما أرجح في الميزان. وحسبه أنْ دللناه على ما في القصيدتين من الخاسن والعيوب، فإننا لا نُعْنَى بالأشخاص، وإنما يعيننا أن ندرس الشعر، وأن نقف على ما فيه من القوة والضعف، والحسن والقبح. وكذلك ندرس البيان، ونحن نوازن بين الشعراء.

(١) تحد هذا البحث في كتاب « أثر الشعر في ربط الشعوب ».

البحث الرابع عشر

البحثري وشوقي

قلنا إن لشوقي كلفاً بمعارضة المتقدمين من الشعراء، ووازناً بين دالّيته وداليّة الحصري في الكلمة السابقة، والآن نوازن بينه وبين البحثري، فقد عارض سينيته في وصف إيوان كسرى بقصيدة سينية وصف بها قصر الحمراء. ولهاتين القصيدتين قيمة كبيرة، ومن الخير أن نوازن بينهما موازنة دقيقة، ليقف القارئ على ما فيهما من براعة الوصف وحسن البيان.

ولنذكر أولاً أن شوقي يتأثر البحثري منذ زمن بعيد، ويودّ لو ظفر شعره بتلك الديباجة البحثرية، التي ضربت بها الأمثال.

ولننظر كيف يقول في خطاب « أم الحسين » :
النَّيْلُ فَجَّرَ مَشْرَعَيْنِ وَعَيْلَمًا وَتَفَجَّرَتْ يُمْنًا خَمْسَةَ أَبْحُرِ
أَحْيَيْتِ فِي فَضْلِ الْمُلُوكِ وَعِزِّهِمْ مَا مَاتَ مِنْ أُمِّ الْخَلِيفَةِ جَعْفَرِ
إِنَّ الَّذِي قَدْ رَدَّهَا وَأَعَادَهَا فِي بُرْدَتَيْكَ أَعَادَ فِي الْبُحْثَرِي

وسنرى كيف يقول وهو يطوف بقصر الحمراء :
وَعَظَّ الْبُحْثَرِيَّ إِيوَانُ كِسْرَى وَشَفَّتْنِي الْقُصُورُ مِنْ عَبْدِ شَمْسِ

حياة البحتري

ولد أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري في سنة ٣٠٦ بِمَنبِج بين حلب والفرات. ومنبج — بالفتح، ثم السكون، وباء موحدة مكسورة وجيم — بلد قديم طيب الهواء. وُلد فيه جماعة من فرسان البلاغة منهم : البُحتري، وأبو فراس. ومن قبلهما عبد الملك بن صالح الذي قال له الرشيد لما دخل منبج : أهذا منزلك ؟ قال : هو لك، ولي بك يا أمير المؤمنين. قال : كيف بناؤه ؟ قال : دون منازل أهلي، وفوق منازل الناس.

وقال وكيف ذلك، وفدرك فوق أقدارهم ؟ قال : ذلك خُلق أُمير المؤمنين أتأسى به، وأقفو أثره، وأحذو حذوه.

قال : فكيف طيب منبج ؟ قال عذبة الماء، طيبة الهواء، قليلة الأدوية
قال : فكيف ليلها ؟ قال : سحرٌ كله !

وفي التشويق إلى منبج يقول إبراهيم بن المدبر، وقد خلى بها شُعْبَةً من فؤاده :
وَلَيْلَةٌ عَيْنَ الْمَرْجِ زَارَ خِيَالُهُ فَهَيَّجَ لِي شَوْقًا وَجَدَّدَ أَحْزَانِي
فَأَشْرَفْتُ أَعْلَى الدَّيْرِ أَنْظُرُ طَامِحًا بِالْمَحِ آمَافٍ وَأَنْظُرُ إِنْسَانَ
لَعَلِّي أَرَى آيَاتَ مَنْبِجِ رُؤْبَةً نُسَكُّ مِنْ وَجْدِي وَتَكْشِفُ أَشْجَانِي
فَقَصَّرَ طَرْفِي وَأَسْتَهْلَ بِعَبْرَةٍ وَفَدَيْتُ مَنْ لَوْ كَانَ بَدْرِي لَفَدَّانِي
وَمَثَلُهُ شَوْقِي إِلَيْهِ مُقَابِلِي وَنَاجَاهُ عَنِّي بِالضَّمِيرِ وَنَاجَانِي

وإنما ذكرنا لك هذه الكلمات عن منبج لندرك بعض السرفي رقة البحتري، وجمال شعره، فإن للبلد الطيب الهواء، العذب الماء، القليل الأدوية، أثراً كبيراً في تكوين نفس الشاعر، والكاتب، والخطيب^(١)، ولأن البحتري كان كبير الحنين إلى منبج، وكان كثيراً ما يتشيد بها في شعره ولتنظر كيف يقول في خطاب أبي جعفر محمد بن حميد الطوسي :

(١) انظر تفصيل هذا المعنى في الكلام عن أبي الحسن الخرخاني في الجزء الثاني من كتاب : « السرفي ».

لَا أَنْسِينَ زَمَنًا لَدَيْكَ مُهَذَّبًا وَظِلَالَ عَيْشٍ كَانَ عِنْدَكَ سَجْسَجٌ
فِي نِعْمَةٍ أَوْطِنْتُهَا وَسَكَنْتُ فِي أَفْيَئِهَا فَكَأَنِّي فِي مَبِيحٍ

بداية حياته

سَبَّ البحرِي وترعرع في مَبِيح. وكان ممدح بها فيما يقولون أصحاب البصل
والبادنجان ! !

قالوا « وكان منه ما كان في علوة التي تسبب بها في كثير من أشعاره، وهي
بنت زريقة الحلبية، وزريقة أمها » ويظهر من هذه الكلمة أن زريقة الحلبية أم
علوة كان لها شأن في عالم الجمال، وأن البحرِي حين أغرم بعلوة لم يرم فؤاده
إلا بين يدي فتاة لعوب، نشأت في مهد المرح، وتقلبت فوق أعطاف الدلال.
ولو أن العرب لم ينصرفوا عن التصوُّر لخالَّفوا لنا ذُمِّة لعلوة، وأرونا كيف كانت
هذه الفتاة التي أضرمت نار الوجد في صدر الوليد، وعلمنه كيف تكون
الشكوى، وكيف يكون الأنين ! وإن الشعر لمدين لهذه الإلهة التي أوحى إلى
البحرِي أن يقول بعد أن خالَّها بالشام، وسكن العراق:

أَعِيدِي فِي نَظْرَةٍ مُسْتَشِيبٍ	تَوَخَّى الْأَجَرَ أَوْ كَرِهَ الْأَثَامَا
تَرِي كِبْدًا مُحَرَّقَةً وَعَيْنَا	مُورِّقَةً وَقَلْبًا مُسْتَهَامَا
أَلَامٌ عَلَى هَوَاكِ وَلَيْسَ عَذْلًا	إِذَا أَحْبَبْتُ مِنْكَ أَنَّ الْأَمَا
لَقَدْ حَرَّمْتِ مِنْ وَصْلِي حَلَالًا	وَقَدْ حَلَلْتِ مِنْ هَجْرِي حَرَامَا
تَنَاءَتْ دَارُ عَلْوَةٍ بَعْدَ قُرْبٍ	فَهَلْ رَكِبْتُ يُلِغُهَا السَّلَامَا
وَجَدَّدَ طَيْفُهَا عَتَبًا عَلَيْنَا	فَمَا يَعْتَادُنَا إِلَّا لِإِمَامَا
وَرُبَّتْ لَيْلَةٌ قَدْ بَتُّ أَسْقَى	بَعْبِنِيهَا وَكَفَيْهَا الْمُدَامَا
قَطَعْنَا اللَّيْلَ لَثْمًا وَاعْنَنَاقَا	وَأَفْنَيْنَاهُ صَمًّا وَالْتِزَامَا
لَيْسَ أَضْحَتْ مَحِلَّتُنَا عِرَاقَا	مُشْرِقَةً وَحِلَّتُهَا شَامَا
فَلَمْ أَحْدِثْ لَهَا إِلَّا وَدَادَا	وَلَمْ أَزِدْ بِهَا إِلَّا غَرَامَا

وهناك نفس ثانية كان لها على قلب البحرِي سلطان. ومن الوقار أن لا نعرض

لها في هذا الحديث، وقد بسطنا عنها القول في كتاب « مدامع العشاق » ويكفي أن نذكر أنموذجاً من شعره في وصف تلك النفس، وإنه ليقول :

هَلْ لِي سَبِيلٌ إِلَى الظُّهْرَانِ مِنْ حَلَبٍ وَنَشْوَةٍ بَيْنَ ذَاكَ الْوَرْدِ وَالْأَسِ
أَمْدٌ كَفِّي لِأَخْذِ الْكَاسِ مِنْ رَشَاءٍ وَحَاجَتِي كُلِّهَا فِي خَابِلِ الْكَاسِ
بِقُرْبِ أَنْفَاسِهِ أَشْفِي الْعَلِيلَ إِذَا دَنَا فَقَرَّبَهَا مِنْ حَرِّ أَنْفَاسِي

اتصاله بأبي تمام

ولعل أظهر حادث نقل البحتري من عهد إلى عهد هو اتصاله بأبي تمام أمير الشعراء في ذلك الحين، فقد صار إليه وهو بجمّص، وعرض عليه شعره. وكان أبو تمام يجلس فلا يبقى شاعر إلا قصده، وعرض عليه شعره. فلما سمع البحتري أقبل عليه وترك سائر الناس. فلما تفرقوا قال له : أنت أشعر من أنشدني، فكيف حالك ؟ فشكا إليه حلة، فكتب إلى أهل مَعَرَّة النعمان يشهد له بالحق ويوصيهم بإكرامه، قال البحتري « فأكرموني بكتابه، ووظفوا لي أربعة آلاف درهم، فكانت أول مال أصبته » وقال البحتري : أنشدت أبا تمام شيئاً من شعري، فأنشدني بيت أوس بن حَجَر :

إِذَا مُقَرَّمٌ مِنَّا ذَرَى حَدُّ نَابِهِ تَحْمُطُ فِينَا نَابُ آخِرِ مُقَرَّمٍ^(١)

وقال : نعت إليّ نفسي ! فقلت : أعيدك بالله من هذا ! فقال إن عمري ليس يطول وقد نشأ لطيفاً مثلك. أما علمت أن خالد بن صفوان المنقري رأى شبيب بن شبة وهو يتكلم، وهو من رهطه، فقال يابني : نعي نفسي إليّ إحسانك في كلامك، لأنّا أهل بيت ما نشأ فينا خطيب إلا مات من قبله. قال : فمات أبو تمام بعد سنة من هذا.

وهذه بالطبع وسوسة من أبي تمام، ولكنها شاهد على حسن رأيه في شعر

(١) الفحل المكرم هو الذي أقرمه صاحبه : تركه عن الركوب والعمل وودعه للفحله وقرمه، وتحمط الفحل : هدر. ومن المجاز : تحمط الرجل : تعضب وثار. والمراد هنا من تحمط الباب ظهوره وارتفاعه.

البحثري، وقد كان أبو تمام من أعلم الناس بالشعر، حتى قالوا إنه في اختياره أبلغ منه في شعره.

وقال البحثري : أنشدت أبا تمام شعراً لي في بعض بني حميد وصلت به إلى مال له خطر، فقال لي « أحسنت، أنت أمير الشعراء بعدي » فكان قوله أحب إليّ من جميع ما حويته.

ولا يفوتنا أن نذكر وصية أبي تمام للبحثري، فقد نوّه بها ابن رشيق، وساقها صاحب زهر الآداب، وهي تدلنا على رأي أبي تمام في نظم الشعر وذوقه في اختيار الأوقات، وتدلنا كذلك على أسلوب البحثري في حياته الأدبية، فقد ساس نفسه بما أوصاه به أستاذه. وفيها أيضاً نوع من التربية نحب أن نسجّله في هذا الحديث. قال البحثري : كنت في حدثي أروم الشعر، وكنت أرجع فيه إلى طبعي، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه، ووجوه اقتضابه، حتى قصدت أبا تمام، وانقطعت فيه إليه، واتكلت في تعريفه عليه، فكان أول ما قال لي : يا أبا عبادة، تخيّر الأوقات، وأنت قليل الهموم، صِفْرٌ من الغموم. واعلم أن العادة جرت في الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه في وقت السّحر، وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة، وقسطها من النوم. وإن أردت التشبيب فاجعل اللفظ رقيقاً، والمعنى رقيقاً، وأكثر فيه من بيان الصبابة، وتوجّع الكآبة، وقلق الأشواق، ولوعة الفراق، فإذا أخذت في مديح سيد ذي أيد، فاشهر مناقبه، وأظهر مناسبه، وأبن معاله وشرف مقامه، ونصّ المعاني، واحذر المجهول منها، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الرديئة، ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجساد، وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك، ولا تعمل شعرك إلا وأنت فارغ القلب. واجعل شهوتك إلى الشعر الذريعة إلى حسن نظمه : فإن الشهوة نغم المعين. وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين : فما استحسّن العلماء فاقصده، وما تركوه فاجتنبه، ترشد إن شاء الله.

قال البحثري: فأعملت نفسي فيما قال، فوقفت على السياسة^(١).

(١) السياسة هنا حسن التدبير.

ولهذه الوصية أغراض، يرجع بعضها إلى رياضة النفس تأهباً للقريض، ويرجع بعضها إلى جوهر الفن، أما فيما يرجع إلى رياضة النفس فأبو تمام مسبوق بطائفة من الشعراء والخطباء، أوصوا باختيار الأوقات التي تصفو فيها النفس وبلطف الحس، ويستيقظ الوجدان، ومنهم من دعا إلى الاستنجاد بالمياه الجارية، والرياض الحالية، والأماكن الخالية. إلا أن أبا تمام — مع أنه مسبوق — وُفق كل التوفيق حين قال « واجعل شهونك إلى الشعر الذريعة إلى حسن نظمه، فإن الشهوة نعم المعين » وهذه كلمة فاصلة في حياة الفنانين على الإطلاق، سواء كانوا شعراء أم كُتاباً، أم مصورين، أم مثّالين، لأن الإجادة في الفنون تتوقف على الشهوة، وأكد أحكم بأن الفنان لا يبدع ولا يجيد، إلا إن كان له من فنه معبود جديد.

وأما فيما يرجع إلى جوهر الفن فأبو تمام قصر وصيته على العناية بالنسب والمدح، وسكت عن بفية الأغراض التي بهتم بها الشعراء، فلم ينكلم عن الرثاء، ولا الهجاء، ولا الفخر، ولا الوصف. مع أن الوصف من أهم ما يعنى به الشعراء، ولعله اكتفى بهذه الكلمة العامة التي تنطبق على كل موضوع إذ قال « ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجساد » وهي كلمة دقيقة على ما فيها من الابتدال.

ولا يحسبن القاريء أن في إقبال البحتري على ما أوصاه به أستاذه دليلاً على أن شعر أبي تمام وشعر البحتري من نمط واحد.. كلا ! فإن أبا تمام في وصيته يمثل الأستاذ، ولا يمثل الشاعر، لأننا لو حاكمنا شعره إلى وصيته لراعنا بين المنزعين من الفرق البعيد، ولا سيما فيما يتعلق بالتشبيب، فإن أبا تمام لم يتغن بالحسن إلا قليلاً، وحظه من صدق اللوعة ضئيل.

شخصية شوقي

ومهما يكن من شيء، فإن عناية البحتري بوصية أستاذه بياناً لأسلوبه في رياضة نفسه، وتهذيب شعره، فلننظر بهذه المناسبة، كيف يروض شوقي نفسه، وكيف يهذب شعره، وكيف يتناول ما يقصد إلى نظمه من شتى الأغراض، فقد صحبا

شوقي وعاصرناه، وهو بحمد الله يعيش معنا في مدينة واحدة، وقد نقرأ عليه سينيته في قصر الحمراء قبل أن نضعها في الميزان، وإنا لنزن بالقسطاس المستقيم.

صاحب شوقي إن شئت، فستراه قبل الحديث، وستعجب كيف يكون هذا الصيت الذائع، لهذا الرجل الصموت، وقد تصفه بالتواضع كما وصفه كثير من المتأدبين، ولكن وقد عرفت شوقي، أحكم بأن هذا الرجل مجنون جديد من مجانين ليل، وليلاه هي الشعر، وهو بالشعر مجنون، لا مغرم ولا مفتون، فإن الغرام والفتنة من أيسر ما يعرض لأرباب القلوب.

يحدثك شوقي حديثاً عادياً لا روعة له، ولكنه لا ينفك يدور بنظرته الحائرة وكأنه يبحث عن شيء في لفائف قلبه، وحنايا نفسه، وأعماق ضميره — دخلت عليه، وهو يتأهب لرثاء عبد اللطيف الصوفاني، فأخذ يحدثني عن الجامعة المصرية ونظامها الجديد، ثم بغتني بهذه الكلمة : « الصوفاني بك معضلة من المعضلات، هو تمثال إخلاص، ولكن هل له عقل الفلاسفة والزعماء ؟ » فعرفت أن الرجل في واد آخر غير الحديث عن الجامعة المصرية وأن قلبه، ونفسه، وحسه، ووحدانه في شغل بما يعدّه لرثاء الصوفاني بك « تمثال الإخلاص » وعرفت أنه لا بد أن يقول شيئاً في تحديد تلك الشخصية، ثم انتظرت يوم التأبين، فإذا هو يقول عن أثر الفقيه في المجالس النيابية :

مَا كَانَ قُصّاً وَلَا زِيَاداً وَلَا يَسْحَرُ الْبَيَانَ جَاءَ
لَكِنْ إِذَا قَامَ قَالَ صِدْقاً وَجَانَبَ الزُّورَ وَالرِّيَاءَ

وقد وصفه الأستاذ خليل مطران وصفاً صادفاً حين قال :

« ينظم بين أصحابه فيكون معهم، وليس معهم، وينظم في المركبة، وفي السكة الحديدية، وفي المجتمع الرسمي، وحيث يشاء، ولا يعرف جليسه أنه ينظم إلا إذا سمع منه بادئ بدء غمغمة تشبه النغم الصادر من غور بعيد، ثم رأى ناظره، وقد برقاً وتواترت فيهما حركة المحجرين، ثم بصره، وقد رفع يده إلى جبينه، وأمرها عليه إمراراً خفيفاً هنيهة بعد هنيهة — فإذا قوطع في خلال النظم انتقل إلى أي بحث يباحث فيه حاضر الذهن صافيه، جميل البادرة، كعادته في

الحديث — ثم إذا استأنف ذلك المنظوم ولو بعد أيام طوال عاد إليه كأنه لم تنقطع عنه مستظهِراً ما تم منه حافظاً لبقية المعنى الذي يضمّره، يكتب القصيدة بعد تمامها وربما تمّت ونسيها شهراً، ثم ذكرها فكتبها في جلسة واحدة — يكلف أحياناً بمعارضة المتقدمين، ولا يندر عليه أن يزيهم — ولا يجهد فكره ولا يكده في معنى أو مبنى، فأما المعنى فيجيبه على مرامه، أو على أبعد من مرامه، ولا ينضب عنده لأنه يستخلصه من عقل فوّار الذكاء، ومعارف جامعة إلى أفانين الآداب في لغات الأفرنج والأعراب وفلسفة الحقوق، وحقائق التاريخ، وغرائب السّير التي يحفظ منها غير يسير، إلى مشاركات علمية، وتنبيهات فنية، استقّاه من مطالعته في صنوف الكتب، واتخذها من ملحوظاته ومسموعاته في جولاته بين بلاد الشرق والغرب. وأما المبنى فله فيه أذواق متعددة بتعدد مقامات القول : ترى فيه من نسج البحري، ومن صياغة أبي تمام، ومن وثبات المتنبي، ومن مفاجآت الشريف، ومن مسلسلات مهيار، وفي المجموع تجد صفة عامة للنظم، وهي أنه نظم شوقي : ذلك شعر العبقريّة والتفوق .»

ملاح وصفية

ولإذا ذكرنا عادة البحري وشوقي في قرض الشعر فلنذكر كذلك أنهما يشتركان في العناية بالآداب العربية، فقد ترك البحري كتاباً سماه « معاني الشعر »^(١) وترك كتاباً آخر في الحماسة كالذي تركه أبو تمام ولكنه بسنار عنه بسهولة اللغة وتنوع الموضوعات. وشوقي — وإن لم يصنف كتاباً في الآداب — يقرأ ويدرس بشراهة تفوق الوصف، ويتعقب الحركة الأدبية بنشاط عجيب. ويختلفان في إنشاد الشعر والإشادة به، فقد كان البحري يحتفي بإنشاد شعره، ويسلك في ذلك مسلك التلحين والتطريب، كان بطبل النظر في وجوه الحاضرين، ليرى مبلغ إعجابهم به، وإكبارهم له، حتى نفر الناس

(١) قد يظن أن هذا كتاب في النقد، ولكننا نرحح أنه كان مجموعة من المختارات المرتبة على حسب المعاني.

منه، وعبث به أهل السفه، وأصحاب المجون. أما شوقي: فقلماً يتحدث عن شعره، وقلماً ينشده، وإنما يوكل بإنشاده من يتوسم فيه حسن الفهم وحسن الأداء. وهذا المسلك، مع ما فيه من دلائل الحياء أو الشمم، غير مأمون العواقب، وكثيراً ما آذى الشاعر، وعاد عليه بالضرر البليغ.

وفاء البحري وشوقي

ولقد كانت الشاعرية، ولا تزال، دالة على سمو النفس، ويقظة الوجدان والحوادث هي التي تميز عناصر النفوس، وقد وقع للبحري وشوقي من كبار الحوادث ما ظهر معه ما لهما من قوة النفس، ومتانة الخلق وكرم العنصر، ولم يحن الوقت لتدوين ما وقع لشوقي ! فلنكتف بهذا التلميح، ولنذكر ما صير البحري مثلاً في الوفاء.

كان المتوكل — كما ذكر صاحب زهر الآداب — عقد لولده المنتصر والمعتز والمؤيد ولاية العهد، ثم تغير على المنتصر دون أخويه، وكان يسميه المنتظر ويقول له : أنت تتمنى موتي، وتنتظر وقتي ! ويأمر الندماء أن يعيثوا به إلى أن أوغر صدره، وأقل صبره، فلما كانت ليلة الأربعاء لثلاث خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين، كان المتوكل يشرب مع الفتح في قصره المعروف بالجعفري ومعه جماعة من الندماء والمغنين، وكان المنتصر معهم، فلما انصرف ثلاث ساعات من الليل، قال لزرافة التركي : ألا تسمعي ساعة حتى أشكو إليك ما يمرُّ بي ؟ قال بلى، وجعل يماطله ويطاوله، وغلّق بُعَا الشرابي الأبواب كلها إلا باب الماء، ومنه دخل الذين قتلوا المتوكل، وقد ضربوه ضربة قُطع بها حبل عاتقه، وتلقاه الفتح بنفسه فأكب عليه، فقتلا جميعاً، وبويع المنتصر من ساعته. قال الحصري « وكانت مدة التنصر في الخلافة مدة شيرويه بن كسرى حين قتل أباه ستة أشهر. » — وللظالم الويل.

كانت هذه القتلة الشنيعة التي تردى بها خليفة من خلفاء المسلمين، وكان هذا الخليفة ولي نعمة البحري، وكان استبداد المنتصر إذ ذاك كافياً في ردِّه.

عن رثاء مولاه، ولكنه رثاه بقصيدة وصفها أبو العباس تلعب بقوله : « ما قبلت هاشمية أحسن منها ! وفد صرح فيها نصرىخ من أدهلته المصائب عن تخوف العوافب » وفيها بقول :

تَغَيَّرَ حُسْنُ الْجَعْفَرِيِّ وَأَنَسَهُ	وَقُوضَ بَادِي الْجَعْفَرِيِّ وَحَاضِرُهُ
تَحَمَّلَ عَنْهُ سَاكِنُوهُ فُجَاءَةً	فَآضَتْ سَوَاءً دُورُهُ وَمَقَابِرُهُ
وَلَمْ أَرَ مِثْلَ الْقَصْرِ إِذْ رِيعَ سِرْبُهُ	وَإِذْ ذُعِرَتْ أَطْلَاؤُهُ وَجَاذِرُهُ
وَإِذْ صِيحَ فِيهِ بِالرَّحِيلِ فَهَتَّكَتْ	عَلَى عَجَلِ أَسْنَارِهِ وَسَتَائِرِهِ
إِذَا نَحْنُ زُرْنَاهُ أَجَدُّ لَنَا الْأَسَى	وَقَدْ كَانَ قَبْلَ الْيَوْمِ بَتَّهَجُ زَائِرِهِ
فَأَيْنَ عَمِيدُ النَّاسِ فِي كُلِّ نَوْبَةٍ	تَتُوبُ وَنَاهِي الدَّهْرِ فِيهِمْ وَآمِرُهُ
تَخْفَى لَهُ مُعْتَالُهُ تَحْتَ غِرَّةِ	وَأُولَى لِمَنْ يَغْتَالُهُ لَوْ بُحَاهِرُهُ
صَرِيحٍ تَقَاضَاهُ السُّيُوفُ خُشَاشَةً	يَجُودُ بِهَا وَالْمَوْتُ حُمْرُ أَظَافِرِهِ
حَرَامٌ عَلَيَّ الرَّاحُ بَعْدَكَ أَوْ أَرَى	دَمًا بَدَمٍ يَحْرِي عَلَى الْأَرْضِ مَائِرُهُ
وَهَلْ يُرْتَجَى أَنْ يَطْلُبَ الدَّمُ طَالِبٌ	مَدَى الدَّهْرِ وَالْمَوْتُورُ بِالدَّمِ وَابِرُهُ
فَلَا مُلِّيَ الْبَاقِي تَرَاثَ الَّذِي مَضَى	وَلَا حَمَلَتْ ذَاكَ الدُّعَاءُ مَنَابِرُهُ

ونظرة واحدة إلى ما كان يجري في تلك العصور من الظلم والاضطهاد تربك أن البحثري كان من أشجع الناس وأوفاهم بهذه القصيدة، على أنه لم يقف عند هذا الحد، بل كان يرتاح في كثير من شعره إلى ذكر المتوكل والفتح بن خاقان، وانظر كيف يفيض شعره بالأسى وهو يقول لبعض من بمدحه: تَذَارَكْنِي الْإِحْسَانُ مِنْكَ وَنَالَنِي عَلَى فَافَةٍ ذَاكَ النَّدَى وَالنَّطُولُ وَدَافَعْتَ عَنِّي جَيْنَ لَا الْفَتْحُ يُرْنَجِي لِدَفْعِ الْأَذَى عَنِّي وَلَا الْمُتَوَكَّلُ

وما أوجع ما يقول من كلمة تانية :

مَضَى جَعْفَرٌ وَالْفَتْحُ بَيْنَ مُوسَدٍ	وَبَيْنَ قَبِيلٍ فِي الدَّمَاءِ مُضَرَّجٍ
أَطْلُبُ أَنْصَاراً عَلَى الدَّهْرِ بَعْدَ مَا	تَوَى مِنْهُمَا فِي التُّرْبِ أَوْسِي وَخَزْرَجِي

وانظر كيف يقول، وقد بان بعض من يهوى:

عَسَى آيسٌ مِنْ رَجْعَةِ الْوَصْلِ يُوصَلُ وَدَهْرٌ تَوَلَّى بِالْأُحْبَةِ يُقْبَلُ

أَيَا سَكَنًا فَاتَ الْفِرَاقَ بِنَفْسِهِ وَحَالَ التَّعَادِي دُونَهُ وَالتَّزْيِيلُ
أَتَعَجَّبُ لَمَّا لَمْ يَغْلُ جَسْمِي الضَّنَى وَلَمْ يَخْتَرِمَ نَفْسِي الْجِمَامُ الْمَحَلُّ
فَقَبْلَكَ بَانَ الْفَتْحُ عَنِّي مُودَّعًا وَفَارَفَنِي شَفْعًا لَهُ الْمُتَوَكَّلُ
فَمَا بَلَغَ الدَّمْعُ الَّذِي كُنْتُ أُرْتَجِي وَلَا فَعَلَ الْوَجْدُ الَّذِي خِلْتُ يَفْعَلُ
وَمَا كُلُّ نِيرَانِ الْجَوَى تَقْتُلُ الْحَشَا وَمَا كُلُّ أَدَوَاءِ الصَّبَابَةِ تَقْتُلُ

تلك هي نفس البحتري، الذي عذبتة علوة في بدابه حياته، وصهره الحزن
على المتوكل في أخريات أيامه، وقد عرف القارىء عنه شيئاً فيه بعض الغناء،
وعرف كذلك ما بينه وبين شوقي من الاختلاف والائتلاف، ومن الواجب أن
يعرف منهج هذين الشاعرين في بكاء الممالك، والنفجع لنكبات الشعوب، قبل
أن يرى كيف وصف البحتري إخوان كسرى، وكيف وصف شوقي قصر الحمراء.

البحث الخامس عشر

بكاء الممالك عند البحري وشوقي

كانت عواطف الشعراء عواطف فردية، لا اجتماعية، فكان الشاعر يبكي وجده ونعيمه وهو يندب الرسوم ويتوجع للطلول، ولم يهتمّ العرب ببكاء الممالك، والتفجع للشعوب، إذ كانوا في بداية الحياة وكان الرجل منهم قلما يُعنى بغير نفسه، وأهله، وذويه، فكانوا في شغل بأنفسهم عن بلايا الإنسانية التي تصرخ من حولهم وهم عنها غافلون.

ثم جاء القرآن فسلك في الحديث عن الممالك البائدة مسلك التخويف والترهيب، فلم يعطف عليها بكلمة، ولم يَشتر لها عَوْرَة، لأن القرآن لم يكن كتاب شعر، يرمي إلى روعة الفن وجمال الخيال، وإنما كان كتاب حكمة ومَوْعظة، فكان من حقه أن يقول بحزم ورزانة :

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمُ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقِدٍ ذَلِكَ يَأْخُذُهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

ولو لم يكن الزجر والردع من أغراض القرآن الأساسية، لكان له شأن غير هذا الشأن، وهو يتحدث عن فرعون وإبليس، ومن إليهم من الجبابرة والطماعة،

فقد جرى حديثه عنهم مجرى الشماتة، وكانوا ينبوع سحر لا ينضب ولا يغيض،
لو كان القرآن كتاب فنّ وكتاب خيال.

على ان العرب لم يغفلوا عن الإشادة بما طوى الدهر لهم من حضارة، ولم
يفتهم التغني بما كان لأسلافهم من ضخامة المدنية، وإن شابوا ذلك بالتحسر على
مادرس من معالم اللهو، والتحزن لما عفا من ملاعب الشباب، فمن ذلك قول
الأسود بن يعفر التهشلي :

وَالْهَمُّ مُحْتَضِرٌ لَدَيَّ وَسَادِي	نَامَ الْخَلِيٌّ وَمَا أَحْسُ رُقَادِي
هَمٌّ أَرَاهُ قَدْ أَصَابَ فُؤَادِي	مِنْ غَيْرِ مَا سَقَمَ وَلَكِنْ شَفَنِي
ضُرِبَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِالْأَسْدَادِ	وَمِنْ الْحَوَادِثِ لَا أَبَالِكَ أَنْتِي
بَيْنَ الْعِرَاقِ وَبَيْنَ أَرْضِ مُرَادٍ	لَا أَهْتَدِي فِيهَا لِمَوْضِعِ تَلْعَةٍ
أَنَّ السَّبِيلَ سَبِيلُ ذِي الْأَعْوَادِ	وَلَقَدْ عَلِمْتُ سِوَى الَّذِي نَبَّأْتَنِي
يُوفِي الْمَخَارِمَ يَرْقُبَانِ سَوَادِي	إِنْ الْمِينَةَ وَالْحُثُوفَ كِلَاهُمَا
مِنْ دُونِ نَفْسِي طَارِفِي وَتِلَادِي	لَنْ يَرْضِيَا مِنِّي وَفَاءَ رَهِينَةٍ

ثم يقول في بكاء من ساد من الذاهيين :

تَرَكُّوا مَنَازِلَهُمْ وَبَعْدَ إِيَادِ	مَاذَا أُؤْمَلُ بَعْدَ آلٍ مُحَرَّقِ
وَالْقَصْرِ ذِي الشُّرَفَاتِ مِنْ سِنْدَادِ	أَهْلٍ الْخَوَرَنَقِ وَالسَّدِيرِ وَبَارِقِ
كَعْبُ بْنُ مَامَةَ وَأَبْنُ أُمِّ دَوَادِ	أَرْضٌ تَخَيَّرَهَا لِطَيْبِ مَقِيلِهَا
فَكَأَنَّمَا كَانُوا عَلَى مِيعَادِ	جَرَتْ الرِّيحُ عَلَى مَكَانِ دِيَارِهِمْ
فِي ظِلِّ مُلْكٍ ثَابِتِ الْأَوْتَادِ	وَلَقَدْ غَنَوْا فِيهَا بِأَنْعَمِ عَيْشَةٍ
مَاءُ الْفُرَاتِ يَجِيءُ مِنْ أَطْوَادِ	نَزَلُوا بِأَنْقَرَةٍ يَسِيلُ عَلَيْهِمُو
يَوْمًا يَصِيرُ إِلَى بَلَى وَنَقَادِ	فَإِذَا النَّعِيمُ وَكُلُّ مَا يُلْهَى بِهِ

ثم عاد إلى بكاء شبابه فقال :

إِمَّا تَرْنِي قَدْ بَلَيْتُ وَغَاظَنِي
مَانِيلَ مَنْ بَصْرِي وَمِنْ أَجْلَادِي^(١)

(١) الأجلاد : جمع جلد بالتحريك، وهو القوة.

وَعَصَيْتُ أَصْحَابَ الصَّبَابَةِ وَالصَّبَا
فَلَقَدْ أَرَوْحُ عَلَى التَّجَارِ مَرَحَلًا
وَلَقَدْ لَهَوْتُ وَلِلشَّبَابِ لَذَاذَةٌ
مِنْ خَمْرِ ذِي نَظْفٍ أَعَنَ مُنْطَقِي
يَسْعَى بِهَا ذُو نُومَتَيْنِ مُشَمَّرٌ
وَالْبَيْضُ بَرَمِينَ الْقُلُوبِ كَأَنَّهَا
يَنْطَفِرُ مَعْرُوفًا وَهْنٌ نَوَاعِمَ

وَأَطَعْتُ عَاذِلَنِي وَلَانَ هِبَادِي
مَدَلًا بِمَالِي لَبْنَا أَجْيَادِي
بِشَلَاةٍ مُزَجَّتْ بِمَاءِ غَوَادِ
وَافِي بِهَا لِدِرَاهِمِ الْأُمْحَادِ
فَأَتَّ أَنْامُلُهُ مِنَ الْفُرْصَادِ
أُذْحِي بَيْنَ صَرِيمَةٍ وَجَمَادِ
بِعُزِّ الْوُجُوهِ رَفِيقَةُ الْأَكْبَادِ

ونحا هذا المنحى متمم بن نويرة في عبينه الني يقول فيها:
وَلَقَدْ عَلِمْتُ وَلَا مَحَالَةَ أَنِّي
أَفْتِنَ عَادًا ثُمَّ آلَ مُحَرَّقِ
وَلَهْنٌ كَانَ الْحَارِثَانِ كِلَاهُمَا
لَا بَدَّ مِنْ تَلَفٍ مُصِيبٍ فَانْتَظِرْ
وَلِيَأْتِيَنَّ عَلَيْكَ يَوْمٌ مَرَّةً

لِلْحَادِثَاتِ فَهَلْ نَرَبْنِي أَجْزَعُ
فَتَرَكْنَهُمْ بَدَأَ وَمَا فَذَّ جَسَعُوا
وَلَهْنٌ كَانَ أَخُو الْمَصَانِعِ تُبْعُ
أُبَارِضُ قَوْمِكَ أَمْ بِأُخْرَى نُصْرَعُ
يُنْكِي عَلَيْكَ مُقْتَعًا لَا نَسْمَعُ

وكذلك نجد في خطب العرب وأشعارهم شذرات في التوجع لما انقرص من
الممالك والشعوب، لكنها لا تمثل الوقفات الفنية التي نُسِّدُ إليها الرِّحال، كوقفه
البحثريّ عند رسوم الإيوان، ووقفه شوفي عند أطلال الحمراء.

إيوان كسرى

وقد يجمل أن نذكر أن إيوان كسرى، الذي اسلم البحثري أحجاره، وطاف
بأركانه، كان مضرب المثل عند الأعراب، فقد قيل لأعرابي : كيف يصنع بالباديه
إذا انتصف النهار، وأنتعل كل شيء ظله ؟ فأجاب : وهل العيش إلا ذاك ؟ ثمشي
أحدنا ميلاً فَيَرَفُضُّ عَرَفَا كَأَنَّهُ الْحِمَانُ، ثم نصب عصاه، ويلقي عليها كساءه،
ونفل الرياح من كل جانب، فكأنه في إيوان كسرى.

(١) المصانع : الفصور.

وقد حُكِيَ فيما نَقَلَ ياقوت أن المنصور لما أراد بناء بغداد استشار خالد بن برمك في هدم الإيوان وإدخال آله في عماره بغداد، فقال له : لا نفعل يا أمير المؤمنين ! فقال : أبيت إلا التعصب للفرس ! فقال ما الأمر كما ظن أمير المؤمنين، ولكنه أثر عظم بدل على أن ملّة وديناً وقوماً أذهبوا ملك بانيه كدين ومُلك عظيم، فلم يصنع إلى رأيه وأمر بهدمه، فوجد النفقة عليه أكثر من الفائدة بنفضه فتركه، فقال خالد : الآن أرى يا أمير المؤمنين أن نهدمه، لئلا يقال إنك عجزت عن خراب ما عمره غيرك، ومعلوم ما بين الخراب والعماره !

وفد تكون هذه الحكاية صحيحة، وفد تكون خرافة نناقلها الناس، ولكها على كل حال دليل على منزلة الإيوان في صدور العرب لذلك العهد.

أما قصر الحمراء الذي بكاه شوقي فهو من قصور الأندلس، والأندلس هي الفردوس المفقود، الذي يبكيه المسلمون، ولنتنظر فسيحدثنا شوقي عنه أصدق الحديث.

نفسية البحري

وأريد بنفسية البحري ذلك الخاطر الذي اسنولى عليه حين هم بوصف الإيوان، وقد رأيناه يذكر لذلك علتين : إحداهما في بداية القصيدة، والنانبة في النهاية، أما الأولى فهي الهرب من الهموم، ومن ظلم الأفارب، بالفرع إلى طُلُول الإيوان، ينسى في أكتافها حزنه وبثه، ويسنودها أساه وشجاءه، وذلك حيث بقول :

صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يُدْنِسُ نَفْسِي	وَرَفَعْتُ عَنْ جَلَدَا كُلِّ حَبْسٍ ^(١)
وَتَمَاسَكْتُ حَيْثُ زَعَزَعَنِي الدَّهْرُ	رُ التَّمَاسَا مِنْهُ لَتَغْسِي وَنَكْسِي
بُلُغَ مِنْ صُبَابَةِ الْعَيْشِ عِنْدِي	طَفَفَتْهَا الْأَبْأَمُ تَطْفِيفَ بَحْسٍ
وَبَعِيدٌ مَا يَبْنِي وَارِدِ رَفْهِ	عَلَّ سُرْبُهُ وَوَارِدِ حِمْسٍ ^(٢)

(١) الحس : هو الدنيء الحنان

(٢) الحمس : شر الأظماء.

وَكَاَنَّ الزَّمَانَ أَصْبَحَ مَحْمُومًا
وَأَشْتَرَايَ الْعِرَاقَ خُطَّةً غَبْنِي
لَا تَرْزُنِي مُزَاوِلًا لاختياري
وَقَدِيمًا عَهْدَتَنِي ذَا هَنَاتٍ
وَلَقَدْ رَأَيْتَنِي نُحُو أَبْنِ عَمِّي
وَإِذَا مَا جُفِيتُ كُنْتُ حَرِيًّا
لَا هَوَاهُ مَعَ الْأَخْسَرِ الْأَخْسَرِ
بَعْدَ بَيْعِي الشَّامَ بَيْعَةً وَكُسِ
عِنْدَ هَذِي الْبَلَوَى فَتُنَكَّرَ مَسِي^(١)
آيَاتٍ عَلَى الدُّنْيَا شُمُسِ
بَعْدَ لَيْلٍ مِنْ جَانِبِهِ وَأُنْسِ
أَنْ أَرَى غَيْرَ مُصْبِحٍ حَيْثُ أُمْسِي

ثم انتقل إلى الموضوع مباشرة فقال :

حَضَرْتُ رَحْلِي الْهَمُومُ فَوَجَّهْتُ
أَتَسْلَى عَنِ الْخُطُوبِ وَأَسَى
ذَكَرْتَنِيهِمُ الْخُطُوبُ التَّوَالِي
تُ إِلَى أَبْيَضِ الْمَدَائِنِ عَنِّي
لِمَحَلٍّ مِنْ آلِ سَاسَانَ دَرَسِ
وَلَقَدْ تَذَكَّرُ الْخُطُوبُ وَتُنْسِي

ونراه في نهاية القصيدة يذكر أنه بكى الايوان، وليست الدار داره ولا الجنس
جنسه، لأن لأهله نغمى عند أهله، ولأنهم أيدوا ملكهم وشدوا قواه، بما أمدوهم
به من الكتائب في أيام القتال، وذلك حيث يقول :

عُمِّرْتُ لِلشُّرُورِ دَهْرًا وَصَارْتُ
فَلَهَا أَنْ أُعِينَهَا بِدُمُوعٍ
ذَاكَ عِنْدِي وَلَيْسَتْ الدَّارُ دَارِي
غَيْرَ نَغْمَى لِأَهْلِهَا عِنْدَ أَهْلِي
أَيَّدُوا مُلْكَنَا وَشَدُّوا قُورَاهُ
وَأَعَانُوا عَلَى كَتَائِبِ أَرِيَا
وَأَرَانِي مِنْ بَعْدِ أَكْلَفٍ بِالْأَشْ
لِلتَّعْزِي رِبَاعُهُمْ وَالتَّأْسِي
مُوقَفَاتٍ عَلَى الصَّبَابَةِ حُبْسِ
بِاقْتِرَابٍ مِنْهَا وَلَا الْجِنْسُ جِنْسِي
غَرَسُوا مِنْ ذَكَائِهَا خَيْرَ غَرَسِ
بِكَمَاةٍ تَحْتَ السَّنُورِ حُمُسِ^(٢)
طِ بِطَعْنٍ عَلَى الثُّحُورِ وَدَغَسِ
رَافٍ طُرًّا مِنْ كُلِّ سِنَخٍ وَأُسِ^(٣)

وفي هذا البيت الأخير يذكر أنه يكلف بالأشراف من كل جنس، ويكيي المجد
الذاهب، وإن تقطعت بينه وبين أهله الأسباب.

(١) لا تَرْزُنِي : لا تمتحنني.

(٢) السور : السلاح.

(٣) الأصل والجنس.

نفسية شوقي

أما شوقي فقد حدثنا عن خطاره حين همّ بوصف الحمراء، فترك لنا قطعة منشورة تصف حسه ووجدانه، وهو بطوف بذلك البيت، وقد سلك شوقي هذا المسلك غير مرة، فإننا نراه قدم قصيدته في وصف رومة برسالة بعث بها إلى أستاذنا الجليل إسماعيل بك رأفت، ونجده فعل مثل ذلك حين قدم للأستاذ مرجليوت قصيدته في وصف النيل، وإلى القارئ كلمته عن رحلته إلى وطن ابن خفاجة وابن زيدون :

« لما وضعت الحرب الشؤمى أوزارها، وفضحها الله بين خلقه وهتك إزارها، ورّم لهم ربوع السلم وجدد مزارها، أصبحت وإذا العوادي مقصرة، والدواعي غير مقصرة، وإذا التثوق إلى الأندلس أغلب، والفس بحق زيارته أطلب، فقصدته من برشلونة، وبينهما مسيرة يومين بالقطار المجدّ، والبخار المستند، أو بالسفن الكبرى الخارجة من المحيط، الطاوية القديم نحو الجديد من هذا البسيط، فلغت النفس بمرآه الأرب، وكحلت العين في تراه بآثار العرب، وإنها لشتى المواقع، متفرقة المطالع، في ذلك الفلك الجامع، يسري زائرها من حرّم إلى حرم، كمن يمسي بالكركنك ويصبح بالهَرَم، فلا يتقارب غير العتق والكرم، طُلَيْطلة تُطل على جسرهما البالي، واشبيلية تشبل على فصرها الخالي، وقرطبة منتبذة ناحية بالبيعة الغراء، وغرناطة بعيدة مزار الحمراء، وكان البحثري رحمه الله رفيفي في هذا النرحال، وسميري في الرحال، والأحوال تصلح على الرجال، كل رحل لحال، فإنه أبلغ من جَلَى الأثر، وحيّا الحجر، ونشر الخبر، وحشر العبر، ومن قام في مأتم على الدول الكبر، والملوك البهاليل الغرر، عطف على الجعفريّ حين نحمل عنه الملا، وعطل من الحلى، ووكل بعد المتوكل للبلى، فرفع قواعده في السير، وبني ركنه في الخبر، وجمع معالنه في الفكر، حتى عاد كقصور الخلد امتلأت منها البصيرة وإن حلا البصر، وتكفل بعد ذلك لكسرى بباوانه، حتى زال عن الأرض إلى ديوانه، وسينيته المشهورة في وصفه ليست دونه، وهو نحت كسرى في رصه ورصفه، وهي تريك حسن قيام الشعر على الآثار، وكيف ننجد الديار في بيوته بعد

الاندثار. قال صاحب (الفصح القسّي في الفصح القدسي) بعد كلام : « فانظروا إلى إيوان كسرى وسيية البحترى في وصفه، تجدوا الابواب قد حرت شعفانه وعُفرت شرفاته، وتجدوا سينية البحترى قد بفي بها كسرى في ديوانه، أضعاف ما بقي شخصه في إيوانه » وهذه السينية هي التي يقول في مطلعها :
صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يُدْنِسُ نَفْسِي وَتَرَفَعْتُ عَنْ جَدَا كُلِّ جَبَسٍ

والتي اتفقوا على أن البديع الفرد من أبياتها قوله :
والمنايا موائِلٌ وأنوشِرُ وإن يُزجِي الصُفوف تَحْتَ الدَّرَفِسِ^(١)

فكنت كلما وقفت بحجر، أو طُفْتُ بأثر، تمثلت بأبياتها، واسرحت من موائِل العبر إلى آبانها، وأنشدت فيما بيني وبين نفسي :
وعظَ الْبُحْثَرِيُّ إِيوَانُ كِسْرَى وَشَفَّتْنِي الْقُصُورُ مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ

« تم جعلت أروض القول على هذا الروي، وأعجلته على هذا الوزن، حتى نظمت هذه القافية المهلهلة، وأتممت هذه الكلمة الريضة، وأنا أعرضها على القراء، راجياً أن يلحظوها بعين الرضاء، وبسحبوا على عبوبها ذيل الإعضاء »

وهذه الكلمة تمثل نثر شوقي، فهو بسجع ولا بكاد يُبين^(٢)، غير أنه قد يوفق إلى تشابهه مبتكرة نسير مسير الأمثال، كقوله في وصف آثار العرب في بلاد الإسبان : « يسري زائرها من حَرَمٍ إلى حَرَمٍ، كمن يمسي بالكرك وبصبح بالهرم ».

ونلك والله عبادة صريحة لآثار الفراعنة على ضفاف النيل. وهي كذلك تمثل رأيه في شعر البحترى فهو عنده « أبلغ من جَلَى الأثر، وحيّا الحجر، ونشر الخبر، وحشر العبر » وتصور لما تلك الكلمة ما كان يجول في نفس شوقي، وكبف كان روح البحترى يُطيف به وهو يطوف بالحمراء.

(١) الدرّفس : العلم، وهي كلمة فارسية، ومنها جاءت الكلمة الفرنسية.

(٢) غصب شوقي رحمه الله من هذه الكلمة، وكان يرى نفسه أكب الناس، ونحس لا يؤمن بقوته الكتابية، ولكننا مع ذلك براه بلغ العانه في رسالته عن فاه السويس.

ولا بدري من هم الدين يذكر شوفي أنهم اتفقوا على أن البديع الفرد من
قصيدة البحتري هو قوله :
والمَنَابَا مَوَاتِلُ وَأَنُوتِسِرُ وَأَن يُرْجِي الصُّفُوفَ تَحْتَ الدَّرْفَسِ
وكنا نحب لو نبه لقوله في وصف الإيوان :
لَيْسَ بُدْرَى أَصْنَعُ إِنْسٍ لِيَجِرَّ سَكْنُوهُ أَمْ صُنْعُ جِنٍّ لِإِنْسٍ
وفوله في بكائه :
لَوْ تَرَاهُ عَلِمْتَ أَنَّ اللَّيَالِي جَعَلَتْ فِيهِ مَأْتَمًا بَعْدَ عُرْسٍ
ولشوقي رأبه، فقد يختلف النقد أحياناً باختلاف الأذواق.

البحث السادس عشر

حنين شوقي إلى مصر

قد رأيت في الكلمة الماضية أن البحري ابتداءً سينيته بالتبرم بالعيش وشكوى الزمان، والنكر لظلم الأقربين، وكان ذلك لأن نزعتَه لم تكن اجتماعية، وإنما كانت فردية. أما شوقي فقد ابتداءً سينيته بقطعة وجدانية، نفيض بالحنين إلى مصر، وتزخر بالشوق إلى النيل، وهو كأنما يتكلم عن نفسه، ويحدث الناس عن شجونهِ، ولكنه في الواقع يتوجع لما يعاني وطنه من وطأة الظلم، وبتفجع لما تقاسي بلاده من قسوة الاضطهاد، وإنه ليكي ملاعب شبابه، وعهود صباه، حين بقول في مطلع هذه السينية :

آخِثْلَفُ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ يُنْسِي	فَاذْكُرَا لِي الصَّبَا وَأَيَّامَ أَنْسِي
وَصِفَا لِي مُلَاوَةً مِنْ شَبَابٍ	صُورَتْ مِنْ تَصَوُّرَاتٍ وَمَسَّ
عَصَفَتْ كَالصَّبَا اللَّعُوبِ وَمَرَّتْ	سِنَةٌ حُلُوءٌ وَلَذَّةٌ خَلَسَ

ثم يأخذ في الحديث عن مصر فيقول :

وَسَلَا مِصْرَ هَلْ سَلَا الْقَلْبُ عَنْهَا	أَوْ أَسَا جُرْحَهُ الزَّمَانُ الْمُؤَسِّي
كُلَّمَا مَرَّتْ اللَّيَالِي عَلَيْهِ	رَقَّ وَالْعَهْدُ فِي اللَّيَالِي تُقَسِّي
مُسْتَطَارٌّ إِذَا الْبَوَاحِرُ رَنَّتْ	أَوَّلَ اللَّيْلِ أَوْ عَوْتُ بَعْدَ جَرَسِ

ولا أحب أن أنتقل إلى خطاب شوقي للباخرة قبل أن أنبه القارئ إلى روعة

الحسن في قوله :

وَسَلَا مِصْرَ هَلْ سَلَا الْقَلْبُ عَنْهَا أَوْ أَسَا جُرْحَهُ الزَّمَانُ الْمُؤَسِّي

فقد جعل حبه لبلاده أعز من أن تنال منه الليالي، وجعل جرحه في هوى مصر أعضل من أن يطب له الزمان، وانظر كيف وصف قلبه حين قال :

كُلَّمَا مَرَّتِ اللَّيَالِي عَلَيْهِ رَقَّ وَالْعَهْدُ فِي اللَّيَالِي تُقْسِي
مُسْتَطَارًّا إِذَا الْبَوَاحِرُ رَنَّتْ أَوَّلَ اللَّيْلِ أَوْ عَوَتْ بَعْدَ جَرَسِ

وهو هنا لم يذكر أن قلبه كان يخفق كلما أومض البرق، أو هبّ النسيم، كما كان يحدث الأعراب، وإنما يصف ما يحسه الغريب على شواطئ المحيط. وأين وميض البرق، وهبوب الريح، من أصوات البواخر في غسق الليل ؟ ! — ثم قال :

بَا أَبْنَةَ أَيْمٍ مَا أَبُوكَ بِخَيْلٍ مَالَهُ مُوَلَعًا بِمَنْعٍ وَحَبْسِ
أَحْرَامٍ عَلَى بِلَالِيهِ أَلَدُّ حُ حَلَالٌ لِلطَّيْرِ مِنْ كُلِّ جِنْسٍ
كُلُّ دَارٍ أَحَقُّ بِالْأَهْلِ إِلَّا فِي خَبِيثٍ مِنَ الْمَذَاهِبِ رَجَسِ

والقارئ يتلقى هذه الأبيات الآن بشيء من الطمأنينة، أما الذين قرؤوها يوم قالها شوقي فلهم فيها رأي، ومن كان في ريب من هذا فليذكر الأحكام العرفية، لا قدر الله لها رجعة، ولا كتب لها أوبة، فقد كنا نتغنى بقول شوقي :

أَحْرَامٌ عَلَى بِلَالِيهِ أَلَدُّ حُ حَلَالٌ لِلطَّيْرِ مِنْ كُلِّ جِنْسٍ

ثم تتمثل مصر في صورة الشجرة الوريقة، نُفرت عنها اللابل المعردة، ثم صارت مأوى للبوم، ومقيلاً للغربان، وكذلك كانت مصر في ذلك الحين، فكان شهيد الحرية محمد بك فريد، يرسل الأمانى عساها تقبل ثرى مصر، وتنهل من سلسيل النيل، ثم لاتجاب له طلبه، ولا يبدو منه مأمول، في حين أن بلاد الفراغة كانت مفتحة الأبواب لكل أتيمة القلب، وقاح الوجه، خبيث اللسان ! ! وسيظل قول شوقي :

أَحْرَامٌ عَلَى بِلَالِيهِ أَلَدُّ حُ حَلَالٌ لِلطَّيْرِ مِنْ كُلِّ جِنْسٍ

سيظل هذا البيت مثاراً للشجى والأسى، حتى تغدو تلك الشجرة دات الظلال

والأفنان، وهي للبلابل مأوى وللطواويس مقيلا. أما قوله :
كُلُّ دَارٍ أَحَقُّ بِالْأَهْلِ إِلَّا فِي خَبِثٍ مِنَ الْمَذَاهِبِ رَجَسٌ
فهو رمبة مسددة في صدر الظلم، ونحر الاستبداد، وسيظل غصة يشجي بها
بعض الخلق — ثم قال في خطاب الباخرة :

نَفْسِي مِرْجَلٌ وَقَلْبِي شِرَاعٌ بِهِمَا فِي آلدُمُوعِ سِيرِي وَأُرْسِي
وَأَجْعَلِي وَجْهَكَ « الْفَتَارَ » وَمَجْرَا لِي يَدُ « التَّعْرِ » بَيْنَ رَمْلٍ وَمَكْسٍ
وَطَنِي لَوْ شِغِلْتُ بِالْخُلْدِ عَنْهُ نَازَعْتَنِي إِلَيْهِ فِي الْخُلْدِ نَفْسِي
وَهَفَا بِالْفُؤَادِ فِي سَلْسِيلٍ ظَمَأٌ لِلْسَّوَادِ مِنْ عَيْنِ شَمْسٍ
شَهِدَ اللَّهُ لَمْ يَغِبْ عَنْ جُفُونِي شَخْصُهُ سَاعَةً وَلَمْ يَخُلْ حَسِّي
بُصِيحُ الْفِكْرِ وَالْمَسَلَّةُ نَادِي — وَبِالسَّرْحَةِ الزَّكِيَّةِ يُمَسِّي

وأي نفس يمثلها شوفي في هذا الشعر البديع، إنه والله يمثل النفس المصرية،
وحسبي أن أقول : النفس المصرية، وهل في الدنيا — ولولا التقى لأضفت إليها
الآخرة — وطن خليق بأن يعذب في سبيله أبناءه مثل وادي النيل ؟

إن الذي يعيش في مصر، وله ذوق شوقي وإحساسه، ليس بكثير عليه أن
يقول :

وَطَنِي لَوْ شِغِلْتُ بِالْخُلْدِ عَنْهُ نَازَعْتَنِي إِلَيْهِ فِي الْخُلْدِ نَفْسِي
وَهَفَا بِالْفُؤَادِ فِي سَلْسِيلٍ ظَمَأٌ لِلْسَّوَادِ مِنْ عَيْنِ شَمْسٍ
شَهِدَ اللَّهُ لَمْ يَغِبْ عَنْ جُفُونِي شَخْصُهُ سَاعَةً وَلَمْ يَخُلْ حَسِّي

ولقد كانت مصر، ولا تزال باباً من الفتنة لكل من يمسي وله فيها
رأي مطاع وبفضلها يقول فرعون :

« أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ » .
ولقد يذكرون أن المأمون قال لجوده، وهو يشاهد الأهرام : « أهذه كفر
فرعون بربه ! » . فقال له أحد وزرائه : يا أمير المؤمنين إن الله يقول :
« وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرُشُونَ » .

فإذا كانت هذه بقايا ما دمر الله فلفرعون العذر إن غلب عليه الضلال.
وطغياں ملوك مصر دليل على ما تورت أهلها من العزة، وتغرس فيها من
الجبروت، كالسبف الصقيل يحمل صاحبه على الفك، ويحبب إليه العدو. وسبحان من لو شاء لرزقنا قسطاً من أسباب الفتنة في هذه البلاد !

ثم يقول شوقي وهو يتمثل الجزيرة والنيل :
وَكَاَنِّي أَرَى الْجَزِيرَةَ أَيْكَاً نَعَمْتُ طَيْرُهُ بَارِزَحِمٍ جَرَسِ
هِيَ بَلْقَيْسُ فِي الْخَمَائِلِ صَرْخُ مِنْ عُبَابٍ وَصَاحِبٍ غَيْرِ نِكْسِ
حَسْبُهَا أَنْ تَكُونَ لِلنَّيْلِ عِرْساً قَلْبُهَا لَمْ يُجَنِّ يَوْمًا بَعْرَسِ
لَبَسْتُ بِالْأَصِيلِ حُلَّةً وَشَيْءَ بَيْنَ صَنْعَاءَ فِي النَّيَابِ وَقَسِ^(١)
قَدْهَا النَّيْلُ فَاسْتَحْتِ فَتَوَارَتْ مِنْهُ بِالْجَسْرِ بَيْنَ عُرْيٍ وَلُبْسِ
وَأَرَى النَّيْلَ كَالْعَفِيقِ بِوَادِيٍّ إِنْ كَانَ كَوَثَرُ الْمُتَحَسِّي
ابْنُ مَاءِ السَّمَاءِ ذُو الْمَوْكِبِ الْفَخْمِ الَّذِي بِحَيْرِ الْعُيُونِ وَيُخْسِي
لَا تَرَى فِي رِكَابِهِ غَيْرَ مُثْنٍ بِجَمِيلٍ أَوْ شَاكِرٍ فَضْلَ عَرَسِ

وهذا خيال وادع جميل، ولكن شوقي لم يصبر عليه، بل عاد إلى هجّيره من
النوح على مجد خوفو ورمسيس، وأخذ يقول :

وَأَرَى الْجِزْرَةَ الْحَزِينَةَ ثَكْلَى لَمْ نُفَقْ بَعْدُ مِنْ مَنَاحَةِ رَمْسِي^(٢)
أَكْثَرْتُ ضَجَّةَ السَّوْفِي عَلَيْهِ وَسُؤَالَ الْيَرَاعِ عَنْهُ بِهِمْسِ
وَقِيَامَ النَّخِيلِ صَفَرُنْ شَعْرًا وَتَجَرَّدَنَ غَيْرَ طَوْقٍ وَسَلْسِ^(٣)
وَكَاَنَّ الْأَهْرَامَ مِيزَانُ فِرْعَوُ نَ بِيَوْمٍ عَلَيَّ الْجَبَابِرِ نَحْسِ
أَوْ فَنَاطِيرُهُ تَأَنَّقَ فِيهَا أَلْفُ جَابٍ وَأَلْفُ صَاحِبِ مَكْسِ
رَوْعَةً فِي الضُّحَى مَلَاعِبُ حِنٍّ حِينَ يَعْنَى أَلْدُحَى جِمَاهَا وَيُعْصِي

وكذلك يحسب شوقي، وهو يبدب مجد الفراعنة، أن ما في الطبيعة من ماء

(١) فس : بالفتح موضع بن العريش والفرما من أرض مصر تنسب إليه التباب القسية.

(٢) يريد رمسيس.

(٣) السلس : من قولهم سلسلت النحلة إذا ذهت بها أصول السعف.

ونبات وجماد يبكي معه ذلك الملك الذي بطش به القدر وعدا عليه القضاء. والشاعر حين يرضى بحسب الكون يبتسم لابتسامه؛ وحين يغضب بحسب الكون يكتئب لاكتئابه، ولعل هذه السداجه هي أظرف ما في الشعراء؛ إذ كانت سمه من سمات الطفولة البريئة، وكم في الطفولة من معان تسكن إليها شوارد النفوس.

ثم انتقل شوقي إلى الحديث عن أبي الهول فقال :

وَرَهِيْنُ الرُّمَالِ أَفْطَسُ إِلَّا أَنَّهُ صُنْعُ جِنَّةٍ غَيْرِ فُطْسٍ
تَجَلَّى حَقِيقَةُ النَّاسِ فِيهِ سَبْعُ الْخَلْقِ فِي أُسَارِيرِ إِنْسِي
لَعِبَ الدَّهْرُ فِي ثَرَاهُ صَيًّا وَالْيَالِي كَوَاعِبًا غَيْرَ عُنْسٍ^(١)
رَكَبَتْ صَيْدُ الْمَقَادِيرِ عَيْنَهُ لَتَقْدِ وَمُخْلِئِهِ لِفَرْسِ
فَأَصَابَتْ بِهِ الْمَمَالِكُ كِسْرَى وَهَرَقْلًا وَالْعَبْقَرِيَّ الْفَرْنَسِي

وهذا أيضاً خيال شعراء، فهو يتوهم أن المقادير ركبت عيني أبي الهول لنقد الحوادث، وأعدت مخليه لافتراس الطغاة، ولكن هيهات لما بظن هيهات، والويل لأمة تنتظر في خمود حتى يثار لها قعيد الصحراء !

على أن من الحق أن نبين أن شوقي لم يسق هذه الخرافة، وهو يحسبها حقيقة، إنما هو الفن يقضي على صاحبه باستغلال موارد الخيال، وأبو الهول — رضي الله عنه إن كان ولياً، وجل جلاله إن كان إلهاً — معبود قديم طالما فُدمت له القرايين، ولا يزال المصريون يتيمنون بما كان بنيمن به آباؤهم من قبل، وبتشاءمون مما كانوا يتشاءمون منه، كما لا يزال العرب يحسبون حساب السائح والبارح، أسوة بما كان يفعل آباؤهم الأقدمون، ولولا اتقاء الفتنه لذكرت نماذج من أساطير الأولين ترينا كيف كان « هداة الأمم » يثيرون ما ركذ فيها من العواطف بالإشادة بما عرف لهم من المعبودات، وعلى هذا المنهج جرى شوقي فسبح بحمد أبي الهول في جملة من قصائده الطوال، والساعر كالخطيب لا تهمه العقول إذا ظفر بالملوب.

(١) عس : جمع عاس، وهي الفناه بطول مكناها في دار أبيها بعد إدراكها حتى نخرج من عداد الأكار.

ثم عاد شوقي إلى قلبه، وقد غمره الحزن، فأخذ يباحيه بهذا الترحيع الحزين، وانظر كيف يقول :

فِيهِ يَبْدُو وَيَنْجَلِي بَعْدَ لَبْسٍ	بَا فُؤَادِي ! لِكُلِّ أَمْرٍ قَرَارٌ
كَانَتْ الْحُوتُ طُولَ سَحْرِ وَعَسْ ^(١)	عَقَلْتُ لُجَّةَ الْأُمُورِ عُقُولًا
أَوْ عَرِيقِي وَلَا يُصَاخُ لِجَسٍّ	غَرَفْتُ حَيْثُ لَا يُصَاخُ بِطَافٍ
وَيُسُومُ الْبُدُورَ لَيْلَةً وَنَحْسٍ	فَلَكَ يَكْسِفُ الشُّمُوسَ نَهَارًا
بَلَعَتْهَا الْأُمُورُ صَارَتْ لِعَكْسٍ	وَمَوَاقِيتُ لِلْأُمُورِ إِذَا مَا
بِقِيَامٍ مِنَ الْجُدُودِ وَتَعَسٍ	دَوْلٌ كَالرَّجَالِ مُرْتَهَنَاتٌ
لَطَمَتْ كُلَّ رَبِّ رُومٍ وَفَرَسٍ	وَلِيَالٍ مِنْ كُلِّ ذَاتِ سِوَارٍ
خِنْجَرًا يَنْفُذَانِ مِنْ كُلِّ تَرَسٍ	سَدَّدَتْ بِالْهَلَالِ قَوْسًا وَسَلَّتْ
وَعَفَتْ وَائِلًا وَاللَّوْتُ بَعْسٍ	حَكَمَتْ فِي الْقُرُونِ خَوْفُو وَدَارَا
أُمُويٌّ فِي الْمَغَارِبِ كُرْسِي	أَيْنَ مَرْوَانُ فِي الْمَشَارِقِ عَرْشُ

وقفه قصيرة

لاحظنا أن شوقي تحدث عن نفسه قليلا في بداية القصيدة، ثم اندفع في الحديث عن شوقه إلى مصر، وتفجعه لما تقاسي من عاديات الخطوب، فرأيناه يصور الجزيرة ويمثّل استحياءها حين قدّها النيل، ثم رأيناه يذكر أن الجزيرة لا تزال في أثواب الحداد على رمسيس، وأن السواقي لا تبرح ترسل على ذكره الدموع والأنين، وأن النخيل تحردت في الحزن عليه، فلم يبق عليها غير الشعور والاطواق، ورأيناه كذلك يتكلم عن أبي الهول وعن الأهرام، ويتخيل أبا الهول قارعة عتيدة لإهلاك الطغاة، ثم رأيناه وقد عاوده القلق على مصر ولم يقنعه السكون إلى الخيال، فأخذ يزفر من جديد ويقول :

بِأَفْوَادِي ! لِكُلِّ أَمْرٍ قَرَارٌ فِيهِ يَبْدُو وَيَنْجَلِي بَعْدَ لَبْسٍ
وَأَيْنَ هَذَا الْقَرَارُ، يَا بَلْبَلُ النِّيلِ ! هَاتِهِ، هَاتِهِ، وَخُذْ مِنْ أَرْوَاحِنَا مَا تَشَاءُ !

(١) الغس : مرادف للسبح.

ثم شرع يصف القدر بهذه الصورة الشعرية البديعة وهو يقول :

عَقَلْتُ لُجَّةَ الْأُمُورِ عُفُولاً كَانَتِ الْحُوتَ طُولَ سَبْحٍ وَغَسَّ
غَرَقْتُ حَيْثُ لَا يُصَاخُ بِطَافٍ أَوْ غَرِيبٍ وَلَا يُصَاخُ لِحَسٍّ
فَلَكْ يَكْسِفُ الشَّمْسُ نَهَاراً وَيُسُومُ الْبُذُورَ لَيْلَةً وَكُسٍ

ولم تظفر النفس الإنسانية برثاء أبرع من هذا الرثاء، ولا وجدت العقول من يذرف عليها مثل هذه الدمعة، وهي على جبروتها ألعبوبة القدر وأضحوكة القضاء، ومن ذا الذي وقف على القبر الذي ثوت فيه آمال الأمم المعذبة، ثم جاد عليها بمثل هذه الدمعة الغالية، يذرفها مثل شوقي على نلك العقول التي عقلتها لجة الخطوب، والتي غرقت جيث لا يصاخ لحس، ولا يصاخ بطافٍ أو غريق.

ولقد كانت هذه النفثات مقدمة جميلة لرثاء الحمراء، فقد مهد شوقي لوقفته على أطلالها تمهيداً هو غاية الغايات في إعداد النفس لبكاء المجد الزاهب، والملك السليب. والنفس المصرية يذكرها مجد الفراعنة بمجد العرب، كما يذكرها ملك العرب بملك الفراعنة، والسجى يبعث الشجى، وهذا كله قبر مالك، لو يعلم اللاثمون !

ولم يصنع البحري هذا الصنيع، وإنما حدثنا عما طففت الأيام من صُبابة عبشه، وما كان من غبته حين باع الشام واشترى العراق، وكيف رآه نبؤ ابن عمه بعد أن كان أنيس المحضر، لين الجانيين، ثم قال :

حَضَرْتُ رَحْلِي الْهُمُومُ فَوَجَّهْتُ إِلَى أَبْيَضِ الْمَدَائِنِ عَنَسِي
أُتْسَلِّي عَنْ الْحُظُوظِ وَآسَى لِمَحَلٍّ مِنْ آلِ سَاسَانَ دَرَسِ

وهذا هو عين الاقتضاب، ولا يبعد عندي أن يكون الزمن قضى على جزء من هذه القصيدة، وإن لم يوجد ما يرجح هذا الظن، فقد كانت هذه القصيدة بلا ريب موضع عناية الرواة، ولكن المريب هو أن يزهد البحري في حسن النخلص وهو يجبر قصيدة من أروع قصائده إن لم تكن أجمل ما قال. وكان من عادته كذلك أن يخبر للبداية ما يمت بصلة وثيقة إلى ما سينتقل إليه، وأشهر ما له في هذا الأسلوب قصيدته الميمية في عتاب الفتح بن خاقان، فقد ابتدأها بقطعة

من النسيب هي أيضاً عتاب، وذلك حيث يقول :
يَهُونُ عَلَيْهَا أَنْ أَبَيْتَ مَتِيماً
أَعَالِجُ شَوْقاً فِي الضَّمِيرِ مُكْتَمَا
وَقَدْ جَاوَزْتُ أَرْضَ الْعِرَاقِ وَأَصْبَحْتُ
جَمِي وَضَلِيلَهَا مُذْ حَاوَرْتُ أَهْرَقَ الْجَمِي
بَكْتُ حُرْقَةً عِنْدَ الْفِرَاقِ وَأَرْدَفْتُ
سُلُوءاً نَهَى الْأَحْشَاءُ أَنْ تَتَضَرَّعَا
فَلَمْ يَبْقَ مِنْ مَعْرُوفِهَا غَيْرُ طَائِفٍ
يُلِمُّ بِنَا وَهْنًا إِذَا الرِّكْبُ هَوَّمَا

وفي هذه القصيدة يقول :
وَلَمْ أَعْرِفِ الذَّنْبَ الَّذِي سُوِّتَنِي لَهُ
وَلَوْ كَانَ مَا خُبِّرْتُهُ أَوْ ظَنَنْتُهُ
أَذْكُرُكَ الْعَهْدَ الَّذِي لَيْسَ سُودُوداً
أَقْرُّ بِمَا لَمْ أَجْنِهِ مُتَنَصِّلاً
لِي الذَّنْبُ مَعْرُوفاً وَإِنْ كُنْتُ جَاهِلاً
وَمِثْلُكَ إِنْ أَبْدَى الْفَعَالَ أَعَادَهُ
فَأَقْتُلْ نَفْسِي حَسْرَةً وَتَنْدُماً
لَمَا كَانَ غَرُوباً أَنَّ الْيَوْمَ وَتَكْرُماً
نَنَاسِيهِ وَالْوَدَّ الصَّحِيحَ الْمُسْلِماً
إِلَيْكَ عَلَى أَنِّي إِخَالُكَ الْيَوْمَا
بِهِ وَلَكَ الْعُتْبَى عَلَيَّ وَأَعْمَا
وَإِنْ صَنَعَ الْمَعْرُوفَ رَادَّ وَتَمَّمَا

نقول : إن البحري لم يؤثر التخلص في قصيدته السينية، وإنما أتر الاقتضاب، ولا كذلك شوقي، فقد أخذ يتكلم عن ويلات الممالك وبكبات الشعوب، ثم دخل في الموضوع برفق وهو يقول :

أَيْنَ مَرَوَانُ فِي الْمَشَارِقِ عَرْسُ
سَقَمَتْ شَمْسُهُمْ فَرَدَّ عَلَيْهَا
نُورَهَا كُلُّ شَمْسٍ سِوَى هَاتِيكَ
وَعَظَ الْبُحْتَرِيُّ إِيْوَانُ كِسْرَى
أُمُورِي وَفِي الْمَغَارِبِ كُرْسِي
نُورَهَا كُلُّ ثَاقِبِ الرَّأْيِ نَطْسِ
تَبَلَّى وَتَنَطَّوِي تَحْتَ رَمْسِ
وَشَفَنَنِي الْقُصُورُ مِنْ عَبْدٍ شَمْسِ

نقرر هذا، ثم نذكر أن البحري لا لوم عليه في أن خلت قصيدته من مثل المقدمة الممتعة التي افتتحت بها قصيدة شوقي، لأن ظروف البحري، وقد ضاق به عيشه،

وظلمه أهله، غير ظروف شوقي وهو يحاول العودة إلى وطن أسير تحالفت عليه الرزايا وتنكر له الزمان، وأصله أهله نار العقوق، وهو قد خلف في هذا الوطن أحلام شبابه وأوهام صباه، وترك فيه ما كان يملك من أسباب الحياة، ثم هو لا يدري إذا عاد أيقّر قراره فيلقي عصا التسيار، أم تعصف به وشاية جديدة، تحمله إلى المنفى من جديد... ولو كان للبحثري مثل هذا القلب المشرد، وهو يشد رحاله إلى الإيوان، لكان له شأن آخر، ولكانت شكواه مضرب الأمثال، ولكن الشاعر له « رسالة » يؤدبها إلى أهل عصره، ولا مفر له من أدائها ما دام له قلب ووجدان، وكانت « رسالة » شوقي حين قال سينيته أن يصف ما يلاقي أهل مصر من الكمد، وهم يودعون كل يوم فريقاً من أبنائهم الأحرار، ويستقبلون بالرغم منهم ما يُلقى إليهم البحر من نفايات الأمم وأوشاب الأقطار، وكان له في ذلك هذا البيت الذي يصلح لكل أمة ولكل جيل :

أَحْرَامٌ عَلَى بَلَابِلِهِ أَلَدُّ حُحْلَالٍ لِلطَّيْرِ مِنْ كُلِّ جِنْسٍ

وفي مقابله البحثري، وهو يتحدث عن نفسه :

وَأَشْتَرَايَ الْعِرَاقَ خُطَّةً غَبْنٍ بَعْدَ بَيْعِي السَّامِ يَيْعَةً وَكَسٍ

ولكن أين هذا من ذاك ؟ ! وأين قول البحثري في عنف الدهر وجوره :
وَكَاَنَّ الزَّمَانَ أَصْبَحَ مَحْمُومًا لَا هَوَاهُ مَعَ الْأَخْسِ الْأَخْسِ

من قول شوقي في المعنى نفسه :

عَقَلْتُ لُجَّةَ الْأُمُورِ عُقُولًا كَانَتِ الْحُوتَ طُولَ سَبَحٍ وَغَسَّ
غَرِقْتُ حَيْثُ لَا يُصَاخُ بِطَافٍ أَوْ غَرِيقٍ وَلَا يُصَاخُ لِجَسٍّ

فإن هذه صورة شعرية نادرة المثال.

ومطلع البحثري :

صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يُدْنِسُ نَفْسِي وَتَرَفَعْتُ عَنْ جَدَا كُلِّ جِنْسٍ

فيه ضعف وانحلال، وليس بقاطع الدلالة على الإباء، وخير منه مطلع شوقي :
اِخْتِلَافُ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ يُنْسِي فَأَذْكُرَا لِي الصَّبَا وَأَيَّامَ أَنْسِي

وإن كنا لا ندري بمن يستجد، وقد نسي أيام صباه، ورحم الله ابن الأحنف
إذ يقول :

نَزَفَ الْبُكَاءُ دُمُوعَ عَيْنِكَ فَاسْتَعِيرَ عَيْنًا لِعَيْرِكَ دَمْعُهَا مِذْرَارُ
مَنْ ذَا يُعِيرُكَ عَيْنُهُ تَبْكِي بِهَا أَرَأَيْتَ عَيْنًا لِلدُّمُوعِ تُعَارُ

ويذكرون أن لُورد كرومر حضر عرساً مصرياً وسمع المغنّي يقول « حبيبي
غاب، هاتوه لي يا ناس » فلما سأل المترجم عن معنى هذا الصوت ووقف على
مدلوله قال : « إن المصري لكسول، وإنه ليطلب حتى من يعينه على رد محبوبه
الغائب ». وكذلك يطلب شوقي من يحدثه عن أيام الأنس في عهد الشباب،
وإنه لمطلب عجيب !

البحث السابع عشر

بين البحترى وشوقي

ولقد أخذ البحترى : بعد مقدمته الوجيزة يتكلم عن إيوان كسرى، ويتحدث عن بُناته، ويعرض بسكان القفار من الأعراب، فيقول :

أَتَسَلَّى عَنْ الْحُظُوظِ وَآسَى	لِمَحَلٍّ مِنْ آلِ سَاسَانَ دَرَسَ
ذَكَرْتَنِيهِمُ الْخُطُوبُ التَّوَالِي	وَلَقَدْ تُذَكِّرُ الْخُطُوبُ وَنُثْيِي
وَهُمُ خَافِضُونَ فِي ظِلِّ عَالٍ	مُشْرِفٍ يَحْسِرُ الْعُيُونُ وَبُحْيِي
مُعَلِّقٌ بَابَهُ عَلَى جَبَلٍ الْفَبَقِ	إِلَى دَارَتِي خِلَاطٍ وَمَكْسِ
حَلَلٌ لَمْ تَكُنْ كَأَطْلَالٍ سَعْدَى	فِي فِقَارٍ مِنَ الْبَسَائِسِ مُلْسِ
وَمَسَاعٍ لَوْلَا الْمُحَابَاةُ مِنِّي	لَمْ نُطِقْهَا مَسْعَاةُ غَنَسٍ وَغُبْسِ
نَقَلَ الدَّهْرُ عَهْدَهُنَّ مِنَ الْجِدَّةِ	حَتَّى غَدَوْنَ أَضَاءَ لُبْسِ
فَكَانَ الْجِرْمَازُ مِنْ عَدَمِ الْإِنْسِ	وَإِخْلَاقِهِ بَيْنِيَّةُ رَمْسِ
لَوْ تَرَاهُ عَلِمْتَ أَنَّ اللَّيَالِي	جَعَلَتْ فِيهِ مَأْنِمًا بَعْدَ عُرْسِ
وَهُوَ يُنْبِيكَ عَنْ عَجَائِبِ قَوْمٍ	لَا يُشَابُ الْبَيَانُ فِيهِمْ بَلْسِ

وهذا البيت الأخير تمهيد مباشر لوصف ما في الإيوان من النقوش والنهاويل، ولنا إليه عودة، فلنلاحظ الآن أن البحترى يتحسس، وهو يبين عن أثر الإيوان في نفسه، ويتوقف وهو يفصح عما بين العرب والفرس من شتى الفروق، ونرجع

هذه الحبسة إلى اتقاء الفتنة، وكبح ما يجمع عن هذه المفارقة من شهوة التنافر وإثارة الأحقاد، ولهذا يقول في هدوء :

حَلَلْ لَمْ تَكُنْ كَأَطْلَالِ سَعْدَى فِي قِفَارٍ مِنَ الْبَسَائِسِ مُلْسِ
وَمَسَاعٍ لَوْلَا الْمُحَابَاةُ مَنِي لَمْ تُطِقْهَا مَسْعَاةُ غَنَسٍ وَعَبَسِ

وقد صدق، وإن جرح الإيوان، وإلا فما هي أطلال سعدى، ورسوم ليلي ونثوى عفراء ! ولم يحد شوقي ما بضطره إلى مثل هذه المواربة، إذ كان يتكلم عن مجد المسلمين والعرب، في بلاد إسلامية مجموعته الأهواء، ومن هنا نراه يقول في وضوح وجلاء :

رُبَّ لَيْلٍ سَرَيْتُ وَالْبَرْقُ طَرْفِي أَنْظِلُمُ الشَّرْقُ فِي (الْجَزِيرَةِ) بِالْعَرِ فِي دِيَارٍ مِنَ الْخَلَائِفِ دَرْسِ وَرُبًّا كَالْجَنَانِ فِي كَنْفِ الرَّبُّونِ لَمْ يَرْغُبِي سِوَى ثَرَى قُرْطُبِي يَا وَقَى اللَّهَ مَا أَصْبَحَ مِنْهُ قَرِيَّةٌ لَا تُعَدُّ فِي الْأَرْضِ كَانَتْ غَشِيَتْ سَاحِلَ الْمُحِيطِ وَغَطَّتْ رَكِبَ الدَّهْرُ خَاطِرِي فِي ثَرَاهَا فَتَجَلَّتْ لِي الْقُصُورُ وَمَنْ فِيهَا مَاضَفَتْ قَطُّ فِي الْمُلُوكِ عَلَى نَذْ	وَبَسَاطِ طَوَيْتُ وَالرَّيْحُ عَنِّي بِ وَأَطْوِي الْبِلَادَ حَزْبًا لِدَهْسِ وَمَنَارٍ مِنَ الطَّوَائِفِ طَمْسِ خُضْرٍ وَ فِي دَرَا الْكَرْمِ طُلْسِ لَمَسْتُ فِيهِ عِبْرَةَ الدَّهْرِ حَمْسِي وَسَقَى صَفْوَةَ الْحَيَا مَا أُمْسِي تُمْسِكُ الْأَرْضَ أَنْ تَمِيدَ وَتُرْسِي لُجَّةَ الرُّومِ مِنْ شِرَاعٍ وَقَلْسِ فَأَنَّى ذَلِكَ الْحِمَى بَعْدَ حَدْسِ مَنْ الْعِزُّ فِي مَازِلِ قُعْسِ لِ الْمَعَالِي وَلَا تَرَدَّتْ بِجَسِ
--	---

ومن الخير أن ندل على الأبيات المختارة هنا وهناك. ونحن نستعيد قول
البحثري :

ذَكَرْتَنِيهِمُ الْخُطُوبُ التَّوَالِي وَلَقَدْ تَذَكَّرُ الْخُطُوبُ وَتُشِي

وليعجز هذا البيت مغزى بديع، ونستعيد كذلك قوله :
نَقَلَ الدَّهْرُ عَهْدَهُنَّ مِنَ الْجَدَّةِ حَتَّى غَدَوْنَ أَنْصَاءَ لُبْسِ
فَكَانَ الْجَرْمَازُ مِنْ عَدَمِ الْإِنْسِ وَإِخْلَاقِهِ بَيْنَهُ رَمْسِ

وفي هذين البيتين دقة وخيال، وللقارئ أن يتأمل كيف صارت هذه الحلل :
« أنضاء لبس » وكيف أمسى الجرماز وكأنه : « بنية رمس ». فأما قوله :
لَوْ تَرَاهُ عَلِمْتَ أَنَّ اللَّيَالِي جَعَلَتْ فِيهِ مَأْتَمًا بَعْدَ عُرْسٍ
فهو غاية الغايات في بكاء المغاني، بتحكّم فيها البلى، وتبطّش بها أبدي العفاء.
ونستجيد قول شوقي :

لَمْ يَرُعْنِي سِوَى ثَرَى قُرْطُبِيٍّ لَمَسْتُ فِيهِ عِبْرَةَ الدَّهْرِ خَمْسِي
ولمس العبرة من المعاني الدقيقة. وقد بلغ غاية الرفق، وهو يقول في
تحية هذا الثرى :

يَا وَقَى اللَّهِ مَا أَصْبَحَ مِنْهُ وَسَقَى صَفْوَةَ الْحَيَا مَا أُمْسَى
ونستجيد كذلك قوله :

رَكِبَ الدَّهْرَ خَاطِرِي فِي ثَرَاهَا فَأَتَى ذَلِكَ الْحِمَى بَعْدَ حَدْسٍ
يصف تلك البقعة بالدروس، ويذكر أنه ضل ولم يهتد إلا بعد أن ركب خاطره
الدهر، ومع هذا لم يصل إلا بعد توهم وحس، وتلك وثبة من وثبات الخيال.

ثم أخذ البحري يصف ما في الإيوان من صور المعارك فقال :
فَإِذَا مَا رَأَيْتَ صُورَةَ أَنْطَا كِيَّةَ آرْتَعَتَ بَيْنَ رُومٍ وَفُرسٍ
وَالْمَنَائِيَا مَوَائِلَ وَأَنُوشِرَوَانَ يُزْجِي الصُّنُوفَ تَحْتَ الدَّرَفَسِ
فِي أَخْضَرَارٍ مِنَ اللَّبَاسِ عَلَى أَصْفَرٍ يَخْتَالُ فِي صَبِيعَةٍ وَرْسِ
وَعِرَاكِ الرِّجَالِ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي خُفُوتٍ مِنْهُمْ وَإِغْمَاضِ جَرَسِ
مِنْ مُشِيحٍ يَهْوِي بِعَاطِلِ رُمَحٍ وَمُليحٍ مِنَ السُّنَانِ بُثْرَسِ
تَصِفُ الْعَيْنُ أَنَّهُمْ جِدُّ أَحْيَا ءَ لَهُمْ بَيْنُهُمْ إِشَارَةُ خُرْسِ
يَعْتَلِي فِيهِمْ آرْتِيَابِي حَتَّى تَنْقَرَاهُمُ وَيَدَايَ بِلَمْسِ

وهذه القطعة من أدق ما قيل في الوصف، بذكر أنه شهد في الإيوان صورة
كسرى، وهو يحاصر أنطاكية وأنك لو رأيت هذه الصورة لارتعت من حملة
الفرس على الروم، وكيف يرتاع المرء، وهو يشاهد صورة على الحائط ؟ هذا هو

وجه الحسن فهو يذكر أنك حين ترى هذه الصورة، لا يخطر ببالك أنها صورة، وإنما تحسب لصدق التصوير أنك في ميدان القتال، والمنايا موائل أمامك، فيما أنوشروان يزجي الصفوف تحت اللواء. ولم يفته أن يصف ما على الجنود من ألوان الثبات، وما هم عليه من إثثار الخفوت، بين مُشيح بالرمح، ومُليح بالسنان، وانظر كيف يقول :

تَصِفُ الْعَيْنُ أَنَّهُمْ جِدُّ أَحْيَا ۚ لَهُمْ بَيْنَهُمْ إِشَارَةٌ خُرْسٍ
يَعْتَلِي فِيهِمْ آرْتِيَابِي حَتَّى تَقْرَأُهُمْو يَدَايَ بِلَمْسٍ

فهو يراهم جدّ أحياء، وإن لم يُسمع لهم صوت، لأن في سماتهم مايدل على اكتفائهم بالإشارة كما يكتفي الخرس، ثم يعود إلى نفسه فيذكر أنه أمام صورة، ثم يُغلب على حسه فيرتاب فيما يراه : فيلمس الصورة بيده ليعرف أحقيقة هي أم خيال !، والمصور الحاذق هو الذي يُسبغ على صوره أثواب الحياة. ولقد أذكر أنني شهدت في أطلال الفراعنة بالأقصر صورة سمكة، ولم أكد أملاً منها عيني حتى خلتها تتقلب، وكذلك يسحر الفن الجميل.

ولقد نحا شوقي منحى البحري في الوصف، وإن اختلف الموصوف، فقال وقد تجلت له تلك القصور :

وَكَانِي بَلَغْتُ لِلْعِلْمِ بَيْتاً قُدْساً فِي الْبِلَادِ شَرْقاً وَغَرْباً
وَعَلَى الْجُمُعَةِ الْجَلَالَةُ وَ (النَّا يُنْزِلُ السَّاجَ عَنْ مَفَارِقِ (دُونِ)
سِنَةٍ مِنْ كَرَى وَطَيْفُ أَمَانٍ وَإِذَا الدَّارُ مَا بِهَا مِنْ أَنِيسٍ
وَرَقِيقٍ مِنْ الْبُيُوتِ عَتِيقِ أَثَرٍ مِنْ (مُحَمَّدٍ) وَثَرَاثِ
بَلَعَ النَّجْمَ ذِرْوَةً وَتَنَاهَى مَرْمَرٌ تَسْبَحُ النَّوَظِرُ فِيهِ
فِيهِ مَا لُ الْعُقُولِ مِنْ كُلِّ دَرَسٍ حَاجَهُ الْقَوْمُ مِنْ فَقِيهِ وَقَسٍ
صِرُ) نُورُ الْخَمِيسِ تَحْتَ الدَّرَفَسِ وَيُحَلِّي بِهِ جَبِينِ (الْبُرْنِسِ)
وَصَحَا الْقَلْبُ مِنْ ضَلَالٍ وَهَجَسِ وَإِذَا الْقَوْمُ مَا لَهُمْ مِنْ مُحِسٍ
جَاوَزَ الْأَلْفَ غَيْرَ مَذْمُومِ حَرَسِ صَارَ (لِلرُّوحِ) ذِي الْوَلَاءِ الْأَمْسِ
بَيْنَ (تَهْلَانِ) فِي الْأَسَاسِ وَ (قُدْسِ) وَيَطُولُ الْمَدَى عَلَيْهَا فَتْرِيْسِي

وَسَوَارٍ كَانَهَا فِي أَسْنَوَاءٍ أَلَمَاتُ الْوَزِيرِ فِي عَرْضِ طِرْسٍ
فَتْرَةُ الدَّهْرِ فَذُ كَسَتْ سَطْرِيهَا مَا أَكْتَسَى الْهُدْبُ مِنْ فُتُورٍ وَنَعْسٍ
وَنَحَهَا كَمْ تَزَيَّنْتُ لِعَلِيمٍ وَاحِدِ الدَّهْرِ وَاسْتَعَدَّتْ لَخَمْسٍ
وَكَأَنَّ الرَّفِيفَ فِي مَسْرَحِ الْعَيْ مِنْ مُلَاءٍ مُدَنَّرَاتِ الدِّمَقْسِ
وَكَأَنَّ الْآيَاتِ فِي جَانِبِيهِ يَتَنَزَّلْنَ مِنْ مَعَارِجِ قُدْسٍ
مُبَرِّ تَحْتَ (مُنْذِرٍ) مِنْ جَلَالٍ لَمْ يَزَلْ يَكْتَسِيهِ أَوْ تَحْتَ قُسٍّ
وَمَكَانَ الْكِتَابِ يُغْرِيكَ رِيًّا وَرَدِهِ غَائِبًا فَتَدُنُو لِلْمَسِّ

وهذه القطعة على طولها لا تسمو إلى ما وصلت إليه النفثة البحترية من فتنة القلب والوجدان، ولعل السر في هذا أن البحتري وجد في الإيوان صورة الحرب بين الفرس والروم، وصورة الحرب هز النفس، ونتير ما كمن فيها من عناصر القوة والفتوة. أما شوقي فقد وجد بالقصر آيات من القرآن، لم يذكر أكانت في وصف الجنة، أم في الدعوة إلى القتال ؟ والفن الذي يستمد قوته من الأصول الدينية، الوادعة الهادئة، لا يصلح إلا للكهول، والويل للأُمم إذا لم تغلب عليها نزعات الفروسية، ولم بسند بها ما في الشباب من نشاط وجنون.

وما أبعد الفرق بين قول البحتري :
وَالْمَنَايَا مَوَائِلُ وَأَنْوِشَرُ وَأَنْ يُزْجِي الصُّفُوفَ تَحْتَ الدَّرَفْسِ
وبين قول شوقي :

وَعَلَى الْجُمُعَةِ الْجَلَالُ وَالنَّارُ صِرُّ نُورِ الْخَمِيسِ تَحْتَ الدَّرَفْسِ
وشوقي يصف ما رآه، فلا لوم عليه ولا نثر، وصدق من قال :
فَلَوْ أَنَّ قَوْمِي أَنْطَقْتَنِي رَمَاحُهُمْ نَطَقْتُ وَلَكِنَّ الرِّمَاحَ أَجَرَّتْ

وقد لا نجد في هذا العصر من يسمح بأن نوضع في المساجد والمعابد صور المعارك والحروب. ولم بظلم أحدًا أهل الشرف، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون : فقد حولوا جهودهم العلمية والفنية إلى الآخرة، كما بينا ذلك في كتاب « الأخلاق

عند الغزالي « وتركوا الدنيا لمن هم أحق بها من شياطين الغرب، وحيا الله أولئك الشياطين، فهم ملائكة هذا الجيل، وإن رذائل القوة خير من فضائل الصعف، لو يعلم الشرقيون.

ولشوقي أن يذكر أن جلالة الدين كانت لذلك العهد من أقوى البواعث على حراسة الملك، ولم تكن صورة رسميه بسنبق إليها طلاب الرق، وللرزق أبواب ! ! يدل على هذا قوله :

سِنَةٌ مِنْ كَرَى وَطَيْفٌ أَمَانٍ وَصَحَا الْقَلْتُ مِنْ ضَلَالٍ وَهَجَسِ
وَإِذَا الدَّارُ مَا بِهَا مِنْ أَنَسٍ وَإِذَا الْقَوْمُ مَا لَهُمْ مِنْ مُحَسٍّ

فهو يأسى على أن تبين أن ذلك الحرم ومن فيه من الملوك، وما فيه من آثار العقول، ليس إلا سنة من الكرى، وطيفاً من الأمان.

ويعجبني قوله في وصف القصر :

مَرْمَرٌ تَسْبَحُ النَّوَظِرُ فِيهِ وَتَطُولُ الْمَدَى عَلَيْهَا فَرَسِي
وَسَوَارٍ كَأَنَّهَا فِي اسْتَوَاءٍ أَلْفَاتُ الْوَزِيرِ فِي عَرْضِ طَرَسِ

وإن كان تشبيه سوارى القصر بألفات ابن مقلة فيه شيء من الضعف إذ كان جمال الخط لا يتعدى الحسن إلى الجلال، والفرق بعيد بين الحسن الفاتن، والجمال الرائع، فجمال النهر في اللبالي المقمرة فيه حسنٌ وفتنة، وفيه أيام السرار، روعةٌ وجلال.

وقول شوقي :

وَمَكَانُ الْكِتَابِ يُعْرِبُكَ رِيًّا وَرَدِّهِ غَائِبًا فَتَذُنُو لِلْمَسِ

مأخوذ من قول البحترى :

يَعْتَلِي فِيهِمْ أَرْتِيَابِي حَتَّى تَقْرَأَهُمْو يَدَايِ بِلْمَسِ

وبيت البحترى أجود في معناه، وهو كذلك بفتضيه السياق، أما بيت شوقي فهو في مكانه غريب.

وقول شوقي بعد ذلك الوصف :
صَنَعَةَ (الدَّاحِلِ) الْمُبَارَكِ فِي الْغُرِّ بِ وَآلٍ لَهُ مَيَّامِينَ شُمْسِ
فيه ضعف، وكأنه لم يقله إلا على سبيل التكملة، وما أغنى الشعر عن متل
هذا التذييل !!

البحث الثامن عشر

الفصل بين البحتري وشوقي

رأينا كيف وصف البحتري ما رآه في الإيوان من رسم الواقعة بين الفرس والروم، ونذكر الآن أنه انتقل من ذلك الوصف إلى الحديث عن تلك الكأس الروية التي اصطبح بها في الإيوان، فقال :

قَدْ سَقَانِي وَلَمْ يُصَرِّدْ أَبُوالْعَوِ ثِ عَلَى الْعَسْكَرَيْنِ شَرْبَةً خَلَسِ
مِنْ مُدَامٍ تَقُولُهَا هِيَ نَجْمٌ أَضْوَاءَ اللَّيْلِ، أَوْ مُجَاجَةً شَمْسِ
وَتَرَاهَا إِذَا أَجَدَّتْ سُرُوراً وَارْتِيحاً لِلشَّارِبِ الْمُتَحَسِّسِ
أَفْرِغَتْ فِي الزُّجَاجِ مِنْ كُلِّ قَلْبٍ فَهِيَ مَحْبُوبَةٌ إِلَى كُلِّ نَفْسِ
وَتَوَهَّمْتُ أَنَّ كِسْرَى إِبْرُويـ زَ مُعَاطِيٍّ وَالْبَلْهَبُذُ أَنْيْسِ
حُلْمٌ مُطَبِّقٌ عَلَى الشُّكِّ عَيْنِي أَمْ أَمَانٍ غَيْرَنَ ظَنِّي وَحَدْسِي

وهذه القطعة لا تجد ما يقابلها في سنية شوقي، لأن صاحب الشوقيات لم يزر أطلال الحمراء ليغرق همومه هناك في أكواب الشمول، كما فعل البحتري وهو يزور الإيوان، فكان لنا أن ندرس هذه الأبيات على سبيل الاستطراد، إذ لا تقتضيها الموازنة، ولا يدعو إليها التفضيل، ونحن نستملح قوله :

مِنْ مُدَامٍ تَقُولُهَا هِيَ نَجْمٌ أَضْوَاءَ اللَّيْلِ أَوْ مُجَاجَةً شَمْسِ
ووصف الخمر بمجاجة الشمس فيه شيء من روعة الخيال، وعجز هذا البيت

يشفع لصدره، وقد تدخل اللفظة في شفاعه اللفظات، ويمر البيت في خلال الأبيات، كما يقول صاحب زهر الآداب، وكذلك نستعيد قوله في وصف تلك الصهباء :

وتراها إذا أجذت سرورا وارتياحا للشارب المتحسي
أفرغت في الزجاج من كل قلب فهي مَحْبُوبَةٌ إلى كل نفس

ولك أن تتأمل كيف يرنو الشارب المتحسي إلى المدام، ثم يخالها أفرغت في الزجاج من كل قلب ! ولا تنس أنه يقول (من كل قلب) وأنها لذلك (محبوبة إلى كل نفس) فإن لهذا الشمول والتعميم معنى يروع أصحاب الأذواق من علماء المعاني. وانظر كيف دارت الخمر بعد ذلك برأس البحرى فتوهم — ومن ذا الذي لا يتوهم وهو في مثل حاله ! — أن كسرى نديمه، والبلهد أنيسه، وكيف ثاب إلى رشده، وأخذ يفكر أهو في حلم أطبق عينيه على الشك، أم هي أمان غيرن ظنه وحده ! وفي هذا التردد ما فيه من تمثيل الحيرة والارتياح في رأس المتعقل النشوان.

ثم عاد إلى وصف الإيوان فقال :

وَكَانَ الْإِيوَانَ مِنْ عَجَبِ الصَّنْ
يَتَنَظَّلِي مِنَ الْكَابَةِ أَنْ يَنْ
مُزْعَجاً بِالْفِرَاقِ عَنْ أَنْسِ الْف
عَكَسَتْ حَظَّهُ اللَّيَالِي وَبَاتَ الْ
فَهُوَ يُبْدِي تَجَلُّداً. وَعَلَيْهِ
لَمْ يَعْبه أَنْ بُرِّ مِنْ بُسْطِ الدِّيبِ
مُشْمَخِرٌ تَعْلُو لَهُ شُرُفَاتُ
لَابَسَاتٍ مِنَ الْبَيَاضِ فَمَا تَبَّ
لَيْسَ يُدْرَى أَصْنَعُ إِنْسٍ لِحْنٍ
غَيْرَ أَنِّي أَرَاهُ يَشْهَدُ أَنْ لَمْ

عَةِ جَوِّبٍ فِي جَنْبِ أَرْغَنِ جُلَسِ
دُو لِعَيْنِي مُصْبِحٍ أَوْ مُمَسِّي
عَزَّ أَوْ مُرْهَقاً بِتَطْلِيْقِ عِرْسِ
مُشْتَرِي فِيهِ وَهُوَ كَوَكْبُ نَحْسِ
كَكَلٍّ مِنْ كَلَاكِلِ الدَّهْرِ مُرْسِي
بَاجٍ وَاسْتُلَّ مِنْ سُورِ الدَّمَقْسِ
رُفِعَتْ فِي رُؤُوسِ رَضْوَى وَقُدْسِ
صِرُّ مِنْهَا إِلَّا فَلَايِلَ بِرْسِ
سَكْنُوهُ أَمْ صُنْعُ جِنِّ لِإِنْسِ
يَكُ بَانِيهِ فِي الْمُلُوكِ يَنْكَسِ

وفي هذه القطعة نجد البحرى يتمثل الإيوان في صورة الحب أترعت الليالي

كأسه بأنس ألفه، تم أزعجته بالفراق، والعروس أصفاه الدهر حلاوة الوصل،
ثم أرهقه بالطلاق، ويراه يتظنى من الكآبة أن يبدو لعيى من يطالعه عند الصباح،
أو عند المساء، وكيف لا يكون كذلك وقد عكست حظه الليالي، فأصبح
مثار الشجى، ومبعث الأسى، بعد أن كان من مراع الغزلان، وملاعب الحور
الحسان !! وانظر كيف يقول:

فَهوَ يَنْدِي تَجَلُّدًا وَعَلَيْهِ كَلْكُلٌ مِنْ كَلَاكِـلِ الدَّهْرِ مُرْسِي

وفي هذا البيت صورة رائعة لذلك الإيوان الذي صوره البحري « كائناً حياً »
أناخ الدهر عليه بكلكله، وأراه كيف تكون مضاضة الذل بعد نضارة العز،
وكيف يكون العدم بعد الوجود. وللتشاعر في الديار الخالية وقفات تبعث ميت
الوجد، وتثير دفين الإحساس، فإن كنت في ريب من ذلك فحدثني أيّ شيطان،
أو أي ملاك، أوحى إلى البحري : أن الإيوان أصبح — وقد استُلت منه ستور
الدمقس وبسط الديباج — شبيهاً بالغادة الحسناء نزع عنها البؤس ما كانت تملك
من الثباب، فأضحت متجردة تدعوك إلى الرحمة حياً وتعريك بالفتون أحياناً ؟
ونحن نعيد القارئ أن يرمينا بالغلو والإسراف، فهذا والله ما نفهمه من قول
البحري

لَمْ يَعْبَهُ أَنْ بُزَّ مِنْ بُسْطِ الدِّيبِ بَاجٍ وَاسْتُلَّ مِنْ سُتُورِ الدَّمَقْسِ

وكذلك نزع الدهر ما كان بالإيوان من عارض التهاويل، وخلاه كالعادة
المتجردة لا تدري أكان تجردها من قسوة الفقر، أم من سكر الدلال... وما نريد
أن نزيد ! وللقارئ أن ينأمل حسن الأداء في قوله :

عَكَّسَتْ حَظُّهُ اللَّيَالِي وَبَاتَ الْـ مُشْتَرِي فِيهِ وَهُوَ كَوَكَبُ نَحْسِ

فإنه لم يقل : « بات المشتري فيه كوكب نحس » وإنما قال : « بات المشتري
فيه، وهو كوكب نحس ». وكلمة : « وهو » لها ما لها من الفضل في تأكيد
المعنى وتقريره، عند علماء المعاني... وكذلك قوله فيما صارت إليه شرفات

الإيوان :

لَا يَسَاتُ مِنَ الْبَيَاضِ فَمَا تُبْـ صِرُ مِنْهَا إِلَّا فَلَائِلَ بَرَسِـ

فإن كلمة « من » لها هنا موقع جميل، وهي أدل على التقليل من التنوين...! أما قوله :

لَيْسَ يُدْرَى أَصْنَعُ إِنْسٍ لِّجَنٍّ سَكَنُوهُ أَمْ صُنْعُ جِنٍّ لِإِنْسٍ

فهو من عيون هذه القصيدة، والعرب ينسبون إلى الجن صنع كل عجيب، وهي خرافة قديمة، تزخر بها الأساطير، وهي كذلك مورد من موارد الخيال — وكان من المستهجن أن يعقب البحثري هذا البيت الفرد بقوله :

غَيْرَ أَنِّي أَرَاهُ يَشْهَدُ أَنَّ لَمْ يَكُ بَانِيهِ فِي الْمُلُوكِ يَنْكَسِرُ

وهو بيت ضعيف بينه وبين سابقه بون بعيد... وقد عاد إلى وصف ما في

الإيوان فقال :

فَكَأَنِّي أَرَى الْمَرَائِبَ وَالْقَوُ	مَ إِذَا مَا بَلَعْتُ آخِرَ حِسِّي
وَكَأَنَّ الْوُفُودَ ضَاحِينَ حَسَرَى	مِنْ وَقُوفٍ خَلْفَ الزَّحَامِ وَخُنُسٍ
وَكَأَنَّ الْقِيَانَ وَسَطَ الْمَقَاصِي	رَ يُرَجَّحْنَ بَيْنَ حُوٍّ وَلُغْسٍ
وَكَأَنَّ اللَّقَاءَ أَوَّلُ مِنْ أَمْسٍ	سَ وَوَشْكَ الْفِرَاقِ أَوَّلُ أَمْسٍ
وَكَأَنَّ الَّذِي يُرِيدُ اتِّبَاعاً	طَامِعٌ فِي لُحُوقِهِمْ صُبْحَ حَمْسٍ
عُمِرْتُ لِلشُّرُورِ دَهْرًا وَصَارَتْ	لِلتَّعَزِّي رَبَاعُهُمْ وَالتَّائِسِي
فَلَهَا أَنْ أُعَيِّنَهَا بِدُمُوعٍ	مُوقَفَاتٍ عَلَى الصَّبَابَةِ حُبْسٍ

ولهذه الأبيات روعة يحسها من شهد من التصوير الصادق مثل ما شهد

البحثري في أعطاف الإيوان. والبحثري بهذا الوصف فنان، يقول على علم ويعرف

ما يعني، ولك أن تتأمل كلمة « كأن » موقعها الجميل في قوله :

وَكَأَنَّ الْوُفُودَ ضَاحِينَ حَسَرَى مِنْ وَقُوفٍ خَلْفَ الزَّحَامِ وَخُنُسٍ

وقوله :

وَكَأَنَّ الْقِيَانَ وَسَطَ الْمَقَاصِي رَ يُرَجَّحْنَ بَيْنَ حُوٍّ وَلُغْسٍ

وقوله :

وَكَأَنَّ اللَّقَاءَ أَوَّلُ مِنْ أَمْسٍ سَ وَوَشْكَ الْفِرَاقِ أَوَّلُ أَمْسٍ

وقد دلت القارئ على مواطن الحسن في هذه القصيدة، فليهل بعد ذلك من رحيقها كما يشاء.

نفثة شوقي

أما شوقي فقد أخذ يكي الحمراء بعد وصفها فقال :
مَنْ لِحَمْرَاءَ جُلَلْتُ بِغُبَارِ الدَّهْرِ كَسْنَا الْبَرْقَ لَوْ مَحَا الضُّوْءُ لَحْظًا
رِ كَالْجُرْحِ بَيْنَ بُرْءٍ وَنُكْسٍ حِصْنُ غِرْنَاطَةٍ وَدَارُ بَنِي الْأَحْ
لَمَحَّتْهَا الْعُيُونُ مِنْ طُولِ قَبْسٍ جَلَّ الثَّلُجُ دُونَهَا رَأْسَ شِيرَى
حَمْرٍ مِنْ غَافِلٍ وَيَقْظَانِ نَدْسٍ سَرْمَدٌ شَيْئُهُ وَلَمْ أَرِ شَيْبًا
فَبَدَا مِنْهُ فِي عَصَائِبِ بَرْسٍ مَشَتْ الْحَادِثَاتُ فِي غُرْفِ الْحَمْدِ
قَبْلَهُ يُرْجَى الْبَقَاءُ وَيُنْسَى هَتَكَتْ عِزَّةَ الْحِجَابِ وَفُصِّتْ
رَاءَ مَشْيِ النَّعِيِّ فِي دَارِ عُرْسٍ غَرَصَاتُ تَخَلَّتِ الْخَيْلُ عَنْهَا
سُدَّةَ الْبَابِ مِنْ سَمِيرٍ وَأَنْسٍ وَمَعَانٍ عَلَى اللَّيَالِي وَضَاءٍ
وَاسْتَرَاخَتْ مِنْ اخْتِرَاسٍ وَعَسٍ لَا تَرَى غَيْرَ وَافِدِينَ عَلَى الثَّنَا
لَمْ تَجِدْ لِلْعَيْشِيِّ تَكَرَّارَ مَسٍ نَقَلُوا الطَّرْفَ فِي نَضَارَةِ آسٍ
رِخِ سَاعِينَ فِي خَشُوعٍ وَنُكْسٍ وَقَبَابٍ مِنْ لَأَزُورْدٍ وَتَبَرٍ
مِنْ نُقُوشٍ وَفِي عُصَارَةِ وَرْسٍ وَخُطُوطٍ تَكْفَلْتُ لِلْمَعَانِي
كَالرُّبَا الشَّمُّ بَيْنَ ظِلٍّ وَشَمْسٍ وَتَرَى مَجْلِسَ السَّبَاعِ خَلَاءٍ
وَلَا لَفَاطِهَا بِأَزِينِ لُبْسٍ لَا الثُّرَيَّا وَلَا جَوَارِي الثُّرَيَّا
مُقْفِرِ الْقَاعِ مِنْ ظُبَاءٍ وَخُنْسٍ مَرْمَرٌ قَامَتْ الْأُسُودُ عَلَيْهِ
يَتَنَزَّلْنَ فِيهِ أَقْمَارُ أَنْسٍ تَنْثُرُ الْمَاءَ فِي الْحِيَاضِ جَمَانًا
كَلَّةَ الظَّفَرِ لَيِّنَاتِ الْمَجْسِ يَتَنَزَّى عَلَى تَرَائِبِ مُلْسٍ
يَتَنَزَّى عَلَى تَرَائِبِ مُلْسٍ

وفي هذه الكلمة نرى شوقي يتمثل الحمراء، وهي مجللة بغبار الدهر، وهذا خيال رائع، ولكنه ليس بكثير على شوقي، فقد ألف الحديث عن أسرار الحياة وطبائع الوجود، وكلف منذ بعيد بالابانة عن عدوان الحوادث، والإفصاح عن

عسف الخطوب، ويكاد يستنطق الموت، وهو يتحدث عن مصير من اسنراحوا من دار الختل والنفاق.. وانظر كيف يذكر أن الحمراء أصبحت كالجرح بين براء ونكس، وهذا أصدق تصوير لذلك الأثر الذي يحج إليه أحفاد بانه، فبعدونه ويمنونه، لو تنفع الأماني، أو تصدق الوعود، ومن ذا الذي لم يفكر في نكبة الحمراء، ولم يتمن لو يصبح وهو خليفه ابن زياد ؟ ولكن أين فتوة العرب، وأين شباب الزمان ؟

وللقارئ أن يتصور كيف مشت الحادثات في غرف الحمراء مشي النعي في دار عرس، فهذا أيضاً خيال رائع، وهو مأخوذ من قول أبي نواس :
فَتَمَشَّتْ فِي مَفَاصِلِهِمْ كَتَمَشِّي الْبُرِّ فِي السَّفَمِ
ما لنا ولهذا التكلف ؟ فقد ذكر النقاد أن أبا نواس كذلك مسبوق، على أن تشبيه هتك الحوادث لأستار الحمراء بهتك النعي لدار العرس، أروع من تشبيه أثر الخمر في مفاصل الندامى بأثر البرء في جسم السقيم، وقول شوقي :
مَشَّتِ الْحَادِثَاتُ فِي غُرْفِ الْحَمِّ رَاءَ مَشْيِ النَّعْيِ فِي دَارِ عُرْسٍ
هَتَكَتْ عِزَّةَ الْحِجَابِ وَفُضَّتْ سُدَّةَ الْبَابِ مِنْ سَمِيرٍ وَأَنْسٍ
فيه روعة، وفيه جلال، فهو يصور بطش الحوادث بالحمراء، ويصور مع هذا ما كان للحمراء من عزة وسلطان... أما قوله :

وَتَرَى مَجْلِسَ السَّبَاعِ خَلَاءَ مُقْفِرِ الْقَاعِ مِنْ ظِلَائِهِ وَخُنُسِ
لَا الثُّرَيَّا وَلَا جَوَارِي الثُّرَيَّا يَتَنَزَّلْنَ فِيهِ أَقْمَارُ أَنْسٍ
فهو وصف انفراد به، ولم يعرض لمثله البحتري، وكان عجباً أن يغفل عن إيراده، فإن القصور الخالية تذكر الإنسان فيما تذكر بمن كان يرتع فيها وبلعب، من كل ممشوقة القد، مجدولة الخلق، مصقولة الجبين.

خروج العرب من الجنة

وقد انفراد شوقي كذلك بالحديث عن خروج العرب من الجنة، ولا أعبر بغير ذلك، فقد كان شعراء الأندلس يتغنون بذلك الفردوس، ويرونه حسبهم من نعم

الآخرة والأولى، ولقد نظر شوقي إلى خروجهم نظرة مملوءة بالدمع حين قال :

بَعْدَ عَرْكِ مِنَ الزَّمَانِ وَضُرْسِ	آخَرَ الْعَهْدِ بِالْجَزِيرَةِ كَانَتْ
بَادَ بِالْأُمْسِ يَيْنَ أَسْرِ وَحَسِّ	فَتَرَاهَا تَقُولُ : رَابَةُ جَيْسٍ
بَاعَهَا الْوَارِثُ الْمُضِيعُ بِخَسِّ	وَمَفَاتِيحُهَا مَقَالِيدُ مُلْكٍ
عَنْ حِفَاطٍ كَمَوَكِبِ الدَّفْنِ حُرْسِ	خَرَجَ الْقَوْمُ فِي كَتَائِبِ صُمِّ
تَحْتَ آتَائِهِمْ هِيَ الْعَرْشُ أُمْسِ	رَكِبُوا بِالْبَحَارِ نَعْتًا وَكَانَتْ
لِمُنِيَّتٍ وَمُحْسِنٍ لِمُخْسِ	رُبِّ بَانٍ لِهَادِمٍ وَجُمُوعِ
لِجَبَانٍ وَلَا تَسْنَى لِجَبْسِ	إِمْرَةِ النَّاسِ هِمَّةٌ لَا تَانِي
وَهِيَ خُلِقَ فَإِنَّهُ وَهِيَ أُسِّ	وَإِذَا مَا أَصَابَ بُنْيَانَ قَوْمِ

ومع أن شوقي أشار كما ترى في هذه الأبيات إلى أن ضعف العرب في أحرى أيامهم كان السبب في خروجهم من تلك البلاد إذ كانت إمرة الناس لا نتسى لحبس، ولا تتأق لجبان، فقد أشار كذلك برفق إلى أن عهدهم لم ينقض إلا بعد عرك من الزمان وضرس. والحق أن فتح العرب للاندلس كان من الأحداث الخطيرة، وكان الطبيعي أن تدور عليهم الدائرة، وأن يحل بهم ما حل بالفرس والروم. ولا تذكر ما شبَّ في صدورهم من نار العداوة والبغضاء، ولا ما شحر بينهم على الملك من خلاف، ولا ما انغمسوا فيه من اللذات والشهوات، ولكن اذكر أنهم كانوا يحتلون بلاداً لا يزال أهلها يفكرون في الحرية ويحلمون بالاستقلال، والأمة الضعيفة لا تضرب عليها الدلة والمسكنة أبد الآبدين، كما يتوهم الفاتحون، وإنما يظل ضعفها بفتك بالغاصبين في حفاء، كما تفتك على ضعفها الجرائم، ثم ينفض هذا الضعف فحأة، فإذا هو فوة جارفة تسقط من بأسها الممالك، وتطبح من هولها العروش. فان كنت في ريب من ذلك فحدثني ماذا صنع العرب بالشعوب التي ملكوها باسم الدين ! ألم تتأثر تلك الشعوب لنفسها من الدين ؟ ألم يهجموا عليه بحبس من الوسائس والخرافات والأضاليل والأباطيل حتى صبروه كالخرقة البالية لا تصلح لزينة، ولا ستر، ولا وقاية ؟ اسمع يا صاح ! القوة هي كل شيء في الوجود، والقوة فوق الحق، فإن أردت أن تحيا فتستلح

لهذه الحياة، والقوة هي السلاح، ومن قال بغير ذلك فهو في حاجة إلى استشارة الطبيب !

وكذلك كان العرب، فقد ركبوا البحر وهم أقوباء، فكان عرشاً، وركبوه وهم ضعفاء فكان نعشاً، وما تغير البحر، ولكن تغير الناس، ركبوه أول مرة وهم فاتحون، ثم ركبوه آخر مرة وهم هاربون، وما أبعد الفرق بين الفتح والفرار !

ثم قال شوقي في توديع تلك الديار :

يَا دِيَاراً نَزَلْتُ كَالْخُلْدِ ظِلًّا وَجَنَى دَانِيَاً وَسَلْسَالِ أَنْسِ
مُحْسِنَاتُ الْفُضُولِ لَا نَاجِرْفِيْ هَا بِقَيْظٍ وَلَا جُمَادَى بِقَرَسِ
لَا تُحِسُّ الْعُيُونُ فَوْقَ رُبَاهَا غَيْرَ حُورٍ حَوْ المَرَّاشِفِ لُغْسِ
كُسَيْتُ أَفْرُخِي بِظِلِّكَ رِيْشاً وَرَبَاً فِي رُبَاكَ وَأَشْتَدَّ غَرْسِي
هُمْ بَنُو مِصْرَ لَا الْجَمِيلُ لَدَيْهِمْ بِمِصْرَاعٍ وَلَا الصَّنِيعُ بِمَنْسِي
مِنْ لِسَانٍ عَلَى ثَنَائِكَ وَقْفِرِ وَجَنَانٍ عَلَى وَلَائِكَ حَبْسِ
حَسْبُهُمْ هَذَا الطُّلُولُ عِظَاتِ مِنْ جَدِيدٍ عَلَى الدُّهُورِ وَدَرْسِ
وَإِذَا فَاتَكَ الثَّنَاتُ إِلَى الْمَا ضِي فَقَدْ غَابَ عَنْكَ وَجْهُ النَّاسِي

وما أريد الخوض في تحليل هذه الأبيات، فقد طال الحديث، إنما أذكر أننا غنمنا هذه القصيدة من حياة شوقي في الأندلس، وغنمنا معها « قطعة خشب » من قصر الحمراء تجدها في متحف الشاب المذهب حسين شوقي، وباليتنا نحرص على ما بقي في أيدينا من ملك العرب والمسلمين.. !

وسيدكر القارئ بعد هذا كله أني أوازن بين البحري وشوقي، وسيسأل أيهما أشعر ؟ وأنا أرجوه أن يراجع الموازنة ليحكم بما يشاء.
أما أنا فقد حكمت، والسلام^(١).

(١) بمناسبة سينية البحري يحسن أن نشير إلى أن الشاعر محمد الهراوي وصح قصيدة سينية عن : « أبي الهول » كان فيها معنى المعارضة للبحري، وإن لم يقل ذلك، وهي قصيدة حمدة، نثار منها قوله :

البحث التاسع عشر

البوصيري وشوقي

للوصيري قصيدة مشهورة تسمى « البردة » عارضها شوقي بقصيدة سماها « نهج البردة » وقد رأينا أن نوازن بين هاتين القصيدتين لنقف على مبلغ البوصيري وشوقي من العلم بأسرار الإسلام، فقد عُني هذان الشاعران بدرس الشريعة لإظهار ما فيها من المحاسن، ودرء ما يُوجّه إليها من الشبهات، وسيكون موقفنا في درس هاتين القصيدتين موقف المؤرخ، وقد تؤرخ الأفكار كما يؤرخ الأشخاص، وحسبنا أن ندل القارئ على مواطن الضعف فيما صبغ من الأفكار بصبغة إسلامية، وللقارئ بعد ذلك رأيه، فإن شاء مضى في البحث والتنقيب، وإن شاء رضي واكتفى بما عليه عامة الناس، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

أمة كالحديد صلب المحسّ	= نئى الناس يا أبا الهول أنا
وبلّونا الشعوب من كل جنس	لم يعيننا أنا بلتسا شعوب
بيد الله كل كأس بكأس	كل من ساءنا أذقناه سوءاً
واسألوا الفرس عن مصاب الفرس	فاسألوا الروم ما دهى الروم فيا
قد مضغنا ما بين ناب وضررس	أمم تلك دات ناب وضررس
من حمى الله في حظيرة قدس	فميت كلها ونحن بقينا

وللهراوي قصيدة أخرى سيية هي بلا شك من وحي البحري، وهي قصيدته التي وقف بها على دار الشيخ محمد عبده في عين شمس، وكان من الحتم أن نشير إلى ذلك لبين كيف سرت أنفاس البحري إلى شعراء هذا الجيل.

حياة البوصيري

هو محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله بن صهاج. كان أحد أبويه من (أبو صير)، والآخر من (دلاص) فركبت له منهما نسبة، وقل : (الدلاصيري) لكنه اشتهر بالبوصيري، وكان يعاني صناعة الكتّاب والتصرف وبيعهم الخمرية بلبليس^(١).

والبوصيري شاعر مصري ظريف من شعراء القرن السابع الهجري في شعره البكت المستملحة. وله في شكوى حاله والتذمر من الموظفين قصائد لا تخلو من ذكاء، وفي شعره وصف للحالة الاجتماعية في عصره، وأحسسه من الصادقين، فهو يذكر أن الموظفين كانوا يسرقون الغلال، وأنهم لولا ذلك ما لبسوا الحرير، ولا شربوا الخمر، وأن من الكتّاب طائفة تنسكت وعُدّت من الزهاد مع أنها تملك بطونها بالسحت، وتأكل مال الأيتام، وبذكر أن القضاة حابوا الأمان، ويريدوا خيانتهم بتأويل القرآن والحديث، وبذكر أن المسلمين والأهوال طاموا بفسادهم، فكان المسلمون يقولون : لنا بمصر حقوق، ونحن أولى الأحدين، وكان الضبط يقولون : نحن ملوك مصر، ومن سوانا هم العاصيون، وكان اليهود يستحلون مال الطوائف أجمعين.

وفي ذلك يقول :

نَقَدْتُ طَوَائِفَ الْمُسْتَخْدِمِينَ	فَلَمْ أَرْ فِيهِمْ خَيْرًا أَمْسَا
فَقَدْ عَاشَرْتُهُمْ وَلَبِثْتُ فِيهِمْ	مَعَ التَّجَرُّبِ مِنْ عُسْرِي سَمَا
فَكُتَّابُ الشَّمَالِ هُمُ جَمِيعَا	فَلَا صَحِيحَ شَأْنِهِمُ الْيَمْسَا
فَكَمْ سَرَقُوا الْغَلَالَ وَمَا عَرَفْنَا	بِهِمْ فَكَأَنَّهُمْ سَرَفُوا الْعَبُوسَا
وَلَوْ لَا ذَاكَ مَا لَبَسُوا حَرِيرًا	وَلَا شَرَبُوا خُمُورَ الْأَنْدَارِسَا
وَلَا رَبَّوْا مِنَ الْمُرْدَانِ مُرْدًا	كَأَعْصَانِ سُلَيْمٍ وَبُحْسَا
وَقَدْ طَلَعْتُ لِبَعْضِهِمْ دُقُونٌ	وَلَكِنْ بَعْدَ مَا حَلَقُوا دُقُونَا

(١) توفي البوصيري سنة ٦٩٥هـ، وله قبر مشهور في الاسكندرية شمال باب مصر. له ديوان في العلوم الدسبة.

كَأَسْيَافٍ بِأَيْدِي لَاعِينَا
وَكُلِّ اسْمٍ يَحُطُّوا مِنْهُ سِيَا
يَتَمُّ مِنَ اللَّثَامِ الْكَاتِبِينَا
مِنَ الزُّهَّادِ وَالْمُتَوَرِّعِينَا
وَقَدْ مَلَأُوا مِنَ السُّحْتِ الْبُطُونَا
أَمَانَتُهُ وَسَمَّوَهُ الْأَمِينَا
سِوَى مِنْ مَعْشَرٍ يَتَأَوَّلُونَا
بِهَا وَلَحْنُ أَوْلَى الْآحِدِينَا
وَإِنَّ سِوَاهُمُو هُمْ غَاصِبُونَا
لَهُمْ مَالُ الطَّوَائِفِ أَخْمَعِنَا
لَهُمْ فِي كُلِّ مَا يَخْطِفُونَا
بِجَوْرِ يَمْنَعُ النَّوْمَ الْجُفُونَا
لِمَنْزِلِهِ وَغَلَّتْهَا حَزِينَا
وَكَانَتْ رَأُوهُ مِنْ قَبْلِ نُونَا
فَتَمَّ نَقْصُهُ صَلََةُ الذِّينَا
فَلَيْتَكَ لَوْ نَهَبْتَ النَّاهِبِينَا
بُسُومَ الْمُسْلِمِينَ أَذَى وَهُوَ
تَلَقَّيْتُ الْقَوَافِلَ وَالسَّفِينَا
عَنِ الْكُلِّ الشَّهَادَةَ وَالْيَمِينَا

وَأَقْلَامُ الْجَمَاعَةِ جَائِلَاتُ
وَقَدْ سَاوَمْتُهُمْ حَرْفًا بِحَرْفٍ
أَمْوَلَايَ الْوَزِيرِ غَفَلْتُ عَمَّا
نَنَسْتُكَ مَعْشَرُ مِنْهُمْ وَعُدُّوا
وَقِيلَ لَهُمْ دُعَاءُ مُسْتَجَابُ
تَفَقَّهْتَ الْقَضَاةُ فَخَانَ كُلُّ
وَمَا أَخْشَى عَلَى أَمْوَالٍ مُضَرِّ
يَقُولُ الْمُسْلِمُونَ لَنَا حُقُوقُ
وَقَالَ الْقَبْطُ نَحْنُ مُلُوكُ مُضَرِّ
وَحَلَلْتُ الْبُهُودُ بِحِفْظِ سَبْتِ
وَمَا ابْنُ قُطَيْبَةٍ إِلَّا شَرِيكُ
أَغَارَ عَلَى قَرَى (فَاقُوسَ) مِنْهُ
وَضَيَّرَ عَيْنَهَا حَمَلًا وَلَكِنْ
وَأَصْبَحَ شُعْلُهُ تَحْصِيلَ نِيرٍ
وَقَدَّمَهُ الدِّينَ لَهُمْ وَضُولُ
وَفِي دَارِ الْوِكَالَةِ أَيُّ نَهْبٍ
فَقَامَ بِهَا يَهُودِيٌّ خَبِيثٌ
إِذَا أَلْقَى بِهَا مُوسَى عَصَاهُ
وَشَاهِدُهُمْ إِذَا أَتَاهُمَا يُؤَدِّي

وهذه القطعة ذكرها صاحب فوات الوفیات من قصيدة طويلة يذكر أنها كانت مشهورة، وشهرتها فيما نرى لا يرجع إلى قيمتها الأدبية لأنها قصيدة ضعيفة لعب عليها الابتذال، وإنما ترجع شهرتها إلى ما فيها من التنديد بالموظفين، والناس يبخسون الموظفين حين يُعرفون بالطمع والاسبنداد. وهذه القصيدة قيمتها من الوجهة التاريخية، فهي شاهد على اختلاف الطوائف في مصر وعلى ما كان يجري إذ ذاك بين المسلمين والنصارى واليهود، وهي كذلك شاهد على عبوب الإدارة في ذلك الحين.

ومن شعر البوصيري فيما يجري مجرى الدعابة قوله في الحديث عن جارية راودها عن نفسها فأنكرت عليه الشيب والضعف :

أَهْوَى وَالْمَشِيبُ قَدْ حَالَ دُونَهُ وَالتَّصَابِي بَعْدَ الْمَشِيبِ رُعُونَهُ
أَبَتْ النَّفْسُ أَنْ تُطِيعَ وَقَالَتْ إِنَّ حُبِّي لَا يَدْخُلُ الْقَيْنِيَّةَ
كَيْفَ أَعْصِي الْهَوَى وَطِينَةُ قَلْبِي بِالْهَوَى قَبْلَ آدَمٍ مَعْجُونَهُ
سَلَبَتْهُ الرُّقَادُ بَيْضَةً خِذْرِ ذَاتُ حُسْنٍ كَالدَّرَّةِ الْمَكْنُونَهُ
سُمِّتْهَا قُبْلَةً تُسَرُّ بِهَا النَّفْسُ سِ قَالَتْ كَذَا أَكُونُ حَزِينَهُ
قُلْتُ لَا بُدَّ أَنْ تَسِيرِي إِلَى الدَّاءِ رِ فَقَالَتْ عَسَى ! أَنَا مَعْجُونَهُ !
قُلْتُ سِيرِي فَإِنِّي لَكَ خَيْرُ مِنْ أَبِي رَاحِمٍ وَأُمِّ حُنُونَهُ
أَنَا نَعَمَ الْقَرِينِ إِنْ كُنْتَ تَبْغِي نَ حَلَالاً وَأَنْتِ نَعَمَ الْقَرِينَهُ
قَالَتْ أَضْرِبْ عَنْ وَصْلٍ مِثْلِي صَفْحاً وَأَضْرِبِ الْخَلَّ أَوْ يَصِيرَ طَحِينَهُ
لَا أَرَى أَنْ تَمَسَّنِي يَدُ شَيْخٍ كَيْفَ أَرْضَى بِهِ لَطَشَتِي مَشِينَهُ
قُلْتُ إِنِّي كَثِيرُ مَالٍ فَقَالَتْ هَبْكَ أَنْتَ الْمُبَارِزُ الْقَارُونَهُ

وهذا أيضاً شعر ضعيف، ولكن فيه « حكاية ظريفة » من حكايات مولانا الشيخ رضي الله عنه وأرضاه !

وأظرف من هذه القطعة أبيانه التي بعث بها إلى ناظر الشرقية، وكانت له حمارة استعارها منه الناظر فأعجبته، فكتب على لسانها إليه :

يَا أَيُّهَا السَّيِّدُ الَّذِي شَهِدْتُ أَخْلَاقُهُ لِي بِأَنَّهُ فَاضِلُ
مَا كَانَ ظَنِّي يَبْعُنِي أَحَدُ قَطُّ وَلَكِنْ صَاحِبِي جَاهِلُ
لَوْ جَرَسُوهُ عَلَيَّ مِنْ سَفَهٍ لَقُلْتُ غَيْظاً عَلَيْهِ يَسْتَاهِلُ
أَقْصَى مُرَادِي لَوْ كُنْتُ فِي بَلَدِي أَرَعَى بِهَا فِي جَوَانِبِ السَّاحِلِ
وَبَعْدَ هَذَا فَمَا يَحِلُّ لَكُمْ أَخْذِي لِأَنِّي مِنْ سَيِّدِي حَامِلُ

وقد استظرف ناظر الشرقية هذه الأبيات، وردَّ إليه الحمارة، ولم يكن فيها من الزاهدين !

ونحن نستملح كذلك قصيدته التي بعث بها إلى أحد الوزراء في شكوى حاله،

وهي قصيدة طريفة، يذكر فيها أنه فقير، وأن أبناءه لا يجدون ما يأكلون، وأهم يتحسرون لفقد الكعك أيام الأعياد، وأن امرأته زارت أختها وشكت إليها سوء الحال، فأشارت عليها بضربه، ونتف ذقنه شعرة شعرة. وفي تمصيل ذلك يقول وهو يخاطب ذلك الوزير :

حَاشَاكَ مِنْ قَوْمٍ أُولِي عُسْرَةٍ
عَائِلَةٍ فِي غَايَةِ الْكَثْرَةِ
جَرَى لَهُمْ بِالْخَيْطِ وَالْإِبْرَةِ
كَانُوا لِمَنْ أَبْصَرَهُمْ عِبْرَةً
مَا بَرِحَتْ وَالشَّرْبَةُ الْجَرَّةُ
فِي كُلِّ يَوْمٍ تُشْبِهُ الشُّرَّةُ
تَنْزَهُوا فِي الْمَاءِ وَالْخُضْرَةِ
قَمْحٌ وَلَا خُبْزٌ وَلَا فُطْرَةٌ
فِي كَفِّ طِفْلٍ أَوْ رَأْوَا تَمْرَةً
بِشَهْقَةٍ تَتْبَعُهَا زَفْرَةٌ
قَطَعْتَ عَنَّا الْخُبْزَ فِي كَرَّةٍ
بَدَرَهُمْ وَرِقٍ وَلَا نُقْرَةٍ
تَخْدُمُهُمْ يَا أَبْتَ سُخْرَةٍ
وَالْأُخْتُ فِي الْغَيْرَةِ كَالضَّرَةِ
وَصَبْرَهَا مِنِّي عَلَى الْعِثْرَةِ
كَذَا مَعَ الْأَزْوَاجِ يَا عُرَّةُ !
تَخْلُفُ مِنْكَ وَلَا فَتْرَةٍ
أَوْ انْتِفِيفَهَا شَعْرَةً شَعْرَةً
فَإِنَّ رَوْحِي عِنْدَهُ صَجْرَةٌ
طَلَّقَنِي قَالَتْ لَهَا نَعْرَةٌ
فَجَاءَتْ الزَّوْجَةَ مُجْتَرَّةُ
فَاسْتَقْبَلَتْ رَأْسِي بِأَجْرَةٍ

إِلَيْكَ نَشْكُو حَالَنَا إِنَّنَا
فِي قِلَّةٍ نَحْنُ وَلَكِنْ لَنَا
أُحْدِثُ الْمَوْلَى الْحَدِيثَ الَّذِي
صَامُوا مَعَ النَّاسِ وَلَكِنَّهُمْ
إِنْ شَرِبُوا فَالْبُيْرُ زِيرٌ لَهُمْ
لَهُمْ مِنَ الْخَبِيرِ مَسْلُوقَةٌ
أَقُولُ مَهْمَا اجْتَمَعُوا حَوْلَهَا
وَأَقْبَلَ الْعِيدُ وَمَا عِنْدَهُمْ
فَارْحَمَهُمْ إِنْ عَايَنُوا كَعْكَةً
تَشْخَصُ أَبْصَارُهُمْ نَحْوَهَا
كَمْ قَائِلٍ يَا أَبْتَ مِنْهُمْ
مَا صِرتَ تَأْتِينَا بِفَلَسٍ وَلَا
وَأَنْتَ فِي خِدْمَةِ قَوْمٍ فَهَلْ
وَيَوْمَ زَارَتْ أُمُّهُمْ أُخْتَهَا
وَأَقْبَلَتْ تَشْكُو لَهَا حَالَهَا
قَالَتْ لَهَا كَيْفَ تَكُونُ النِّسَا
قُومِي أَطْلُبِي حَقَّكَ مِنْهُ بِلَا
وَإِنْ تَأَبَّى فَخُذِي ذَقْنَهُ
قَالَتْ لَهَا مَا هَكَذَا عَادَنِي
أَخَافُ إِنْ كَلَّمْتُهُ كَلِمَةً
وَهَوْنَتْ قَدْرِي فِي نَفْسِهَا
فَقَاتَلْتَنِي فَتَهَدَّدْتَنِي

وَحَقُّ مَنْ خَالَتْهُ هَذِهِ أَنْ يَنْظُرَ الْمُؤَلَّى لَهُ أُمْرَهُ
وفي هذه القصيدة كثير من التعابير المصرية، ولا نزال نقابها موجودة في
بلييس^(١).

قصيدة البردة

تعد قصيدة البردة أول قصيدة قيّمة في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام،
ولم تكن المدائح النبوية مما يتكلم فيه الشعراء، والبوصيري هو الذي انجز هذا
النوع، أو هو الذي بسطه وأطال فيه القصيدة، فإن قصائد الكميت بن زيد في
مدح آل البيت تعتبر نواة لهذا الفن الذي أكثر منه المؤلّدون، وقد مدح الرسول
في حياته، مدحه كعب بن زهير بلامينه المشهورة التي يقول في أولها :
بَأَنْتَ سَعَادُ فِقْلَبِي الْيَوْمَ مَثْبُولٌ مُتَيِّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَخْمُولٌ
وَمَا سَعَادُ غَدَاةَ الْيَمِينِ إِذْ رَحَلُوا إِلَّا أَغْنَى عَضَضُ الْغُرَفِ مَخْمُولٌ

ومدحه الأعشى بداليتته التي يقول فيها :
فَأَقْسَمْتُ لَا أُرِيَّ لَهَا مِنْ كِلَالَةٍ وَلَا مِنْ وَحْيٍ حَتَّى تُلَاقِي مُحْسِنًا
نَبِيٌّ يَرَى مَا لَا تُرَوْنُ وَذَكَرُهُ أَغَارَ لِعُسْرِي فِي الْبِلَادِ وَأَسْحَدًا
ويرتاب الدكتور طه حسين في قصيدة الأعشى، ويظنها من وضع الرواه، وهي
على فرض صحتها ليست من المدائح النبوية، وكذلك بانت سعاد، لأن المدح الذي
جرى على لسان كعب والأعشى لا يزيد شيئاً عن غيره من المدح الذي جرى
في ذلك العهد موجهاً إلى الملوك، أما المدائح النبوية فتستار بعد شمائل النبي وسرد
ما في الرسالة من المحاسن الباقية، ودفع ما وُصِمَ به الرسول من النقائص والعيوب.
وهي فوق هذا كله تقال وتنشد بقرابة إلى الله، وهي عند الصوفية من
جملة الأوراد.

(١) ما كتب هنا عن البوصيري هو أصل ما في كتاب « المدائح النبوية » في الأدب العربي «
والمؤلف يلمس أحياناً فبطل معانيه من كتاب إلى كتاب، وهي ليست بديرة، لأنها تدل على نقل
الدنانير من حبيب إلى حبيب في الثوب الواحد، أليس كذلك ؟ بل، أنها المؤلّد ».

البردة

وقد حدثنا البوصيري عن سبب وضعه للبردة، فقال : « كنت فد نظمت قصائد في مدح رسول الله ﷺ، منها ما كان اقترحه علي صاحب زين الدين يعقوب بن الزبير. ثم اتفق بعد ذلك أن أصابني فالج أبطل نصفي، ففكرت في عمل قصيدتي هذه فعملتها، واستشفعت بها إلى الله تعالى في أن يعافيني، وكررت إنشادها ودعوت وتوسلت، ونمت فرأيت النبي ﷺ فمسح على وجهي بيده المباركة، وألقى عليّ بردة فانتبهت ووجدت فيّ نهضة، فقممت وخرجت من بيتي ولم أكن أعلمت بذلك أحداً، فلقيني بعض الفقراء فقال لي : أريد أن تعطيني القصيدة التي مدحت بها رسول الله ﷺ، فقلت أيها ؟ فقال : التي أنشأتها في مرضك، وذكر أولها، وقال : والله لقد سمعتها البارحة وهي تنشد بين يدي رسول الله ﷺ، ورأيت رسول الله ﷺ يتمايل وأعجبته، وألقى على من أنشدها بردة. فأعطيته إياها، وذكر الفقير ذلك وشاع المنام ».

وفي هذه القطعة دلالة على عقلية البوصيري، فهو رجل فيه طيبة وسذاجة، كأكثر الصوفية، فليس من المعقول أن يبرأ مريض من مرضه لآية ينلوها، أو قصيدة ينشدها، كما يرى البوصيري بقصيدته، ولو مرض مفتي الديار المصرية — لا سمح الله — ما استغنى بالبردة عن الطبيب ! ولعل حكاية البوصيري هذه هي سبب ما سار بجانب البردة من الخرافات، فقد ذكر بعض الشراح لكل بيت من أبياتها فائدة، فبعضها أمان من الفقر وبعضها أمان من الطاعون ! وهذا النوع من الغفلة قديم، فقد كان الزمخشري يذكر شيئاً من مثل هذا عن سور القرآن... ونلاحظ كذلك أن البوصيري كرر عبارة « ﷺ » خمس مرات في هذه الفقرة الصغيرة. وتكرار الصلاة على النبي كلما ذكر اسمه من وساوس المتأخرين، وقد زاد البوصيري على ذلك في القصيدة المصرية : فهو يدعو الله أن يصلي على النبي وشيعته وصحبه عدد الحصى والترى والمدر وعدد نجم السماء وسات الأرض وعدد وزن مناقيل الجبال وقطر جميع الماء والمطر، وما حوت الأشجار من ورق، وعدد الحروف المفروعة والمكتوبة وعدد الوحش والطير

والأسماك والأنعام، وعدد الجن والإنس والأملأك، وعدد الذر والنمل والحبوب والشعر والصوف والريش والوبر، وعدد ما أحاط به العلم المحيط وما جرى به القلم والقدر، وعدد نعم الله على الحلائق مذ كانوا وما حشروا، وعدد ما كان في الأكوان وما يكون إلى يوم البعث، وتكون هذه الصلاة بهذا التحديد:

فِي كُلِّ طَرْفَةِ عَيْنٍ يَطْرُقُونَ بِهَا
أَهْلُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ أَوْسَدُوا
مِلءَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ مَعَ جَبَلٍ
وَالْفُرْشِ وَالْعَرْشِ وَالْكُرْسِيِّ وَمَا حَصَرُوا
مَا أَعَدَّ اللَّهُ مُوجُوداً وَأَوْجَدَ مَعَهُ
سُدُوماً صَلَاةً دَواماً لَيْسَ تَحْصُرُ
تَسْتَعْرِقُ الْعَدَّ مَعَ جَمْعِ الدُّهُورِ كَمَا
تُحِيطُ بِالْحَدِّ لَا تُبْقِي وَلَا نَذِرُ

وهذا النمط من الصلاة على النبي لم يكن معروفاً في صدر الإسلام وإنما هو تصرف من غلاة الصوفية أمثال صاحب « دلائل الخيرات ».

والبردة بعد هذا كله مشهورة في جميع الأقطار الإسلامية، وقد كانت جزءاً من الهدية التي قدمها ابن خلدون إلى تيمورلنك، ولهذا الهدية قيمتها في تقدير الحياة العقلية عند المتقدمين.

نهج البردة

أما نهج البردة فقصيدة وضعها شوقي تذكراً لحج الخديو السابق سنة ١٢٢٧ هـ وقدمها إليه بكلمة صغيرة، ثم شرحها المرحوم الشيخ سليم البشري شرحاً وحبراً بيناً، قال في نهايته: « ولو أن الكاتب عمد إلى كل بيت ففسر غريبه، وفصل مجمله، وأفشى معناه، ونزل عند مغازيه، وعرض على وجوه العربية مفردة ومركبة، وأرسل الإشارة إلى كل ما وقع له من دقائق البلاغة وفنون البديع وطلب القصة

التي بوماً إليها فيه، ووازن بينه وبين ما يجانسه من الشعر ويسايره من الكلام، وغير ذلك مما يجري في شرح الكلام ويدخل في أبواب نقده وتفسيره، لطال القول وتجاوز القصد».

وكنا نسمع في مجالس أهل العلم بالأدب أن الشيخ سليم البشري لم يترح نهج البردة، وإنما الشرح لابنه الشيخ عبد العزيز إن شاء أيده وإن شاء نفاه^(١). ولهذا الشرح مقدمة وضعها محمد بك المويلحي، وهي مقدمة تتناسب مع ما كتبت له، فقد حقق فيها أن الشعر باب من أبواب الكلام، فحسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام، وأتعب نفسه في التفرقة بين الشعر وبين القرآن، ووصل إلى « أن القرآن ليس بشعر، وما هو من الشعر في شيء، وأين هو من الشعر؟ والشعر إنما هو كلام موزن مقفى يدل على معنى، فأين الوزن، وأين التقفية، وأين المعاني التي ينتحياها الشعراء من معانيه، وأين نظم كلامهم من نظمه وأساليبه؟ » ثم قال : « فاذن لا مناسبة بينه وبين الشعر إذا حققت »، وكان الظن بصاحب عيسى بن هشام أن يعرف أن الكلام في تحريم الشعر وإباحته مما ينبو عنه الذوق في القرن العشرين !

تلك كلمة وجيزة قلناها تمهيداً للموازنة بين البردة وسجع البردة، وإنا لرجو أن يكون في هذا التمهيد بعض الغناء.

(١) غضب الأستاذ عبد العزيز البشري من هذا الكلام، وساحلنا في جريدة البلاغ، وهو يؤكد أن أباه رحمه الله هو صاحب الشرح، ونحن نؤكد من حابنا أن الشيخ عبد العزيز هو الذي كتب ذلك الشرح، وكان الشيخ سليم رحمه الله عياً بفصله الحق عن مثل هذا الفضل المعتل، ولكن هذا ما وقع. وليت شعري كيف بطمش إلى الأحبار الأدبية إذا عز علينا أن نحقق حراً قامب التسواهد على صحته، ونحن شهود العصر الذي وقع فيه ولهذه القصة تفاصيل يراها القارئ في كتاب « أكوام الشهد والعلم » فليرجع إليها هناك

البحث العشرون

بين البوصيري وشوقي والبارودي

ابتدأ البوصيري قصيدته بالنسيب، ونحا شوقي منحاه، وتلك عادة عربية قديمة، لم يفكر الشعراء في تركها إلا في هذا الجبل، وإن كان من قدمائهم من نالها بلام، كالمتنبي إذ يقول :

إِذَا كَانَ مَذْحُجُ فَالنَّسِيبُ الْمُقَدَّمُ أَكُلُّ فَصِيحٍ قَالَ شَعْرًا مُتَبَّعٌ ؟

وكان للصوفية شيء من الغزل المستملح المقبول، فكان مريدوهم يؤولونه ويرونه موجهاً إلى الذات الإلهية، أو الحضرة النبوية، ولهم في ذلك التأويل أعاجيب ييسم لها ثغر الحزين، فليرجع إليها من شاء في كتب التوحيد، ليقف على شيء من تصورات أولئك الناس، فقد برروا ما جرى على ألسنة شيوخهم، من الجون، وجعلوه نوعاً من الرمز والتمثيل، وتلطف المتأدبون منهم فأجروه بحرى الاستعارة التمثيلية، وألحقوا ما يجري بين عشاق الأوراح بما يجري بين عشاق الأسباح، إلى آخر ما لهم في هذا الباب من لطف الاحتيال.

وهذا كله أثر تلك العادة : وهي افتتاح الشعر بالنسيب، وهي عادة لم يقلع عنها شوقي إلى الآن، وأظرف ما وقع له في هذا المسلك قصيدته في « مشروع ملنر » فقد افتتحها بهذه الأبيات :

أَتْنِ عِنَانَ الْقَلْبِ وَأَسْلَمْ بِهِ مِنْ رَبِّزِ الرَّمْلِ وَمِنْ سَرْبِهِ

وَمِنْ تَنْثِي الْغَيْدِ عَنْ بَانِهِ مُرْتَجَّةَ الْأُرْدَافِ عَنْ كُتْبِهِ
ظِلَّاءُهُ الْمُتَكَسِّرَاتُ الطُّبَا يَعْلِبْنَ دَا اللَّبِّ عَلَى لُبِّهِ
بَيْضُ رِقَاقِ الْحُسْنِ فِي لَمَحَةٍ مِنْ نَاعِمِ الدُّرِّ وَمِنْ رَطْبِهِ
ذَوَابِلُ التَّرْجَسِ فِي أَصْلِهِ يَوَائِعُ الْوَرْدِ عَلَى قُضْبِهِ
زَنْ عَلَى الْأَرْضِ سَمَاءَ الدُّجَى وَزِدْنَ فِي الْحُسْنِ عَلَى شَهْبِهِ
يَمْشِينَ أَسْرَاباً عَلَى هَيْئِهِ مَشَى الْقَطَا الْآمِنِ فِي سِرْبِهِ
مَنْ كُلُّ وَسْطَانٍ بَغَيْرِ الْكَرَى تَنْتَبَهُ الْآجَالُ مِنْ هُدْبِهِ

وهي قصيدة طويلة، ثلثها في السيب. ويذكر شوقي أنه قالها كارهاً، ولا يبعد على هذا أن يكون ما افتتحها به من التشبيب جزءاً من المنحة التي اجتدها أنصار المشروع إذ ذاك !! وقد رأيت من شعراء العصر مَن يعجب من الحملة التي وجهها النقاد إلى افتتاح الشعر بالنسيب وهو يرى ذلك نوعاً من الرياضة لقرائح الشعراء، وأذكر ألي رأيت في كلام القدماء ما يؤيد هذا المعنى، فقد كان مهم من يرى التوفيق إلى إجادة النسيب باباً للتوفيق إلى الإجادة في سائر القصيد. ومهما يكن من شيء فقد سار البوصيري وشوقي على أثر من تقدمهم من الشعراء، ولا تقل كان الأدب يقضي بتجنب هذا النهج في المدائح النبوية، فقد سب كعب ابن زهير بمحبوبته وهو في حضرة الرسول، فما لامة النبي، ولا أكرها عليه أصحابه، ولا آخذه بها مؤرخو الآداب.

ولنا أن نلاحظ أن البوصيري جرى في تشبيهه محرى المحاكاة والتقليد، فإيا براه يقول في مطلع البردة :

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِبْرَانَ بِذِي سَلَمٍ مَزَجْتَ دَمْعاً جَرَى مِنْ مُقَلَّةٍ بِدَمٍ
أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تِلْقَاءِ كَاطِمَةٍ وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ فِي الظُّلَمَاءِ مِنْ إِصَمٍ

وذو سلم : واد ينحدر عن الذنائب في أرض بني البكاء على طريق البصرة إلى مكة كما ذكر ياقوت، وفيه يقول كثير :

أَمِنْ آلِ سَلَمَى دِمْنَةً بِالذَّنَائِبِ إِلَى الْمَيْتِ مِنْ رَيْعَانِ ذَاتِ الْمَطَارِبِ
يُلَوِّحُ بِأَطْرَافِ الْأَجْدَةِ رَسْمَهَا بِذِي سَلَمٍ أَطْلَأَهَا كَالذَّوَاهِبِ

وكاظمة : جوّ على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة، وفيه يقول

بعض الشعراء :

يا حَبْدَا الْبَرْقُ أَكْنَفِ كَاطِمَةٍ يَسْعَى عَلَي قَصَرَاتِ الْمَرْخِ وَالْعُشْرِ
لِلَّهِ دَرْ يُيُوتِ كَانَ يَعْشَفُهَا قَلْبِي وَبِالْفُهَا أَنْ طُيِّبَ بَصِيرِي
فَقَدْتُهَا فَقَدْ ظَمَّانٍ إِذَاوَتَهُ وَالْقَيْظُ بِقَذْفٍ وَجْهَ الْأَرْضِ بِالشَّرْرِ
أُمْنِيَّةُ النَّفْسِ أَنْ تَزْدَارَ ثَانِيَةً وَحَالَتَا وَالْأَمَانِي حُلُوهُ الثَّمَرِ

وإضم : واد بجبال تهامة، وهو الوادي الذي فيه المدينة، وفيه يقول سلامة

ابن جندل :

يَا دَارَ أَسْمَاءَ بِالْعَلْبَاءِ مِنْ إِضْمٍ بَيْنَ الدَّكَادِكِ مِنْ قُوٍّ فَمَعْصُوبٍ
كَانَتْ لَهَا مَرَّةً دَارًا فَغَيَّرَهَا مَرُّ الرِّيَّاحِ بِسَافِي الثَّرْبِ مَجْلُوبٍ

وذكر البوصيري لهذه المواطن، وشغفه بها، وحنينه إليها، ينافي مصربته، وكان له أن يتشوق إلى أحبابه في بليس أو فاقوس، كما يتشوق بعض الناس إلى أحبابه في سنتريس وأسيوط، ولكن بظهر أن المغاني العربية كانت احتلت رؤوس الشعراء، فكان من ذلك أن أكثروا من ذكر نجد، وسلع، وأروند، وإن لم يكن لهم بهذه المواطن هوى، ولم ينعموا فيها باصطباح ولا اغتباق، ولذلك نعد التلكف ظاهراً في حديث البوصيري عن جيرانه بذي سلم، ونحسبه اخنارها للقفافية، كما اختار « إضم » لهذا الغرض، وأين هذا الوجد المنكلّف من قول مَنْ شُغل عن أروند ببغداد :

وَقَالَتْ نِسَاءُ الْحَيِّ أَيَسَ آبَنُ أُخَيَا أَلَا حَبْرُونَا عَنْهُ حُيِّنُمُو وَفَدَا
رَعَاهُ ضَمَانُ اللَّهِ هَلْ فِي بِلَادِكُمْ أَخُو كَرَمٍ بَرَعَى لَدِي حَسْبِ عَهْدَا
فَإِنَّ الَّذِي خَلَقْتُمُوهُ بِأَرْضِكُمْ فَتَيَّ مَلَأَ الْأَحْشَاءَ هِجْرَانُهُ وَحَدَا
أَبْعَدَادُكُمْ تُنْسِيهِ أَرَوْنَدَ مَرْبَعًا أَلَا خَابَ مَنْ يَشْرِي بِبَغْدَادِ أَرَوْنَدَا
فَدَتُّهُ نَفْسِي ! لَوْ سَمِعَنَ بِمَا أَرَى رَمَى كُلَّ جِيدٍ مَنْ تَنْهَدُهُ عَقْدَا

ومن الناس من يعتذر عن صاحب البردة بأنه تشوف إلى نلك المواطن لصلتها بمدينة الرسول، وهذا الاعتذار يؤيد ما أشرنا إليه من أنه يتغزل محاكاة ونقلداً،

ولو كان صادق اللوعة لشبب بغادة مصرينه، وحن إلى مغى من معاني النيل^(١)... ولم يتقيد شوقي بهذا القيد حين قال :
رِيمٌ عَلَى الْقَاعِ يَبِينُ الْبَانَ وَالْعَلَمَ أَحَلَّ سَفْكَ دَمِي فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ
ولمّا أطلق نفسه من ربة التقليد، فلم يتحدث عن مجد، ولا عن تهامة، وإن غلبت عليه بعض الأخيلة العربية، فإن سفك الدم في الأشهر الحرم بقية من خيال الأعراب، فقد كانوا بآمنون فيها مقارعة السيوف، ويظنون لا عاصم لهم من فتك العيون.

ولم يوفق البوصيري إلى حسن الأداء حين قال :
أَمِنْ تَذَكُّرٍ جِيرَانٍ بِذِي سَلَمٍ مَزَجْتَ دَمْعاً جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمٍ
فإن فوله : « جرى من مقلة » حشو لا قيمة له، ولا وجه لما يقوله بعض الشيوخ من أن ذلك تأكيد، فانه لم يشك أحد في أن الدم يجري من العين.
ومن رجال الأدب من لا نروقه كلمه « على القاع » في قول شوقي :
« ريم على القاع بين البان والعلم »

أما قوله :

« أَحَلَّ سَفْكَ دَمِي فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ »
ففيه مقابلة بستملاحها علماء البدع، وفيه براعة استهلال، وهو كذلك غاية في حسن الأداء.

وقول البوصيري :

فَمَا لِعَيْنَيْكَ إِنْ قُلْتَ أَكْفَفَا هَمَّتَا وَمَا لِقَلْبِكَ إِنْ قُلْتَ آسْتَفِقَ بِهِمَا
فيه ضعف وابتذال، وهو غير موصول بسابقه، وقد انتقل قبل أن يتم المعنى فقال :

أَيَحْسَبُ الصَّبُّ أَنَّ الْحُبَّ مُنْكَيْمٌ مَا بَيْنَ مُنْسَجِمٍ مِنْهُ وَمُضْطَرَمٍ

(١) في كتاب (المدايح النبوية) بوجهه لكلام البوصيري فارجع إليه هـاك.

لَوْلَا الْهَوَى لَمْ تُرَفْ دَمْعاً عَلَى طَلَلٍ وَلَا أُرِفَتْ لِذِكْرِ الْبَانِ

وقد حار الشراح في ربط هذه الأبيات.

وقد يُستَجَاد قوله :

فَكَيْفَ تُنْكِرُ حُبًّا بَعْدَ مَا شَهِدْتَ بِهِ عَلَيْكَ عُذُولُ الدَّمْعِ وَ
وَأَثَبْتَ الْوَجْدَ خَطِيءَ عِبْرَةٍ وَضَنَى مِثْلَ الْبَهَارِ عَلَى خَدِّكَ

وشوقي أبرع من البوصيري في الحديث عن طيف الخيال. فانا نجد البوصيري يقول :

نَعَمْ سَرَى طَيْفٌ مِّنْ أَهْوَى فَأَرْقَنِي وَالْحُبُّ يَعْتَرِضُ اللَّذَاتِ بِ

وهو بيت مفرد لم يتم به المعنى. أما شوقي فقد أفصح عن مراده حين
يَا نَاعَسَ الطَّرْفِ لَأَذُقْتَ الْهَوَى أَبَدًا أُسْهَرْتَ مُضْنَاكَ فِي حِفْظِ الْهَوَى
أَفْدِيكَ الْفَأْ وَلَا آلُو الْخَيَالِ فِدَى أَغْرَاكَ بِالْبُخْلِ مَنْ أَغْرَاهُ بَا
سَرَى فَصَادَفَ جُرْحًا دَامِيًا فَأَسَا وَرَبِّ فَضْلٍ عَلَى الْعُشَاقِ لُ

والفرق بعيد بين قول البوصيري :

« نعم سرى طيف من أهوى فأرقني »

وبين قول شوقي :

« سَرَى فَصَادَفَ جُرْحًا دَامِيًا فَأَسَا »

وشوقي يحيد هذا النوع من الترتيب، وهو صاحب هذا البيت البديع
نَظْرَةً فَأَيَّتَسَامَةً فَسَلَامٌ فَكَلَامٌ فَمَوْعِدٌ فَلَقْ

وقول شوقي « ورب فضل على العشاق للحلم » أرفق من قول البوصيري
« والحب يعترض اللذات بالألم » — أما قول شوقي :

(١) نقدنا هذا البيت في بعض مؤلفاتنا فقلنا : انه نظرة سيمائه، ولكن قد يتفق أحياناً أن
القلوب بأسرع من ذلك، وللقلوب وثبات أسرع من برق.

يَانَاعِسَ الطَّرْفِ لَا ذُفْتَ الْهَوَى أَبَدًا أَشْهَرْتَ مُضَاكَ فِي حِفْظِ الْهَوَى فَنَمِ

فهو عندي أغزل بيت قاله المحدثون... وفي قوله :
أَفْدِيكَ أَلْفًا وَلَا أَلُو الْخَيَالِ فِدَى أَغْرَاكَ بِالْبُخْلِ مَنْ أَغْرَاهُ بِالْكَرَمِ
صورة صادقة لعبث العشق بالقلوب : فهو يغري المحبوب بالبخل، ويغري
طيفه بالجود، وسماحة الطيف بابًا إلى اضطرام الفؤاد.

ويقول البوصيري في مدافعة اللائمين :
يَا لَائِمِي فِي الْهَوَى الْعُذْرِيَّ مَعْدِرَةً مِنْنِي إِلَيْكَ وَلَوْ أَنْصَفْتَ لَمْ تُلَمِ

ويقول شوقي :
يَا لَائِمِي فِي هَوَاهُ وَالْهَوَى قَدَرٌ لَوْ شَفَكَ الْوَجْدُ لَمْ تَعْدِلْ وَلَمْ تُلَمِ
وبيت شوقي أجمل، وقوله : « الهوى قدر » من أبدع ما قبل في دفع العذل
والملام^(١).

أما قوله : « لو شفقك الوجد لم تعذل ولم تلم » فهو أجود في معناه من قول
الشريف الرضي :
أَقُولُ لِلْإِثْمِ الْمُهْدِي مَلَامَتَهُ ذُقِ الْهَوَى وَإِنْ آسَطَعَتِ الْمَلَامُ لَمْ

ومن قول ابن الفارض :
دَعْ عَنْكَ تَعْنِيفِي وَذُقْ طَعْمَ الْهَوَى فَإِذَا عَشِيقَتَ فَبَعْدَ ذَلِكَ عَنَّفِرِ

ولكن البوصيري كان أرق، وهو يحاور اللائم بقوله :
عَدْتُكَ حَالِي لَا سِرِّي بِمُسْتَرٍ عَنْ الْوَشَاةِ وَلَا دَائِي بِمُنْحَسِمِ

(١) راجعنا الدكتور طه حسين وقال إن هذا المعنى مسروق من الأعنية اللدية .

« وعد ومكتوب علي ومقدر عاجلين »

ولكن هذا لا يمنع من استحسان قول شوقي « والهوى قدر ».

أما شوقي فقد غلبت عليه الحكمة، وهو يقول في حوار لائمه :
لَقَدْ أَنْلَتْكَ أَذْنًا غَيْرَ وَاعِيَةٍ وَرُبَّ مُتَنَصِّتٍ وَالْقَلْبُ فِي ضَمَمٍ

وشوقي يخلق الفرص ليقذف بالكلمة الحكيمة، وتلك إحدى سماته، ولكنها قد تزعزعه عن إصابة الغرض في بعض الأحيان، على أن من الحق أن نذكر أن شوقي يعتز بالوجد وهو يدفع لائمه، فكان له أن يصرح بأنه منح العاذل أذناً غير واعية، وقلباً غير سميع، ولا كذلك البوصيري فقد جعل الوجد داء تُرجى منه السلامة، ووصف لائمه بنصح الجيب حين قال :

مَحْضَتْنِي النَّصْحَ لَكِنْ لَسْتُ أَسْمَعُهُ إِنَّ الْمُجِبَّ عَنِ الْعُدَالِ فِي ضَمَمٍ

إلى هنا فرغ البوصيري من النسيب، فلنقف قليلاً عند المعاني التي انفرد بها شوقي، وإنا لنستعيد قوله :

رَمَى الْقَضَاءُ بَعَيْنِي جَوْذِرَ أَسَدًا يَا سَاكِنَ الْقَاعِ أَذْرِكُ سَاكِنَ الْأَجَمِ

وهذا معنى قديم، والطريف فيه هو تصوير العينين بصورة السهم يرمي به القضاء، فهو لا يذكر أن الجؤذر رماه، وإنما يذكر أن القضاء رماه بعيني جؤذر، والقضاء خبير بأنواع النصال !

وقد بلغ الرفق في قوله :

لَمَّا رَنَا حَدَّثْتَنِي النَّفْسُ قَائِلَةً يَا وَيْحَ جَنْبِكَ بِالسَّهْمِ الْمُصِيبِ رَمِي
جَحَدْتُهَا وَكَتَمْتُ السَّهْمَ فِي كَبْدِي جَرَحُ الْأَجَبَةِ عِنْدِي غَيْرُ ذِي أَلَمٍ
رُزِقْتَ أَسْمَحَ مَا فِي النَّاسِ مِنْ خُلُقٍ إِذَا رُزِقْتَ التِّمَاسَ الْعُذْرُ فِي الشُّيَمِ

والبيت الأخير يمتّ إلى ما قبله بصلة ضعيفة، لأن النظرة الفاتنة أعز وأمنع من أن تُعد من جملة الذنوب، والذي يكتم جرح الحب لا يصفح لمحبوبه عن جناية، فما هذا الم على الجمال !

وأخطأ شارح القصيدة حين استأنس بقول المتنبي :

إِنْ كَانَ سَرَّكُمْ مَا قَالَ حَاسِدُنَا فَمَا لِيْجْرَحَ إِذَا أَرْضَاكُمْو أَلَمْ

ثم أخذ شوقي يصف هذا السرب الذي صحب حبيته فقال :
 مِنَ الْمَوَائِسِ بَاناً بِالرُّبَا وَقِناً
 اللَّاعِبَاتِ بِرُوحِي السَّافِحَاتِ دَمِي
 السَّافِرَاتِ كَأَمْثَالِ الْبُدُورِ ضُحَى
 يُغْرَنَ شَمْسَ الضُّحَى بِالْحَلِيِّ وَالْعَصَمِ
 الْقَاتِلَاتِ بِأَجْفَانٍ يَهَا سَقَمٌ
 وَلِلْمَيِّتَةِ أَسْبَابٌ مِنَ السَّقَمِ
 الْعَائِرَاتِ بِالْبَابِ الرَّجَالِ وَمَا
 أَقْلَنَ مِنْ عَثَرَاتِ الدَّلِّ فِي الرَّسَمِ
 الْمُضَرِّمَاتِ حُدُوداً أَشْفَرَتْ وَجَلَتْ
 عَنْ فِتْنَةٍ تُسْلِمُ الْأَكْبَادَ لِلضَّرَمِ
 الْحَامِلَاتِ لَوَاءِ الْحُسْنِ مُخْتَلِفاً
 أَشْكَالُهُ وَهُوَ فَرْدٌ غَيْرُ مُنْقَسِمِ
 مِنْ كُلِّ بَيْضَاءٍ أَوْ سَمَرَاءٍ زُيِّنَا
 لِلْعَيْنِ وَالْحُسْنُ فِي الْآرَامِ كَالْعَصَمِ
 بُرْعَنَ لِلْبَصْرِ السَّامِي وَمِنْ عَجَبِ
 إِذَا أَشْرَنَ أَسْرَنَ اللَّيْثُ بِالْعَنَمِ
 وَضَعْتُ خَدِّي وَقَسَمْتُ الْقَوَادِ رَبّاً
 يَرْتَعَنَ فِي كُنُسٍ مِنْهُ وَفِي أَكْمِ

وهذه القطعة من البيان المشرق الجميل، وأستلمح منها قوله :
 الْعَائِرَاتِ بِالْبَابِ الرَّجَالِ وَمَا أَقْلَنَ مِنْ عَثَرَاتِ الدَّلِّ فِي الرَّسَمِ
 فقد جعلهن يمشين على القلوب، فيعثرن بقلب بعد قلب، وإن لم يسلمن من
 عثرات الدلال، وهن يتخطرن في الضحى، وعند الأصيل...

وأستعيد كذلك قوله :
 يُرْعَنَ لِلْبَصْرِ السَّامِي وَمِنْ عَجَبِ إِذَا أَشْرَنَ أَسْرَنَ اللَّيْثُ بِالْعَنَمِ

فقد وصفهن بالخفر والحياء، وذكر أنهن يُرغن حين تسمو إليهن العين، والسحر كل السحر في الحسن الحذر الهَيُوب، وكان من العجب أن يأسر هؤلاء الخفريات الليث إذا أشرن إليه بالبنان المخضوب... وما أروع قوله بعد ذلك في خطاب محبوبته :

يَا بِنْتَ ذِي اللَّبْدِ الْمَحْمِيَّ جَانِبُهُ أَلْقَاكَ فِي الْعَابِ أَمْ أَلْقَاكَ فِي الْأُطْمِ
مَا كُنْتُ أَعْلَمُ حَتَّى عَنْ مَسْكَنُهُ أَنَّ الْمُتَى وَالْمَنَايَا مَضْرِبُ الْخِيَمِ^(١)
مَنْ أَنْبَتَ الْغُصْنَ مِنْ صَمْصَامَةٍ ذَكَرَ وَأَخْرَجَ الرَّيْمَ مِنْ ضَرْغَامَةٍ قَرِمَ
بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنْ سُمرِ الْقَنَا حُجْبُ وَمِثْلُهَا عِفَّةٌ عُذْرِيَّةُ الْعِصَمِ
لَمْ أَغْشَ مَعْنَاكَ إِلَّا فِي غُضُونِ كَرَى مَعْنَاكَ أَبْعَدُ لِلْمُشْتَاكِ مِنْ إِرَمِ

وفي هذه الأبيات صورة فاتنة لذلك الشذوذ الذي تحوكه الطبيعة، وإنها لصناع ! ومن ذا الذي لم يفكر في الرجل يقطر من جوانبه البأس، وتعبس الدنيا حين يعبس، ويثور الوجود حين يثور، وفي بيته فتاة من صلبه تحسبها لرقتها وحياتها ظلية تتشنى أو غُصناً يُميد.

وقول شوقي :

مَا كُنْتُ أَعْلَمُ حَتَّى عَنْ مَسْكَنُهُ أَنَّ الْمُتَى وَالْمَنَايَا مَضْرِبُ الْخِيَمِ
مَنْ أَنْبَتَ الْغُصْنَ مِنْ صَمْصَامَةٍ ذَكَرَ وَأَخْرَجَ الرَّيْمَ مِنْ ضَرْغَامَةٍ قَرِمِ
أجود في معناه من قول الطغرائي :

إِنِّي أُرِيدُ طُرُوقَ الْحَيِّ مِنْ إِصْمٍ وَقَدْ حَمَاهُ رُمَاةٌ مِنْ بَنِي ثَعْلٍ
يَحْمُونَ بِالْبَيْضِ وَالسُّمْرِ اللَّذَانِ بِهِ سُودَ الْقَدَائِرِ حُمْرَ الْحَلِيِّ وَالْحُلَلِ

وإنما كان أجود لتلك النظرة الدقيقة التي سجل بها شوقي عجبه من أن يَنْبُت الغصن من السيف الذكر، ويخرج الرِّيم من الضرغامة القرم !

(١) يرى الدكتور طه حسين أن أحسنه شوقي خلعت من الصبغة المصرية وهو تكلم عن البان والعلم، ومضرب الخيم، وأن قوله « يا بنت ذي اللبد » بذكرنا بقول ابن هانئ :
يا بنت ذي السيف الطويل نحاده أكذا ينور الحكم في سادك

وقول شوقي :

بيني وَيَبْتَئِلُكَ مِنْ سُمرِ الْقَنَا حُجْبٌ وَمِثْلُهَا عِفَّةٌ عُذْرِيَّةُ الْعِصَمِ
لَمْ أَغْشَ مَعْنَاكَ إِلَّا فِي غُضُونِ كِرَى مَعْنَاكَ أَبْعَدُ لِلْمُشْتَاكِ مِنْ إِرَمِ
أُصرح في معناه وأجود من قول الطغرائي :

نُؤْمُ نَاشِئَةٌ بِالْجَزَعِ قَدْ سُقِيَتْ نِصَالُهَا بِمِيَاهِ الْعُجْجِ وَالْكَحْلِ (١)
قَدْ زَادَ طَيْبَ أَحَادِيثِ الْكِرَامِ بِهَا مَا بِالْكَرَائِمِ مِنْ جُبْنٍ وَمِنْ بَخْلِ
تَبَيَّتْ نَارُ الْهَوَى مِنْهُمْ فِي كَبَدِ حَرَى وَنَارُ الْقِرَى مِنْهُمْ عَلَى الْقَلْبِ
يَقْتُلْنَ أَنْصَاءَ حُبٍّ لِأَحْرَاكَ بِهِمْ وَيَنْحَرُونَ كِرَامَ الْخَيْلِ وَالْإِبْلِ

قصيدة البارودي

ونريد أن نُلِمَّ إلمامة بقصيدة البارودي التي سماها « كشف العمة في مدح سيد الأمة » وهي ميمية طويلة ضمَّنها سيرة النبي عليه الصلاة والسلام من حين مولده إلى يوم انتقاله إلى جوار ربه، وبنائها كما قال على سيرة ابن هشام. والبارودي شاعر فحل، يعتز به تاريخ الأدب في مصر، وقد نوازن بينه وبين أبي فراس. ولم نفكر في الموازنة بيه وبين البوصيري لأننا لم نتأكد من أنه رمى إلى معارضته، ولكن رأينا من الواجب أن نقدم للقارئ نماذج من قصيدة (كشف الغمة) في المواطن التي يعرض لمثلها البوصيري وشوقي، ليكون الموضوع أوفى، وليجد القارئ في تعدد الصور الشعرية مجالاً للنقد والتمييز... فلنذكر الآن ما بدأ به البارودي قصيدته من النسيب قال :

يَارَائِدَ الْبَرْقِ يَمِّمْ دَارَةَ الْعَلَمِ وَأَخْذُ الْعِمَامِ إِلَى حَيِّ بِذِي سَلَمِ
وَإِنْ مَرَرْتَ عَلَى الرُّوحَاءِ فَأَمْرِ لَهَا أَخْلَافَ سَارِيَةٍ هَتَانَةِ الدَّبَمِ
مِنْ الْغَزَارِ اللَّوَانِي فِي حَوَالِبِهَا رِيَّ النَّوَاهِلِ مِنْ زَرْعٍ وَمِنْ نَعَمِ
إِذَا اسْتَهَلَّتْ بِأَرْضٍ نَمْنَمَتْ يَدُهَا بُرْدًا مِنَ النَّوْرِ يَكْسُو عَارِي الْأَكَمِ
تَرَى النَّبَاتَ بِهَا خُضْرًا سَنَابِلُهُ يَخْتَالُ فِي حُلَّةٍ مَوْشِيَةِ الْعَلَمِ

(١) الغنج : حلاوة العس.

أَدْعُو إِلَى الدَّارِ بِالسُّقْيَا وَبِي ظَمًا
 مَنَازِلُ لِهَوَاهَا بَيْنَ جَانِحَتَيْ
 إِذَا تَسَمَّتْ مِنْهَا نَفْحَةٌ لَعِبَتْ
 أَدِرْ عَلَى السَّمْعِ ذِكْرَاهَا فَإِنَّ لَهَا
 عَهْدٌ تَوَلَّى وَأَبْقَى فِي الْفُؤَادِ لَهُ
 إِذَا تَذَكَّرْتُهُ لَأَحْتَ مَخَايِلُهُ
 فَمَا عَلَى الدَّهْرِ لَوْ رَقَّتْ شَمَائِلُهُ
 تَكَاءُذْنِي خُطُوبٌ لَوَزَمْتِ بِهَا
 فِي بَلَدٍ مِثْلَ جَوْفِ الْعَيْرِ لَسْتُ أَرَى
 لَا أَسْتَقِرُّ بِهَا إِلَّا عَلَى قَلْقٍ
 إِذَا تَلَفْتُ حَوْلِي لَمْ أَجِدْ أَثَرًا
 فَمَنْ يَرُدُّ عَلَى نَفْسِي لُبَانَتَهَا

أَحَقُّ بِالرَّيِّ لِكُنِّي أَخُو كَرَمٍ
 وَدِيعةٌ سِرُّهَا لَمْ يَتَّصِلْ بِفَمِي
 بِي الصَّبَابَةُ لِعَبِّ الرِّيحِ بِالْعَلَمِ
 فِي الْقَلْبِ مَنَزَلَةٌ مَرْعِيَّةٌ الذَّمِ
 شَوْقًا يَفُلُّ شَبَابَةَ الرَّأْيِ وَالْهَمِ
 لِلْعَيْنِ حَتَّى كَانِي مِنْهُ فِي حُلْمِ
 فَعَادَ بِالْوَصْلِ أَوْ أَلْقَى يَدَ السَّلَمِ
 مَتَاكِبَ الْأَرْضِ لَمْ تَثْبُتْ عَلَى قَدَمِ
 فِيهَا سِوَى أُمِّ تَحْنُو عَلَى صَمِ
 وَلَا أَلَدُ بِهَا إِلَّا عَلَى أَلَمِ
 إِلَّا خَيَالِي وَلَمْ أَسْمَعْ سِوَى كَلِمِي
 أَوْ مَنْ يُجِيرُ فُؤَادِي مِنْ يَدِ السَّقَمِ

وهذا شعر جزل رصين، تغلب عليه سمة الجاهلية في المنحى وفي الأسلوب، فهو يستسقي للروحاء وما إليها من المغاني العربية، ويجمع بين شتى الأغراض في الموضوع الواحد، ويعرض له المعنى تبعاً فيتحول إليه لتحسبه نسي المعنى الأصيل. ألا ترى كيف استسقى للروحاء، وهذا هو الغرض الأول، ثم مضى في وصف السارية الهتانة الديم، فقال :

مِنْ الْغَزَارِ اللَّوَاتِي فِي حَوَالِهَا
 إِذَا اسْتَهَلَّتْ بِأَرْضٍ نَمْنَمَتْ يَدُهَا
 تَرَى النَّبَاتَ بِهَا خُضْرًا سَنَابِلُهُ
 رِيَّ النَّوَاهِلِ مِنْ زَرْعٍ وَمِنْ نَعَمٍ
 بُرْدًا مِنَ النَّوْرِ يَكْسُو عَارِي الْأَكَمِ
 يَخْتَالُ فِي حُلَّةٍ مَوْشِيَّةٍ الْعَلَمِ

وكان يتمي لو رقت شمائل الدهر فعاد بالوصل، أو ألقى يد السلم، فانتقل من هذا الغرض إلى وصف ما تكاءده من الخطوب، وما مُني به من الإقامة في بلد مثل جوف العير يعبد أهله الأصنام، لا يستقر به إلا على قلق، ولا يلدُّ به إلا على ألم، إذا تلفت حوله لم يجد سوى خياله، ولم يسمع غير أصداء.

وهذا بحث مجمل، نرجو أن نعود إليه في الكلمة الآتية بشيء من التفصيل.

البحث الحادي والعشرون

أسلوب البارودي

قلت في الكلمة الماضية : إن شعر البارودي تغلب عليه سمة الجاهلية في المنحى وفي الأسلوب، وذكرت في تأييد ذلك أنه قد يتحول إلى المعنى الطارىء حتى لنحسبه نسي المعنى الأصيل، وهذا الأسلوب معروف في أشعار الجاهليين والمخضرمين، ومن نحا نحوهم من شعراء الأعصر الخالية، فإننا نرى طرفة بن العبد يشبه قباب محبوبته بخلايا السفين، ثم يترك المشبه ويمضي في الحديث عن المشبه به فيقول :

كَأَنَّ حُمُولَ الْمَالِكِيَّةِ غُدْوَةٌ خَلَايَا سَفِينٍ بِالنَّوَاصِفِ مِنْ دَرٍ
عَدْوِيَّةٌ أَوْ مِنْ سَفِينِ بْنِ يَامِنٍ يَجُورُ بِهَا الْمَلَّاحُ طَوْرًا وَيَهْتَدِي
يَشُقُّ عُقَابَ الْمَاءِ حَيْرُومَهَا بِهَا كَمَا قَسَمَ الثُّرْبُ الْمُفَائِلُ بِالْيَدِ

وتراه يهمل بالحديث عن نفسه فيقول :
وَإِنِّي لَأَمْضِي إِلَيْهِمْ عِنْدَ احْتِضَارِهِ يَهْوَجَاءُ مِرْقَالٍ تَرُوحُ وَتَغْتَسِدِي
ثم يندفع في وصف الناقة حتى لا يشك القارئ في أنه من أجلها هذه القصيدة، إذ يصفها في أكثر من ثلاثين بيتاً، ثم يعود بعد لأي إلى الحديث عن نفسه فيقول :
وَلَسْتُ بِحَلَالِ الثَّلَاحِ مَخَافَةً وَلَكِنْ مَتَى يَسْتَرْفِدِ الْقَوْمُ أَرْفِدِ
وكذلك تجد كعب بن زهير يقول في ثغر محبوبته سعاد :

تَجْلُو عَوَارِضَ ذِي ظَلَمٍ إِذَا ابْتَسَمَتْ كَانَهُ مِنْهَلٌ بِالرَّاحِ مَعْلُولٌ

ثم يمضي في وصف ما مزجت به هذه الراح فيقول :
شَجَّتْ بِذِي شَبَمٍ مِنْ مَاءٍ مَحْنِيَةٍ صَافٍ بِأُطْحَاضِ وَهُوَ مَشْمُولٌ
تَنْفِي الرِّيحِ الْقَذَى عَنْهُ وَأَفْرَطَهُ مِنْ صَوْبِ سَارِيَةٍ بِيضٍ يَعَالِلُ

ونراه يقول في بُعد محبوبته :

أُمَسْتُ سَعَادُ بِأَرْضٍ لَا يُلْعَهَا إِلَّا الْعِتَاقُ النَّجِيَّاتُ الْمَرَايِلُ

وكان هذا كافياً في الابانة عن بعد الشقة، ولكنه وصف الناقة التي تبلغه تلك الأرض ينحو عشرين بيتاً. ثم عاد بُعد هذا كله إلى ما رمى إليه من اسعطاف الرسول فقال :

تَسْعَى الْوُشَاةُ بِجَنَبَيْهَا وَقَوْلُهُمْ	إِنَّكَ يَا ابْنَ أَبِي سُلَيْمٍ لَمَقْتُولُ
وَقَالَ كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ أَمْلُهُ	لَا إِلَهِيَنَّكَ إِنِّي عَنْكَ مَشْغُولُ
فَقُلْتُ خَلُّوا سَبِيلِي لَا أَبَا لَكُمْ	فَكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَفْعُولُ
كُلُّ ابْنٍ أَنْثَى وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ	يَوْمًا عَلَى آلِهِ حَذَاءُ مَحْمُولُ
أَنْبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي	وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ
مَهْلًا هَذَا الَّذِي أُعْطَاكَ نَافِلَةَ الْ	قُرْآنٍ فِيهَا مَوَاعِيظُ وَنَزَائِلُ
لَا تَأْخُذْنِي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ	أُذِيبْ وَإِنْ كَثُرَتْ فِي الْأَقَاوِلُ

وقد سلك البارودي هذا المسلك في قصيدته (كشف الغمة) فقد رأينا كيف أفاض في وصف السحب وهو يستسقي للروحاء، وكيف انتقل من الحديث عن وجده إلى الحديث عن غربته. ولنذكر الآن شاهداً آخر نؤيد به اختياره لهذا الأسلوب :

وصف الغار

وصف القرآن الغار الذي آوى إليه النبي ﷺ مع الصديق وصفاً لا زُخرف فيه إذ قال : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ

إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ﴿١﴾

ووصفه أبو بكر رضي الله عنه على هذا النحو فقال : « كنت مع النبي ﷺ في الغار فرأيت آثار المشركين. قلت يا رسول الله : لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا، قال ما ظنك باثنين الله ثالثهما ! ».

وتحدثت عائشة عن ذلك فقالت : « ولما كان ليلة بات النبي ﷺ في الغار أمر الله تعالى شجرة فنبتت في وجه الغار، وأمر حمامتين وَحْشَتَيْنِ فوقفتا على وجه الغار، وأتى المشركون من كل بطن حتى إذا كانوا من النبي ﷺ على قدر أربعين ذراعاً مَعَهُمْ قَسِيَهُمْ وَعَصِيَهُمْ تقدم رجل منهم فرأى حمامتين على فم الغار، فقال لأصحابه : ليس في الغار شيء، رأيت حمامتين على فم الغار فعرفت أن ليس فيه أحد، وقال رحل آخر : الغار ! فقال أمية بن خلف : « ما أُرْبُكُمْ فيه، وعليه من نسج العنكبوت ما أرى أنه قبل أن يُولد محمد(١) »

فأمامنا الآن حقيقة ثابتة « هي أن النبي كان مع رفيقه في الغار، وأن الله أنزل سكينته عليه فلم يخف ولم يحزن » وقد وصفت هذه الحقيقة في القرآن وفي كلام الصديق وصفاً يرجع في جوهره إلى الاشادة بفضل الله ورحمته، ووصفت في كلام عائشة وصفاً فيه شيء من الزخرف والخيال : إذ أضافت حديث الحمامتين والعنكبوت — ولنا في حديث عائشة رأي لا يسمح به ظرف الزمان — فلندكر كيف تناول البوصيري وشوقي والبارودي هذه الحادثة، وكيف نحا البارودي في وصفها منحى شعراء الجاهلية.

أما البوصيري فقد قال :

فَالصِّدْقُ فِي الْغَارِ وَالصِّدِّيقُ لَمْ يَرِ مَا وَهُمْ يَقُولُونَ مَا فِي الْغَارِ مِنْ أَرْمٍ^(٢)
ظَنُّوا الْحَمَامَ وَظَنُّوا الْعَنْكَبُوتَ عَلَى خَيْرِ الْبَرِيَّةِ لَمْ تَنْسِجْ وَلَمْ تَحْمِ

(١) راجع وضع الحج.

(٢) أي لا أثر فيه.

وَقَايَةُ اللَّهِ أُغْنَتْ عَنْ مُضَاعَفَةِ مِنَ الدُّرُوعِ وَعَنْ عَالٍ مِنَ الْأَطْمِ
وهذا وصف لم يخرج عما ورد في القرآن من وقاية الله لنبِيِّه وإنزاله السكينة
عليه ولم يَعد ما حدثت به عائشة من حوم الحمام ونسج العنكبوت.
أما شوقي فقد قال :

سَلْ غُصْبَةَ الشَّرِكِ حَوْلَ الْغَارِ حَائِمَةً لَوْلَا مُطَارَدَةُ الْمُخْتَارِ لَمْ تَحْمِ
هَلْ أَبْصَرُوا الْأَثَرَ الْوَضَاءُ أَمْ سَمِعُوا هَمْسَ التَّسَائِيحِ وَالْقُرْآنِ مِنْ أُمِّ^(١)
وَهَلْ تَمَثَّلَ نَسْجُ الْعَنْكَبُوتِ لَهُمْ كَالْغَابِ وَالْحَائِمَاتِ الزُّغْبُ كَالرَّحْمِ
فَادَّهَبُوا وَوُجُوهُ الْأَرْضِ تَلْعَنُهُمْ كَبَاطِلٍ مِنْ جَلَالِ الْحَقِّ مُنْهَزِمِ
لَوْلَا يَدُ اللَّهِ بِالْجَارَيْنِ مَا سَلِمَا وَعَيْنُهُ حَوْلَ رُكْنِ الدِّينِ لَمْ يَقُمْ
تَوَارِيَا بِجَنَاحِ اللَّهِ وَاسْتَتَرَا وَمَنْ يَضُمُّ جَنَاحَ اللَّهِ لَا يُضْمِ

وفي هذه القطعة يسخر شوقي من المشركين، ويهزأ بهم، ويمثّل ضلالهم
وإخفاقهم تمثيلاً بشعاً مخيفاً يخزى له وجه الشرك وَيُرْغَمُ به أنف الجحود،
وللقارئ أن يتأمل قوله :

فَادَّهَبُوا وَوُجُوهُ الْأَرْضِ تَلْعَنُهُمْ كَبَاطِلٍ مِنْ جَلَالِ الْحَقِّ مُنْهَزِمِ
فإنه من أجمل ما شبّه فيه المحسوس بالمعقول. أما البارودي فقد قال :

وَجَاءَهُ الْوَحْيُ إِذْ أُنَا بِهَجْرَتِهِ فِيمَ الْغَارِ بِالصَّدِيقِ فِي الْعَسَمِ^(٢)
فَمَا اسْتَقَرَّ بِهِ حَتَّى تَبَوَّأَهُ مِنْ الْحَمَائِمِ زَوْجَ بَارِعِ الرَّئِمِ
بَنَى بِهِ عُشَّهُ وَآخِذَهُ سَكْنًا يَأْوِي إِلَيْهِ غَدَاةَ الرِّيحِ وَالرَّهَمِ

(١) من قرب.

(٢) في الظلام.

الْفَانِ مَا جَمَعَ الْقُدَارُ بَيْنَهُمَا
 إِلَّا لِسِرٍّ بِصَدْرِ الْعَارِ مُكْتَتِمٍ
 كِلَاهُمَا دَيْدَبَانٌ فَوْقَ مَرْبَاقٍ
 يَرْغَى الْمَسَالِكَ مِنْهُ بُعْدٌ وَلَمْ يَتِمِ
 إِنَّ حَنْ هَذَا غَرَامًا أَوْدَعَا طَرَبًا
 بِاسْمِ الْهَدِيلِ أَجَابَتْ تِلْكَ بِالْتَّعَمِ
 يَخَالُهَا مَنْ يَرَاهَا وَهِيَ جَائِمَةٌ
 فِي وَكْرَهَا كُرَّةَ مَلَسَاءٍ مِنْ أَدَمِ^(١)
 إِنْ رَفَرَفْتَ سَكَنْتَ ظِلًّا وَإِنْ هَبَطْتَ
 رَوَتْ غَلِيلَ الصَّدَى مِنْ حَائِثِ شَيْمِ
 مَرْقُومَةُ الْجِيدِ مِنْ مِسْكِ وَغَالِيَةٍ
 مَخْضُوبَةُ السَّاقِ وَالْكَفَّيْنِ بِالْعَنَمِ
 كَأَنَّمَا شَرَعَتْ فِي قَالِيٍّ سَرِبَ
 مِنْ أَدْمُعِي قَعْدَتٌ مُحْمَرَّةُ الْقَدَمِ
 وَسَجَفَ الْعَنْكَبُوتُ الْعَارَ مُخْتَفِيًا
 بِخَيْمَةٍ حَاكَهَا مِنْ أَبْدَعِ الْخَيْمِ
 قَدْ شَدَّ أَطْرَافَهَا فَاسْتَحْكَمَتْ وَرَسَتْ
 بِالْأَرْضِ لِكِنَّهَا قَامَتْ بَلَا دَعَمِ
 كَأَنَّهُمَا سَابِرِي حَاكِهِ لَبِقُ
 بِأَرْضِ سَابُورٍ فِي بُخْبُوحَةِ الْعَجَمِ
 وَارَتْ فَمَ الْعَارِ عَنْ عَيْنٍ تِلْمٌ بِهِ
 فَصَارَ يَحْكِي خَفَاءَ وَجْهٍ مُلْتَثِمِ
 فَيَا لَهُ مِنْ سِتَارِ دُونِهِ قَمَرٌ
 يَجْلُو الْبَصَائِرَ مِنْ ظُلْمٍ وَمِنْ ظُلْمِ

(١) من جلد.

فَظَلَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ مُعْتَكِفًا
كَالدُّرِّ فِي الْبَحْرِ أَوْ كَالشَّمْسِ فِي النَّسَمِ
حَتَّى إِذَا سَكَنَ الْإِزْجَافُ وَآخَرَقَتْ
أَكْبَادُ قَوْمِ بِنَارِ الْبَأْسِ وَالْوَغَمِ
أَوْحَى الرَّسُولُ بِإِعْدَادِ الرَّحِيلِ إِلَى
مَنْ عِنْدَهُ السَّرُّ مِنْ نَجْلٍ وَمِنْ حَشَمِ
وَسَارَ بَعْدَ ثَلَاثٍ مِنْ مَبَآئِطِهِ
يَوْمُ طَيِّبَةِ مَأْوَى كُلِّ مُعْتَصِمِ

وفي هذه القطعة انتقل البارودي من سرد القصة النبوية إلى الإفاضة في وصف الحمامتين والعنكبوت، فتحدث عن بناء العُشِّ والغرض من سُكنَاهُ، وتكلم عن حراسة الحمامتين، ورعايتهما للمسالك البعيدة، وهجرهما النوم، وتغنيهما باسم الهديل، وذكر كيف كانت الحمامة مخضوبة الساق والكفين، وكيف كانت مَرْقُومَة الجيد، وكيف كانت محمّرة القدم كأنما شرعت في دموعه الحمراء، وتكلم عن الخيمة التي شد أطناها العنكبوت ووصفها بجودة النسج حتى ليحسبها الراي حلة سابرية، إلى آخر ما قال.

وهذا كله خروج عن الموضوع، واستسلام إلى الخيال، وكذلك كان يفعل الأقدمون.

النظم في قصيدة البارودي

وتمتاز قصيدة البارودي بالترتيب، لأنه سائر الحوادث وفقاً لما قصه ابن هشام، ولا كذلك شوقي والبوصيري، فقد أطاعا الخواطر الطارئة، وقدّما بعض الحوادث على بعض، وتكلما عن النبي ﷺ وعن معجزاته مثلاً قبل أن يذكر الميلاذ. ولكن مزية الترتيب التي انفرد بها البارودي كانت باباً لفقد الشعر في أكثر القصيدة، فأصبحت بذلك « منظومة » كتلك المنظومات التي تعرف بالمتون، وإلى القارئ أنموذجاً يرى به غلبة النظم في ميمية البارودي إذ قال:

وَأَمَّ طَيْبَةَ مَسْرُوراً بِعَوْدَتِهِ
ثُمَّ اسْتَهْلَتْ وَفُودَ النَّاسِ قَاطِبَةً
فَكَانَ عَامَ وَفُودٍ كُلَّمَا أَنْصَرَفَتْ
وَأُرْسِلَ الرُّسُلُ تَتْرَى لِلْمُلُوكِ بِمَا
وَأَمَّ غَالِبَ أَكْنَافِ الْكَدْبِ إِلَى
وَحِينَ خَانَتْ جُذَامَ فَلَّ شَوْكَتَهَا
وَسَارَ مُنْتَجِياً وَادِي الْقُرَى فَمَحَا
وَأَمَّ خَيْرَ عَبْدِ اللَّهِ فِي نَفْسٍ
وَيَمَّمْ أَبْنُ أَنْسِرٍ عَرْضَ نَخْلَةٍ إِذْ
ثُمَّ اسْتَقْلَّ أَبْنُ حَصْنٍ فَاحْتَوَتْ يَدُهُ
وَسَارَ عَمُرُو إِلَى ذَاتِ السَّلَاسِلِ فِي
وَعَزَّوْتَانِ لِعَبْدِ اللَّهِ وَاجِدَةً

وهذا الأسلوب ظاهر غالب في هذه القصيدة، وقد يصل أحياناً إلى الغموض، ولا ترجع الساعرية إلى البارودي إلا حين يذكر نفسه وبلواه، وانظر كيف يقول، وهو يتحدث عن رجائه في نصرة النبي له يوم المعاد :

إِنِّي وَإِنْ مَالِ بِي دَهْرِي وَبَرَّحَ بِي
لَثَابَتِ الْعَهْدِ لَمْ يَحْلُلْ قُوَى أَمْلِي
لَمْ يَتْرُكْ الدَّهْرُ لِي مَا أُسْتَعِينُ بِهِ
هَذَا يُحِبُّ مَذْحِي فِي الرُّسُولِ وَذَا
صَبَّحْتُ أَشَاطَ عَلَى جَمْرِ النَّوَى أَدْمِي
يَأْسٌ وَلَمْ تَخْطُ بِي فِي سَلْوَةٍ قَدَمِي
عَلَى التَّجْمُلِ إِلَّا سَاعِدِي وَفِي
يَتْلُو عَلَى النَّاسِ مَا أُزْجِيهِ مِنْ كَلِمِي

وفي هذه الأبيات الأربعة لونان من التعبير، أولهما مملوء بالحرارة لأنه يمثل أمية دفنتها الحوادث في صدر الشاعر، وثانيهما فيه ضعف وفتور لأنه عاد إلى القصص من جديد، ولعل أغرب ما وقع له من « النظم » اعتذاره عن افتتاح قصيدته بالنسيب إذ قال في تقديمها للرسول :

فَهَاكُنَّهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ زَاهِرَةً
وَسَمَّيْتُهَا بِاسْمِكَ الْعَالِي فَالْبَسَهَا
غَرِيبَةً فِي إِسَارِ الْبَيْنِ لَوْ أُنْسَتْ
تُهْدِي إِلَى النَّفْسِ رِيًّا الْآسِ وَالْبَرَمِ
تُوباً مِنَ الْفَخْرِ لَا يَيْلَى عَلَى الْقَدَمِ
بَنْظَرَةٍ مِنْكَ لَا سَتَعْنَتْ عَنِ النَّسَمِ

لَمْ أَتَزِمَ نَظْمَ حَبَاتِ الْبَدِيعِ بِهَا
وَأِنَّمَا هِيَ آيَاتُ رَجَوْتُ بِهَا
نَثَرْتُ فِيهَا فَرِيدَ الْمَدْحِ فَانْتِظَمَتْ
صَدْرُتُهَا بِنَسِيبِ شَفِّ بَاطِنُهُ
لَمْ أَتَّخِذْهُ جُزَافاً بَلْ سَلَكْتُ بِهِ
تَابَعْتُ كَعْباً وَحَسَاناً وَلِي بِهِمَا
وَالشُّعْرُ مَعْرُضُ الْبَابِ يَرُوجُ بِهِ
فَلَا يَلْمِنِي عَلَى التَّشْيِيبِ ذُو عَنَتٍ
ويمكن بعد هذا البيان أن نقرر أن قصيدة البارودي يغلب فيها النظم عند سرد
الحوادث، ويغلب فيها الشعر عند الوصف، وعند مناجاة الوجدان.

سَمِّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ

وقد اشترك الشعراء الثلاثة البوصيري والبارودي وشوقي في التسمي باسم النبي
عليه الصلاة والسلام، وكلهم يرجو أن ينجو بفضل التسمي باسمه فنجد
البوصيري يقول :

إِنْ آتَ ذَنْباً فَمَا عَهْدِي بِمُتَّقِصٍ
فَإِنْ لِي ذِمَّةٌ مِنْهُ بِتَسْمِيَّتِي
ونجد شوقي يقول :

يَا أَحْمَدَ الْخَيْرِ لِي جَاهٌ بِتَسْمِيَّتِي
ونجد البارودي يقول :

خَدَمْتُهُ بِمَدِيحِي فَأَعْتَلَيْتُ عَلَى
وَكَيْفَ أَرْهَبُ ضَيْمًا بَعْدَ خِدْمَتِهِ
أَمْ كَيْفَ يَخْذُلُنِي مَنْ بَعْدَ تَسْمِيَّتِي
هَامِ السَّمَاءِ وَصَارَ السَّعْدُ مِنْ خَدَمِي
وَخَادِمُ السَّادَةِ الْأَجْوَادِ لَمْ يُضْمِ
بِأَسْمٍ لَهُ فِي سَمَاءِ الْعَرْشِ مُحْتَرَمِ

والبوصيري هو صاحب الفكرة، وقد تبعه البارودي، ولحقهما شوقي، وتلك
مسألة فيها نظر كما يقولون !

البحث الثاني والعشرون

التخلص والافتضاب

التخلص هو انتقال الشاعر من فن إلى فن بمناسبة ظاهرة، ويقابله الافتضاب، ويكثر التخلص في شعر المحدثين، كما يكثر الافتضاب في شعر القدماء. قال ابن رشيق : وأولى الشعر بأن يسمى تخلصاً ما تخلص فيه الشاعر من معنى، ثم رجع إلى ما كان فيه، كقول النابغة الذبياني في آخر قصيدة اعتذر بها إلى النعمان بن المنذر :

وَكَفَّكَتْ مِنِّي عَبْرَةً فَرَدَدْتُهَا إِلَى النَّحْرِ مِنْهَا مُسْتَهْلٌ وَدَامِعٌ
عَلَى حِينٍ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصَّبَا وَقُلْتُ أَلَمَّا أَصَحُّ وَالشَّيْبُ وَارِعٌ

ثم تخلص إلى الاعتذار فقال :

وَلَكِنْ هَمًّا دُونَ ذَلِكَ شَاغِلٌ مَكَانَ الشَّغَافِ تَبْتَغِيهِ الْأَصَابِعُ^(١)
وَعِيدُ أَبِي قَابُوسَ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ أَتَانِي وَدُونِي رَاكِسٌ فَالضَّوَاجِعُ

ثم وصف حاله عندما سمع ذلك فقال :

فَبِتُّ كَأَنِّي سَاوَرْتَنِي صَبِيلَةٌ مِنَ الرُّقْشِ فِي أُنْيَاهَا السُّمُّ نَاقِعٌ

(١) الشغاف : هو علاف القلب وهو حلدة دونه كاللحجاب.

يُسَهِّدُ فِي لَيْلِ التَّامِ سَلِيمُهَا^(١) نُطَلِّقُهُ طَوْرًا وَطَوْرًا تُرَاجِعُ
فوصف الحية والسلم الذي شبه به نفسه ما شاء، ثم تخلص إلى الاعتذار الذي
كان فيه فقال :
أَتَانِي - أُبَيَّتِ اللَّعْنُ^(٢) - أَنَّكَ لُمْتَنِي وَتِلْكَ الَّتِي نَسْتَكُ مِنْهَا الْمَسَامُحُ
ثم اطرَّد ما شاء من تخلص إلى تخلص حتى انقضت القصيدة...

وقد يقع من هذا النوع شيء بعترض في وسط النسيب من مدح من
يريد الشاعر مدحه بتلك القصيدة، ثم يعود بعد ذلك إلى ما كان فيه من
النسيب، ثم يرجع إلى المدح، كما فعل أبو تمام، وإن أتى بمدحه الذي فيه
منقطعا، وذلك قوله في وسط النسيب من قصيدة له مشهورة :
ظَلَمْتُكَ ظَالِمَةُ الْبَرِيِّ ظُلُومٌ وَالظُّلُمُ مِنْ ذِي قُدْرَةٍ مَذْمُومٌ
زَعَمْتَ هَوَاكَ عَفَا الْغَدَاةَ كَمَا عَفَتْ مِنْهَا طُلُوعُ بِاللَّوَى وَرُشُومٌ
لَا وَالَّذِي هُوَ عَالِمٌ أَنَّ التَّوَى أَجَلٌ وَأَنَّ أَبَا الْحُسَيْنِ كَرِيمٌ
مَا زِلْتُ عَنْ سَنَنِ الْوُدَادِ وَلَا غَدْتُ نَفْسِي عَلَى إِلْفِ سِوَاكَ تَحُومٌ
ثم قال ذلك :

لِمُحَمَّدِ بْنِ الْهَيْثَمِ بْنِ شَبَابَةَ مَجْدًا إِلَى جَنْبِ السَّمَاءِ مُقِيمٌ

ويسمى هذا النوع الإلمام، وكانت العرب لا تذهب هذا المذهب في الخروج
إلى المدح، بل يقولون عند فراغهم من نعت الأبل وذكر الفقار وما هم بسبيله :
دع ذا، وعدّ عن ذا، ويأخذون فيما يريدون، أو يأتون بإنّ المشددة ابتداء للكلام
الذي يقصدونه، فإذا لم يكن خروج الشاعر إلى المدح منصلا بما قبله، ولا منفصلا
بقوله : (دع ذا)، و (عدّ عن ذا) ونحو ذلك سمي طفرأ وانقطاعا،
وكان البحرني كثيرا ما يأتي به نحو قوله :

(١) السليم هو الملدوغ، سمي بذلك تفاقلا بسلامته. كما قبل في الصحراء مفارة.
(٢) تحه جاهلية عاشت حباً ثم ماتت، وكانت في الأعلى مما خاطب به الملوك، ولو حاطت
بها اليوم واحداً من ملوك عصرك لاتهموك بعله الذوق.

لَوْلَا الرَّجَاءُ لَمُتُ مِنَ الْهَوَىٰ لَكِنَّ قَلْبِي بِالرَّجَاءِ مُوَكَّلٌ
إِنِ الرَّعِيَّةَ لَمْ تَزَلْ فِي سِيرَةٍ عُمَرِيَّةٍ مُذْ سَاسَهَا الْمُتَوَكِّلُ
فلننظر بعد ذلك ما اختاره شعراؤنا الثلاثة من التخلص والاقتضاب.

أما البوصيري فقد آثر التخلص إذ قال في محاوراة العذول :
إِنِّي اتَّهَمْتُ نَصِيحَ الشَّيْبِ فِي عَذَلٍ
وَالشَّيْبُ أَبْعَدُ فِي نُصْحٍ عَنِ التُّهْمِ
فَإِنَّ أَمَارَتِي بِالسُّوءِ مَا اتَّعَظْتُ
مِنْ جَهْلِهَا بِتَذِيرِ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ
وَلَا أُعَدَّتْ مِنَ الْفِعْلِ الْجَمِيلِ قَرَى
ضَيْفِ الْمَمْرِ بِرَأْسِي غَيْرَ مُحْتَشِمِ
لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنِّي مَا أُوقِرُهُ
كَتَمْتُ سِرًّا بَدَا لِي مِنْهُ بِالْكَتَمِ
مَنْ لِي بِرَدِّ جِمَاحٍ مِنْ غَوَايَتِهَا
كَمَا يُرَدُّ جِمَاحُ الْحَيْلِ بِاللُّجَمِ
فَلَا تُرْمِ بِالْمَعَاصِي كَسَرَ شَهْوَتِهَا
إِنَّ الطَّعَامَ يُقْوِي شَهْوَةَ الْهِمِ
وَالنَّفْسُ كَالطُّفْلِ إِنْ تُهْمِلَهُ شَبَّ عَلَى
حُبِّ الرِّضَاعِ وَإِنْ تَفْطِمَهُ يَنْفَطِمِ
فَاصْرِفْ هَوَاهَا وَخَازِرْ أَنْ تُؤَلِّيَهُ
إِنَّ الْهَوَىٰ مَا تَوَلَّى يُضْمِرُ أَوْ يَصْمِرُ
وَرَاعِيهَا وَهِيَ فِي الْأَعْمَالِ سَائِمَةٌ
وَإِنْ هِيَ اسْتَحَلَّتِ الْمَرْعَى فَلَا تَسْمِرُ
كَمْ حَسَنْتَ لَذَّةَ لِلْمَرْءِ قَاتِلَةً
مِنْ حَيْثُ لَمْ يَدْرِ أَنَّ السُّمَّ فِي الدَّسَمِ
وَأَخْسَ الدَّسَائِسَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شَبَعٍ
فَرُبُّ مَخْمَصَةٍ شَرُّ مِنَ التَّحَمِ

وَأَسْتَغْفِرُكَ أَلَدَّمَعِ مِنْ عَيْنٍ قَدِ أَمْتَلَأَتْ
 مِنَ الْمَحَارِمِ وَالزَّمِ جَمِيعَةَ النَّدَمِ
 وَخَالِفِ النَّفْسَ وَالشَّيْطَانَ وَاعْصِهِمَا
 وَإِنْ هُمَا مَحْضَاكَ النَّصْحَ فَاتَّهِمِ
 وَلَا تُطِيعْ مِنْهُمَا خَصْماً وَلَا حَكْماً
 فَإِنَّتِ تَعْرِفُ كَيْدَ الْخَصْمِ وَالْحَكَمِ
 أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ قَوْلٍ بِلا عَمَلٍ
 لَقَدْ نَسَبْتُ بِهِ نَسْلاً لِيَذِي عُقْمِ
 أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ لَكِنْ مَا اتَّعَمَرْتُ بِهِ
 وَمَا اسْتَقَمْتُ فَمَا قَوْلِي لَكَ اسْتَقِمِ
 وَلَا تَزُودْتُ قَبْلَ الْمَوْتِ نَافِلَةً
 وَلَمْ أَصِلْ سِوَى فَرَضٍ وَلَمْ أَصْمِ
 ظَلَمْتُ سُنَّةَ مَنْ أَحْيَا الظُّلَامَ إِلَيَّ
 أَنْ اِشْتَكْتُ قَدَمَاهُ الضُّرَّ مِنْ وَرَمِ

وهذا النوع من التخلص غير مقبول، إذ لاحظنا أنه تخلّص من النسيب إلى المدح، أما إذا لاحظنا أنه تخلّص من النسيب إلى حساب النفس، ثم إلى مدح الرسول فانا نغفر له هذه الإطالة، لأنها في غرض من أغراضه الأساسية، وهو الدعوة إلى تهذيب النفس، وتطهير الوجدان.

ومن الخير أن نذكر أن البوصيري لا يفعل ذلك في جميع قصائده، فقد رأيناها يواجه الغرض بلا مقدمة في همزيته فيقول :

كَيْفَ تَرَقَى رُقْيَاكَ الْأَنْبِيَاءُ يَا سَمَاءَ مَا طَاوَلَتْهَا سَمَاءُ
 لَمْ يَسْأُوكَ فِي عِلَاكَ وَقَدْ حَا لَ سَنَاءَ مِنْكَ دُونَهُمْ وَسَنَاءُ
 إِنَّمَا مَثَّلُوا صِفَاتِكَ لِلنَّاسِ كَمَا مَثَّلَ التُّجُومَ الْمَاءُ

وكأنما جراه شوقي في افتتاح همزيته فقال :
 وَلَيْدَ الْهُدَى فَالْكَائِنَاتُ ضِيَاءُ وَفَمُ الزَّمَانِ تَبَسُّمٌ وَثَنَاءُ

الرُّوحُ وَالْمَلَأُ الْمَلَائِكُ حَوْلُهُ لِلدِّينِ وَالْدُّنْيَا بِهِ بُشْرَاءُ
وَالْعَرْشُ يَزُوهُ وَالْحَظِيرَةُ تَزْدَهِي وَالْمُنْتَهَى وَالسَّدْرَةُ الْعَصْمَاءُ

ولكن أين ابتداء شوقي من ابتداء البوصيري ؟ إن الفرق لبعيد ! وإن كان في
تعبير البوصيري شيء من الجفاء، في حَقِّ الأنبياء.

وأعود فأذكر أنني أستمح قول البوصيري في رياضة النفس :
وَأَخْشَ الدَّسَائِسَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شَبَعٍ
فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرٌّ مِنْ التُّخَمِ

وجمال هذا البيت يرجع إلى ما فيه من صدق الدعوة : فإن النفس يضر بها
الزهد، كما يطغيها الترف، كالجسم ترديه المسغبة، كما تضربه البطنة.

وأستجيد كذلك قوله :
أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ لَكِنْ مَا أَتَمَمْتَ بِهِ وَمَا أَتَقَمْتُ فَمَا قَوْلِي لَكَ أَتَقِمِ
وحسن هذا البيت يرجع إلى سماحة الشاعر ورفقه، وخلوص دعوته من شوائب
الصلف والكبرياء، وهذا أدب يحتاج إلى مثله أطباء النفوس.

وقد آثر البارودي أيضاً حسن التخلص إذ قال :
لَيْتَ الْقَطَا حِينَ سَارَتْ غُدْوَةً حَمَلَتْ عَنِّي رَسَائِلَ أَشْوَاقِي إِلَى إِصْمِ
مَرَّتْ عَلَيْنَا حِمَاصاً وَهِيَ قَارِبَةٌ مَرَّ الْعَوَاصِفِ لَا تَلْوِي عَلَى إِرَمِ
لَا تُدْرِكُ الْعَيْنُ مِنْهَا حِينَ تَلْمَحُهَا إِلَّا مِثَالاً كَلْمَجِ الْبَرْقِ فِي الظُّلَمِ
كَأَنَّهَا أَحْرُفٌ بَرَقَتْ نَبَضَتْ بِالسُّلُكِ فَانْتَشَرَتْ فِي السَّهْلِ وَالْعَلَمِ
لَا شَيْءَ يَسْبِقُهَا إِلَّا إِذَا اعْتَقَلَتْ بَنَاتِي فِي مَدِيحِ الْمُصْطَفَى قَلَمِي

وهذا التخلص مستمح مقبول، ومُضِيّ الشاعر في وصف القطاة إيثاراً للأسلوب
القديم الذي نوهنا به في الكلمة الماضية، ونريد أن نقرر أن هذا الأسلوب جزء
من الفن الشعري عند الجاهليين والمخضرمين، ومن سائرهم من المحدثين، وبيان ذلك
أن الشاعر يرى من الفن أن يصف ما يعرض له وصفاً يحيله صورة شعرية تكاد
تستقل عما تتصل به نوعاً من الاستقلال، وتكون لهذا الوصف قيمة أيّ قيمة

حين يراد به تأكيد معنى من المعاني المقصودة. ومن أمثلة ذلك قول أبي صعتره
البولاني :

فَمَا نُطْفَةُ مِنْ حَبِّ مُزٍ تَقَاذَفَتْ بِهِ جَنَّبَتَا الْجُودِيَّ وَاللَّبْلُ دَامِسُ^(١)
فَلَمَّا أَقَرَّتْهُ اللَّصَابُ نَنَفَسَتْ شَمَالٌ بِأَعْلَى مَائِهِ فَهُوَ فَارِسُ^(٢)
بِأَطْيَبِ مِنْ فِيهَا وَمَا ذُفْتُ طَعْمُهُ وَلَكِنِّي فِيهَا تَرَى الْعَيْنُ فَارِسُ

فإن للشاعر من المبالغة في وصف ماء المزن غرضاً خاصاً هو الاشارة بعدوبة
ذلك الثغر الشهي المذاق، ويمثل هذا قول عاتكة المريّة وكانت كما قال صاحب
زهر الآداب عشقت ابن عم لها فراودها عن نفسها :

وَمَا طَعْمُ مَاءٍ أَيْ مَاءٍ تَقُولُهُ تَحَدَّرَ عَنْ غُرٍّ طَوَالِ الدَّوَائِبِ
بِمُنْعَرَجٍ مِنْ بَطْنِ وَادٍ تَقَابَلَتْ عَلَيْهِ رِيَّاحُ الصَّيْفِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
نَفْتُ جَرِيَةِ الْمَاءِ الْقَدَى عَنْ مُتُونِهِ فَمَا إِنَّ بِهِ عَيْبٌ تَرَاهُ لِشَارِبِ
بِأَطْيَبِ مِمَّنْ يَقْصِرُ الطَّرْفَ دُونَهُ تُقَى اللَّهُ وَأَسْتَحْبَاءُ بَعْضِ الْعَوَاقِبِ

فإن لها من وصف الماء في عذوبته وجمال موقعه وحاجة الأعراب إليه غرضاً
خاصاً هو الاشارة بجمال الحياء وطيب العفاف.

ويشبه هذين المثالين ما أنشده ابن دُرَيْدٍ :

وَمَا وَجَدُ أَغْرَابِيَّةٍ قَذَفَتْ بِهَا
صُرُوفُ النَّوَى مِنْ حَيْثُ لَمْ تَكُ ظَنَنْتِ
تَمَنْتِ أَحَالِيْبَ الرَّعَاءِ وَخَيْمَةَ

بَنَجْدٍ فَلَمْ يُقَدَّرْ لَهَا مَا تَمَنْتِ
إِذَا ذَكَرْتَ مَاءَ الْعِضَاءِ وَطِيْبِهِ

وَبَرَدَ الْحَصَى مِنْ نَحْوِ نَجْدٍ أَرَنْتِ
بِأَوْجَدَ مِنْ وَجْدٍ بَرِيًّا وَجَدْتُهُ

غَدَاةَ غَدُونَا غُدُوَّةً وَأَطْمَأَنَّتِ

(١) الحودي : الحبل.

(٢) اللصاب . التعب الصعير في الجبل.

فَإِنْ يَكُ هَذَا عَهْدَ رِيًّا وَأَهْلِيهَا
فَهَذَا الَّذِي كُنَّا ظَنَّنَا وَظَنَنْتِ
وأروع من هذا قول الأبيوردى^(١) :
وما أُمُّ سَاجِي الطَّرْفِ مَالٌ بِهِ الْكَرَى
عَلَى عَذَابَاتِ الْجِزَعِ تَحْسِبُهُ قُلْنَا
تُرَاعِي بِإِحْدَى مُقَلَّتَيْهَا كِنَاسَهَا
وَتَرْمِي بِأُخْرَى نَحْوَهُ نَظْرًا عَرْنَا
فَلَاخَ لَهَا مِنْ جَانِبِ الرَّمْلِ مَرْتَعٌ
كَأَنَّ الرِّيعَ الطَّلَقَ الْبَسَهُ عُصَا
فَمَالَتْ إِلَيْهِ وَالْحَرِيصُ إِذَا غَدَتْ
بِهِ سَوْرَةُ الْأَطْمَاعِ لَمْ يُحْمِدِ الْعُقْبَى
وَأَنَسَهَا الْمَرْعَى الْخَصِيبُ فَصَادَفَتْ
مَدَى الْعَيْنِ فِي أَرْجَائِهِ تَلْدًا حِصْبَا
فَلَمَّا قَضَتْ مِنْهُ اللَّبَانَةَ رَاجَعَتْ
طَلَاهَا فَالْفَتْهُ قَضَى بَعْدَهَا نَحْبَا
أُتِيحَ لَهُ عَارِي السَّوَاعِدِ لَمْ يَزَلْ
يَحُوضُ إِلَى أَوْطَارِهِ مَطْلَبًا صَعْبَا
فَوَلَّتْ عَلَى ذُعْرِ وَبِالنَّفْسِ مَا بِهَا
مَنْ الْكَرْبِ لَا لُقِيَتْ فِي حَادِثِ كَرْنَا
بِأَوْجَدَ مِنِّي يَوْمَ عَجَّتْ رِكَابُهَا
لِبَيْنٍ فَلَمْ تَشْرُكْ لِيذِي صَبْوَةٍ لُسَا
وكان يكفي أن يشبه الشاعر وجده بفراق محبوبته بلوعة الظبية يعتال رشأها
الذئب، ولكن هذه الصورة الشعرية التي وضعها للغزاة المروعة الملتاعة جعلت
المعنى أوقع في النفس، وأملك للقلب، وأروع للوجدان.

(١) تحد تفصيل هذه المعاني الوجدانية في كتاب « مدامع العشاق » عند الكلام عن « الطبيعة في
أنفس الشعراء ».

ولنتقل بعد ذلك إلى شوقي، وإنا لنراه صدف عن التخلص وآثر الاقتضاب، فانتقل فجأة من ذلك النسيب المونق المشرق إلى الحديث عما تضرع الدنيا من المبكيات، وما تُجنُّ من ظلمات الخطوب، وتدرج من هذا إلى الحديث عن غفلة النفس وفقرها إلى الأخلاق، وكذلك يقول :

يَا نَفْسُ دُنْيَاكَ تُخْفِي كُلَّ مُبْكِيَةٍ
فُضِّي بِتَقْوَاكَ فَاهَا كُلَّمَا ضَحِكْتَ
مَخْطُوبَةٌ مُنْذُ كَانَ النَّاسُ خَاطِبَةً
يَفْنَى الزَّمَانُ وَيَبْقَى مِنْ إِسَاءَتِهَا
لَا تَحْفِلِي بِجَنَاهَا أَوْ جَنَائِهَا
كَمْ نَائِمٍ لَا يَرَاهَا وَهِيَ سَاهِرَةٌ
طَوْرًا تَمُدُّكَ فِي نُعْمَى وَعَافِيَةٍ
كَمْ ضَلَلْتَنِي وَمَنْ تُحْجِبُ بَصِيرَتُهُ
يَا وَيْلَتَاهُ لِنَفْسِي رَاعَهَا وَذَهَا
رَكَضَتْهَا فِي مَرِيعِ الْمَعْصِيَاتِ وَمَا
هَامَتْ عَلَى أَثَرِ اللَّذَاتِ تَطْلُبُهَا
صَلَاحُ أَمْرِكَ لِلْأَخْلَاقِ مَرْجِعُهُ
وَالنَّفْسُ مِنْ خَيْرِهَا فِي خَيْرِ عَافِيَةٍ
تَطْعَى إِذَا مُكِّنَتْ مِنْ لَذَّةٍ وَهَوًى
إِنْ جَلَّ ذَنْبِي عَنِ الْغُفْرَانِ لِي أَمَلُ
أَلْقِي رَجَائِي إِذَا عَزَّ الْمُجِيرُ عَلَى
إِذَا خَفَضْتَ جَنَاحَ الذُّلِّ أَسْأَلُهُ
وَإِنْ تَقَدَّمَ ذُو تَقْوَى بِصَالِحَةٍ
لَزِمْتُ بَابَ أَمِيرِ الْأَنْبِيَاءِ وَمَنْ
وهذه قطعة مختارة، الجيد فيها أكثر وأجود مما يقابله في كلام البوصيري وإن قول شوقي :

لَا تَحْفِلِي بِجَنَاهَا أَوْ جَنَائِهَا الموتُ بِالزَّهْرِ مِثْلُ الموتِ بِالْفَحْمِ

لأشرف معنى وأسمى خيلاً من قول البوصيري :

وَأَخْشَى الدَّسَائِسِ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شَبَعٍ
فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرُّ مِنَ التَّخَمِ

ولك أن تلاحظ أن البوصيري وقف موقف الناصح الأمين، فلما وصل إلى نفسه ذكر أنه لم يُصلِّ ولم يُصُمْ سوى الفرض، وأنه يأسى على أن لم يتزوّد نافلاً قبل الموت، وأنه لذلك ظلم سُنة من أحيا الظلام حتى تورّمت قدماه، ومن هنا لم تكن الفرصة سانحة ليدرف ما ذرف شوقي من الدمع.

وأين شوقي من البوصيري ؟ لقد كان البوصيري من أئمة الصوفية، أما شوقي فقد كان حين نظم قصيدته من رجال البلاط، وكان بحسن أن يقول :

رَمَضَانُ وَلَّى هَاتِيهَا يَا سَاقِي مُشْتَاقَةً تَسْعَى إِلَى مُشْتَاقٍ
ومن هنا سُنحت له الفرصة لِيُزْفَرَ تلك الزفرة الحارّة، ويرمي بذلك الدم

الموجع الذي يذيب لفائف القلوب، وانظر كيف يقول :

إِنْ جَلَّ ذَنْبِي عَنْ الْغُفْرَانِ لِي أَمَلٌ فِي اللَّهِ يَجْعَلُنِي فِي خَيْرٍ مُعْتَصِمٍ

وكان شوقي أوفر الناس إحساساً بخطر ذنبه، وكرم ربه، حين قال :

وَإِنْ تَقَدَّمَ ذُو تَقْوَى بِصَالِحَةٍ قَدَمْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ عِبْرَةَ النَّدَمِ

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾

البحث الثالث والعشرون

المعجزات

لنا في المعجزات رأي خاص، لا يسمح به ظرف الزمان، لأن درس المعجزات بطريقة علمية يتطلب عرض ما يحيط بها من الحقائق والفروض، وقد يثير فتنة نحن عنها أغنياء^(١)، فلندكر فقط ما يتصل بما ذكره البوصيري، وشوقي، والبارودي من معجزات النبي عليه الصلاة والسلام، ولنذكر قبل ذلك أن القرآن يفيض بالتذمر من إلحاح المعاندين ولحاجتهم في طلب المعجزات، إذ كان النبي يدعو إلى تحكيم العقل، وكان أولئك الكفار يأبون إلا أن تكون الرسالة مصحوبة بالعباب بهلوانية، تنفر منها القلوب، وتأبأها العقول، وتنبو عنها الأذواق، ولننظر كيف يقول فيهم عزّ شأنه وتبارك اسمه في سورة الإسراء :

﴿ قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً. وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً. وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا

(١) ومع ذلك سمح الرسم وأندينا بعض الآراء بصراحة في كتاب « المدائح النبوية » حين حللنا برده البوصيري، وحين بعدنا فضه المولد السوي، وقد بدأ الناس بمهمون أن الاسلام في عسى بحماله الحق عن زخرف الأناطيل.

تَفْجِيرًا، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بِلَهُةٍ قَيْلًا،
أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تُنْزَلَ
عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٠﴾.

وهذه الآيات صريحة في أن النبي لا يملك لنفسه شيئاً؛ وأن الأمر كله لله،
وأن في القرآن هدىً وتبصرةً لقوم يعقلون، وأصرح من هذا قوله تعالى في سورة
العنكبوت :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ
مُبِينٌ. أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً
وَذِكْرًا لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

ومعنى هذه الآيات أن معجزة النبي الباقية هي القرآن، وفي تأييد ذلك يقول
البوصيري :

آيَاتُ حَقٍّ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثَةٌ قَدِيمَةٌ صِفَةُ الْمُوصُوفِ بِالْقَدَمِ
لَمْ تَقْتَرُنْ بِرَمَانٍ وَهِيَ تَخْبِيرُنَا عَنْ الْمَعَادِ وَعَنْ عَادٍ وَعَنْ إِرَمِ
دَامَتْ لَدَيْنَا ففَاقَتْ كُلَّ مُعْجِزَةٍ مِنَ النَّبِيِّينَ إِذْ جَاءَتْ وَلَمْ تَدْمِ

وتبعه شوقي فقال :

جَاءَ النَّبِيُّونَ بِالْآيَاتِ فَانْصَرَمَتْ وَجِئْنَا بِحَكِيمٍ غَيْرِ مُنْصَرِمِ
آيَاتُهُ كُلَّمَا طَالَ الْمَدَى جُدُّ يَزِينُهُنَّ جَلَالُ الْعِثْقِ وَالْقَدَمِ
يَكَاذُ فِي لَفْظَةٍ مِنْهُ مُشْرِفَةٌ يُوصِيكَ بِالْحَقِّ وَالتَّقْوَى وَبِالرَّحِمِ

ويمكن بعد هذا أن نقرر أن شعراءنا الثلاثة لم يهتموا بنقد الأخبار الواردة
في المعجزات، وإن كان شوقي على شيء من الحرص، يليه البوصيري، أما البارودي
فقد نظم كل ما صادفه من هذا القبيل، وقد اشترك البوصيري والبارودي في
الحديث عن سجود الأشجار، وسعيها إلى الرسول، فقال البوصيري :

جَاءَتْ لِذَعْوَتِهِ الْأَشْجَارُ سَاجِدَةً تَمْشِي إِلَيْهِ عَلَى سَاقٍ بِلا قَدَمِ
كَأَنَّمَا سَطَرَتْ سَطْرًا لَمَّا كَتَبَتْ قُرُوعُهَا مِنْ بَدِيعِ الْخَطِّ بِالْقَلَمِ

وقال البارودي :

أَتِلَّكَ أُمَّ حَيْنَ نَادَى سَرَحَةً فَآتَتْ
حَنَتْ عَلَيْهِ حُنُوَّ الْأُمِّ مِنْ شَفَقٍ
جَاءَتْهُ طَوْعاً وَعَادَتْ حَيْنَ قَالَ لَهَا
إِلَيْهِ مَنْشُورَةَ الْأَغْصَانِ كَالْحُمَمِ
وَرَفَرَفَتْ فَوْقَ ذَاكَ الْحُسْنِ مِنْ رَحِمِ
عُودِي وَلَوْ خُلِّيتُ لِلشُّوقِ لَمْ تَرَمِ

وانفرد البارودي بالحديث عن شق صدر النبي وهو غلام، فقال :
فَبَيْنَمَا هُوَ يَرْعَى الْبُهِمَ طَافَ بِهِ
فَأَضْجَعَاهُ وَشَقَّ صَدْرَهُ يَبْدِ
وَبَعْدَمَا قَضَى مِنْ قَلْبِهِ وَطَرًا
مَا عَالَجَا قَلْبَهُ إِلَّا لِيَخْلَصَ مِنْ
فِيَالَهَا نِعْمَةً لِلَّهِ خَصَّ بِهَا
شَقَّ الْمَلَائِكَةُ لَصَدْرِ النَّبِيِّ وَغَسَلَهُمْ إِيَّاهُ بِالسَّلْسِيلِ لَيْسَ مِنَ الْمَعْجَزَاتِ
لَأَنَّ الْمَعْجِزَةَ تَكُونُ لِلْإِقْنَاعِ، وَهُوَ لَمْ يَدْعُ إِلَى رَبِّهِ فِي طِفْلُوته حَتَّى يَكُونَ
لِلْإِقْنَاعِ مَجَالٌ، وَإِنَّمَا هُوَ نَوْعٌ مِنَ التَّطْهِيرِ لَمْ تَجْرِبْ بِهِ الْعَادَةُ وَلَمْ يَعْرِفْهُ
النَّاسُ، وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَقَدْ مَرَّ الْبَارُودِيُّ بِهَذِهِ الْأَسْطُورَةِ
مَرَّةً الطَّيْفِ، فَلَمْ يَعْرِضْ لَهَا بِنَقْدٍ وَلَمْ يَتَنَاوَلْهَا بِتَحْلِيلٍ، وَنَحْنُ نَكْتَفِي هُنَا
بَأَنْ نَقْرَرُ أَنَّهَا فِي حَاجَةٍ إِلَى تَحْقِيقٍ، ثُمَّ نَلْتَفِتُ إِلَى مَا فِيهَا مِنْ رَوْعَةٍ
الْخِيَالِ، فَقَدْ صَوَّرَ النَّبِيَّ فِيهَا صُورَةً رَائِعَةً، وَتَمَثَّلَ فِيهَا لَطْفُ اللَّهِ بِهِ، وَإِحْسَانُهُ
إِلَيْهِ، وَتَكْرِيمُهُ إِيَّاهُ، وَهِيَ صُورَةٌ شَعْرِيَّةٌ نَحْبُ أَنْ نَمْتَعَ بِهَا الْقَارِئُ، لَبْرَى
كَيْفَ ابْتَدَأَ الْقَصَصُ فِي سِيرَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ذكر محمد بن ظفر من حديث طويل أن النبي ﷺ قال :
« وَكُنْتُ مُسْتَرْضِعاً فِي بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ، فَبَيْنَمَا أَنَا ذَاتَ يَوْمٍ مُنْبَذٌ
مِنْ أَهْلِي فِي بَطْنِ وَادٍ مَعَ أَتْرَابٍ لِي مِنَ الصَّبِيَّانِ إِذَا أَنَا بِرَهْطٍ ثَلَاثَةٍ مَعَهُمْ
طَشْتُ بَرَهْرَةً مِنَ الذَّهَبِ مَلَانَ ثُلُجًا، فَأَخْذُونِي مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِي، وَانْطَلَقَ
أَصْحَابِي هَرَاباً حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى شَفِيرِ الْوَادِي، ثُمَّ أَقْبَلُوا عَلَى الرَّهْطِ وَقَالُوا :
مَا أَرَبُكُمُ مِنْ هَذَا الْغَلَامِ ؟ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنَّا، هَذَا ابْنُ سَبْدِ فَرِيشٍ، وَهُوَ مُسْتَرْضِعٌ

فينا، غلام يتيم ليس له أب فما يَرُدُّ عليكم قتله، ومادا تصيبون من ذلك ؟
 فإن كنتم لا بُد قاتليه فاختراروا منا أينما شئتم فليأتكم مكانه فاقتلوه ودعوا
 هذا الغلام فإنه يتيم، فلما رأى الصبيان أن القوم لا يحIRON جواباً انطلقوا
 مسرعين إلى الحيّ يُؤذنونهم وَيَسْنِصِرُخُونهم على القوم، قال : فعمد أحدهم
 فأضجعني إلى الأرض إضجاعاً رقيقاً ثم شق بطني ما بين مفرق صدري
 إلى عانتي، وأنا أنظر إليه، ولم أجد لذلك مَسّاً، ثم أخرج أحشاء بطبي
 فغسلها بذلك الثلج فأنعم غسلها، ثم أعادها إلى مكانها، ثم قام الثاني
 منهم فقال لصاحبه : تَنَحَّ عنه، فنحّاه عني، ثم أدخل يده في حوفي فأخرج
 قلبي وأنا أنظر إليه، فصدّعه ثم أخرج منه مُضْغَةً سوداء فرمى بها، ثم
 أمرّ يده يمينته منه، وكأنه يتناول شيئاً فإذا بخاتم من نور في يده يحار
 الناظرون إليه فختم به قلبي فامتلاً نوراً، وذلك نور النبوة والحكمة، ثم
 أعاده مكانه فوجدت برّد الخاتم في قلبي دهرأ، ثم قال الثالث : تَنَحَّ عنه،
 فنحّاه عني، فأمرّ يده على مفرق صدري إلى مُنتهى عانتي، فالتأم ذلك
 الشق بإذن الله تعالى، ثم أخذ بيدي فأنهضني من مكابي إنهاضاً لطيفاً، ثم
 قال للأول الذي شقّ بطني: زنه بعشرين من أمته فوزني فرجّحتهم، ثم
 قال : زنه بمائة من أمته فوزني فرجّحتهم، ثم قال : زنه بألف من أمته
 فوزني فرجّحتهم، ثم قال : دعه فوالله لو وزننه بأمنه لرجّحتهم. قال :
 ثم ضموني إلى صدورهم وقبلوا رأسي، وما بين عيني، ثم قالوا : لا تُرْع،
 فإنك لو تدري ما يُراد بك من الخير لقرّرت به عيناك. قال : فبينما نحن
 كذلك إذ أهبل الحيّ بحذافيرهم، فإذا ظئري أمام الحيّ تهتف بأعلى صوتها،
 وتقول واضعيفاه ! فانكبوا عليّ وضمّوني إلى صدورهم، وقبلوا رأسي، وما
 بين عيني — بعني الملائكة — وقالوا : حبذا أنت من وحيد ! وما أنت
 بوحيد، إن الله معك وملائكته والمؤمنين من أهل الأرض ! ثم قالت ظئري :
 وايتيماها ! ! استضعفت من بين أصحابك فقتلت لصعفك ! قال فانكبوا عليّ
 وضمّوني إلى صدورهم، وقبلوا رأسي وما بين عيني — يعني الملائكة —
 وقالوا : حبذا أنت من يتيم ! ما أكرمك على الله ! لو تعلم ما يراد بك

من الخير لَقَرْتُ به عيناك ! فوصل الحي إلى شفير الوادي فلما أبصرني
أُمي — وهي ظئري — قالت : لا أراك إلا حبا بعد ! فجاءت حتى انكبَّت
عليّ، ثم ضمتني إلى صدرها، فوالذي نفسي بيده إنني لفي حجرها قد
ضمتني إليها، وإن يدي لفي يد بعض الملائكة، وجعل القوم لا يروهم،
قال : فقال بعض القوم : إن هذا الغلام قد أصابه لَمَمٌ، أو طائفٌ من الجن
فانطلقوا به إلى كاهننا حتى ينظر إليه ويداويه، ففلت يا هذا ما بي سيء
مما تذكرون، إن آرابي لسليمة وفؤادي صحيح، ليست لي قَلْتة، فقال أبي
— وهو زوج ظئري — ألا ترون كلامه كلام فصيح ؟ إنني لأرجو أن
لا يكون يا بني بأس، فاتفقوا على أن يذهبوا بي إلى الكاهن، فلما انصرفوا
بي قصّوا عليه قصتي، فقال : اسكتوا حتى أسمع من الغلام، فإنه هو أعلم
بأمره منكم، فسألني فقصصت عليه القصة، وأمرني من أوله إلى آخره،
فوثب إليّ وضممني إلى صدره ثم نادى بأعلى صوته : يا للعرب ! اقلوا
هذا الغلام واقتلوني معه ! فواللات والعزى لئن تركتموه وأدرك ليئدْلن دبنكم،
وليسفهن عقولكم وعصول آبائكم، وليحالفن أمركم، وليأيننكم بدين لم تسمعوا
بمثله ! قال : فعمدت ظئري إليه فانترعنتني من حجره، وقالت : لأنت أغنه
وأجن ! ولو علمت أن هذا من قولك لما أتيتك به، فاطلب لنفسك من
يقتلك، فإننا غير قاتلي هذا الغلام ! ثم احتملوني وأدوني إلى أهلهم وأصبحت
مُفَزَّعاً مما فعلَ بي، وأصبح أثر الشق ما بين صدري إلى منهي عانني
كأنه الشراك^(١) .

وقد نقلنا هذا الحديث على طوله لتمكّن القارئ من نقده وتقييمه، ولنجعله على
بيبة من الحكم له أو عليه، إن شاء، أما نحن فترينا فيه عبارته، إذ كانت عبارة
ضعيفة لا تسمو إلى ما في صحيح الحديث من متانة التركيب وحلاوة التعبير،
ويرينا بنوع خاص مفتتح الحديث، فإن طريقة القصص التي سلكها قد بدل
على أنه موضوع، وذلك قوله : « روى شدداد بن أوس قال : بينا نحن حلوس

(١) راجع كتاب نحاء الأبناء.

البحث الرابع والعشرون

وصف القرآن

لم يُغنَ البارودي بوصف القرآن كما عُني به البوصيري وشوقي، أما البوصيري فقد قال:

دَعْنِي وَوَصْفِي آيَاتِ لَهُ ظَهَرَتْ ظُهُورَ نَارِ الْقَرَى لَيْلاً عَلَى عِلْمِ
فَالْدُرُّ يَزْدَادُ حُسْنًا وَهُوَ مُنْتَظِمٌ وَلَيْسَ يَنْقُصُ قَدْرًا غَيْرَ مُنْتَظِمِ
فَمَا تَطَاوُلُ آمَالِ الْمَدِيحِ إِلَى مَا فِيهِ مِنْ كَرَمِ الْأَخْلَاقِ وَالسَّيِّمِ

وأول هذه الأبيات فيه شيء من السداجة. وعارة « دعني ووصفي آيات له ظهرت » عبارة عامية. وقوله :

فَالْدُرُّ يَزْدَادُ حُسْنًا وَهُوَ مُنْتَظِمٌ وَلَيْسَ يَنْقُصُ قَدْرًا غَيْرَ مُنْتَظِمِ

غير واضح المدلول، لأن الدر الذي يتحدث عنه لا يصح أن يكون صفة القرآن، لأنه لا يهْمُ بنظم القرآن، ولا يصح أن يكون صفة لتقريظ القرآن، إذ لم تسبق ذلك إشارة ولم يتقدمه دليل، فلم يبق إلا أن تكون هذه خطرة عرضت للشاعر وعز عليه أن تضيع، فقيدها في ذلك البيت وهو في ذاته بيت جميل... أما قوله:

فَمَا تَطَاوُلُ آمَالِ الْمَدِيحِ إِلَى مَا فِيهِ مِنْ كَرَمِ الْأَخْلَاقِ وَالسَّيِّمِ
فهو بيت يُمدح به شخص، ولا يُقرَّظُ به كتاب، وقد كان الشاعر

عَمُوا وَصَمُوا فَأَعْلَانُ الْبَشَائِرِ لَمْ
مِنْ تَعْدِمَا أَخْبَرَ الْأَقْوَامَ كَاهِنُهُمْ
وَبَعْدَ مَا عَايَنُوا فِي الْأَفْقِ مِنْ شُهْبِ
حَتَّى غَدَا عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ مُنْهَزِمٍ

تُسَمِعُ وَبَارِقَةُ الْإِنْدَارِ لَمْ تُسَمِ
بِأَنَّ دِينَهُمُ الْمُعْوجَّ لَمْ يَقْمِ
مُنْقِصَةً وَفَقَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ صَنْمِ
مِنَ الشَّيَاطِينِ يَفْقُو إِتْرَ مُنْهَزِمِ

وقال في الهمزية :

وَتَدَاعَى إِيوَانُ كِسْرَى وَلَوْلَا
وَعَدَا كُلُّ بَيْتِ نَارٍ وَفِيهِ
وَعُيُونٌ لِلْفُرسِ غَارَتْ فَهَلْ كَا

آيَةٌ مِنْكَ مَا تَدَاعَى الْبِنَاءُ
كُرْبَةً مِنْ خُمُودِهَا وَبَلَاءُ
نَ لِنِيرَانِهِمْ بِهَا إِطْفَاءُ

ويقول شوقي في نهج البردة :

وَحَلَّ كِسْرَى وَإِيوَانًا بُدِّلُ بِهِ
هَوَى عَلَى أَثَرِ النَّيرانِ وَالْأُثْمِ

ويقول في الهمزية :

ذُعِرَتْ غُرُوشُ الظَّالِمِينَ فزُلْزِلَتْ
وَالنَّارُ خَاوِيَةٌ الْجَوَانِبِ حَوْلَهُمْ
وَالْآيُ تَتَرَى وَالْخَوَارِقُ جَمَّةٌ

وَعَلَتْ عَلَى تَيَاجِنِهِمْ أَصْدَاءُ
خَمَدَتْ دَوَائِبُهَا وَغَاضَ الْمَاءُ
جِرْبِلُ رَوَّاحٍ بِهَا غَدَاءُ

ويرى القارئ أن البوصيري أكثر من شوقي إشادةً بملك الخوارق، وشعره فيها يفيض بالحياة، أما شوقي فقد آثر الحيلة، وهو يتكلم عن هذه الموضوعات، فكان شعره فيها أضعف من شعره في سائر أغراض القصيدة، وسرى تحليله لفرضية الجهاد في الكلمة الآتية .

ويمكن بعد هذا أن نحكم بأن شعر البوصيري أروع من شعر شوقي في وصف الخوارق والمعجزات، وأن شوقي أبعد نظراً من البوصيري في نقد الأخبار والآثار، فإن انصداع الإيوان، وخمود نار الفرس، ونضوب بحيرة ساوة، وانفضاض الشهب على الأصنام : كل هذه الحوادث فيها نظر، وكلها في حاجة إلى تمحيص، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

البحث الرابع والعشرون

وصف القرآن

لم يُعَنَّ البارودي بوصف القرآن كما عُنيَ به البوصيري وشوقي، أما البوصيري فقد قال:

دَعْنِي وَوَصِّفِي آيَاتٍ لَهُ ظَهَرَتْ ظُهُورَ نَارِ الْقِرَى لَيْلاً عَلَى عِلْمِ
فَالْدُرُّ يَزْدَادُ حُسْنًا وَهُوَ مُنْتَظِمٌ وَلَيْسَ يَنْقُصُ قَدْرًا غَيْرَ مُنْتَظِمِ
فَمَا تَطَاوُلُ آمَالِ الْمَدِيحِ إِلَى مَا فِيهِ مِنْ كَرَمِ الْأَخْلَاقِ وَالشِّيمِ

وأول هذه الأبيات فيه شيء من السداجة. وعبرة « دعني ووصفي آيات له ظهرت » عبارة عامية. وقوله :

فَالْدُرُّ يَزْدَادُ حُسْنًا وَهُوَ مُنْتَظِمٌ وَلَيْسَ يَنْقُصُ قَدْرًا غَيْرَ مُنْتَظِمِ

غير واضح المدلول، لأن الدر الذي يتحدث عنه لا يصح أن يكون صفة القرآن، لأنه لا يهْمُ بنظم القرآن، ولا يصح أن يكون صفة لتقريظ القرآن، إذ لم تسبق ذلك إشارة ولم يتقدمه دليل، فلم يبق إلا أن تكون هذه خطرة عرضت للشاعر وعز عليه أن تضيع، فقيدها في ذلك البيت وهو في ذاته بيت جميل... أما قوله:

فَمَا نَطَاوُلُ آمَالِ الْمَدِيحِ إِلَى مَا فِيهِ مِنْ كَرَمِ الْأَخْلَاقِ وَالشِّيمِ
فهو بيت يُمدح به شخص، ولا يُقرَّطُ به كتاب، وقد كان الشاعر

يرمي إلى وصف القرآن بأنه دعوة إلى محاسن الشيم، ومكارم الأخلاق، ولكنه لم يوفق إلى حسن الأداء..

وقوله بعد ذلك :

آيَاتُ حَقٍّ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثَةٌ قَدِيمَةٌ صِفَةُ الْمُؤْصُوفِ بِالْقَدَمِ
لَمْ تَقْتَرِنْ بِزَمَانٍ وَهِيَ تُخْبِرُنَا عَنْ الْمَعَادِ وَعَنْ عَادٍ وَعَنْ إِرَمِ

فيه إشارة إلى ما اختلف فيه المتكلمون عن قدم القرآن وحديثه، وهي إشارة مبهمة لا تغني في دفع ولا تأييد، والبيت الثاني غير جيد المعنى، لأن إخبار القرآن عن عاد وعن إرم، ليس حجة إلا عند المسلمين، أما جمهور العالم فلا يصدق من أخبار العهود الأولى غير ما تشهد به الآثار، بعد أمن اللبس والتزوير...

أما قوله :

دَامَتْ لَدَيْنَا فَفَاقَتْ كُلَّ مُعْجَزَةٍ مِنَ النَّبِيِّينَ إِذْ جَاءَتْ وَلَمْ تَدُمْ

فهو بيت القصيد، إذ كان القرآن هو المعجزة الباقية، وكان هو المرجع حين يجتد الخلاف، وهو أيضاً المعجزة الصريحة التي يعتز بها العقل، ويصح للمسلمين أن يواجهوا بها العالم غير مترددين، أما نبع الماء من بين يدي الرسول، وتظليل الغمام إياه، وسجود الأشجار له، وما إلى ذلك من المعجزات، فهي مسائل يحتاج عرضها إلى مخاطرة، وهي مخشّية الضرر، قبل أن تكون مرّجوة النفع، ولكن أكثر الناس لا يفقهون.

وقوله :

مَا حُورِبَتْ قَطُّ إِلَّا عَادَ مِنْ حَرْبٍ أَعْدَى الْأَعَادِي إِلَيْهَا مُلْقِي السَّلَامِ
رَدَّتْ بِلَاغَتُهَا دَعَايَ مُعَارِضِهَا رَدَّ الْعُيُورِ يَدَ الْجَانِي عَنْ الْحَرَمِ

كلمة صدق، ويكفي أن تقرأ القرآن بحيدة ونزاهة لتلمس هذه الحقيقة، فالقرآن كتاب خطر رهيب، يحمل عدوه على الإيمان به، والخشوع لديه. ولو صَحَّتْ — لأصَحَّتْ — أراجيف المُلحدِين من أن القرآن من إنشاء محمد بن عبد الله لكان محمد هذا أعظم رجل شهد هذا الوجود.

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ.
بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا
الظَّالِمُونَ﴾.

وما أصدق قول البوصيري في آيات الكتاب العزيز :

لَهَا مَعَانٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ فِي مَدَدٍ وَفَوْقَ جَوْهَرِهِ فِي الْحُسْنِ وَالْفَيْمِ
فَمَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى عَجَائِبُهَا وَلَا تُسَامُ عَلَى الْإِكْثَارِ بِالسَّامِ
قَرَّبَ بِهَا عَيْنُ قَارِيهَا فَقُلْتُ لَهُ لَقَدْ ظَفِرَتْ بِحَبْلِ اللَّهِ فَأَعْيَصِمِ
إِنْ تَتْلُهَا خِيفَةً مِنْ حَرِّ نَارٍ لَظَى أَطْفَأَتْ نَارَ لَظَى مِنْ وَرْدِهَا الشَّبَمِ
لَا تَعْجَبَنَّ لِحُسُودِ رَاحٍ يُنْكِرُهَا نَجَاهُلاً وَهُوَ عَيْنُ الْحَاقِقِ الْفَهْمِ
قَدْ تُنْكِرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ وَيُنْكِرُ الْفَمُ طَعْمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمِ

وهذا البيت الأخير من فرائد الأمثال، وهو غاية في تقرير المكارب بن...

أما شوقي فقد قال :

جَاءَ النَّبِيُّونَ بِالْآيَاتِ فَانْصَرَمَتْ وَجِئْتَنَا بِحَكِيمٍ غَيْرِ مُنْصَرِمِ
آبَاتُهُ كُلَّمَا طَالَ الْمَدَى جُدُّ بَزَبْنُهُنَّ جَلَالُ الْعِثْقِ وَالْقَدَمِ
يَكَادُ فِي لَفْظَةٍ مِنْهُ مُشْرِفَةٌ يُوصِيكَ بِالْحَقِّ وَالتَّقْوَى وَبِالرَّحِمِ

وهذا الوصف على إيجازه جميل، وكنت أود ألا يكتفي شوقي في وصف القرآن

بهذه الأبيات...، وقد انتقل إلى الإشادة بحديث النبي فقال :

يَا أَفْصَحَ النَّاطِقِينَ الضَّادَ قَاطِبَةً حَدِيثُكَ الشَّهْدُ عِنْدَ الذَّائِقِ الْفَهْمِ
حَلَّيْتَ مِنْ عَطَلٍ جِيدَ الْبَيَانِ بِهِ فِي كُلِّ مُنْتَشِرٍ فِي حُسْنِ مُنْتَظَمِ
بِكُلِّ قَوْلٍ كَرِيمٍ أَنْتَ قَائِلُهُ تُحْيِي الْقُلُوبَ وَتُحْيِي مَيِّتَ الْهِمَمِ

وقول شوقي :

آيَاتُهُ كُلَّمَا طَالَ الْمَدَى جُدُّ يَزِينُهُنَّ جَلَالُ الْعِثْقِ وَالْقَدَمِ

أروع من قول البوصيري :

فَمَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى عَجَائِبُهَا وَلَا تُسَامُ عَلَى الْإِكْثَارِ بِالسَّامِ

وقول البوصيري :
إِنْ تَتْلُهَا خَيْفَةً مِنْ حَرِّ نَارٍ لَطَىْ أَطْفَاتٍ حَرٍّ لَطَىْ مِنْ وَرْدِهَا الشَّبَمِ
فيه طُبع، لأنه ينقل القرآن من الغرض الذي أنزل لأجله، وهو تهذيب النفوس،
وتثقيف العقول، إلى غرض ضئيل وهو اتخاذه ورداً من أوراد الصباح أو المساء،
كنا فعل المتأخرون.

وقوله :
حَلَيْتَ مِنْ عَطَلٍ جَيِّدَ الْبَيَانِ بِهِ فِي كُلِّ مُنْتَثِرٍ فِي حُسْنٍ مُنْتَظَمٍ
غير جيد المعنى، وهو لا يزيد عن قول بعض الناس « أما القرآن فهو زينة
البيان، وقلائد العقيان » وعيب هذا النوع من الوصف يرجع إلى ما فيه من
الشُمول، ووحودة الوصف لاتم إلا بتجديد الموصوف.

وصف الهيجاء

عُنِيَ العرب كثيراً بوصف الحرب، فأفاض شعراؤهم في الإشادة بذكر الغزاة،
والتمدح بآثار المجاهدين، وهذا كتاب (الحماسة) شاهدٌ عَدْلٌ على تلك النزعة
الحربية التي سيطرت على نفوس العرب زمناً غير قليل، فقد اختار أبو نمام قطعاً
قليلة في الحديث عن أدب النفس ومكارم الأخلاق، وفعل مثل ذلك في الفكاهات
والمُلح والنسيب، ثم ملأ كتابه بالحماسة والهجاء والمدح : وهي الفنون التي
ترجم النفس العربية، وتكشف عما فيها من مطويّ النوازع، ومكنون الميول،
وكذلك مُهَدَّت السبيل لشعرائنا الذين أرادوا التنويه بما خاض النبي من المعارك،
وما اقتحم من الحروب، وإن اختلفت مناحيم في وصف الهيجاء.

أما البوصيري فقد تحدث عن الحرب بطريقة مجملّة ولم يميز بعض الغزوات
عن بعض، وهو يتكلم عن أخبار القتال، فوصفه للحرب وصفٌ فَضْفَاضٌ يصلح
لبوساً لكل موصوف. وانظر كيف يقول :
رَاعَتْ قُلُوبَ الْعِدَا أَنْبَاءُ بَعْتِيهِ كَنْبَاءُ أَجْفَلَتْ غُفْلًا مِنْ الْغَنَمِ

مَا زَالَ يَلْقَاهُمُو فِي كُلِّ مُعْتَرَكٍ حَتَّى حَكَّوْا لَحْمًا عَلَى وَصْمٍ
 وَدُّوا الْفِرَارَ فَكَادُوا يَغْبِطُونَ بِهِ أَشْلَاءَ شَالَتْ مَعَ الْعِقْبَانِ وَالرَّحِمِ
 تَمْضِي اللَّيَالِي وَلَا يَذُرُونَ عِدَّتَهَا مَا لَمْ تَكُنْ مِنْ لَيَالِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ
 كَأَنَّمَا الدِّينُ ضَيْفٌ حَلَّ سَاحَتَهُمْ بِكُلِّ قَرْمٍ إِلَى لَحْمِ الْعِدَا قَرْمِ
 يَجْرُ بَحْرٌ خَمِيسٍ فَوْقَ سَابِحَةٍ يَرْمِي بِمَوْجٍ مِنَ الْأَبْطَالِ مُلْتَطِمِ
 مِنْ كُلِّ مُنْتَدِبٍ لِلَّهِ مُحْتَسِبِ يَسْطُو بِمُسْتَأْصِلٍ لِلْكَفْرِ مُصْطَلِمِ
 حَتَّى غَدَتْ مِلَّةُ الْإِسْلَامِ وَهِيَ بِهِمْ مِنْ بَعْدِ غُرَيْبَتِهَا مَوْصُولَةُ الرَّحِمِ
 وَإِنَّهُ لَيَحْسَنُ أَنْ نَسْجَلَ إِعْجَابَنَا بِقَوْلِهِ فِي وَصْفِ الْمَجَاهِدِينَ مِنْ أَصْحَابِ

الرسول :

هُمْ الْجِبَالُ فَسَلْ عَنْهُمْ مُصَادِمَهُمْ مَاذَا رَأَى مِنْهُمْ فِي كُلِّ مُصْطَدِمِ
 وَسَلْ حُنَيْنًا وَسَلْ بَدْرًا وَسَلْ أُحُدًا فَصُولُ حَتَفٍ لَهُمْ أَذْهَى مِنَ الْوَحَمِ
 الْمُصْدِرِي الْبَيْضِ حُمْرًا بَعْدَمَا وَرَدَتْ مِنْ الْعِدَا كُلِّ مُسَوِّدٍ مِنَ اللَّمَمِ
 وَالكَاتِبِينَ بِسُومِ الْخَطِّ مَا تَرَكَتْ أَقْلَامُهُمْ حَرْفَ جِسْمٍ غَيْرَ مُنْعَجِمِ
 شَاكِي السَّلَاحِ لَهُمْ سِيْمَا تُمَيِّزُهُمْ وَالْوَرْدُ يَمْتَارُ بِالسِّيْمَا مِنَ السَّلَمِ
 تُهْدِي إِلَيْكَ رِيَاخُ النَّصْرِ نَشْرَهُمُو فَتَحْسِبُ الزَّهْرَ فِي الْأَكْمَامِ كُلِّ كَمِي

وقد يُسْتَضَعَفُ قَوْلُهُ :

كَأَنَّهُمْ فِي ظُهُورِ الْحَيْلِ نَبَتْ رُبًّا مِنْ شِدَّةِ الْحَزْمِ لَا مِنْ شِدَّةِ الْحُزْمِ
 طَارَتْ قُلُوبُ الْعِدَا مِنْ بَأْسِهِمْ فَرَقًا فَمَا تُفَرِّقُ بَيْنَ الْبُهْمِ وَالْبُهْمِ

أما البارودي — جعل الله له لسان صدقٍ في الآخرين — فقد وصف الحرب وصفاً حياً صارخاً يبعث ميت العزم، وبتير مدفون الصيال، وما ظنك بجدي سفاح نشأ في أرض الفراعة الذين همُّوا ببناء الصروح السواخ ليلعوا أسباب السموات وليحاربوا المقتدر القهار، وإنه لضلal أجمل من الهدى، وعيٍّ أهدى من الرشاد !

ولننظر كيف يقول :

قَامَ النَّبِيُّ لِنَصْرِ الْحَقِّ مُعْتَزِماً
بِجَحْفَلٍ لِحُجُوعِ الشَّرْكِ مُحْتَرِماً
تَبْدُو بِهِ الْبَيْضُ وَالْقَسْطَالُ مُنْتَشِراً
كَالشُّهْبِ فِي اللَّيْلِ أَوْ كَالنَّارِ فِي الْقَحَمِ
لَمَعَ السُّيُوفُ وَتَضَهَّلَ الْخُيُولُ بِهِ
كَالْبَرْقِ وَالرَّغْدِ فِي مُغْدَوْدِقِ هَزَمِ
عَرَمَرَمَ بَسِيفُ الْأَرْضِ الْقَضَاءِ إِذَا
سَرَى بِهَا وَبَدُّكَ الْهُضْبَ مِنْ خَيْمِ
فِيهِ الْكُمَاةُ الَّتِي ذَلَّتْ لِعِزَّتِهَا
مَعَاطِسُ لَمْ نُذَلِّ قَبْلُ بِالْخُطَمِ
مِنْ كُلِّ مُعْتَزِمٍ بِالصَّبْرِ مُحْتَرِماً
لِلْقَرْنِ مُلْتَزِمٍ فِي الْبَاسِ مُهْتَزِمِ
طَالَتْ بِهِمْ هِمَمٌ نَالُوا السَّمَكَ بِهَا
عَنْ قُدْرِهِ وَعُلُوِّ النَّفْسِ بِالْهِمَمِ
بَيْضُ أَسَاوِرَةٍ غُلِبَ قَسَاوِرَةُ
شُكْسٌ لَدَى الْحَرْبِ مِطْعَامُونَ فِي الْأَزَمِ
طَابَتْ نَفُوسُهُمْ بِالْمَوْتِ إِذْ عَلِمُوا
أَنَّ الْحَيَاةَ الَّتِي يَتَّعُونَ فِي الْعَدَمِ
سَاسُوا الْجِيَادَ فَظَلَّتْ فِي أَعْيُنِهَا
طَوَعُ الْبَنَانَةِ فِي كَرٍّ وَمُقْتَحَمِ

تَكَادُ تَفْقَهُ لَحْنَ الْقَوْلِ مِنْ أَدَبٍ
وَتَسْبِقُ الْوَحْيَ وَالْإِيمَاءَ مِنْ فَهْمٍ
كَأَنَّ أَذْنَهَا فِي الْكَرِّ أَلْوِيَهُ
عَلَى سَفِينٍ لِأَمْرِ الرَّيْعِ مُرْتَسِمٍ
مِنْ كُلِّ مُتَجَرِّدٍ يَهْوِي بِصَاحِبِهِ
بَيْنَ الْعَجَاجِ هُوِيَّ الْأَجْدَلِ اللَّحْمِ
وَالْبَيْضُ تَرْجُفُ فِي الْأَعْمَادِ مِنْ ظَمَأٍ
وَالشُّمْرُ تَرْعُدُ فِي الْأَيْمَانِ مِنْ قَرَمٍ
مِنْ كُلِّ مُطَرِّدٍ لَوْلَا عَلَائِقُهُ
لَسَابَقَ الْمَوْتَ نَحْوَ الْقَرْنِ مِنْ ضَرَمٍ
كَأَنَّهُ أَرْقَمُ فِي رَأْسِهِ حُمَةً
يَسْتَلُّ كَيْدَ الْأَعَادِي بِابْنَةِ الرَّقَمِ
فَلَمْ يَزَلْ سَائِرًا حَتَّى أَنْفَ عَلَى
أَرْبَاضٍ مَكَّةَ بِالْفُرْسَانِ وَالْبُهَمِ
وَلَفَّهُمْ بِخَمِيسٍ لَوْ يُشَدُّ عَلَى
أَرْكَانِ رُضْوَى لِأَضْحَى مَائِلَ الدَّعَمِ
فَاقْبَلُوا يَسْأَلُونَ حِينَ رَأَوْا
أَنَّ اللَّجَاجَةَ مَدْعَاةٌ إِلَى النَّدَمِ
رِيعُوا فَذَلُّوا، وَلَوْ طَاشُوا لَوَقَّرَهُمْ
ضَرْبٌ بَفَرَّقُ مِنْهُمْ مَجْمَعُ اللَّمَمِ

وهذه صورة شعربة قليلة الأمثال، وإنك لتعجب حين نرى البارودي يفتن
في تصوير الحرب، وهو يتحدث عن الغزوات غزوةً، غزوةً وانظر كيف
يقول مثلاً في يوم بدر :
يَوْمَ تَبَسَّمَ فِيهِ الدُّبْنُ وَانْهَمَلَتْ
عَلَى الضَّلَالِ عُيُونُ الشُّرْكِ بِالسَّجَمِ

أَبْلَى عَلَيَّ بِهِ خَيْرَ الْبَلَاءِ بِمَا
حَبَاهُ ذُو الْعَرْشِ مِنْ بَأْسٍ وَمِنْ هِمَمٍ
وَجَالَ حَمَزَةً بِالصَّمْصَامِ يَكْسُوهُمْ
كَسَاً يَفْرِقُ مِنْهُمْ كُلَّ مُزْدَحَمٍ
وَعَادَرَ الصَّخْبُ وَالْأَنْصَارُ جَمْعُهُمْ
وَلَيْسَ فِيهِ كَمِيٍّ غَيْرُ مُتَهَرِّمٍ
تَقَسَّمَتْهُمْ يَدُ الْهَيْجَاءِ عَادِلَةً
فَالْهَامُ لِلْبَيْضِ وَالْأَبْدَانُ لِلرَّحِمِ
كَأَنَّمَا الْبَيْضُ بِالْأَيْدِي صَوَالِجَةٌ
يَلْعَبْنَ فِي سَاحَةِ الْهَيْجَاءِ بِالْقِمَمِ
لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ كَمِيٍّ غَيْرُ مُنْجَدِلٍ
عَلَى الرِّغَامِ وَعُضْوٌ غَيْرُ مُنْحَطِمٍ
فَمَا مَضَتْ سَاعَةٌ وَالْحَرْبُ مُسْعَرَةٌ
حَتَّى غَدَا جَمْعُهُمْ نَهْبًا لِمُقْتَسِمٍ
قَدْ أَمْطَرَتْهُمْ سَمَاءُ الْحَرْبِ صَائِبَةً
بِالْمُشْرِفَةِ وَالْمُرَّانِ كَالرُّجْمِ
فَأَيْنَ مَا كَانَ مِنْ زَهْوٍ وَمِنْ صَلَفٍ
وَأَيْنَ مَا كَانَ مِنْ فَخْرٍ وَمِنْ شَمِّ
جَاؤُوا وَلِلشَّرِّ وَسَمٌّ فِي مَعَاطِسِهِمْ
فَارْغَمُوا وَالرَّدَى فِي هَذِهِ السَّيِّمِ
مَنْ عَارَضَ الْحَقَّ لَمْ تَسْلَمْ مَقَاتِلُهُ
وَمَنْ تَعَرَّضَ لِلْأُخْطَارِ لَمْ يَنْمِ

أما شوقي فقد وصف النبي في الحرب وصفاً رقيقاً لا يلائم ما تقضي به
الحروب من غلبة الغضب وشمول العُبوس، ولننظر كيف يقول :
الْبَذْرُ دُونَكَ فِي حُسْنٍ وَفِي شَرَفٍ وَالْبَحْرُ دُونَكَ فِي خَيْرٍ وَفِي كَرَمٍ
سَمُّ الْجِبَالِ إِذَا طَاوَلَتْهَا أَنْخَفَضَتْ وَالْأَنْجُمُ الزُّهْرُ مَا وَاسَمَتْهَا تَسِيمُ

والليث دُونَكَ بِأَسْأَ عِنْدَ وَثِيَّتِهِ
تَهْفُو إِلَيْكَ وَإِنْ أَدْمَيْتَ حَبَّتْهَا
مَحَبَّةُ اللَّهِ الْقَاهَا وَهَيْئَتُهُ
كَأَنَّ وَجْهَكَ تَحْتَ التَّقَعِ بَذْرُ دُجَى
بَذْرُ تَطْلُعَ فِي بَذْرِ فَعُرَّتِهِ

وهذا شعر جميل، لكنه أَرَقُّ من أن يُوصَفَ به ذوو البأس وهم يقارعون الهول
في ميدان الجلال، ويعجبني قوله في وصف الغزاة :

مَهْمَا دُعِيَتْ إِلَى الْهَيْجَاءِ قُمْتَ لَهَا
عَلَى لَوَائِكَ مِنْهُمْ كُلُّ مُنْتَقِمٍ
مُسَبِّحٍ لِلِقَاءِ اللَّهِ مُضْطَرِمٍ
لَوْ صَادَفَ الدَّهْرَ يَنْغِي نَقْلَةً فَرَمَى
بِيضٌ مَفَالِيلُ مِنْ فِعْلِ الْحُرُوبِ بِهِمْ
كَمْ فِي التَّرَابِ إِذَا فَتَّشْتَ عَنْ رَجُلٍ
لَوْلا مَوَاهِبُ فِي بَعْضِ الْأَنَامِ لَمَّا

تَرَمِي بِأُسْدٍ وَيَرْمِي اللَّهُ بِالرُّجْمِ
لِلَّهِ مُسْتَقْتَلٍ فِي اللَّهِ مُعْتَزِمٍ
شَوْقًا عَلَى سَابِحِ كَالْبَرْقِ مُضْطَرِمٍ
يَعَزِّمُهُ فِي وَحَالِ الدَّهْرِ لَمْ يَرَمِ
مِنْ أَسِيفِ اللَّهِ لَا الْهِنْدِيَّةِ الْخُزْمِ
مَنْ مَاتَ بِالْعَهْدِ أَوْ مَنْ مَاتَ بِالْقَسَمِ
تَفَاوَتْ النَّاسُ فِي الْأَقْدَارِ وَالْقِيَمِ

حكمة الجهاد

لم يفصح البوصيري عن السر في مشروعية القتال، وأشار إليها البارودي إشارة
خفيفة حين قال :

ذَاقُوا الرَّدَى جُرْعًا فَاسْتَسَلَّمُوا جَزْعًا لِلصُّلْحِ وَالْحَرْبِ مَرَقَةً إِلَى السَّلَمِ
أما شوقي فقد أبان عن حكمة الجهاد، وأفصح عنها إفصاحاً يُرضي المنصف
ويكبح جهل الكنود، ولننظر كيف يقول :

قَالُوا غَزَوْتَ وَرُسُلُ اللَّهِ مَا بَعُثُوا
جَهْلٌ وَتَضْلِيلُ أَحْلَامٍ وَسَفْسَظَةٌ
لَمَّا أَتَى لَكَ عَفْوًا كُلُّ ذِي حَسَبٍ
وَالشَّرُّ إِنْ تَلَقَّه بِالْخَيْرِ ضِيقَتْ بِهِ

لِقَتْلِ نَفْسٍ وَلَا جَاؤُوا لِسَفْكِ دَمٍ
فَتَحَتِ بِالسَّيْفِ بَعْدَ الْفَتْحِ بِالْقَلَمِ
تَكَفَّلَ السَّيْفُ بِالْجُهَّالِ وَالْعَمَمِ
ذُرْعًا وَإِنْ تَلَقَّه بِالشَّرِّ يَنْحَسِمِ

وقد رأى لتأييد حجته أن يضرب المثل بالمسيحية، فقد كانت دين سلام وإخاء، ولكنها لم تقم إلا بالسيف، وفي هذا يقول :

سَلِ الْمَسِيحِيَّةَ الْعَرَاءَ كَمْ شَرِبْتَ بِالصَّابِ مِنْ شَهَوَاتِ الظَّالِمِ الْعَلِمِ
طَرِيدَةُ الشُّرْكِ يُؤْذِيهَا وَيُوسِعُهَا فِي كُلِّ حِينٍ قِتَالاً سَاطِعَ الْحَدَمِ
لَوْلا حُمَاةُ لَهَا هَبُّوا لِنَصْرَتِهَا بِالسَّيْفِ مَا انْتَفَعَتْ بِالرَّفَقِ وَالرَّحِمِ

ثم عاد إلى تأكيد فضيلة الجهاد، فقال :

عَلَّمْتُهُمْ كُلَّ شَيْءٍ يَحْهَلُونَ بِهِ حَتَّى الْقِتَالِ وَمَا فِيهِ مِنَ الدَّمِ
لَوْلَاهُ لَمْ نَرَ لِلدُّوَلِ فِي زَمَنِ مَا طَالَ مِنْ عُمْدٍ أَوْ قَرٍّ مِنْ دَعَمِ
تِلْكَ الشَّوَاهِدُ تَرَى كُلَّ آوِنَةٍ فِي الْأَعْصِرِ الْعُرْلَا فِي الْأَعْصِرِ الدُّهْمِ
بِالْأُمْسِ مَالَتْ عُرُوشٌ وَاعْتَلَتْ سُرُرٌ لَوْلَا الْقَذَائِفُ لَمْ تُثَلَّمْ وَلَمْ نُصَمِ

المدينة الاسلامية

وقد انفرد شوقي بالافصاح عن جلال المدينة الاسلامية، وتقديمها على مدينة المصريين واليونان والرومان، وفي ذلك يقول :

دَخَ عَنْكَ رُومًا وَآيِنًا وَمَا حَوَاتَا كُلُّ الْيَوَاقِيَتِ فِي بَعْدَادَ وَالتُّومِ
وَحُلَّ كِسْرَى وَإِيَوَانًا يُدِلُّ بِهِ هَوَى عَلَى أَثَرِ النَّيْرَانِ وَالْأُيُمِ
وَأَتْرَكَ رَعْمَسِيْسَ إِنْ الْمُلْكَ مَظْهَرُهُ فِي نَهْضَةِ الْعَدْلِ لَا فِي نَهْضَةِ الْهَرَمِ
دَارُ الشَّرَائِعِ رُومًا كُلَّمَا ذُكِرَتْ دَارُ السَّلَامِ لَهَا أَلْقَتْ يَدَ السَّلَمِ
مَا ضَارَعَتْهَا بَيَانًا عِنْدَ مُلْتَأَمٍ وَلَا حَكَّتْهَا قَضَاءٌ عِنْدَ مُخْتَصَمِ
وَلَا آخَتَوَتْ فِي طِرَارٍ مِنْ قِيَاصِرِهَا عَلَى رَشِيدٍ وَمَأْمُونٍ وَمُعْتَصِمِ
مِنَ الَّذِينَ إِذَا سَارَتْ كَتَائِبُهُمْ تَصَرَّفُوا بِحُدُودِ الْأَرْضِ وَالتُّخْمِ
وَيَجْلِسُونَ إِلَى عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ فَلَا بُدَّانُونَ فِي عَقْلِ وَلَا فَهْمِ
يُطَاطِئُ الْعُلَمَاءُ الْهَامَ إِنْ نَبَسُوا مِنْ هَيِّبَةِ الْعِلْمِ لَا مِنْ هَيِّبَةِ الْحُكْمِ

وقد مضى الشاعر في وصف خلفاء الاسلام، وما كان لهم من الأثر في حياة الدين. ولا يعجبني من ذلك كله غير قوله :

وَأَتْرُكْ رَعْمَيسَ إِنَّ الْمُلْكَ مَظْهَرُهُ فِي نَهْضَةِ الْعَدْلِ لَا فِي نَهْضَةِ الْهَرَمِ

فإنه من فرائد الأمتال... ولنسجل بعد هذه الموازنة المفصلة أن البوصيري سما
في المدائح النبوية سُموّاً لم يُوفَّق إلى معشاره في سائر شعره؛ وهذا أثرٌ لصدق
العاطفة، بخلاف صاحبيه، فان شعرهما في هذا الباب دون ما يعرف الناس لهما
من الشعر البليغ، وصدق سُوقي حين قال :

الْمَادِحُونَ وَأَرْبَابُ الْهَوَى تَبَعُ لِصَاحِبِ الْبُرْدَةِ الْفَيْحَاءِ ذِي الْقَدَمِ
مَدِيحُهُ فِيكَ، حُبٌّ خَالِصٌ وَهَوًى وَصَادِقُ الْحُبِّ يُمْلِي صَادِقَ الْكَلِمِ

البحث الخامس والعشرون

أبو نواس وابن دراج

ولنوازن بين قصيدتين لشاعرين كان أحدهما شاعر زمانه في المشرق وهو أبو نواس، وكان ثانيهما شاعر زمانه في المغرب وهو ابن دراج : « سابق حُلْبَة الشعراء العامرين، وخاتمة محاسن أهل الأندلس أجمعين » كما قال أبو حيان.

وكان الواجب أن نذكر شيئاً عن أبي نواس وعصره، ولكننا رأينا أن نحيل القارئ إلى ما كتبه في ذلك الدكتور طه حسين في حديث الأربعاء، ونكتفي بما ذكره جامع الديوان من أن أبا نواس لما قدم على الخصيب في مصر صادف في مجلسه جماعة من الشعراء ينشدونه مدائح فيه، فلما فرغوا قال الخصيب: ألا تنشدنا أبا علي؟ فقال: أنشدك أيها الأمير قصيدة هي بمنزلة عصا موسى تَلْقَف ما يَأْفَكُون ! قال : هات إذاً. فأنشده رائيته المشهورة :

أَجَارَةَ يَتَيْتِنَا أَبُولُكُ غَيُورُ وَمَيْسُورُ مَا يُرْجَى لَدَيْكَ عَسِيرُ

فاهتز لها الخصيب، وأمر له بجائزة سنية. وقد طار ذكر هذه القصيدة في جميع الأمصار، وعارضها كثير من الشعراء، منهم أحمد بن دراج القسطلبي الأندلسي — وسنيسط عنه القول — ومنهم حسان بن نمير المعروف بعرقلة الدمشقي، فقد وازن قصيدة أبي نواس بقصيدة مدح بها صلاح الدين بن يوسف بن أيوب وقصده بها إلى مصر كما فعل أبو نواس حين توجه بقصيدته إلى الخصيب،

وفيهما يقول :

عَسَى مِنْ دِيَارِ الظَّاعِنِينَ بَشِيرُ
لَقَدْ عِيلَ صَبْرِي بَعْدَهُمْ وَتَكَاثَرَتْ
وَكَمْ بَيْنَ أَكْنَافِ الثُّغُورِ مُتِيْمٌ
وَكَمْ لَيْلَةٍ بِالْمَاطِرُونَ قَطَعْتُهَا
سَقَى اللَّهُ مِنْ سَطْرًا وَمَقْرًا مَنَازِلًا
وَلَا زَالَ ظِلُّ النَّيِّرِينَ فَإِنَّهُ
وَيَا بَرْدَى لَا زَالَ مَأْوِكَ بَارِدًا
أَبَى الْعَيْشُ إِلَّا بَيْنَ أَكْنَافِ جِلْقٍ
وَكَمْ يَجْمَى جَيْرُونَ سِرْبُ جَاذِرٍ
وَلَكِنْ سَاحْوِيهِ إِذَا سِرْتُ قَاصِدًا

وعارضها محمود سامي البارودي
إِلَّا فَرَعَى اللَّهُ الصَّبَا مَا أَبَرَّهُ
إِذِ الْعَيْشُ أَفْوَافٌ يَرِفُ ظِلَالُهُ
وَإِذْ نَحْنُ فِيمَا بَيْنَ إِخْوَانٍ لَذَّةٍ
تُذَارُ عَلَيْنَا الْكَأْسُ بَيْنَ مَلَاعِبِ
فَالْحَاطِنَا بَيْنَ الثُّفُوسِ رَسَائِلُ
عَقَدْنَا جَنَّا لَيْلَنَا يَنْهَارِنَا
وَقُلْنَا لِسَاقِينَا أَدْرَهَا فَإِنَّمَا
فَطَافَ بِهَا شَمْسِيَّةٌ لَهْيَّةٌ
إِذَا مَاشَرِبْنَاهَا أَقْمَنَا مَكَانَنَا

ويعجبنا منها قوله في وصف الحمام الساجعة :

وَكَمْ لَيْلَةٍ أَفْنَيْتُ عُمَرَ ظَلَامِهَا
شَغَلْتُ بِهَا قَلْبِي وَمَتَّعْتُ نَاطِرِي
صَنَعْتُ بِهَا صُنْعَ الْكَرِيمِ بِأَهْلِهِ
إِلَى أَنْ بَدَا لِلصُّبْحِ فِيهِ قَتِيرُ
وَنَعَمْتُ سَمْعِي وَالْبَنَانُ طُهُورُ
وَجِيرَتِهِ، وَالْعَادِرُونَ كَثِيرُ

فَمَا رَاعَنَا إِلَّا خَفِيفُ حَمَائِمٍ
تُجَاوِبُ أَتْرَاباً لَهَا فِي خَمَائِلٍ
نَوَاعِمُ لَا يَعْرِفْنَ بُؤْسَ مَعِيشَةٍ
تَوَسَّدُ هَامَاتٍ لَهَا وَسَائِدًا
كَأَنَّ عَلَى أُعْطَافِهَا مِنْ حَبِيبِكِهَا
خَوَارِجُ مِنْ أَيْلٍ دَوَاحِلُ غَيْرِهِ
إِذَا غَاظَلَتْهَا الشَّمْسُ رَفَّتْ كَأَنَّمَا
فَلَمَّا رَأَيْتُ الصُّبْحَ قَدْ رَفَّ جِيدُهُ
خَرَجْتُ أَجْرُ الدَّيْلِ تَيْهًا وَإِنَّمَا

لَهَا بِهَا بَعْدَ الْحَنِينِ صَفِيرُ
لَهَا بِهَا بَعْدَ الْحَنِينِ صَفِيرُ
وَلَا دَائِرَاتِ الدَّهْرِ كَبَفَ تَدْوِيرُ
مِنْ الرِّيشِ فِيهِ طَائِلٌ وَشَكِيرُ
تَمَائِمُ لَمْ تُعْقِدْ لَهَا سِيُورُ
زَهَاةً ظِلُّ سَابِغٍ وَغَدِيرُ
عَلَى صَفَحَتَيْهَا سُندُسٌ وَحَرِيرُ
وَلَمْ يَبْقَ مِنْ نَسْجِ الظَّلَامِ سُتُورُ
يَتَبَّهُ الْفَتَى إِنْ عَفَّ وَهُوَ قَدِيرُ

ومن الوفاء أن ننوه بهذه القطعة الحزلة التي وصف بها نفسه، وهو يقول :
وَلِي شَيْمَةٌ تَأْبَى الدَّنَايَا وَعَزْمَةٌ
إِذَا سِرْتُ فَلَا أَرْضُ الَّتِي نَحْنُ فَوْقَهَا
فَلَا عَجَبٌ أَنَّ لَمْ بَصُرَنِي مَنْزِلُ
هَمَامَةٍ نَفْسٍ لَيْسَ يَنْفِي رِكَابَهَا
مَعُودَةٌ أَنْ لَا تَكُفَّ عِنَانَهَا
لَهَا مِنْ وَرَاءِ الْغَيْبِ أَدْنُ سَمِيعَةٍ
وَفَيْتُ بِمَا ضَنَّ الْكِرَامُ فِرَاسَةً
وَأَصْبَحْتُ مُحْسُودَ الْجَلَالِ كَأَنَّنِي
إِذَا صُلْتُ كَفَّ الدَّهْرُ مِنْ غُلُوءِهِ

تردُّ لَهَا الجَيْشُ وَهُوَ يُمُورُ
مَرَادٌ لِمُهْرِي وَالْمَعَايِلُ دُورُ
فَلَيْسَ لِعُقْبَانِ الْهَوَاءِ وَكُورُ
رَوَاحٍ عَلَى طُولِ الْمَدَى وَبُكُورُ
عَنِ الْجِدِّ إِلَّا أَنْ تَنِمَّ أُمُورُ
وَعَيْنُ تَرَى مَا لَا يَرَاهُ بَصِيرُ
بِأَمْرِي وَمِثْلِي بِالْوَفَاءِ جَدِيرُ
عَلَى كُلِّ نَفْسٍ فِي الزَّمَانِ أَمِيرُ
وَإِنْ فُلْتُ غُصَّتْ بِالْقُلُوبِ صُدُورُ

وفي هذه المعارضات دليل على مبلغ ما ظفرت به قصيدة أبي نواس من تقدير الشعراء، فلنضعها في الميزان لنعرف بالتحديد ما فيها من مواطن الحسن ومظان الابتدال.

أغراض القصيدة

الغرض الأول لهذه القصيدة هو مدح الخصيب، وقد استتبع هذا عند الشاعر أن يتحدث قليلاً عن نفرة جارته منه، وانصرافها عنه، وأن يذكر مدار بينه وبين زوجته من الحوار حين همَّ بالرحيل، وأن يصف كيف سار الشعراء إلى مصر، وكيف نسوا من أجل واليها جنات الشام ورياض العراق، وقد فرق مدحه للخصيب بين أجزاء القصيدة، فتكلم عن سؤدده وجوده وبصره بالعواقب ونكيله بالمفسدين ثم عاد فتكلم عن هيئته، وما أعد للسلم والحرب، وما له من طيب العنصر وكرم الأخلاق، ثم اختتم القصيدة بهذين البيتين :

وَإِنِّي جَدِيرٌ إِذْ بَلَغْتُكَ بِالْمُنَى وَأَنْتَ بِمَا أُمَلْتُ فَبِكَ جَدِيرٌ
فَإِنْ تُؤَلِّي مِنِّي الْجَمِيلَ فَأَهْلُهُ وَإِلَّا فَإِنِّي عَاذِرٌ وَشَكُورٌ

ولنأخذ في نقد القصيدة وتحليلها، فنذكر أولاً أنه حاور جارته بقوله :

أَجَارَةَ بَيْتِنَا أَبُوكَ غَيُورٌ وَمَيْسُورٌ مَا يُرْجَى لَدَيْكَ عَسِيرٌ
وَإِنْ كُنْتُ لَا خِلْمًا وَلَا أَنْتِ زَوْجَةٌ فَلَا بَرَحْتُ دُونِي عَلَيْكَ سُتُورٌ

وليس في صدر البيت الأول أثر لحسن الأداء، وعبارة « أجارة بيتنا » ثقيلة على السمع، وهي كذلك غير واضحة المدلول، أو هي تحتاج على الأقل إلى أن نذكر أن الشاعر قد يريد ببيتي جارته بيت السكن وبيت النسب وقد يريد غير ذلك، ولقد أذكر — من باب الفكاهة — أنني كنت أناقش الأستاذ محمد الههياوي مرة في قيمة المنفلوطي وفهمه للأدب، فقال : كيف وقد مات ولم يفهم قول أبي نواس « أجارة بيتنا أبوك غيور » لقد كان بكسر التاء من « بينينا » ظنا منه أن هذا اسم مكان^(١) ! !

وإنك لتكاد تلمس التناقض حين تقرن البيت الأول بقوله :

(١) عاتبا الأستاذ أبو بكر المنفلوطي على هذه الدعائه التي مسب أخاه ولكسا لا نرى نأساً من سحيل بعض هفوات من عرفناهم من الأداء، وهي مع ذلك لا بعض من المنفلوطي الكاتب، فقد شعل الشبان في عصره، وكان بلا جدال من أقطاب البيان.

وَإِنْ كُنْتُ لَا حِلْمًا وَلَا أَنْتِ زَوْجَةٌ فَلَا بَرَحَتْ دُونِي عَلَيْكِ سُتُورُ

فهو أولاً يشكو عسر ما يرجو من هذه الجارة، وذلك يوجب أن تكون مرجع هَواه، ثم يصرح بأنها ليست زوجة ولا صديقة، فيضطرك إلى أن تسأله : وإلّا تم تقصد حين تقول « فلا برحت دوني عليك ستور » ؟ ثم يغلب عليه ضيق الصدر، وقلق النفس، فيقول :

وَجَاوَرْتُ قَوْمًا لَا تَزَاوَرُ بَيْنَهُمْ وَلَا وَصَلَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ نُشُورُ
فَمَا أَنَا بِالْمَشْغُوفِ ضَرْبَةٍ لَأَرْبِ وَلَا كُلُّ سُلْطَانٍ عَلَيَّ قَدِيرُ

وهو بهذا يتلمل من أسر فؤاده وحبس أمانيه في تلك البقعة التي لم يقرّ لقلبه فيها قرار، ولم تنعم عينه فيها بغير لألاء النجوم، حين تأنس العيون بالعيون، وتسكن القلوب إلى القلوب.. ! ثم أخذ يحدثنا عن علمه بحركات الأهواء، وخطرات النفوس، فقال :

وَإِنِّي لِطَرْفِ الْعَيْنِ بِالْعَيْنِ زَاجِرٌ فَقَدْ كِدْتُ لَا يَخْفَى عَلَيَّ ضَمِيرُ

والزجر هنا ليس معناه الردع، وإنما هو من زجر الطير. وأصله أن يرمي الرجل الطائر بحصاة أو يصيح به، فإن ولّاه في طيرانه ميامنه تفاعل به، وإن ولّاه مياسره تطاير منه، ويريد أنه يقرأ ما في الصدر بملاحظة العين، وهذا البيت تأكيد لما قرره قبل من عنف جارته به وقسوتها عليه، وإن لم تصرح بالقطيعة، ولم تعلن الصدود... ولم يقف أبو نواس عند هذا الحد في وصف نفسه بصدق الفراسة، بل شبّه نظرتة بنظرة العقاب في سكون الريح، وقد طوت القوت ليلتين عن فرخها الأَرغب، فقال :

كَمَا نَظَرَتْ وَالرَّيْحُ سَاكِئَةٌ لَهَا

عُقَابٌ بِأَرْسَاغِ الْيَدَيْنِ نَدُورُ

طَوَتْ لَيْلَتَيْنِ الْقُوتَ عَنْ ذِي ضَرُورَةٍ

أَزْيِغَبَ لَمْ يَنْبُتْ عَلَيْهِ شَكِيرُ

فَأَوَفَتْ عَلَى عَلِيَاءَ حِينَ بَدَأَ لَهَا

مِنْ الشَّمْسِ قَرْنٌ وَالضَّرِيبُ يُمُورُ

تُقَلِّبُ طَرْفًا فِي حِجَاكِ مَعَارَ
مِنَ الرَّأْسِ لَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهِ سُرُورُ

وهذه اللفتة من أبي نواس فيها خروج على فطرته، إذ هي تقليد صريح لأسلوب الأعراب، ويظهر أن أبا نواس كان يُعنى في المواقف الرسمية بمراعاة الأساليب القديمة، ابتغاء مرضاة الرواة واللغويين، كما كان ينقاد لفطرته كل الانقياد وهو يتحدث عن الصهباء، ويشيد بذكر الندامى والسقاة والمغنين، من كل رخم الصوت، أو أصبح الوجه، أو عذب الحديث، وهو الذي يقول :

قَدْ أَسْحَبُ الزُّقَّ يَا بَابِي وَأُكْرِهُهُ
حَتَّى لَهُ فِي أَدِيمِ الْأَرْضِ أُخْدُودُ
لَا أُرْجِلُ الرَّاحَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهَا

حَادٍ بِمُنْتَحَلِ الْأَشْعَارِ غَرِيدُ
فَاسْتَنْطِقِ الْعُودَ قَدْ طَالَ السُّكُوتُ بِهِ
لَنْ يَنْطِقَ اللَّهُوْ حَتَّى يَنْطِقَ الْعُودُ

ولنذكر بعد هذا أن أبا نواس انتقل من الحديث عن نفرة جارته، وصدق فراسته، إلى الحديث عن حوار زوجه، فقال :

تَقُولُ الَّتِي مِنْ بَيْتِهَا خَفَّ مَرْكَبِي عَزِيزُ عَلَيْنَا أَنْ نَرَكَ تَسِيرُ
أَمَّا دُونَ مِصْرٍ لِلْغِنَى مُتَطَلَّبٌ بَلَى إِنَّ أَسْبَابَ الْغِنَى لَكَثِيرُ
فَقُلْتُ لَهَا وَاسْتَعْجَلْتُهَا بِوَادِرٍ جَرَتْ فَجَرَى مِنْ جَرِيهِنَّ عَبِيرُ
ذَرِينِي أَكْثَرُ حَاسِدِيكَ بِرَحْلَةٍ إِلَى بَلَدٍ فِيهِ الْخَصِيبُ أَمِيرُ

وهذه القطعة من الشعر المختار، ويرجع جمالها إلى ما فيها من وضوح الفكرة وسلامة التعبير، وانظر الصدق في قوله:

أَمَّا دُونَ مِصْرٍ لِلْغِنَى مُتَطَلَّبٌ بَلَى إِنَّ أَسْبَابَ الْغِنَى لَكَثِيرُ

ولكن الشعراء في ذلك العهد لم يطب لهم من أسباب الغنى غير مدح الملوك والأمراء، وكان هذا باباً لحصر العبقرية في ناحية واحدة هي خلق المحامد والمناقب، لكل من جُنَّ له الدهر فظفر بإثارة من الملك أو زاد بسطة في المال — وقوله :

ذَرِينِي أَكْثَرُ حَاسِدِيكَ بِرَحْلَةٍ إِلَى بَلَدٍ فِيهِ الْحَصِيبُ أَمِيرُ
من الأبيات المختارة، والتعبير عن وفرة المال بكثرة الحساد من الكنايات
المستملحة، وقد قال له الخصيب حين أنشد هذا البيت : إداً يكثر حسادها، وتبلغ
أملها. وأمر له بألف دينار، ثم قال في مدح الخصيب :

إِذَا لَمْ تَزُرْ أَرْضَ الْخَصِيبِ رِكَابُنَا فَأَيُّ فِتْنَى بَعْدَ الْخَصِيبِ تَزُورُ
فَمَا جَاَزَهُ جُودٌ وَلَا حَلَّ دُونَهُ وَلَكِنْ بَصِيرُ الْجُودِ حَيْثُ يَصِيرُ

وليس لذين البيتين قيمة أدبية، ومن السهل أن يزعم الشاعر أن ممدوحه خير
الناس على الإطلاق، وأن الجود لا يجوزه، ولا يحل دونه، وإنما يصير حيث يصير،
إلى ما هناك من وثبات الخيال. وقد نال منه الضعف والاسفاف حين قال :
فَلَمْ تَرَ عَبْنِي سُودُداً مِثْلَ سُودُودٍ يَحِلُّ أَبُو نَصْرِ بِهِ وَبَسِيرُ
ولكنه وفق كل النوفيق حين قال :

فَتَى يَشْتَرِي حُسْنَ الثَّنَاءِ بِمَالِهِ وَيَعْلَمُ أَنَّ الدَّائِرَاتِ تَدُورُ

فإنه يصف الخصيب بالسعي لنيل السمعة الحسنة، والصيت البعيد، ويصفه
مع هذا بضبط النفس، والحذر من عادات النوائب، وجائزات الخطوب، ولا
تطيب الدنيا للملك أو أمير إلا إذا خطا في حكمه وملكه خطوات الحذر الهيوب،
الذي يتوقع في كل لحظة أن يتنكر له الدهر، وأن تثور من حوله الأقدار... ثم
أخذ بصف بطشه بالمفسدين، وتنكيله بالعابثين بأمن الناس، فقال :

وَأُطْرَقَ حَيَاتُ الْبِلَادِ لَحَبَّةَ خَصِيبِيَّةِ التَّصْمِيمِ حِينَ نُسُورِ
سَمَوَاتِ لِأَهْلِ الْجَوْرِ فِي حَالِ أَمْنِهِمْ فَأَضْحَوْا وَكُلُّ فِي الْوَثَاقِ أَسِيرُ
إِذَا قَامَ غَنَّتُهُ عَلَى السَّاقِ حَلِيَّةٌ لَهَا خَطْوُهُ عِنْدَ الْقِيَامِ قَصِيرُ

وفي هذه الأبيات إشارة إلى أن مصر في ذلك العهد كانت تقاسي شتاءً من
الاضطراب، وكانت لذلك طُعْمَةً لاستبداد الحكام وسخرية الشعراء، وأي سُخر
آلم للنفس، وأوجع للقلب، من قول أبي نواس في أحد فتيان مصر وهو يرسف
في الصَّفاد :

إِذَا قَامَ غَنَّهُ عَلَى السَّاقِ حَلِيَّةٌ لَهَا خَطُّوهُ عِنْدَ الْقِيَامِ فَصِيرُ

وقد أحسن أبو نواس في وصف الخصيب بنصح الجيب حين قال :
فَمَنْ بَكَ أَمْسَى جَاهِلًا بِمَقَالَتِي فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ خَيْرُ
وَمَا زِلْتُ تُؤْلِيهِ النَّصِيحَةَ يَافِعًا إِلَى أَنْ بَدَأَ فِي الْعَارِضِينَ قَتِيرُ
إِذَا غَالَهُ أَمْرٌ فَإِمَّا كَفَيْتُهُ وَإِمَّا عَلَيْهِ بِالْكَفَاءِ تُتِيرُ

وهذا من أجمل ما بوصف به الرجل المخلص للحق حين يظفر بأسرار الملوك،
وفي هذه القصيدة قطعة آخرها الشاعر، وكانت أولى بالتقديم، وهي وصف رحلة
الشعراء إلى الخصيب، ونحن نسرد هذه القطعة تكميلاً للموضوع، ونصرح بأنها

رديئة في العبارة، وفي السياق. قال :

رَحَلْنَا بَنَاءً مِنْ عَقْرِ قُوفٍ وَقَدْ بَدَأَ
فَمَا نَجَدَتْ بِالْمَاءِ حَتَّى رَأَيْتُهَا
وَعُغْمَرْنَا مِنْ مَاءِ النَّقِيبِ بِشَرَبَةٍ
وَوَافَيْنَ إِشْرَاقًا كَنَائِسَ تَذْمُرِ
يَوْمَئِذٍ أَهْلَ الْغُوطَتَيْنِ كَأَنَّمَا
وَقَاسَيْنِ لَيْلًا دُونَ بَيْسَانَ لَمْ يَكَدْ
وَأَصْبَحْنَا بِالْجَوْلَانِ يَرْضَخْنَ صَخْرَهَا
وَأَصْبَحْنَا قَدْ فَوَّزْنَا مِنْ نَهْرِ فُطْرُسِ
طَوَالِبُ بِالرُّكْبَانِ غَزَّةَ هَاشِمِ

مِنَ الصُّبْحِ مَفْتُوقُ الْأَدِيمِ شَهِيرُ
مَعَ الشَّمْسِ فِي عَيْنِي أَبَاغُ تَغُورُ
وَقَدْ حَانَ مِنْ دِيكِ الصَّبَاحِ زَمِيرُ
وَهُنَّ إِلَى رُغْنِ الْمُدْخَنِ صُورُ
لَهَا عِنْدَ أَهْلِ الْغُوطَتَيْنِ ثُورُ
سَنَا صُبْحِهِ لِلنَّاطِرِينَ يُنِيرُ
وَلَمْ يَبْقَ مِنْ أَجْرَاجِهِنَّ سَطُورُ
وَهُنَّ عَنِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ زُورُ
وَفِي الْفَرَمَاءِ مِنْ حَاجِهِنَّ شُقُورُ

واستأنف مدح الخصيب، فقال :

وَلَمَّا أَتَتْ فُسْطَاطَ مِصْرَ أَجَارَهَا

عَلَى رَكْبِهَا أَنْ لَا تَزَالَ مُجِيرُ
مِنَ الْقَوْمِ بَسَامٌ كَأَنَّ جَبِينَهُ
سَنَا الْفَجْرِ يَسْرِي صَوُّهُ وَيُنِيرُ
زَهَا بِالْخَصِيبِ السَّيْفُ وَالرُّمْحُ فِي الْوَعَى
وَفِي السَّلَمِ يَزْهُو مِنْبَرٌ وَسَرِيرُ

جَوَادٌ إِذَا الْأَيْدِي كَفَفْنَ عَنِ النَّدَى
وَمِنْ دُونَ عَوْرَاتِ النَّسَاءِ غُيُورُ
لَهُ سَلَفٌ فِي الْأَعْجَمِينَ كَأَنَّهُمْ
إِذَا اسْتُؤْذِنُوا يَوْمَ السَّلَامِ بُدُورُ
وسنعود إلى تحليل هذه القطعة الأخيرة حين نوازن بينها وبين ما يماثلها في
قصيدة ابن درّاج.

البحث السادس والعشرون

نفحة من الأدب الأندلسي

نقدنا في البحث الماضي قصيدة أبي نواس في مدح الخصيب، ورأينا مبلغه من الصدق حين ظنّها كعصا موسى تلقف ما يافكون، ولم يبق إلا أن نوازن بينها وبين قصيدة ابن دراج الذي أوصاه أميره بمعارضة أبي نواس، ولكننا رأينا أن نقف وقفة قصيرة عند رغبة المنصور بن أبي عامر في أن يظهر شاعره على شاعر الرشيد، فقد كانت هناك منافسة شديدة بين رجال المشرق ورجال المغرب في الأدب والفلسفة والتشريع، وكان لأهل الأندلس كلف شديد بالظهور على أهل المشرق، وكان لابن دراج هذا ولع عجيب بسبق من نبغ من الشعراء في مصر والشام والعراق، وسنرى كيف بذأ نواس وبرعه حين نضع قصيدته في الميزان، وكان من أثر ذلك التنافس أن عُقدت المفاضلات بين الكتاب والشعراء والمؤلفين : فازداد قادة الفكر قوة إلى قوة ونشاطاً إلى نشاط، وتقدم النقد تقدماً ظهرت ثمرته فيما كان يعني به العرب إذ ذاك من العلوم والفنون.

وهذه رسالة أبي الوليد الشقندي — التي وضعها في تفضيل برّ الأندلس على بر العدو، والتي أثبتّها المقرّي طيب الله ثراه في نفح الطيب — تدل على رغبة الأندلسيين في الظهور على من عداهم من العالمين، وإني لذاكر ما جاء عن الشعر والشعراء، لأضع يد القارئ على أثر هو في جملته ثمرة لما كان من التنافس بين

قرطبة وبغداد، ولأنشُر له صفحة من صحف النقد والمفاضلة تتمثل فيها عقربة العرب في ذلك الفردوس المففود^(١).

قال الشقندي بعد كلام طويل :

وهل لكم في الشعر ملك مثل المعتمد بن عباد في قوله :
وَلَيْلٍ يَسْدُ النَّهْرُ أَنْسًا قَطَعَتْهُ بِذَاتِ سِوَارٍ مِثْلٍ مُنْعَطِفِ النَّهْرِ
نَضَّتْ بُرْدَهَا عَنْ غَضَنِ بَانٍ مُنْعَمٍ فَيَا حُسْنَ مَا أَنْشَقَ الْكَمَامُ عَنِ الزَّهْرِ
وقوله في أبيه :

سَمَيْدَعُ يَهَبُ الْآلَافَ مُبْتَدِئًا وَبَعْدَ ذَلِكَ يُلْفَى وَهُوَ يَعْتَذِرُ
لَهُ يَدُ كُلِّ جَبَّارٍ بُقْبُلَهَا لَوْلَا نَذَاهَا لَقُلْنَا إِنَّهَا الْحَجَرُ
ومثل ابنه الرضى في قوله :

مَرُّوا بِنَا أَضْلًا مِنْ غَيْرِ مِيْعَادٍ فَأَوْقِدُوا نَارَ قَلْبِي أَيَّ إِيْقَادٍ
لَاغَرَوْ إِن زَادَ فِي وَجْدِي مُرُورُهُمْ فَرُؤْيَةُ الْمَاءِ تُذَكِّي غَلَّةَ الصَّادِي

وهل لكم ملك ألف في فنون الأدب كتاباً في نحو مائة مجلدة مثل المظفر بن الأفعطس ملك بطليوس ولم تشغله الحروب ولا المملكة عن همة الأدب ؟ وهل لكم من الوزراء مثل ابن عمار في قصيدته التي سارت أشرد من متل، وأحب إلى الاسماع من حبيب وصل، التي منها :

أُتِمَّتْ رُمَحُكَ مِنْ رُؤُوسِ مُلُوكِهِمْ لَمَّا رَأَيْتَ الْعُصْنَ يُعْشِقُ مُثْمَرَا
وَصَبَّغْتَ دِرْعَكَ مِنْ دِمَاءِ كُمَايِهِمْ لَمَّا رَأَيْتَ الْحُسْنَ يُلْبَسُ أَحْمَرَا

(١) جاء في نفح الطلح ص ٧٧٨ ما نصه : « قال ابن سعد، أبحرني والدي قال : كنت يوماً في مجلس صاحب سبته أبي يحيى بن أبي ركريا صهر ناصر بن عماد المؤمنين فحدثني أبي الوليد الشقندي وسأني يحيى بن المعلم نزاع في الفضل بين البرن. فقال الشقندي: لولا الأندلس لم يذكر بر العدو، ولا سارت عنه فضله، ولولا التوفيق للمجلس لكان ما يعلم. فقال الأمر أبو يحيى . أريد أن نقول كون أهل برنا عرباً وأهل برآم بربر ؟ فقال : حاش لله ! فقال الأمر والله ما أردت غير هذا فظهر في وجهه أنه أراد ذلك، فقال ابن المعلم : أنقول هذا وما الملك والفضل إلا من بر العدو ؟ فقال الأمر : الرأي عدت أن تعمل كل منكما رساله في فصل بره، فالكلام هما بطول وعمر ضاعاً وأرحو إذا احسنا له فكر كما يصدر منكما ما يحسن تحليله ففعلاً »

ومثل ابن زبدون في قصيدته التي لم يُقل — مع طولها — أرق منها في الشيب، وهي التي يقول فيها^(١) :

كَأَنَّا لَمْ نَبْتَ وَالْوَصْلُ تَالِثُنَا وَالسَّعْدُ قَدْ غَضَّ مِنْ أَجْفَانِ وَائِثِنَا
سِرَّانِ فِي خَاطِرِ الظُّلَمَاءِ يَكْتُمُنَا حَتَّى بَكَادَ لِسَانُ الصُّبْحِ يُفْتِنَا

وهل لكم من الشعراء مثل ابن وهبون في بديهه بين يدي المعتمد بن عباد وإصابته الغرض حين استحسّن المعتمد قول المتنبي :

إِذَا ظَفِرَتْ مِنْكَ الْعُيُونُ بِنَظَرَةٍ أَثَابَ بِهَا مُعْبَى الْمَطِيِّ وَرَازِمُهُ
فارتحل :

لَئِنْ جَادَ شَعْرُ ابْنِ الْحَسَنِ فَإِنَّمَا تُجِيدُ الْعَطَايَا وَاللَّهَا تَفْتَحُ اللَّهُهَا
تَنْبَأُ عُجْبًا بِالْقَرِيضِ وَلَوْ دَرَى بِأَنَّكَ تَرَوِي شِعْرَهُ لَتَالَهَا

وهل لكم مثل شاعر الأندلس ابن دراج الذي قال فيه الثعالبي : هو بالصقع الأندلسي كالمتنبي بصقع الشام، الذي إن مدح الملوك قال قوله :

أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّ الثَّوَاءَ هُوَ التَّوَى^(٢) وَأَنَّ يُيُوتَ الْعَاجِزِينَ قُبُورُ
وَأَنَّ خَطِيرَاتِ الْمَهَالِكِ ضَمَّنُ لِرَاكِهَاتِ أَنْ الْجَزَاءُ خَطِيرُ
تُخَوِّفُنِي طُولَ السَّفَارِ وَإِنَّهُ بِثَقِيلِ كَفِّ الْعَامِرِيِّ جَدِيرُ
مُجِيرُ الْهَدَى وَالَّذِينَ مِنْ كُلِّ مُلْجِدٍ وَلَيْسَ عَلَيْهِ لِلضَّلَالِ مُجِيرُ^(٣)

وإن ذكر الغربة عن الأوطان، ومكابدة نوائب الزمان، قال :

(١) ارجع إلى هذه القصيدة في كتاب « مدامع العساق ». فقد أئساها كلها هاك، وقد عارضها شوقي بونبة مطلعها :

يا نائح الطلح أشاه عواديا نأسي لواديك أم شجى لواديا
(٢) النوى : الهلاك

(٣) احبار الشفندى قطعته كبره من قصيدة ابن دراج، ولكنا اكنميا بذكر هذه الأبواب لأننا سنعود إلى القصيدة مرة ثانية، وقد قال النسقى في التعقيب على ما احتاره :

« وأنا أفسم مما حوته هذه الأبيات، من عرائب الآيات، لو سمع هذا المدح سيد سى حمدان لسلاله عن مدح شاعره الذي ساد كل شاعر، ورأى أن هذه الطريقة أولى بمدح الملوك من كل ما نفنن فيه كل ناظم وبائر ».

قَالَتْ وَقَدْ مَزَجَ الْفِرَاقُ مَدَامِعًا بِمَدَامِعٍ وَتَرَائِبًا بِتَرَائِبِ
أَتَفَرَّقُ حَتَّى يَمْنُزِلَ غُرْبَةً كَمْ نَحْنُ لِلْأَيَّامِ نُهْبَةً نَاهِبِ
وَلَيْنَ جَنَيْتَ عَلَيْكَ تَرْحَةً رَاحِلِ فَأَنَا الزَّعِيمُ لَهَا بِفَرْحَةٍ آئِبِ
هَلْ أَبْصَرْتَ عَيْنَاكَ بَدْرًا طَالِعًا فِي الْأُفُقِ إِلَّا مِنْ هِلَالٍ غَارِبِ

وان شبه قال :

لِمَعَاقِلٍ مِنْ سَوَسْنٍ قَدْ شَيَّدَتْ أَيْدِي الرِّبْعِ بِنَاءَهَا فَوْقَ الْقُضْبِ
شُرَفَاتُهَا مِنْ فِضَّةٍ وَحُمَاتُهَا حَوْلَ الْأَمِيرِ لَهُمْ سُيُوفٌ مِنْ ذَهَبِ

وهل من شعرائكم من تعرض لذكر العفة : فاستنبط ما يسحر به السحر،
ويطيب به الزهر، وهو أبو عمرو بن فرج في قوله :

وَطَائِعَةُ الْوِصَالِ عَفَفَتْ عَنْهَا وَمَا الشَّيْطَانُ فِيهَا بِالْمُطَاعِ
بَدَتْ فِي اللَّيْلِ سَافِرَةٌ فَبَاتَتْ دَيَّاجِي اللَّيْلِ سَافِرَةَ الْقَتَاعِ
وَمَا مِنْ لَحْظَةٍ إِلَّا وَفِيهَا إِلَى فِتْنِ الْقُلُوبِ لَهَا دَوَاعِي
فَمَلَكْتُ النَّهْيَ حُجَابَ شَوْقِي لِأَجْرِي بِالْعَفَافِ عَلَى طِبَاعِي
وَبْتُ بِهَا مَيِّتَ السَّقْبِ يَظْمًا فَيَمْتَعُهُ الْعُكَامُ مِنَ الرِّضَاعِ^(١)
كَذَاكَ الرُّوضُ مَا فِيهِ لِمِثْلِي سِوَى نَظَرٍ وَشَمٍّ مِنْ مَتَاعِ
وَلَسْتُ مِنَ السَّوَامِ مُهْمَلَاتٍ فَاتَّخَذَ الرِّيَاضَ مِنَ الْمَرَاعِي

وهل بلغ أحد من مشهري شعرائكم أن يقول مثل قول أبي جعفر اللماي :

عَارِضٌ أَقْبَلَ فِي جُنْحِ الدُّجَى يَتَهَادَى كَتَهَادِي ذِي الْوَجَى
بَدَّدَتْ رِيحُ الصَّبَا لَوْلُوهُ فَأَنْبَرَى يُوقِدُ عَنْهُ سُرُجَا

ومثل قول أبي حفص بن برد :

وَكَانَ اللَّيْلَ جِئْنَ لَوَى ذَاهِبًا وَالصُّبْحُ قَدْ لَاحَا
كِلَّةٌ سَوْدَاءُ أَحْرَقَهَا عَامِدٌ أُسْرَجَ مِصْبَاحَا

^(١) السقب : ولد الناقة. والعكام : ما معكم به.

وهل منكم من وصف ما تحدثه الخمرة، من الحمرة على الوجنة، يمثل قول الشريف الطليق :

أَصْبَحْتُ شَمْساً وَفُوهُ مَغْرِباً وَيَدُ السَّاقِي الْمُحْيِي مَشْرِقاً
وَإِذَا مَا غَرَبَتْ فِي فَمِهِ تَرَكْتُ فِي الْخَدِّ مِنْهُ شَفَقاً

يمثل هذا الشعر فليطلق اللسان، ويفخر على كل إنسان.

وهل منكم من عمد إلى قول امرئ القيس :

سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ مَا نَامَ أَهْلُهَا سُمُوَ حَبَابِ الْمَاءِ حَالاً عَلَى حَالٍ

فاختلسه اختلاس النسيم لنفحة الأزهار واستلبه بلطف استلاب الشمس لرضاب طلل الأسحار، فلطفه تلطيفاً يمتزج بالأرواح ويغني في الارتياح، عن شرب الراح، وهو ابن شهيد في قوله:

وَلَمَّا تَمَلَّأَ مِنْ سُكْرِهِ وَنَامَ وَنَامَتْ عُيُونُ الْحَرَسِ
دَنَوْتُ إِلَيْهِ عَلَى رِقْبَةٍ دُنُو رَفِيقٍ دَرَى مَا التَّمَسِ
أَدَبُ إِلَيْهِ دَبِيبَ الْكَرَى وَأَسْمُو إِلَيْهِ سُمُو النَّفْسِ
أَقْبَلُ مِنْهُ بَيَاضَ الطَّلَى وَأَرْشَفُ مِنْهُ سَوَادَ اللَّعْسِ
فَبِتْ بِهِ لَيْلَتِي نَاعِماً إِلَى أَنْ نَبَسَمَ نَعْرُ الْعَلَسِ

وقد تناول هذا المعنى ابن أبي ربيعة على عظم قدره وتقدمه، فعارض الصهيل بالهناق، وقابل العذب بالزعاق، فقال ويا ليلته سكت:

وَنَفَضْتُ عَنِّي النَّوْمَ أَقْبَلْتُ مِشْيَةَ الْـ حُبَابِ وَرُكْنِي خَيْفَةَ الْقَوْمِ أَزُورُ

وأنا أقسم لو زار جمل محبوبه له لكان ألطف في الزيارة من هذا الأزور الركن، المنفض للعيون، لكنه إن أساء هنا فقد أحسن في وقوله :

قَالَتْ لَقَدْ أَعْيَيْتَنَا حِجَّةً فَأَتِ إِذَا مَا هَجَعَ السَّاهِرُ
وَاسْقُطْ عَلَيْنَا كَسْقُوطِ النَّدَى لَيْلَةً لَا نَاهٍ وَلَا زَاجِرُ

ولله در محمد بن سفر أحد شعرائنا المتأخرين عصرأ، المتقدمين قدراً، حيث نقل السعي إلى محبوبته، فقال — ويا ليلته لم يزل يقول مثل هذا فبمثله ينبغي أن

يُتَكَلَّمُ، ومثله يليق أن يُدَوَّنَ :
وَوَاعَدْتُهَا وَالشَّمْسُ تَجَنَّحُ لِلنَّوَى
بِزَوْرَتِهَا شَمْساً وَبَدْرُ الدُّجَى يَسْرِي
فَجَاءَتْ كَمَا يَمْشِي سَنَا الصُّبْحِ فِي الدُّجَى
وَطَوَّراً كَمَا مَرَّ النِّسِيمُ عَلَى النَّهْرِ
فَعَطَّرَتْ الْآفَاقَ حَوْلِي فَأَشْعَرْتُ
بِمَقْدَمِهَا وَالْعَرْفُ يُشْعِرُ بِالزَّهْرِ
فَتَابَعْتُ بِالتَّقْيِيلِ آثَارَ سَعْيِهَا
كَمَا يَتَقَصَّى قَارِئُ أَحْرَفِ السَّطْرِ
فَبِتُّ بِهَا وَاللَّيْلُ قَدْ نَامَ وَالْهَوَى
تَبَنَّى بَيْنَ الْعُصْنِ وَالْحِقْفِ وَالْبَدْرِ
أَعَانَتْهَا طَوَّراً، وَأَلْثَمُ تَارَةً
إِلَى أَنْ دَعَيْنَا لِلنَّوَى رَايَةَ الْفَجْرِ
فَفَضَّتْ عُقُوداً لِلشَّعَائِقِ بَيْنَنَا
فَيَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ أَتْرُكِي سَاعَةَ النَّفْرِ

وهل منكم من قُيِّدَ بالاحسان فأطلق لسانه بالشكر فقال — وهو ابن اللبابة :
بِنَفْسِي وَأَهْلِي جِيرَةً مَا اسْتَعْتُهُمْ عَلَى آلِ الدَّهْرِ إِلَّا وَانْتَنَيْتُ مُعَانَا
أَرَأَشُوا جَنَاحِي ثُمَّ بَلَّوهُ بِالنَّدَى فَلَمْ أُسْتَطِعْ مِنْ أَرْضِهِمْ طَيْرَانَا

ومن بقول وقد قطع عنه ممدوحه ما كان يعتاده من الاحسان فقابل ذلك بقطع
مدحه له، فبلغه أنه عتبه على ذلك، وهو ابن وُضَّاح :
هَلْ كُنْتُ إِلَّا طَائِراً بِفَنَائِكُمْ فِي دَوْحِ مَجْدِكُمْ أَقُومُ وَأَقْعُدُ
إِنْ تَسْلُبُونِي رِيَشَكُمْ وَتَقْلَصُوا عَنِّي ظِلَالَكُمْ فَكَيْفَ أُغَرِّدُ

وهل منكم شاعرٌ رأى الناس قد ضجوا من سماع تشبيه الشجر بالأفاح، وتشبيه
الزهر بالنجوم، وتشبيه الحدود بالشقائق، فتلطف لذلك في أن يأتي به في منزع
يصير خَلَمَه في الأسماع جديداً، وكليله في الأفكار حديداً، فأغرب أحسن إغراب،

وأعرب عن فهمه بحس تخليه أنبل إعراب، وهو ابن الرقاق إذ قال :

وَأَعْيِدْ طَافَ بِالْكُؤُوسِ ضُحَى وَحَثَّهَا وَالصَّبَاحُ قَدْ وَضَحَا
وَالرَّوْضُ أَهْدَى لَنَا شَفَائِقَهُ وَأَسُهُ الْعَبْرِيُّ قَدْ نَفَحَا
قُلْنَا وَأَيْنَ الْأَقَاخُ قَالَ لَنَا أَوْدَعْتُهُ تَغَرَّ مَنْ سَقَى الْقَدَحَا
فَظِلُّ سَاقِي الْمُدَامِ يَجْحَدُ مَا قَالَ فَلَمَّا تَبَسَّمْ أَفْضَحَا

وقال :

أَدِيرَاهَا عَلَى الرَّوْضِ الْمُنْدَى وَحُكِّمُ الصُّبْحِ فِي الظُّلُمَاءِ مَاضِي
وَكَأْسُ الرَّاحِ تَنْظُرُ عَنْ حَبَابِ يُنُوبُ لَنَا عَنْ الْحَدَقِ الْمِرَاضِ
وَمَا غَرَبَتْ نُجُومُ الْأُفُقِ لَكِنْ نُفْلِنَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الرِّيَاضِ

وقال :

وَرِيَاضٍ مِنَ الشَّقَائِقِ أَضَحَتْ يَتَهَادَى بِهَا نَسِيمُ الصَّبَاحِ
زُرْتُهَا وَالْعَمَامُ يَجْلِدُ مِنْهَا زَهْرَاتِ تَرُوقُ لَوْنُ الرَّاحِ
قُلْتُ مَا ذُنُبُهَا، فَقَالَ مُجِيباً سَرَقَتْ حُمْرَةَ الْخُدُودِ الْمَلَاحِ

فانظر كيف زاحم بهذا الاحتيال المخترعين، وكيف سابق بهذا اللفظ المبتدعين وهل منكم من برع في أوصاف الرياض والمياه، وما يتعلق بذلك، فانهى إلى غاية السباق، وفضح كل من طمع بعده في اللحاق، وهو أبو إسحاق بن خفاجة القائل :

وَعَشِيَّ أَنْسِ أَضْحَعْتَنِي نَشْوَةٌ فِيهَا يُمَهِّدُ مَضْجَعِي وَيُدَمِّثُ
خَلَعْتُ عَلَيَّ بِهَا الْأَرَاكَةَ ظِلَّهَا وَالْغُصْنَ بُضْغِي وَالْحَمَامُ يُحَدِّثُ
وَالشَّمْسُ نَجَحَ لِلْغُرُوبِ مَرِيضَةٌ وَالرَّعْدُ يَرْتِي وَالْعَمَامَةُ تَنْفُثُ

والقائل :

لِلَّهِ نَهْرٌ سَالَ فِي بَطْحَاءِ أَشْهَى وَرُوداً مِنْ لَمَى الْحَسَنَاءِ
مُتَعَطِّفٌ مِثْلُ السَّوَارِ كَانَهُ وَالزَّهْرُ يَكْنُفُهُ مَجَرُّ سَمَاءِ
قَدْ رَقَّ حَتَّى ظَنَّ قُرْصاً مُفْرَغاً مِنْ فِضَّةٍ فِي بُرْدَةٍ خَضْرَاءِ

وَعَدَتْ تَحْفُ بِهِ الْعُصُونُ كَانَهَا
وَلَطَالَمَا عَاطَيْتُ فِيهِ مُدَامَةً
وَالرَّيْحُ تَعَبْتُ بِالْعُصُونِ وَقَدْ جَرَى

والقائل :

حُتَّ الْمُدَامَةُ وَالنَّسِيمُ عَلِيلُ
وَالرَّوْضُ مُهْتَزُّ الْمَعَاطِفِ نِعْمَةً
رَبَّانٍ فَضْضَهُ النَّدى ثُمَّ أَنْجَلَى

والقائل :

أَذِنَ الْعَمَامُ بَدِيمَةً وَعُقَارٍ
وَأَرْبَعٌ عَلَى حُكْمِ الرَّيِّعِ بِأَجْرَعٍ
مُتَقَسِّمُ الْأَلْحَاطِ يَبْنَ مَحَاسِنِ
نَثَرَتْ بِحَجَرِ الرُّوضِ فِيهِ يَدُ الصَّبَا
وَهَفَّتْ بِتَغْرِيدِ هُنَالِكَ أَيْكَةٍ
هَزَّتْ لَهُ أَعْطَافَهَا وَلَرَّبَّمَا

والقائل :

سَقِيًّا لَهَا مِنْ بَطَاحٍ خَزٌّ
إِذْ لَا تَرَى غَيْرَ وَجْهِ شَمْسٍ

والقائل :

نَهْرٌ كَمَا سَالَ اللَّيْلَى سَلْسَالُ
وَمَهَبٌ نَفْحَةٍ رَوْضَةٍ مَطْلُولَةٍ
غَازِلَتْهَا وَالْأَقْحَوَانَةُ مَبْسَمٌ

والقائل :

وَسَاقٍ كَحِيلِ اللَّحْظِ فِي شَاوٍ حُسْنِهِ
تَرَى لِلصَّبَا نَارًا بِخَدَّيْهِ لَمْ يَثُرْ
سَقَاهَا وَقَدْ لَاحَ الْهَلَالُ عَشِيَّةً

هُدْبٌ تَخْفُ بِمُقْلَةٍ زَرْقَاءِ
صَفْرَاءَ تَخْضِبُ أَبْدِي النَّدْمَاءِ
ذَهَبُ الْأَصِيلِ عَلَى لُجَيْنِ الْمَاءِ

وَالظِّلُّ خَفَاقُ الرِّوَاكِ ظَلِيلُ
نَشْوَانٍ تَعْطِفُهُ الصَّبَا فَيَمِيلُ
عَنْهُ فَذَهَبَ صَفْحَتَيْهِ أَصِيلُ

فَامْرُجُ لُجَيْنًا مِنْهُمَا بِنْضَارٍ
هَزَجِ النَّدَامَى مُفْصِحِ الْأَطْيَارِ
مِنْ رِذْفِ رَابِيَةٍ وَخَصْرِ قَرَارٍ
دُرَّرَ النَّدى وَدَرَاهِمُ الْأَنْوَارِ
خَفَاقَةٌ بِمَهَبِّ رِيحٍ عَرَارٍ
خَلَعَتْ عَلَيْهِ مُلَاءَةَ النُّوَارِ

وَدَوْحٍ نَهْرٍ بِهَا مُطْلُ
أَطْلُ فِيهِ عِذَارُ طَلُ

وَصَبَا بَلِيلٌ ذَيْلُهَا مِكْسَالُ
فِي جَانِبَيْهَا لِلنَّسِيمِ مَجَالُ
وَالْآسُ صُدُغٌ وَالْبَنْفُسُجُ خَالُ

جِمَاحٌ وَبِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ جِرَانُ
لَهَا مِنْ سَوَادِي غَارِضِهِ دُخَانُ
كَمَا آعَوْجٌ فِي دِرْعِ الْكَمِيِّ سِنَانُ

عُقَارًا نَمَاهَا الْكَرْمُ فَهِيَ كَرِيمَةٌ
وَقَدْ جَالَ مِنْ جَوْنِ الْعَمَامَةِ أَذْهَمُ
وَضَمَّحَ دِرْعُ الشَّمْسِ نَحَرَ حَدِيقَةٍ
وَنَمَتْ بِأَسْرَارِ الرِّبَاضِ خَمِيلَةٌ
وَلَمْ تَزِنْ بِابْنِ الْمُزْنِ فَهِيَ حَصَانُ
لَهُ الْبَرْقُ سَوَاطِ وَالسَّانُ عِنَانُ
عَلَيْهِ مِنَ الطَّلِّ السَّقِيطِ جُمَانُ
لَهَا التَّوَرُّ ثَعْرٌ وَالنَّسِيمُ لِسَانُ

والقائل :

وَأَشْقَرُ تَضَرُّمٍ مِنْهُ الْوَعَى
مِنْ جُلَّتَارٍ نَاضِرٍ لَوْنُهُ
تَطْلُعُ لِلْغُرَّةِ فِي شُقْرَةٍ
بِشُعْلَةٍ مِنْ شُعْلِ الْبَاسِ
وَأُذُنُهُ مِنْ وَرَقِ الْآسِ
حَبَابَةٌ تَضْحَكُ فِي كَاسِ

وهل منكم من يقول منادماً لنديمه، وقد باكر روضاً بمحسوب وكأس، فألفاه
قد غطى محاسنه ضباب، فخاف أن يكسل نديمه عن الوصول إذا رأى ذلك،
وهو الحسن بن بسام :

أَلَا بَادِرُ فَمَا ثَانٍ سِوَى مَا
وَلَا تَكْسِلُ بِرُؤْيَيْهِ ضَبَاباً
فَإِنَّ الرُّوضَ مُلْتَثِمٌ إِلَى أَنْ
عَهِدْتَ الْكَأْسُ وَالْبَدْرُ التَّمَامُ
تَعْصُ بِهِ الْحَدِيقَةُ وَالْمُدَامُ
نُؤَافِيهِ فَيَنْحَطُّ اللَّثَامُ

وهل منكم من تغزل في غلام حائك بمثل قول الرصافي :
قَالُوا وَقَدْ أَكْثَرُوا فِي حُبِّهِ عَذْلِي
فَقُلْتُ لَوْ كَانَ أَمْرِي فِي الصَّبَابَةِ لِي
عَلِقْتُهُ حَبِيبِي الشَّعْرِ عَاطِرُهُ
غَزِيلٌ لَمْ تَزَلْ فِي الْعَزْلِ جَائِلَةٌ
جَذْلَانِ نَلْعَبُ بِالْمِسْوَالِ أُمْلُهُ
صَمًّا بِكَفِّهِ أَوْ فَحْصًا بِأَخْمَصِهِ
لَوْ لَمْ تَهْمُ بِمُدَالِ الْقَدْرِ مُبْتَدَلِ
لَاخْتَرْتُ دَاكَ وَلَكِنْ لَيْسَ ذَلِكَ لِي
حُلُوَ اللَّمَى سَاجِرَ الْأَجْفَانِ وَالْمُقْلِ
بَنَانُهُ جَوْلَانِ الْفِكْرِ فِي الْعَزْلِ
عَلَى السَّدى لَعِبَ الْأَيَّامِ بِالْأَجْلِ
نَخَبْتُ الظُّبِي فِي أَشْرَاكِ مُحْتَبِلِ

ومثل قوله في تغلب مسكة الظلام على خلوق الأصيل :
وَعِشِّي رَائِقٍ مَنْظَرُهُ
وَكَانَ الشَّمْسُ فِي اثْنَائِهِ
وَالصَّبَا تَرَفَّعَ أَذْبَالُ الرُّبَا
قَدْ قَطَعْنَاهُ عَلَى صِرْفِ الشُّمُولِ
الْصَفْتِ بِالْأَرْضِ خَدًّا لِلتَّزْوُلِ
وَمُحَبَّا الْجَوِّ كَالنَّهْرِ الصَّفِيلِ

حَبَا مَنَزَلُنَا مُعْتَبَقًا حَيْثُ لَا يَطْرُقُنَا غَبْرُ الْهَدِيلِ

وهل منكم من وصف غلاماً جميلاً الصورة راقصاً بمنزل قول ابن خروف :
وَمُنَزَّعِ الْحَرَكَاتِ يَلْعَبُ بِالنُّهَى لَبَسَ الْمَحَاسِنَ عِنْدَ خَلْعِ لَبَاسِهِ
مُتَأَوِّدًا كَالْعُصْنِ وَسَطَ رِيَاضِهِ مُتَلَاعِبًا كَالظُّبْيِ عِنْدَ كِبَاسِهِ
بِالْعَقْلِ يَلْعَبُ مُدِيرًا أَوْ مُقْبِلًا كَالدَّهْرِ نَلْعَبُ كَيْفَ شَاءَ بَنَاسِهِ
وَيَضُمُّ لِلْقَدَمَيْنِ مِنْهُ رَأْسَهُ كَالسَّيْفِ ضَمَّ ذُبَابُهُ لِرِيَايَسِهِ

وهل منكم من وصف خالاً بأحسن من قول النشار :
الْوَامِي عَلَى كَلْفِي بِحَبِّي مَتَى مِنْ حُبِّهِ أَرْجُو سَرَاخَا
وَيَنْنِ الْخَدَّ وَالشَّفَتَيْنِ خَالٌ كَرْنِحِي أَتَى رَوْضًا صَبَاحَا
تَحَيَّرَ فِي جَنَاهُ فَلَيْسَ بِدَرِي أَيْجِنِي الْوَرْدَ أَمْ يَجْنِي الْأَقَاخَا

وهل منكم الذي اهتدى إلى معنى في لثم وردة الخد، ورشف رضاب الشجر
لم يهتد إليه أحد غيره، وهو أبو الحسن بن سلام المالقي في قوله :
لَمَّا ظَفِرْتُ بِلَيْلَةٍ مِنْ وَصْلِهِ وَالصَّبُّ غَيْرُ الْوَصْلِ لَا يَشْفِيهِ
أَنْضَجْتُ وَرْدَةَ خَدِّهِ بِتَنْفُوسِي وَطَفِقْتُ أَرْشِفُ مَاءَهَا مِنْ فِيهِ^(١)

وهل منكم أعمى قال في ذهاب بصره، وسواد شعره، وهو الطليطلي :
أَمَّا أَشْتَفْتُ مَيَّ الْأَيَّامِ فِي وَطْنِي حَتَّى تُضَايِقَ فِيمَا عَنْ مِنْ وَطْرِي
وَلَا قَضَتْ مِنْ سَوَادِ الْعَيْنِ حَاجَتَهَا حَتَّى تَكُرَّ عَلَى مَا طَلَّ فِي الشَّعْرِ

وهل نساءً عندكم من النساء مثل ولادة المروانة^(٢)، ومنل زينب بنت زباد
المؤدب التي نقول :

وَلَمَّا أَبَى الْوَأَشُونَ إِلَّا فِرَاقَنَا وَمَا لَهُمْ عِنْدِي وَعِنْدَكَ مِنْ تَارِ
وَسُنُّوا عَلَى أَسْمَاعِنَا كُلِّ غَارَةٍ وَقَلَّ حُمَاتِي عِنْدَ ذَاكَ وَأَنْصَارِي
غَزَوْتُهُمْ مِنْ مُقْلَتِي وَأَدْمُعِي وَمِنْ نَفْسِي بِالسَّيْفِ وَالسَّيْلِ وَالنَّارِ

(١) حدفنا هنا جملة من كلام الناصبي لم ير لها أهمية.

(٢) أسند لها بنين لم ير لهما قيمة .

ثم قال الشقندي بعد كلام : وأنا أختم هذه القطع المتخيرة بقول أبي بكر ابن بقي ليكون الختام مسكاً :

عَاطِيَّتُهُ وَاللَّيْلُ يَسْحَبُ ذَيْلَهُ صَهْبَاءُ كَالْمِسْكِ الْفَتِيْفِ لِنَاشِقِ
وَضَمَمْتُهُ ضَمَّ الْكَمِيِّ لِسَيْفِهِ وَذُؤَابَتَاهُ حَمَائِلٌ فِي عَاتِقِي
حَتَّى إِذَا مَالَتْ بِهِ سِنَّةُ الْكَرَى زَحَزَحْتُهُ شَيْئاً وَكَانَ مُعَانِقِي
بَاعَدْتُهُ عَنْ أَضْلَعِ تَشْتَاقُهُ كَيْلًا يَنَامُ عَلَى وَسَادِ خَافِقِ^(١)

وقول الفاضل أبي حفص بن عمر القرطبي :

هُمُومٌ نَظَرُوا فَهَامُوا وَنَشَرَبُ لُبَّ شَارِبِهَا الْمُدَامُ
بَخَافُ النَّاسِ مُقْلَتَهَا سِوَاهَا أَيَذْعُرُ قَلْبَ حَامِلِهِ الْحُسَامُ
سَمَا طَرَفِي إِلَيْهَا وَهَوَ بَاكِ وَتَحْتَ الشَّمْسِ يَنْسِكِبُ الْعَمَامُ
وَأَذْكَرُ قَدَّهَا فَأَنُوحُ وَجِداً عَلَى الْأَغْصَانِ تَنْدِبُ الْحَمَامُ
وَأُعْقِبَ بَيْنَهَا فِي الصَّدْرِ عَمَّا إِذَا غَرَبَتْ ذُكَاؤُ أَتَى الظَّلَامُ

وبقوله أيضاً :

لَهَا رِذْفٌ تَعَلَّقَ فِي لَطِيفٍ وَذَاكَ الرِّذْفُ لِي وَلَهَا ظَلُومُ

(١) كتب إلينا الأديب محمد بن عباس القبايج أن ريس شباب الأندلس صفوان بن إدريس المتوفى سنة ثمان ونسعين وخمسمائة عن سن لا تتجاوز السابعة والثلاثين، عارض أبيات الشقندي فقال :

يا حسه والحسن بعض صفاته والسحر مقصور على حركاته
نسا شعشع والعفاف رقيننا حمري من غزلي ومن كلماته
ضاجعته والليل يذكى نحتنا نارب من نفسي ومن جميع وجناته
وصممته صم الخلل لالمه يحو عليه من جميع جهاته
أوئفته في ساعدي لأنه طي حسبت عليه من فلتاته
والمل يرغ أن يصير ساعدا لفوز بالآمال من صماته
حتى إذا هام الكرى بخفوه وامتد في عضدي طوع ساته
عزم الغرام علي في تقيله فشيت أبدي الطوع عن عزماته
وأى عفافي أن أفل نغره والقلب مطوى على حمراته
فاعجب للملح الخواثع علنه شكوا الظلما والماء في لهوائه

يُعَذِّبُنِي إِذَا فَكَّرْتُ فِيهِ وَيُتَعَبِّهَا إِذَا هَمَّتْ تَقُومُ

تلك أيها القارئ نفحة الأندلسي، رأينا أن نمهد بها لدرس قصيدة ابن دراج الذي أوصاه أميره المنصور بن أبي عامر بمعارضة أبي نواس كما ذكر ابن خلكان، وإنا لنترجو أن يكون فيما اقتطفناه تذكرة لطلاب الأدب، وتبصرة لعشاق البيان، فقد مضت عهود على نهضة الشعر في مصر ولم نجد من الباحثين من قيّد ما ابتكره شعراؤنا في العصر الحديث من المعاني الجديدة، وما ابتدعوه من الصور الطريفة، مع حرصهم على أن يمثل أغراض الحياة، وأطماع العقول، وألوان النفوس، وأهواء القلوب.

البحث السابع والعشرون

حياة ابن دراج

كان أبو عمر أحمد بن درّاج القسطلّي المتوفى سنة ٤٢١ للهجرة من كبار الشعراء، وكان بصقُع الأندلس كالمتنبّي بصقُع الشام، كما قال صاحب البتيمة، وكان له ديوان شعر في جزأين، كما ذكر صاحب وفيات الأعيان، وكان يجيد النثر، كما نص صاحب الذخيرة، ولكن الزمان لم يترك لنا ما نعرف به صدق ما قاله في وصفه مؤرخو الآداب، فقد ضاع ديوان شعره^(١)، وضاعت رسائله البليغة، ولم يبق من آثار فضله إلا بقايا ضئيلة لا تكفي في الابانة عن منزلته في عالم البيان. ولنذكر أولاً ما قاله المؤرخون في وصفه، ثم نتقل إلى وصف نثره وشعره بقدر ما تسمح به الشواهد والأمثال.

قال ابن بسام في الذخيرة « كان أبو عمر القسطلّي في وقته لسان الجزيرة شاعراً وأولاً حين عدّ معاصريه من شعرائها، وآخر حامل لوائها، وبهجة أرضها وسمائها وأُسوة كتابها وشعرائها... به بُدئ ذكر الجميل وختم، حل اسمه من الأماني محل الأنس، وأحد من تضاءلت الأول عن جلالة قدره، وكانت الشام والعراق خطر ذكره، وقد أحرى الثعالبي طرفاً من أمره، وأغرب بلمع من شعره » ثم قال « وإنما

(١) سيري القارئ في هامش مقبل أن الديوان لم يضع.

ذكرنه هنا وإن كان من شعراء ابن أبي عامر لأنه تراحت أيامه، وأغضى عنه حمامه، حتى أخرجه المحن، وسالت به تلك الفتى.»

والقارئ يرى في عبارة ابن بسام شيئاً من اللبس والغموض، وهذا يرجع إلى سببين : أولهما أن كتاب الدخيرة مُنِيّ بالمسخ والتحريف، ولا يزال إلى الآن مخطوطاً يجده الباحث في دار الكتب المصرية، وثانيهما أن ابن بسام يؤثر السجع، والسجع قيّد يضطر الكاتب إلى التعتّر، فتظهر في عباراته آثار الضعف والاضطراب.

وقال أبو حيان : « أبو عمر القسطلّي سابق حلبة الشعراء العامريين، وخاتمة محاسن أهل الأندلس أجمعين، كان ممن طوّحت بهم تلك الفتنة الشنعاء، واضطرتّه إلى النجعة، فاستقرى ملوك الأندلس أجمعين، يهزّ كلّاً بمدحه، ويستعينه على نكبتهم وليس منهم من يصغي له، أو يحفظ ما أضيع من حقه، وأرخص من عقله وهو يخبّطهم بمقوله^(١) فيصمّون عنه، إلى أن أناخ بساحة المنذر بن يحيى أمير سرقسطة، فألقى عصا سيره عندما بوأه، ورحب به وأوسع قراه، ولم يزل عنده وعند ابنه بعده.»

وقال ابن فضل الله، كما ذكر صاحب معاهد التنصيص بعد ذكر قصيدة ابن دراج التي عارض بها أبا نواس :

« ومن وقف على هذه القصيدة وقصيدة أبي نواس عرف فضل قائلها على مَنْ تقدم، وشهد له بأنه سبق وإن تأخر، وجزم بأن الرجال معادن، ولم يشك أن الخواطر موارد لا تنزح، وأن الأفكار مصابيح لا تطفأ، وأن الأفهام مرآء لا تتناهى صورها، وأن العقول سحائب لا ينفد مطرها، وعلم أن المعاني غير متناهية، والفضائل غير متوارية، وأن أم الليالي ولود، وأن الفضل في كل حين مشهود، وإن هذا الشاعر في قصيدته هذه التي عارض بها أبا نواس، لم يدع له عارضاً يُستمطر، ولا عارضة تُذكر. وإنه لتحقيق أن ينشد :

(١) المقول : اللسان.

وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ الْأَخِيرَ زَمَانُهُ لَأَتِ بِمَا لَمْ تَسْتَطِيعَهُ الْأَوَائِلُ
وكذلك كانوا يرون في ابن دراج شاعراً مفلحاً ييخل بمثله الزمان، ولكن
عدوان الحوادث على آثاره الأدبية حال بيننا وبين التثبت من صدق ما حكم به
المتقدمون.

شيء من نثره

بغلب السجع في نثر ابن دراج، ويجد فيه القارئ شيئاً من مستملح التشبيه،
ولنذكر القطعة الآتية على سبيل التمثيل :

« حاش لله أن أَسْتَشْفَ المسيلَ قبل جُؤْمُوهِ، وأَسْتَكْرِه الدَّرَّ قبل حُفُولِهِ، أو
أَتَعَامَى عن سراجِ المَعْدَرَةِ، وأَغْفَلَ عن الأدبِ الباهرِ في نَظَرَةٍ إلى ميسرة... ولكن.
مَاذَا تَقُولُ لِأَفْرَاحٍ بِذِي مَرَخٍ حُمُرِ الحَوَاصِلِ لَا مَاءٌ وَلَا شَجَرُ
مَا أَوْضَحَ العُذْرَ لِي لَوْ أَنَّهُمْ عَذَرُوا وَأَجْمَلَ الصَّبْرَ بِي لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا
لَكِنَّهُمْ صَعُرُوا عَنْ أَرْمَةِ كَبُرَتْ فَمَا اعْتَذَارِي عَمَّنْ عَذَرُهُ الصَّعُرُ
وقد قلبت لهم ظهر بجن الأمور، وميزت بين الميسور والمعسور، فما وجدت
أحسن بدءاً، ولا أحمد عوداً، مما أذن الله لعباده الذين أعمرهم أرضه، وسخر
لهم بحره وبره، أن يمشوا في مناكبها ويأكلوا من رزقه، وحيث نتقلب ففي كرمك،
وأين نأمن ففي حرملك، وحيث توحشنا دعوتك، ولا نعدمنا نعمتك، فمن ملكك
إلى ملكك، ومن يمينك إلى شمالك ».

وفي كتاب الذخيرة عدة قطع على هذا الأسلوب، وإن كنت أرتاب في
نصوصها لما في ذلك الكتاب من التحريف.

شيء من شعره

نعود فنذكر أن الدهر ضنّ علينا بآثار هذا الشاعر المجيد، فليرض القارئ بما
نختاره من تلك القصائد التي أثبتنا صاحب اليتيمة، أحسن الله له الجزاء، وإنا
لنستعيد قوله في لوعة الشوق :

وَحَشِيَّةَ اللَّفْظِ هَلْ يُودَى قَتِيلُكُمْ
 إِنِّي أَرَاكَ بِقَتْلِ النَّفْسِ حَازِقَةً
 مَالِي وَلِلْبَرْقِ أَسْتَسْقِيهِ مِنْ ظَمًا
 لَوْلَا الصُّلُوعُ لَظَلَّ الْقَلْبُ نَحْوَكُمْ
 أَصْلَيْتَنِي لَوْعَةَ الْهَجْرَانِ ظَالِمَةً
 دَمِي مُضَاعٌ وَجَانِي ذَاكَ عَيْنَاكَ
 قَوْلِي فَدَبْتُكَ مَنْ بِالْقَتْلِ أَوْصَاكَ
 هَيْهَاتَ لَا رِيَّ إِلَّا مِنْ ثَنَائِكَ
 ضَعِي بِعَيْتِكَ فَوْقَ الْقَلْبِ يُمْنَاكَ
 رُحْمَاكَ مِنْ لَوْعَةِ الْهَجْرَانِ رُحْمَاكَ

ونستجيد قوله في وصف السفن تشق عباب المحيط :

إِلَيْكَ شَحْنَا الْفُلْكَ تَهْوِي كَانَهَا
 وَقَدْ دُعِرَتْ عَنْ مَغْرِبِ الشَّمْسِ غَرْبَانُ
 عَلَى لُجَجٍ خُضِرَ إِذَا هَبَّتِ الصَّبَا
 تَرَامَى بِنَا فِيهَا ثَيْرٌ وَثَهْلَانُ
 وَإِنْ سَكَنْتَ عَنَّا الرِّيحُ جَرَى بِنَا
 زَفِيرٌ إِلَى الْأَجْبَةِ حَنَانُ
 يُقْلَنَ وَمَوْجُ الْبَحْرِ وَالْهَمُّ وَالذُّجَى
 تَمْوِجُ بِنَا فِيهَا عُيُونٌ وَآذَانُ
 أَلَا هَلْ إِلَى الدُّنْيَا مَعَادٌ وَهَلْ لَنَا
 سِوَى الْبَحْرِ قَبْرٌ أَوْ سِوَى الْمَاءِ أَكْفَانُ
 وَهَبْنَا رَأَيْنَا مَعْلَمَ الْأَرْضِ هَلْ لَنَا
 مِنْ الْأَرْضِ مَأْوًى أَوْ مِنَ الْإِنْسِ عَرْفَانُ
 هَوَتْ أُمُّهُمْ مَاذَا هَوَتْ بِرِجَالِهِمْ
 إِلَى نَازِحِ الْآفَاقِ سُفْنٌ وَأُظْعَانُ
 كَوَاكِبُ إِلَّا أَنَّ أَفْلَاكَ سِيرَهَا
 زِمَامٌ وَرَحْلٌ أَوْشِرَاعٌ وَسُكَّانُ

وفي هذه القصيدة يقول في شكوى الزمان، وتوديع الأحباب :

وَإِنَّ بِلَادًا أَخْرَجْتَنِي لِعَاطِلٍ
 وَإِنَّ زَمَانًا خَانَ عَهْدِي لَخَوَانُ
 سَلَامٌ عَلَى الْإِخْوَانِ تَسْلِيمٌ آيسٍ
 وَسَقِيًّا لِدَهْرٍ كَانَ لِي فِيهِ إِخْوَانُ

فَلَا مُؤْنِسٌ إِلَّا شَهِيقٌ وَزَفْرَةٌ
وَمَا كَانَ ذَاكَ الْبَيْنُ بَيْنَ أَحَبَّةٍ
وَلَا مُسْعِدٌ إِلَّا دُمُوعٌ وَأَجْفَانُ
وَلَكِنْ قُلُوبٌ فَارَقَتْهُنَّ أَبْدَانُ

وما أوجع ما يقول :

فَيَا عَجَباً لِلصَّبْرِ مِنَّا كَأَنَّا
مَضَى عَيْشُهُمْ بَعْدِي وَعَيْشِي بَعْدَهُمْ
لَهُمْ غَيْرُ مَنْ كُنَّا وَهُمْ غَيْرُ مَنْ كَانُوا
كَأَنِّي قَدْ خُنْتُ الْوَفَاءَ وَقَدْ خَانُوا

ومن مختار القصيد قوله :

لَكَ اللَّهُ بِالنَّصْرِ الْعَزِيزِ كَفِيلُ
هُوَ الْفَتْحُ أَمَّا يَوْمُهُ فَمُعْجَلُ
وَأَيَّاتُ نَصْرٍ مَا تَزَالُ وَلَمْ تَزَلْ
سُيُوفٌ تُنِيرُ الْحَقَّ أَنَّى انْتَضَيْتَهَا
أَلَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ غَزُوكَ مِنْ غَوَى
لَئِنْ صَدَيْتُ أَلْبَابَ قَوْمٍ بِمَكْرِهِمْ
وَأِنْ يَحْيَى فِيهِمْ مَكْرٌ جَالُوتَ جَدَّهُمْ
خَفِيفٌ عَلَى ظَهْرِ الْجَوَادِ إِذَا عَدَا
وَجَرْدَاءُ لَمْ تَبْخُلْ يَدَاهَا بَغَايَةَ وَلَا
لَهَا مِنْ خَوَافِي لِقْوَةِ الْجَوِّ أَرْبَعُ
وَيَبِضُّ تَرَكْنَ الشُّرْكَ فِي كُلِّ مُنْتَأَى
تَمُورُ دِمَاءُ الْكُفْرِ فِي شَفَرَاتِهَا
وَأُسْمَرُ ظَمَانِ الْكُعُوبِ كَأَنَّمَا
إِذَا مَا هَوَى لِلطَّعْنِ أَتَيْتَ أَنَّهُ

أَجَدَّ مَقَامٌ أَمْ أَجَدَّ رَحِيلُ
إِلَيْكَ وَأَمَّا صُنْعُهُ فَجَزِيلُ
بِهِنَّ عَمَايَاتُ الضَّلَالِ تَزُولُ
وَحَيْلٌ يَجُولُ النَّصْرُ حَيْثُ تَجُولُ
وَضَلَّ بِهِ فِي النَّاكِثِينَ سَبِيلُ
فَسَيْفُ الْهُدَى فِي رَاحَتِكَ صَقِيلُ
فَأَحْجَارُ دَاوُدَ لَدَيْكَ مَثُولُ
وَلَكِنْ عَلَى صَدْرِ الْكَمِيِّ ثَقِيلُ
كَرُّهَا نَحْوَ الطَّعَانِ بِخَيْلُ
وَكَشْحَانِ مِنْ ظِيِّ الْفَلَاحِ وَتَلِيلُ
فُلُولاً وَمَا أُرْزَى بِهِنَّ فُلُولُ
وَيَرْجِعُ عَنْهَا الطَّرْفُ وَهُوَ كَلِيلُ
بِهِنَّ إِلَى شَرْبِ الدِّمَاءِ غَلِيلُ
بَصْرَفِ الرَّدَى نَحْوَ التُّفُوسِ رَسُولُ

وفيها يقول :

كَتَائِبُ عَزَّ النَّصْرُ فِي جَنَابَاتِهَا
يَسِيرُ بِهَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَائِدُ
إِذَا انْشَقَّ لَيْلُ الْحَرْبِ عَنْ صُبْحِ وَجْهِهِ
وَكُلُّ عَزِيزٍ يَمَمْتُهُ ذَلِيلُ
يَسِيرُ عَلَيْهِ الْخَطْبُ وَهُوَ جَلِيلُ
فَقَدْ حَانَ مِنْ يَوْمِ الضَّلَالِ أَفُولُ

وله قصيدة عينية بديعة نوهت بها الذخيرة، ولكنها لم نسلم من النحرif
نختار منها قوله .

فَمَا تَجَاوَزْتُ قَرْنَ اللَّيْلِ مُعْتَسِفًا
تَحْيِي مِنْهُ تَقْبِيلٌ وَمُعْتَنَقٌ
لَمْ أَخْلَعْ الدَّرْعَ إِلَّا حِينَ شَفَقَهُ
وَلَا تَوَقَّيْتُ سَهْمًا مِنْ لَوَاحِظِهِ
غَضَبٌ تَجَرَّعَ أُنْدَاءَ الْعَمَامِ فَمَا
يَمِيسُ سُكْرًا وَسُكْرُ الدَّلِّ عَاطِفُهُ
فَبِتُ تَحْتَ رِوَاقِ اللَّيْلِ ثَانِيَهُ
وَالسَّحَرُ مِنْ لَفْظٍ يُنَازِعُنِي
رَاحًا يَمُدُّ سَنَاهَا نُورُ رَاحَتِهِ
كَأَنَّمَا ذَابَ فِيهَا وَرْدٌ وَجَنَّتِيهِ
جَنَى حَيَافٍ ذَنَتْ مِنِّْي مَطَاعِمُهُ
قَدْ أَنْهَبَ الْمِسْكَ وَالْكَافُورَ خَازِنُهُ
فِيَا ظِلَامَ نُجُومِ اللَّيْلِ إِذْ حُرِمْتُ
وَيَا حَيْنَ ظِلْبَاءِ الْقَفْرِ إِذْ فَقَدْتُ

إِلَّا وَفَرْنُ رَحِيمِ الدَّلِّ بَارِعُهُ
بُسْدُنِي غُلَّهُ فِيهِ وَجَامِعُهُ
عَنْ صَفْحِ صَدْرِي مَا تَحْوِي مَدَارِعُهُ
يُذِيبُ سَيْفِي وَفِي قَلْبِي مَوَاقِعُهُ
يُطَوِّقُ الدَّهْرَ إِلَّا وَهْوَ جَازِعُهُ
وَنَارَةٌ وَانْتِثَاءُ الْوُشْيِ لَازِعُهُ
وَالشُّوقُ ثَالِثُنَا وَالْوَضَلُ رَابِعُهُ
وَالْمِسْكَ يَعْبِقُ مِنْ كَأْسٍ أَنْزَاعُهُ
لَوْلَا التَّهْيُّ لَجَرَّتْ فِيهَا أَصَابِعُهُ
وَشَجَّهَا رِيْقُهُ الْمَغْسُولُ مَائِعُهُ
مِنْ بَعْدِ مَا قَدْ نَأَتْ عَنِّي مَطَامِعُهُ
وَأَرْخِصُ الْوَرْدَ وَالتَّقَاحَ بَائِعُهُ
بَدَرُ السَّمَاءِ وَفِي حِجْرِي مَضَاجِعُهُ
غَزَالَهُنَّ وَفِي رَوْضِي مَرَاتِعُهُ

رائية ابن دراج

وأشهر قصائد ابن دراج رائيته في مدح المنصور بن أبي عامر التي عارض
بها رائية أبي نواس في مدح الخصب، وقد صن الدهر علينا أيضاً بهذه
القصيدة، فلم تبق منها إلا قطع مبعثرة هنا وهناك^(١)، وقد راجعت كل ما
وصلت إليه من تاريخ الأندلس، وسألت كل من أعرف أنه شغل بناريخ

(١) أصبح القصيدة كلها تحت يدنا، وعرفنا أن الدوان لم يضع، فهو في مخطوطات حراة المؤرخ
الكبير القبط مولاى عبد الرحمن بن زبدان من أمراء البيت الملكي في المغرب، وقد نفضل
السيد محمد بن عباس الفساج، فأرسل إلنا الرائية كاملة، فله منا أطيب التناء.

الأدب في تلك البلاد، ثم لم أظفر بمطلع هذه القصيدة، وإنما يبدعون بقوله :
 أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّ الثَّوَاءَ هُوَ التَّوَى وَأَنَّ يُيُوتَ الْعَاجِزِينَ قُبُورُ
 ومن البعيد أن يكون هذا البيت هو المطلع، إذ يبعد أن لا يضع الشاعر
 مقدمة لهذا الحوار^(١)

ولنأخذ في الموازنة فنذكر أن قول أبي نواس :
 تَقُولُ الَّتِي مِنْ بَيْتِهَا حَفَّ مَرْكَبِي عَزِيزٌ عَلَيْنَا أَنْ نَرَكَ تَسِيرُ
 أَمَّا دُونَ مِصْرٍ لِلْغَنَى مُتَطَلِّبٌ بَلَى إِنَّ أَسْبَابَ الْغَنَى لَكَثِيرُ
 فَقُلْتُ لَهَا وَاسْتَعْجَلْتَهَا بِوَادِرٍ جَرَتْ فَجَرَى مِنْ جَرِينٍ عَبِيرُ
 دَعِينِي أَكْثَرُ حَاسِدِيكَ بِرِحْلَةٍ إِلَى بَلَدٍ فِيهِ الْخَصِيبُ أَمِيرُ

هذه القطعة دون قول ابن دراج :
 أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّ الثَّوَاءَ هُوَ التَّوَى وَأَنَّ خَطِيرَاتِ الْمَهَالِكِ ضُمْنُ
 وَأَنَّ خَطِيرَاتِ الْمَهَالِكِ ضُمْنُ وَانْخَوْفْنِي طُولَ السَّفَارِ وَإِنَّهُ
 دَرِينِي أَرْدُ مَاءَ الْمَفَاوِزِ آجِنًا إِلَى حَيْثُ مَاءُ الْمَكْرُمَاتِ نَمِيرُ

وقد بلغ ابن دراج ذروة البلاغة، وبذا أبا نواس وَبَرَعةً، بقوله في توديع زوجته
 ووليدته :

وَلَمَّا تَدَانَتْ لِلْوَدَاعِ وَقَدْ هَفَا بِصَبْرِي مِنْهَا أَنَّهُ وَزْفِيرُ
 تُنَاشِدُنِي عَهْدَ الْمَوَدَّةِ وَالْهَوَى وَفِي الْمَهْدِ مَبْعُومُ النَّدَاءِ صَغِيرُ
 عَيْيٍ بِمَرْجُوعِ الْخِطَابِ وَلِحْظُهُ بِمَوْقِعِ أَهْوَاءِ النُّفُوسِ خَبِيرُ
 تَبَوَّأَ مَمْنُوعَ الْقُلُوبِ وَمُهَّدَتْ لَهُ أَذْرُعَ مَحْفُوفَةٍ وَنُحُورُ
 عَصِيْتُ شَفِيعَ النَّفْسِ فِيهِ وَقَادَنِي رَوَاحُ لِتَدَابِ السَّرَى وَبُكُورُ

(١) هذا هو المطلع :

دعي عزماب المستضام نسير ونجد في عرض الفلا وتعود
 لعل بما أشحاك من لوعه النوى بعز ذليل أو يفلك أسر

وَطَارَ جَنَاحُ الْبَيْتِ بِي وَهَفَّتْ بِهَا
لَيْنٌ وَدَعَّتْ مِنِّي غَيُورًا فَإِنِّي
ولا لوم على أبي نواس في أن خلت قصيدته من مثل هذا الموقف الحزين،
إذ لم يترك ببغداد زوجا ينازعه إليها الوفاء، ولا طفلاً نعطفه إليه نوازع الشوق
ولواعج الحنين.

وأحب أن لا يفوت القارئ ترجيع هذا البيت :
تُنَاشِدُنِي عَهْدَ الْمَوَدَّةِ وَالْهَوَى وَفِي الْمَهْدِ مَبْغُومُ النَّدَاءِ صَغِيرُ
وكلمة « مبعوم النداء » كلمة مختارة بارعة المدلول، وقوله :
عَمِي بِمَرْجُوعِ الْخِطَابِ وَلَحْظُهُ بِمَوْقِعِ أَهْوَاءِ النَّفُوسِ خَيْرُ
بيت نادر المثال، وقوله :

تَبَوُّاً مِمَّنُوعِ الْقُلُوبِ وَمُهَّدَتْ لَهُ أَذْرُعَ مَحْفُوفَةٍ وَنُحُورُ
من أرق ما صور به الحنان، وما أوجع ما يقول :
عَصِيْتُ شَفِيعَ النَّفْسِ فِيهِ وَقَادَنِي رَوَاحُ لِنْدَابِ السَّرَى وَبُكُورُ
وَطَارَ جَنَاحُ الْبَيْتِ بِي وَهَفَّتْ بِهَا جَوَانِحُ مِنْ دُغْرِ الْفِرَاقِ تَطِيرُ
وانظر تصوير الحزم بقوله :

لَيْنٌ وَدَعَّتْ مِنِّي غَيُورًا فَإِنِّي عَلَى عَزَمَتِي مِنْ شَجْوِهَا لَعُيُورُ
وقول أبي نواس :

وَلَمَّا أَتَتْ فُسْطَاطَ مِصْرَ أَجَارَهَا عَلَى رَكْبِهَا الْأَنْزَالَ مُجْبِرُ
مِنَ الْقَوْمِ بَسَامٌ كَانَ جَبِينُهُ سَنَا الْفَجْرِ يَسْرِي ضَوْؤُهُ وَيُنِيرُ
زَهَا بِالْخَصِيبِ السَّيْفِ وَالرَّمْحِ فِي الْوَعَى فِي السَّلْمِ يَزْهُو مَبْرٌ وَسَرِيرُ
جَوَادٌ إِذَا الْأَبْدَى كَفَفْنَ عَنِ النَّدَى وَمِنْ دُونِ عَوْرَاتِ النَّسَاءِ غَيُورُ
لَهُ سَلَفٌ فِي الْأَعْجَمِينَ كَانَهُمْ إِذَا اسْتَوْذِنُوا يَوْمَ السَّلَامِ نُدُورُ

في هذه القطعة سلاسة وجلاء، وهي أروع من قول ابن دراج :

تَلَاَقَتْ عَلَيْهِ مِنْ تَمِيمٍ وَيَعْرُبٍ
مِنَ الْجَمِيرَيْنِ الَّذِينَ أَكْفَهُمْ
هُمُ صَدَّقُوا بِالْوَحْيِ حِينَ آتَاهُمُ
مَنَاقِبُ يَعْيَا الْوَصْفُ عَنْ كُنْهٍ قَدَرِهَا
أَلَّا كُلُّ مَدْحٍ عَنْ نَدَاكَ مُقْصَرٌ
شُمُوسٌ تَلَالَا فِي الْعَلَا وَبُدُورُ
سَحَائِبُ تَهْمِي بِاللَّيْلِ وَبُحُورُ
وَمَا النَّاسُ إِلَّا عَابِدٌ وَكَفُورُ
وَيَرْجِعُ عَنْهَا الْوَهْمُ وَهُوَ حَسِيرُ
وَكُلُّ رَجَاءٍ فِي سِوَاكَ غُرُورُ

ونحن حين نقابل هذه القطعة بكلمة أبي نواس نرى التكلف ظاهراً في
أبيات ابن دراج، وليتأمل القارئ قوله :

مَنَاقِبُ يَعْيَا الْوَصْفُ عَنْ كُنْهٍ قَدَرِهَا وَيَرْجِعُ عَنْهَا الْوَهْمُ وَهُوَ حَسِيرُ

فهو ظاهر الغلو، واضح التكلف، أما قوله :

هُمُ صَدَّقُوا بِالْوَحْيِ حِينَ آتَاهُمُ وََمَا النَّاسُ إِلَّا عَابِدٌ وَكَفُورُ

فهو بيت ضعيف.

وقد وصف أبو نواس رحلته إلى مصر وصفاً لا قيمة له، أما ابن دراج
فقد أجاد الوصف حين قال :

وَلَوْ شَاهَدْتَنِي وَالْهَوَاجِرُ تَلْتَظِي
أَسْلَطُ حَرَّ الْهَاجِرَاتِ إِذَا سَطَا
وَأَسْتَنْشِقُ النَّكْبَاءَ وَهِيَ لَوَافِحُ
وَلِلْمَوْتِ فِي عَيْنِ الْجَبَانِ تَلَوْنُ
وَلَوْ شَاهَدْتَنِي وَالسُّرَى جُلُّ عَزَمَتِي
وَأَعْتَسِفُ الْمَوْمَاةَ فِي غَسَقِ الدُّجَى
أَمِيرٌ عَلَى غُولِ التَّائِفِ مَالَهُ
وَقَدْ خَيَّلَتْ طُرُقَ الْمَجَرَّةِ أَنَّهَا
وَدَارَتْ نُجُومُ الْقُطْبِ حَتَّى كَانَهَا
لَقَدْ أَبَقَنْتُ أَنَّ الْمُئِي طَوْعُ هِمَّتِي
عَلَيَّ وَرَقْرَاقُ السَّرَابِ يَمُورُ
عَلَى حُرٍّ وَجْهِي وَالْأَصِيلُ هَجِيرُ
وَأَسْتَمِطِيءُ الرَّمْضَاءَ وَهِيَ تَفُورُ
وَلِلدُّعْرِ فِي سَمْعِ الْجَرِيءِ صَفِيرُ
وَجَرَسِي لِجَنَانِ الْفَلَاةِ سَمِيرُ
وَلِلْأَسَدِ فِي غَيْلِ الْغِيَاضِ زَيْرُ
إِذَا رِيحَ إِلَّا الْمَشْرِفِي وَزِيرُ
عَلَى مَفْرَقِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ قَتِيرُ
كَوُوسُ طَلَى وَالْيَ بِيَهْنٍ مُدِيرُ
وَأَنِّي بَعْطِفِ الْعَامِرِي جَدِيرُ

وهذا شعرٌ جَزَلٌ رصين، ومن الحزن أن السياق يدلنا على أن هذه القطعة الوصفية ضاع بها شيءٌ كثير^(١).

وقد انفرد ابن دراج بالإجادة في وصف هيبة اللقاء حين قال :
وَلَمَّا تَوَافَوْا لِلسَّلَامِ وَرُفِعَتْ
وَقَدْ قَامَ مِنْ زُرْقِ الْأَيْتَةِ دُونَهُ
رَأَوْا طَاعَةَ الرَّحْمَنِ كَيْفَ اعْتِزَارُهَا
وَكَيْفَ اسْتَوَى بِالْبِرِّ وَالْبَحْرِ مَجْلِسٌ
فَسَارُوا عِجَالاً وَالْقُلُوبُ خَوَافِقٌ
يَقُولُونَ وَالْإِجْلَالُ يُخْرِسُ النَّسَا
لَقَدْ حَاطَ أَعْلَامَ الْهُدَى بِكَ حَائِطٌ
وَصِفْ هَيْبَةَ اللَّقَاءِ حِينَ قَالَ :
عَنِ الشَّمْسِ فِي أَفْقِ الشَّرُوقِ سُتُورُ
صُفُوفٌ وَمِنْ بَيْضِ السُّيُوفِ سُلُورُ
وَأَيَاتِ صُنْعِ اللَّهِ كَيْفَ تُبَيِّرُ
وَقَامَ بِعِبَاءِ الرَّاسِيَّاتِ سَرِيرُ
وَأَذْنُوا بِطَاءٍ وَالتَّوَاطُرُ صُورُ
وَحَارَتْ عَيُونٌ مِنْهُمْ وَصُدُورُ
وَقَدَّرَ فِيكَ الْمَكْرُمَاتِ قَدِيرُ

وهذه الصورة الشعرية تراءت للشاعر بفضل قول البحرني في هيبة اللقاء :
وَلَمَّا قَضَوْا صَدَرَ السَّلَامِ تَهَافَتُوا
إِذَا شَرَعُوا فِي خُطْبَةٍ قَطَعَتْهُمْ
إِذَا نَكَّسُوا أَبْصَارَهُمْ مِنْ مَهَابَةٍ
نَضَبَتْ لَهُمْ طَرْفًا حَدِيدًا وَمَنْطِقًا
فَمَا بَرَّحُوا حَتَّى نَعَاطَتْ أَكْفُهُمْ
بِكَ التَّامَّ الشَّعْبُ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ
وَعَلَى يَدِ بَسَامٍ سَجِيئُهُ الْبَذْلُ
جَلَالَةٌ طَلَقَ الْوَجْهَ جَانِبُهُ سَهْلُ
وَمَالُوا بِلَحْظٍ خِلَتْ أَنْهَمُو قَبْلُ
سَدِيدًا وَرَأْبًا مِثْلَ مَا انْتَضَى النَّصْلُ
قِرَاكَ وَلَا ضَعْنٌ لَدَيْهِمْ وَلَا ذَحْلُ
عَلَى حَبْنٍ بَعْدَ مِنْهُ وَاجْتَمَعَ الشَّمْلُ

وأبيات البحرني في هيبة اللقاء انتهبا كثير من الشعراء. وأذكر أن فقيد الشباب عبد الحليم المصري قدم إلينا قصيدة لنشرها في جريدة الأفكار سنة ١٩٢٠ في مدح الملك فؤاد فوجهت نظره إلى ما انتهب من معاني البحرني، فغضب، ولم يصلح بيننا إلا الصديق عبد العزيز دعبيس.

(١) أشرت من قبل إلى أن هذه المصيدة صارت كلها بح دي بفضل صديهما الصاح.

البحث الثامن والعشرون

بين صبري ومطران

— ١ —

نوازن في هذا البحث بين نويتين من شعر إسماعيل صبري وخليل مطران ونرى من الخبر أن نذكر طائفة من أخبار إسماعيل صبري وأشعاره، ونبدأ فذكر أنه ولد في ١٦ فبراير سنة ١٨٥٤ وتوفي في مطلع الربيع صباح ٢١ مارس سنة ١٩٢٣، وكان من رجال القانون، وآخر منصب تولاه هو منصب وكيل وزارة الحقانية.

كان صبري شاعراً مجيداً، ولكنه لم يكن من المكثرين، وقد وصل إلى أبعد حدود التفوق في المعاني الوجدانية، واتفق له أن يغذي الغناء حيناً من الزمان، وهو صاحب الموال الذي كان يغنيه المطربون في أواخر السهرات :

الفَجْر آهُوَ لَاحُ فُومُوا يَا تُجَّارُ النُّومِ
عَجَبُ تَنَامُوا وَعَبِي مَا تُشَوِّفُ النُّومُ
نَزَلْتُ بَحْرَ الْمَحَبَّةِ أَحْسِبُ أَنَّهُ عُمُ
غَرِقْتُ قَالُوا جَمِيعِ النَّاسِ تَسْتَاهِلُ
عَشَقَ الْجَمَالَ غَنَدَرَهُ الْيَوْمَ وَغَيْرَ الْيَوْمِ

وهو صاحب هذا الدور :

قَلْدُكَ أَمِيرُ الْأَغْصَانِ	مَنْ غَيْرُ مُكَابِرٍ
وَوَرْدُ خَدِّكَ سُلْطَانِ	عَلَى الْأَزَاهِرِ
دَا الْحُبِّ كُلُّوَا أَشْجَانِ	بَا قَلْبِ حَاذِرِ
وَالصَّدِّ وَيَا الْهَجْرَانَ	جَزَا الْمُخَاطِرِ

دور

يَا قَلْبَ أَدِنْتَ حَبِّيتْ	وَرَجَعْتُ تَنَدَّمَ
وَصَبَحْتَ تَشْكِي مَا رَأَيْتْ	لَكَ حَدَّ يَرْحَمُ
صَدَقْتُ قَوْلِي وَرَأَيْتْ	ذُلَّ الْمُتَيْمِّمِ ...
يَا مَا نَصَحْتِكَ وَنَهَيْتْ	لَوْ كُنْتُ تَفْهَمُ

دور

أَغْرَضَ لِحُسْنِكَ أَوْرَاقُ	وَإِخْتُتُبْتُ وَدَوْنُ
وَأَبَاتُ صَرِيحِ الْأَشْوَاقِ	وَإِخْتُتُبْتُ وَخَمْنُ
دَا هَجْرٍ وَصَبَابَةٍ وَفِرَاقِ	يَبَارِبِّ هَوْنُ
وَأَرْحَمُ قُلُوبِ الْعُشَّاقِ	دَا شَيْءٍ يَجْنُنُ

وللقارئ أن يلاحظ أن هذا من الشعر الملحون، ولا يظهر حسنه إلا عند الغناء، وقد ظلت هذه الأدوار على ألسنة الجماهير المصرية زمناً غير قليل، وهي محفوظة في ألواح^(١)

ومضى صبري يفتنُ افتناناً شائقاً في مغازلة الصبابة، وهو صاحب القصيدة الماثورة « تمثال جمال » وفيها تظهر براعته في مناغة الحسناء :

(١) برد بالألواح : اسطوانات الغناء.

يَا لَوَاءَ الْحُسْنِ أَحْزَابُ الْهَوَى
فَرَّقَتْهُمْ فِي الْهَوَى ثَارَاتُهُمْ
إِنَّ هَذَا الْحُسْنَ كَالْمَاءِ الَّذِي
لَا تَذُودِي بَعْضَنَا عَنْ وَرْدِهِ
أَنْتِ يَوْمَ الْحُسْنِ فِيهِ آزَدَحَمَتِ
يَقْذِفُ الشَّوْقُ بِهَا فِي مَائِجٍ
شِدَّةً تَمْضِي وَتَأْتِي شِدَّةً
سَاعِفِي آمَالِ أَنْصَاءِ الْهَوَى
وَتَجْلِي وَآجَعِلِي قَوْمَ الْهَوَى
أَقِيلِي نَسْتَقْبِلِ الدُّنْيَا وَمَا
وَأَسْفِرِي تِلْكَ حُلَى مَا خُلِقَتْ
وَأَخْطِرِي بَيْنَ النَّدَامَى يَحْلِفُوا
وَأَنْطَقِي يَنْثُرُ إِذَا حَدَّثْنَا
وَأَبْسِمِي مَنْ كَانَ هَذَا ثَغْرُهُ
لَا تَخَافِي شَطَطاً مِنْ أَنْفُسِ
رَاضَتِ النَّخْوَةَ مِنْ أَخْلَاقِنَا
فَلَوْ آمَتَدَّتْ أَمَانِينَا إِلَى
أَنْتِ رُوحَانِيَّةٌ لَا تَدَّعِي
وَأَنْزِعِي عَنْ جِسْمِكَ الثُّوبَ يَبِينُ
وَأَرِي الدُّنْيَا جَنَاحِي مَلَكٍ

وهو أيضاً صاحب الأبيات الحسان :

أَيَقْظُوا الْفِتْنَةَ فِي ظِلِّ اللِّوَاءِ
فَاجْمَعِي الْأَمْرَ وَصُوبِي الْأَبْرِيَاءِ
فِيهِ لِلْأَنْفُسِ رِيٌّ وَشِفَاءٌ
دُونَ بَعْضٍ وَأَعْدِلِي بَيْنَ الظُّمَاءِ
سُقْنُ الْأَمَالِ يُزْجِيهَا الرَّجَاءُ
بَيْنَ لُجَيْنٍ : عَنَاءٍ وَشَقَاءٍ
تَقْتَفِيهَا شِدَّةٌ هَلْ مِنْ رَجَاءٍ
بِقَبُولِ مَنْ سَجَايَاكِ رُخَاءُ
تَحْتَ عَرْشِ الشَّمْسِ بِالْحُكْمِ سَوَاءُ
صُمْنَتُهُ مِنْ مُعَدَاتِ الْهَنَاءِ
لُشَوَارِي بِلَهَامٍ أَوْ خِبَاءِ
أَنْ رَوْضاً رَاحَ فِي النَّادِي وَجَاءُ
نَاثِرُ الدُّرِّ عَلَيْنَا مَا نَشَاءُ
يَمْلَأُ الدُّنْيَا ابْتِسَاماً وَآزْدِهَاءُ
تَعْتُرُ الصَّبُوءَ فِيهَا بِالْحَيَاءِ
وَأَرْتَضَى آدَابَنَا صِدْقُ الْوَلَاءِ
مَلَكٍ مَا كَدَّرَتْ ذَلِكَ الصَّفَاءُ
أَنَّ هَذَا الشَّكْلَ مِنْ طِينٍ وَمَاءِ
لِلْمَلَا تَكْوِينُ سُكَّانِ السَّمَاءِ
خَلْفَ تِمَثَالٍ مَصُوغٍ مِنْ ضِيَاءِ

رَحِمْتَ أَخَا لَوْعَةٍ مَاتَ صَبَاً
عَلَى هَائِمٍ إِنْ دَعَا الشَّوْقُ لَبَّى
وَإِنْ هُوَ مِنْ جَانِبِ الرُّوضِ هَبَّ
مِنْ الْعُمْرِ لَمْ تَلْقِنِي فِيكَ صَبَاً
وَنَهَبَ لِيَالِيَهُ الْعُرَّ نَهَبَاً

أُبْتُكِ مَا بِي فَإِنْ تَرَحَّمِي
وَأَشْكُو النَّوَى مَا أَمَرَ النَّوَى
وَأَخْشَى عَلَيْكَ هُبُوبَ النَّسِيمِ
وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ بُرْهَةِ
تَعَالَى نُجَدِّدُ زَمَانَ الْهَنَاءِ

تَعَالَى أَذُقْ بِكَ طَعْمَ السَّلَامِ وَحَسْبِي وَحَسْبُكَ مَا كَانَ حَرْبًا

وهو الذي يقول :

تُمْسِي تَذَكِّرُنَا الشَّبَابَ وَعَهْدَهُ حَسَنَاءُ مُرْهَفَهُ الْقَوَامِ فَتَذَكَّرُ
تَثِيبُ الْقُلُوبِ إِلَى الرُّؤُوسِ إِذَا بَدَتْ وَتَطْلُ مِنْ حَقِّ الْعُيُونِ وَنَنْظُرُ

وهذا من وثبات الخيال.

وريحانة هذا العصر أم كلثوم تغني من شعره هذه الأبيات :

أَقْصِرْ قُوَادِي فَمَا الذِّكْرَى بِنَافِعَةٍ وَلَا بِشَافِعَةٍ فِي رَدِّ مَا كَانَا
سَلَا الْفَوَادُ الَّذِي شَاطَرْتَهُ زَمَنًا حَمَلَ الصَّبَابَةَ فَاخْفُقْ وَحَدِّكَ الْآنَا
هَلَا أَخَذْتَ لِهَذَا الْيَوْمِ أَهْبَتَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُصْبِحَ الْأَشْوَاقُ أَشْجَانَا
لَهْفِي عَلَيْكَ قَضَيْتِ الْعُمَرَ مُقْتَحِمًا فِي الْوَصْلِ نَارًا وَفِي الْهَجْرَانِ نِيرَانَا

وكانت داره بالمنيرة منتدى الأدباء والشعراء، وكانت له سهرات تفيض بالخير العذب من الأدب الرفيع، وفي أواخر أيامه أمضى المرض، فكانت ريادة الأدباء أحب إليه من عيادة الأطباء، وصفه الأسناذ أنطون الجميل فقال : « كان في عزلته ينطلع الى أحبار الأدب كما يتطلع القائد الجريح الى أخبار القتال »^(١).

وألهمنه قسوة المرض قصيدة من الشعر الخالد الذي يصور آلام اليأس الحزور :
كَمْ سَاعَةٍ أَلَمَنِي مَسْهًا وَأَزْعَجْتَنِي يَدُهَا الْقَاسِيَةَ
فَقَسْتُ فِيهَا جَاهِدًا لَمْ أَجِدْ هُنِيَّةً وَاجِدَةً صَافِيَةً
وَكَمْ سَقَتَنِي الْمُرُّ أُخْتُ لَهَا فَرَحْتُ أَشْكُوهَا إِلَى التَّالِيَةِ
فَأَسْلَمْتَنِي هَذِهِ عَنُوءٌ لِسَاعَةٍ أُخْرَى وَبِي مَايِيَّةُ
وَيَحْكَ يَا مِسْكِينُ هَلْ تَشْتَكِي جَارِحَةَ الظُّفْرِ إِلَى ضَارِبَةٍ
حَازِرٍ مِنَ السَّاعَاتِ وَيْلٌ لِمَنْ يَأْمَنُ تِلْكَ الْفَقَّةَ الطَّاعِيَةَ
وَإِنْ تَجِدُ مِنْ بَيْنِهَا سَاعَةً جَعَبْتُهَا مِنْ غُصَصِ خَالِيَةِ

(١) هذا معنى العبارة التي سمعناها من خطبة انطون الجميل، وقد ضاق الوقت عن مراعاة الأصل، وأحشى أن أكون لوب العار به بعض التلون.

قَالَهُ بِهَا لَهَوَ الْحَكِيمِ الَّذِي
وَأَمَرَ كَمَا يَمْرُحُ ذُو نَشْوَةٍ
فَهِيَ وَإِنْ بَشَتْ وَإِنْ دَاعَبَتْ
عِنَاقُهَا خَنْقٌ وَتَقْبِيلُهَا
هَذَا هُوَ الْعَيْشُ فَقُلْ لِلَّذِي
بَا شَاكِي السَّاعَاتِ إِسْمَعِ عَسَى

لَمْ يُنْسِهِ حَاضِرُهُ مَاضِيَةً
فِي قُلَّةٍ مِنْ تَحْنِهَا الْهََاوِيَّةُ
مُحْتَالَةً خَتَالَةً عَادِيَةً
كَمَا تَعَضُّ الْحَيَّةُ الْبَاغِيَّةُ
تَجْرَحُهُ السَّاعَةُ وَالثَانِيَّةُ
تُنْجِيكَ مِنْهَا السَّاعَةُ الْقَاضِيَّةُ

ولم يخل قلبه من سوء ظن بالناس، يدل على ذلك قصيدة (الفرع الأكبر) إذ يقول :

غَاضَ مَاءُ الْحَيَاءِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ
وَتَفَشَّى الْعُقُوقُ فِي النَّاسِ حَتَّى
أَوْجُهُ مِثْلَمَا نَثَرْتُ عَلَى الْأَجْدَا
وَشِفَاهُ يَقْلَنْ أَهْلًا وَلَوْ أُدِّينَ
عَمْرَكَ اللَّهُ هَلْ سَلَامٌ وَدَادِ

فَعَدَا كَالِحِ الْجَوَائِبِ قَفَرًا
كَأَدَّ رَدُّ السَّلَامِ يُحَسِّبُ بِرًا
ثِ وَرَدًا إِنْ هُنَّ أَبْدَيْنَ بِشْرًا
مَا فِي الْحَشَا لَمَّا قُلْنَ خَبْرًا
دَاكْ أَمْ حَاوَلَ الْمُسْلِمُ أَمْرًا

وفي هذه القصيدة يقول :

تَعَبَ الْفَيْلَسُوفُ فِي النَّاسِ عَصْرًا
وَالْوَرَى طَارِدُ إِزَاءِ طَرِيدِ
وَجُيُوشُ يَقْلُ مِنْ بَعْضِهَا الْبَعْدُ
حَاذِرِي يَا ذِئَابُ صَوْلَةَ أُسْدِ
لَا تَنَامِي يَا أُسْدُ إِنْ ذِئَابًا
عَبَّرَ كُلُّهَا اللَّيَالِي وَلَكِنْ

وَتَوَلَّى السَّرَائِرَ الدِّينُ عَصْرًا
وَعُقَابُ يُمُوسِي يُطَارِدُ صَقْرًا
ضُ وَهَضْبُ كُبْرَى تُنَاطِحُ صُعْرَى
مِنْكَ أَقْوَى نَابًا وَأَنْفَذَ ظُفْرًا
لَمْ تَنْمِ مِنْ رَوَابِضِ الْعَيْلِ أَضْرَى
أَيْنَ مَنْ يَفْتَحُ الْكِتَابَ وَبَقْرًا

وما أحب أن يفوتني إثبات هذه الأبيات :

يَاسْرَحَةُ بِجَوَارِ الْمَاءِ نَاضِرَةٌ
عَارٌّ عَلَيْكَ وَهَذَا الظِّلُّ مَتَشَشِرٌ
فَمَنْ مُعِيرِي جَنَاحِي طَائِرُ غَرْدٍ
فَلَا أَنْفَرُ عَنْ أَرْضِ غُرْسَتِ بِهَا

سَقَاكِ دَمْعِي إِنْ لَمْ يُوفِ سَاقِيكَ
فَتَكُ الْهَجِيرُ بِمِثْلِي فِي نَوَاحِيكَ
كَيِّ أَقْطَعَ الْعُمَرَ شَدَوًا فِي أَعَالِيكَ
وَلَا يَرِنُ بِسَمْعِي غَيْرُ وَادِيكَ

وانما أكثرنا من الشواهد لأن شعر صبري لم يُجمَع في ديوان، فأحببنا أن يطلع على فرائده قراء هذا الكتاب، وقد حاول الأدباء غير مرة أن يجمعوا شعره ثم صرفتهم الشواغل عما يريدون، وكان صبري نفسه قليل الاهتمام بتدوين شعره وكان يسأل عن ذلك، فيجيب : وهبته للفناء !

— ٢ —

أما مطران فهو شاعر مبدع، وهو من المكثرين، وله وثبات لا ينهض بها إلا الفحول، وشعره مدونٌ نشرت منه المجموعة الأولى باسم — ديوان الخليل — ويتنظر أن يُجمَع شعره كله في عدة أجزاء، وقد عرفنا مطران وصحبناه، وهو تحفة من تحف الذوق والوفاء، وله في النثر أسلوب مضمخ بالنفخات الشعرية، وهو رجل خصب الذهن، مثقف العقل، مرهف الإحساس. ومن خصائص مطران التلطف والترفق، فليس له في مصر عدو واحد، على قلة ما يتفق ذلك لأهل الأدب والبيان، وكان الناس يسمونه شاعر القطرين، فلما مات شوقي سموه شاعر الأقطار العربية، مع أنه من أزهد الناس في الألقاب.

وقد تولى رئاسة جمعية أبوللو في مصر بعد شوقي، وهي جمعية شعرية أثرت أبلغ تأثير في الشعر الحديث، ومن أقطاب هذه الجمعية الدكتور أحمد زكي أبو شادي والدكتور ابراهيم ناجي، وهما من أكثر الناس تغنياً بالشعر بين أدباء هذا الجيل.

— ٣ —

نونية صبري

فرعون وقومه :

لَا الْقَوْمُ قَوْمِي وَلَا الْأَعْوَانُ أَعْوَانِي إِذَا وَنَى يَوْمَ تَحْصِيلِ الْعُلَا وَإِنِّي
وَلَسْتُ إِنْ لَمْ تُؤَيِّدْنِي فَرَاعِنَةُ مِنْكُمْ بِفِرْعَوْنَ عَالِي الْعَرْشِ وَالشَّانِ

لَا تَقْرَبُوا النَّيْلَ إِنْ لَمْ تَعْمَلُوا عَمَلًا
رِدُّوا الْمَجْرَةَ كَدًّا دُونَ مَوْرِدِهِ
وَأَبْنُوا كَمَا بَنَتِ الْأَجْيَالُ قَبْلَكُمْ
أَمَرْتُكُمْ فَأَطِيعُوا أَمْرَ رَبِّكُمْ
فَالْمُلْكُ أَمْرٌ وَطَاعَاتٌ تُسَابِقُهُ
لَا تَتْرَكُوا مُسْتَحِيلًا فِي أَسْتِحَالِهِ

* * *

مَقَالَةٌ هَوَتْ مِنْ عَرْشِ قَائِلِهَا
مَادَتْ لَهَا الْأَرْضُ مِنْ دُغْرِ وَدَانِ لَهَا
لَوْ غَيْرُ فِرْعَوْنَ أَلْقَاهَا عَلَى مِلٍّ
لَكِنَّ فِرْعَوْنَ إِنْ نَادَى بِهَا جَبَلًا
وَأَزْرَتْهُ جَمَاهِيرُ تَسِيلُ بِهَا
يَبْنُونَ مَاتَقِفُ الْأَجْيَالُ حَائِرَةً
مِنْ كُلِّ مَا لَمْ يَلِدْ فِكْرٌ وَلَا فُتِحَتْ
وَيُشَبِّهُونَ إِذَا طَارُوا إِلَى عَمَلٍ
بِرٍّ بِذِي الْأَمْرِ لَا خَوْفًا وَلَا طَمَعًا

* * *

أَهْرَامُهُمْ تِلْكَ، حَيَّ الْفَنِّ مُتَّخِذًا
قَدْ مَرَّ دَهْرٌ عَلَيْهَا وَهِيَ سَاخِرَةٌ
لَمْ يَأْخُذِ اللَّيْلُ مِنْهَا وَالنَّهَارُ سِوَى
كَانَهَا — وَالْعَوَادِي فِي جَوَانِبِهَا
جَاءَتْ إِلَيْهَا وَفُودُ الْأَرْضِ قَاطِبَةً
فَصَعَّرَتْ كُلَّ مَوْجُودٍ صَخَامَتُهَا
وَعَادَ مُنْكَرُ فَضْلِ الْقَوْمِ مُعْتَرِفًا

مِنَ الصُّخُورِ بُرُوجًا فَوْقَ كَيَوَانٍ
بِمَا يُضْعَضِعُ مِنْ صَرْحٍ وَإِيَوَانٍ
مَا يَأْخُذُ النَّمْلُ مِنْ أَرْكَانِ ثَهْلَانٍ^(١)
صَرَغَى — بِنَاءُ شَيَاطِينٍ لَشَيْطَانٍ
تَسْعَى أَشْتِيَاقًا إِلَى مَا خَلَدَ أَلْفَانِي
وَعُضُّ بُنْيَانِهَا مِنْ كُلِّ بُنْيَانٍ
يُشْنِي عَلَى الْقَوْمِ فِي سِرٍّ وَإِعْلَانٍ

(١) ثهلان : اسم جبل.

تِلْكَ الْهَيَاكِلُ فِي الْأَمْصَارِ شَاهِدَةٌ
وَأَنْ فِرْعَوْنَ فِي حَوْلٍ وَمَقْدِرِهِ
إِذَا أَقَامَ عَلَيْهِمْ شَاهِدًا حَجَرٌ
كَأَنَّمَا هِيَ وَالْأَقْوَامُ خَاشِعَةٌ
تَسْتَقْبِلُ الْعَيْنَ فِي اثْنَائِهَا صُورٌ
لَوْ أَنَّهَا أُعْطِيَتْ صَوْتًا لَكَانَ لَهُ

أَيْنَ الْأَلَى سَجَلُوا فِي الصَّخْرِ سِيرَتَهُمْ
بَادُوا وَبَادَتْ عَلَى آثَارِهِمْ دُولٌ
وَحَلَفُوا بَعْدَهُمْ حَرْبًا مُخَلَّدَةً
وَزُحْزِحُوا عَنْ بَقَايَا مَجْدِهِمْ وَسَطًا
وَيْلٌ لَهُ هَتَكَ الْأَسْتَارَ مُقْتَحِمًا
لِلْجَهْلِ أَرْجَحُ مِنْهُ فِي جَهَالَتِهِ

وَصَعَّرُوا كُلَّ ذِي مُلْكٍ وَسُلْطَانٍ
وَأَذْرَجُوا طَيِّ أُنْخَبَارٍ وَأُكْفَانٍ
فِي الْكُونِ مَا بَيْنَ أَحْجَابٍ وَأُزْمَانٍ
عَلَيْهِمُ الْعِلْمُ ذَاكَ الْجَاهِلِ الْجَانِي
جَلَالُ أَكْرَمِ آثَارٍ وَأَعْيَانٍ
إِذَا هُمَا وَزْنَا يَوْمًا بِمِيزَانٍ

— ٤ —

نونية مطران

قال، وقد رأى تمثال رمسيس الثاني في الأقصر:
أَكْبَرُ بِرَمْسِيْسٍ مَيِّتًا لَا يُلْمُ بِهِ
لَوْلَا تَمَائِيلُهُ الْأُخْرَى مُحْطَمَةٌ
فِي مِصْرَ عَزَّ فَرَاعِبُنْ فَمَا بَلَعُوا
وَلَمْ يَتِمَّ لَهَا فِي غَيْرِ مُدَّتِهِ
تَخْيِيرُ الْخُطَّةِ الْمُثْلَى لَهُ وَلَهَا
مَا زَالَ بِالْقَوْمِ حَتَّى صَارَ بَيْنَهُمُو
وَرَبِّ سَائِمَةٍ بِلَهَاءِ هَائِمَةٍ

مَوْتُ وَأَكْبَرُ بِهِ حَيًّا إِلَى الْآنِ
مَا جَالَ فِي ظَنِّ فَانٍ أَنَّهُ فَانِي
بِهَا مَبَالِغُهُ مِنْ رِفْعَةِ الشَّانِ
مَا نَمَّ مِنْ فَضْلِ إِثْرَاءٍ وَعُمْرَانِ
بَعَلُوا فَنَعَلُوا بِهِ وَالْخَفْضُ لِلشَّايِ (١)
إِلَهُ جُنْدٍ تُحَايِيهِ وَكُھَّانِ
تَشْقَى وَتَهْوَاهُ فِي سِرِّ وَإِعْلَانِ

(١) الشاي: هو البعض، وفي القرآن «إن شانتك هو الأسر».

يُسْؤِمُهَا كُلَّ خَسْفٍ وَهِيَ صَابِرَةٌ
إِنْ بَاتَ فِي حُجْبٍ بَاءَتْ إِلَى نُصْبٍ
فَبَجَلَتْ تَحْتَ تَاجِ الْمَلِكِ مُدْمِيَهَا
مُخَلِّدًا دُونَ مَنْ قَامُوا بِرَفْعَتِهِ
مُخَالِسًا ذِمَّةَ الْعَلِيَاءِ مُضْطَجِعًا
بِحَيْثُ آبٍ وَكُلِّ الْفَخْرِ حِصْنُهُ
كَمْ رَاحَ جَمْعٌ فِدَى فَرْدٍ وَكَمْ بُذِلَتْ

لَا صَبْرَ عَقْلٍ وَلَكِنْ صَبْرَ إِيْمَانٍ
يَلُوحُ مِنْهُ لَهَا مَعْبُودُهَا الْجَانِي
وَقَبَّلَتْ دَمَهَا فِي الْمَرْمَرِ الْقَانِي
مَنْ شَوْسٍ حَرْبٍ وَصُنَاعٍ وَأَعْوَانٍ^(١)
مِنْ مَهْدٍ عِصْمَتِهَا فِي مَضْجَعِ الزَّانِي
وَلَمْ يَوُبْ غَيْرُهُ إِلَّا بِحِرْمَانٍ
فِي مُشْتَرَى سَيِّدِ أَرْوَاحِ عُبْدَانٍ

* * *

كَلَّا وَعَزَّتْهُ فِيمَا طَعَى وَبَعَى
هُمْ الَّذِينَ عَلَى عُسْرِ بِمَطْلَبِهِ
وَهُمْ عَلَى سَفَهٍ دَانُوا بِمَنْ نَصَبُوا
فِيمَ الْأَلَى صَنَعُوا أَنْصَابَهُ دَرَسَتْ
وَمَالَ أَسْمَائِهِمْ دُونَ اسْمِهِ دَفَنْتِ
لَيْتَ الْبِلَادَ الَّتِي أَخْلَقُهَا رَسَبَتْ
النَّارُ أَسْوَغَ وَرْدًا فِي مَجَالٍ عَلَا
أَكْرَمَ بِذِي طَمَعٍ فِي جَنْبِ مَطْمَعِهِ
يَهْبُ فِيهِمْ كَأَعْصَارٍ فَيَنْقُلُهُمْ
بَعْضُ الطَّعَاةِ إِذَا جَلَّتْ إِسَاءَتُهُ
فِي كُلِّ مَفْخَرَةٍ تَسْمُو الشُّعُوبُ بِهَا
كَمْ فِي سَنَا الْكَوْكَبِ الْوَهَّاجِ مَهْلَكَةٌ
لَمْ تَرُقْ فِي حِقْبَةٍ مِصْرٌ كَمَا رَقِيتَ
لَمَّا رَمَتْ كُلُّ نَائِي الشُّوْطِ مَمْتَنِعٍ
أَلَا تَرَى فِي بَقَايَا الصَّرْحِ كَيْفَ مَضُوا
وَكَيْفَ عَادُوا وَرَمَيْسٌ مُقَدَّمُهُمْ

وَذَلَّ مِنْ قَبْلِ الضَّيْرِ بِإِذْعَانٍ
قَدْ أَسْعَفُوهُ بِأَمْوَالٍ وَفَتِيَانٍ
فَخَوَّلُوهُ مَدِينًا حَقَّ دِيَانٍ
رُسُومُهُمْ مُنْذُ مَاتُوا رَهْنَ أَكْفَانٍ
شُعْنًا مُتَكَرِّرَةً فِي رَمْسٍ كَثْمَانٍ
يَعْلُو بِأَخْلَاقِهَا تِيَارُ طُعْيَانٍ
مِنْ بَارِدِ الْعَيْشِ فِي أَفْبَاءِ فَيْنَانٍ
يَنْجُو الْأَذِلَّةُ مِنْ خَسْفٍ وَخُسْرَانٍ
مِنْ خَفْضِ عَيْشٍ إِلَى هَيْجَاءِ مَيْدَانٍ
فَقَدْ يَكُونُ بِهِ نَفْعٌ لِأَوْطَانٍ
تَقْنَى جُمُوعٌ مُفَادَاةً لِأَحْدَانٍ
فِي كُلِّ لَمَحٍ لِأَضْوَاءِ وَالْوَانِ
فِي عَصْرِهِ بَيْنَ أَمْصَارٍ وَبُلْدَانٍ
بِسَابِقِينَ إِلَى الْعَايَاتِ شُجْعَانٍ
بِأَوْجِهِ بَادِيَاتِ الْبِشْرِ غُرَّانٍ
إِلَى الرُّبُوعِ بِأَوْسَاقٍ وَغِلْمَانٍ

(١) الشوس : جمع أشوس، وهو المنكر

البحث التاسع والعشرون

الموازنة بين النونيتين

وإني لأرجو القارئ أن ينظر في هاتين القصيدتين مرة ومرة، أو مرات قبل أن ينظر فيما نكتب، فما نريد بالموازنة إلا تشويقه إلى المتعة بتلك الآيات الغراوات، وأنا قد نظرت في هاتين القصيدتين وأطلت النظر، وعجبت كيف غفل الناس عن هاتين السورتين من سُور الشعر الرفيع، وفي الشعر قرآن وإنجيل.

تفرد صبري بالحديث عن وصية فرعون، أو ما سماه مقالة فرعون، ويا لها من مقالة تصدع الصخر، وتنبت الحماسة في صدور الأموات، وقد مثل الرجل هول المجد، وعظمة النيل، حين قال :

لَا تَقْرَبُوا النَّيْلَ إِنْ لَمْ تَعْمَلُوا عَمَلًا فَمَاؤُهُ الْعَذْبُ لَمْ يُخْلَقْ لِكَسَلٍ
رِدُّوا الْمَجْرَةَ كَدًّا دُونَ مَوْرِدِهِ أَوْ فَاطِلُوبَا غَيْرَهُ رِيًّا لِظَّمَانٍ

وبذلك دللنا صبري على أن المجد في مصر لا يُتاح لأهل الكسل والخمود، ولكن أي مجد؟ إن صبري لم يكن يتمثل المجد المزيف الذي يرتدي أثوابه الوارثون، لم يكن صبري يرى المجد فيما يتمتع به العَجْزة الضعاف الذين يمرحون ويلعبون بفضل ما ترك آباؤهم وأمهاتهم من المال الموروث، وإنما كان يتصور المجد فيما يظفر به العصاميون الذين لا يذوقون لذة العيش إلا بعرق الجبين، أولئك هم الرجال الذين عناهم صبري، وبأمثالهم تزدهر الدنيا في المشرق والمغرب، ومن

جهودهم تتبع العلوم والآداب والفنون، أما الهانقون الناعمون يأكلون ما كسبته أيدي آبائهم وأمهاتهم فليسوا جنود فرعون، وليسوا من أهل وادي النيل، لو تُركت أرض مصر لأولئك الذين لا يعرفون غير ألوان الطعام، وخسائس اللذات لما قام فيها أثر خالد، ولا نذوقت طعم الفوز في دنيا لا يظفر بنعمائها غير أقطاب الجدّ الساهر والعمل الموصول.

انظر أيها القارئ في هذين البيتين، وتأمل ما أوصى به فرعون، واسأل نفسك قبل أن تقرب الكأس : أكان رحيقها مما صنعت يدك أم كان مما سكب سواك ؟ تأمل قبل أن تذوق طعامك : أساقته إليك يدك الصنّاع أم كنت ضيفاً على مائدة غيرك ؟ وانظر في ثيابك : أكانت خيوطها من خيوط الليل الذي أسهرت جفنيه في العمل الشريف، أم كانت خيوطاً مصنوعة من الرجس الذي اقترفته بالترلف والتلق والنفاق ؟

قد تقول : إن صبري لم يقصد إلى كل هذه المعاني. ومن يُدريك ؟ إن وصية فرعون تحتل كل ذلك، وشرعية الحياة نفسها تفرض على الرجل أن يكون له وجود ذاتي تتكوّن عناصره من الكدح في سبيل المجد، وسبيل المعاش.

ثم ماذا ؟ ثم بين صبري أساس السياسة : سياسة الملك والعمران، حين قال على لسان فرعون :

أَمَرْتُكُمْ فَأَطِيعُوا أَمَرَ رَبِّكُمْ لَا يَثْنِ مُسْتَمِعاً عَنْ طَاعَةٍ تَأْتِي
فَالْمُلْكُ أَمْرٌ وَطَاعَاتٌ تُسَابِقُهُ جَنْباً لِيَجْنِبَ إِلَى غَايَاتِ إِحْسَانٍ

اسمعوا هذا : « الملك أمر وطاعات » وهل كان الملك غير ذاك ؟ هل كانت دنيا المجد إلا صورة من الأمر الرشيد والطاعة العيناء، ولا أقول العمياء.

إن الأمر الرشيد هو صورة العقل، والطاعة العيناء هي صورة التنفيذ، والملوك الموفقون طاعتهم رشداً وعصيانهم ضلالاً، وكان فرعون رباً، وكانت رعيته عبيداً، كان ربا حكيماً، وكانوا عبيداً مخلصين، وقد رأيت ما صنعت الحكمة وما صنع الإخلاص.

لقد تخيرت وصف الطاعة فجعلتها عياء، ولم أجعلها عمباء، أنعرفون لماذا ؟
لأن الشاعر جعل المصريين أبطالاً شجعاناً يُقدمون في طاعتهم إقدام الأبرار حين
قال :

مَقَالَةٌ قَدْ هَوَتْ مِنْ عَرْشِ قَائِلِهَا	على مساكب أبطالٍ وشُجْعَانِ
مَادَتْ لَهَا الْأَرْضُ مِنْ دُعرٍ وَدَانِ لَهَا	ما في المُقَطَّمِ مِنْ صَخْرٍ وَصَوَانِ
لَوْ غَيْرُ فِرْعَوْنَ أَلْقَاهَا عَلَى مَلَأٍ	في غَيْرِ مَضْرٍ لَعُدَّتْ حُلُمٍ يَقْطُلَانِ
لَكِنَّ فِرْعَوْنَ إِنْ نَادَى بِهَا جَبَلًا	لَبَثَ جِجَارَتُهُ فِي قُبْضَةِ الْبَانِي
وَأَزْرَتْهُ جَمَاهِيرٌ تَسِيلُ بِهَا	بطاحٍ وادٍ بِمَاضِي الْقَوْمِ مَلَانِ
يَبْنُونَ مَا تَقِفُ الْأَجْيَالُ حَائِرَةً	أَمَامَهُ تَيَّنَ إِعْجَابٍ وَإِذْعَانِ
مِنْ كُلِّ مَا لَمْ يَلِدْ فِكْرٌ وَلَا فُتِحَتْ	على نظائره في الْكُؤِ عَيْنَانِ
وَيُشْبَهُونَ إِذَا طَارُوا إِلَى عَمَلٍ	جَنًّا بَطِيرٍ بِأَمْرِ مَنْ سُلَيْمَانِ
بِرًّا يَذِي الْأَمْرَ لَا خَوْفًا وَلَا طَمَعًا	لَكِنَّهُمْ خَلَقُوا طُلَابَ إِتْقَانِ

وهذه القطعة تصوّر انسجام الأهواء بين فرعون وقوم فرعون : فهو ربّ يأمر
بالرشد، وهم عباد مخلصون « لا بطيعون خوفا ولا طمعا، وإنما يقبلون على الجحد
لأنهم خَلَقُوا طُلَابَ إِتْقَانٍ » وفي هذا المعنى سر عظيم، فالجحد لا ينهض به الملوك
وحدهم، وإنما الجحد صنعة الأبرار بين السُّمُوب، والملك نفسه من روح شعبه،
هو الجذوة التي نجد فيها نَمْسَ أصول اللهب المكبوت، ولو فام ببيّ بين الأموات
وصرخ لما استجاب له مجيب، وإنما يفلح المصلحون حين ينوجهون إلى نفوس
خَيْرَةٍ كَمَنَ فيها البر كما تكمن النار في الصخرة الصماء، والمصريون لعهد الفراعين
كانوا « طُلَابَ، إِتْقَانٍ » وكانوا يعشقون التجويد فيما يصنعون، وكانت أيديهم
مفطورة على المهارة، وأنفسهم مجبولة على الصبر الجميل، وعزائمهم مقدودة من
الصوان، وكانت إرادة الملوك مظهرًا من إرادتهم الذاتية، فكان حصوعهم خضوع
الأشراف لا خضوع العبيد. ومن ذا الذي يسمح له كرم الدوف، وشرف العقل،
أن يحكم بأن فصر الكرنك لم يكن إلا مشبّهة رجل فرد ! إن في حرائب ذلك
القصر بقايا من شواهد العبقرية تنطق بأن الذين نولوا هندسته وباءه كانوا
مأخوذين بسلطان غير سلطان الملك هو سلطان الفن وسلطان الجمال.

لقد زرت عشرات القصور في فرنسا فوجدتها جميعاً دون قصر الكرنك، إن قصر الكرنك وهو خرائب وأطلال لأعظم وأروع من قصر فرساي، وطريق الأسود في الكرنك يشهد بأن المصريين لعهد الفراعين كانوا أئمة الدنيا في تصور الانسجام بين الجمال والجلال.

من أجل ذلك نعتب على مطران أشد العتب لأنه جعل المصريين لعهد رمسيس عبيداً مسخرين يؤمرون فيأثمرون، وماذا قال مطران ! إنه جعل رمسيس كل شيء حين قال :

مَا زَالَ بِالْقَوْمِ حَتَّى صَارَ بَيْنَهُمْ وَرَبَّ سَائِمَةٍ بِلَهَاءِ هَائِمَةٍ يُسُومُهَا كُلُّ خَسْفٍ وَهِيَ صَابِرَةٌ إِنْ بَاتَ فِي حُجْبٍ بَاءَتْ إِلَى نُصْبٍ فَبَجَلَتْ تَحْتَ تَاجِ الْمُلْكِ مُدْمِيَةً مُخَلِّدًا دُونَ مَنْ قَامُوا بِرِفْعَتِهِ مُخَالِسًا ذِمَّةَ الْعَلِيَاءِ مُضْطَجِعًا بِحَيْثُ آبٍ وَكُلُّ الْفَخْرِ حَصْنُهُ كَمْ رَاحَ جَمْعٌ فِدَى فَرْدٍ وَكَمْ بَذَلَتْ	إِلَهُ جُنْدٍ تُحَايِيهِ وَكُهُانٍ تَشْقَى وَتَهْوَاهُ فِي سِرٍّ وَإِعْلَانٍ لَا صَبْرَ عَقْلٍ وَلَكِنْ صَبْرَ إِيْمَانٍ يَلُوحُ مِنْهُ لَهَا مَعْبُودُهَا الْجَانِي وَقَبَّلَتْ دَمَهَا فِي الْمَرَمْرِ الْقَانِي مِنْ شَوْسِ حَرْبٍ وَصُنَاعٍ وَأَعْوَانٍ مِنْ مَهْدٍ عَصَمَتِهَا فِي مَضْجَعِ الزَّانِي وَلَمْ يَوُبْ غَيْرُهُ إِلَّا بِجِرْمَانٍ فِي مُشْتَرَى سَيِّدٍ أَرْوَاحُ عُبْدَانٍ
--	--

وهذه القطعة من الشعر الرائع الرصين، ولكن أين المنطق ؟ إن مطران يحكم بأن الرعية كانت تشقى في سبيل رمسيس، ويحكم بأنها كانت على شقائها تهواه في السر والعلانية، ويحكم بأنه كان يسومها الخسف. وأنها كانت تصبر صبر المؤمنين، لا صبر العقلاء. ونحن أيها الشاعر نسألك كيف تهوى الرعية مليكها في السر والعلانية، وهو ظالم ! كيف تهواه وهي تعرف أنه يسومها الخسف والضميم والذل ؟ كنت تستطيع أيها الشاعر أن تتخير كلمة غير الهوى، كنت تستطيع أن تقول إنها كانت تخضع أو كانت تطيع، فالخضوع قد يكون عن ضعف، والطاعة قد تكون عن عجز، أما الهوى فلن يكون إلا عن بينة من نور القلوب.

إن مطران يصوّر الأمة بأنها كانت تعبد رمسيس، وأنها كانت تتمثل شخصه المحبوب في الهياكل والتماثيل، فكيف يصح أن نتصور أنها كانت ترى فيه وجه الظالم المعبود، وهل يُعبد الظالمون ؟ كل شيء يُقبل إلا هذا، فالظالم لا يُعبد إلا حين يتمثل فيه العابدون ملائح جذابة تجعل ظلمه حلو المذاق.. إنك لشاعرٌ حين تقول :

فَبَجَلْتُ تَحْتَ تَاجِ الْمُلْكِ مُدْمِيَهَا وَقَبَلْتُ دَمَهَا فِي الْمَرْمَرِ الْقَائِي
ولكن أين المنطق ؟ إن الفراش يحترق، وهو يغازل النور، ولكنه يعشق النور عشقا يهون عليه قسوة الاحتراق، فمن أين علمت أن رعية فرعون لم تكن ترى في فرعون غير جبار غشوم ؟ لعلها عرفت فيه معاني فاتنة غابت عنك، وقد جئت تغمره بعد أن طمرت أمجاده رمال السنين الطوال، وللسنين رمالٌ، وفيها زوابع وأعاصير، رمالٌ من النسيان، وزوابع من العقوق.

إن تمثال رمسيس الثاني لم يصنعه صانعوه وهم غافلون عما يصنعون، لا بد أن يكون لصاحب التمثال صورة مشرفة في أنفُس من تعبوا في نخته وتذوقوا في سبيل روعته طعم الضجر والعناء، وللنعب طعم معسول في أذواق من يعرفون ما يصنعون^(١).

ثم ماذا ؟ ثم يحكم مطران بأن رمسيس استبدّ بالمجد، واستبدّ بالخلود، فلم يعرف أحد أسماء من نحتوا التمثال.

رويدك أيها الشاعر، ومن يدريك أن من صنعوا تمثال رمسيس لم يكن لهم في زمانهم وجود ملحوظ ؟ وكيف غاب عنك أن تلك سُتّةٌ طبيعية لم تنفرد بها مصر ولم تقصُر على رمسيس ؟ أين أسماء من أقاموا قصر الحمراء ؟ وأين أسماء من أقاموا القصور الشامخات في الأقطار الفرنسية والانجليزية والجرمانية ؟ قد تذكر

(١) من ملاحظات الأستاذ محمد مسعود أن رمسيس الثاني كان اتحد الأفصر فاعدة الملك، ومع ذلك وحدث تماثله في جهات مختلفة من المدائن المصرية، وهذا يدل على أنه كان محبوباً جداً من الأهلين.

أسماء بعض المهندسين، ولكن انتظر حتى يمرّ على تلك المعالم ما مرّ على تمثال رمسيس، انتظر ألفين أو ثلاثة آلاف سنة، ثم اسأل عن اسم نابليون نفسه، فإن وجدت من يعرفه فعندي لك نسخة مذهبة من ديوان مطران !

إنك تقذف رمسيس بهذا البيت، وهو من وحي شيطانك الرجيم :
مُخَالِسًا ذِمَّةَ الْعَلِيَاءِ مُضْطَبَّجًا مِنْ مَهْدٍ عَصَمَتْهَا فِي مَضْجَعِ الزَّانِي

فما هذا الدنس في التصوير ؟ وما هذا الرجس في التمثيل ؟
أيجوز في ذهنك أن ينال الملوك من شعوبهم منازل الخلد بفضل الاختلاس ؟
إن الشعب الغافل لا يصل إلى شيء، وقد وصل المصريون في عهد رمسيس إلى أشياء : كانوا لعهد من الغزاة الفاتحين، وكانوا لعهد أقدر أهل زمانهم على البصر بالفنون، فلك أن تتصور إلى أي غاية من غايات الفُنوة العقلية وصلت نفس ذلك الجبار العملاق. وأنت نفسك تقول :

فِي مِصْرَ عَزَّ فَرَاعِينَ فَمَا بَلَّغُوا بِهَا مَبَالِغَهُ مِنْ رَفْعَةِ الشَّانِ
وَلَمْ يَتِمَّ لَهَا فِي غَيْرِ مُدَّتِهِ مَا تَمَّ مِنْ فَضْلِ إِنْزَاءِ وَعُمَرَانِ
أتراه كان يحرق الأرض بيديه ؟ أتراه كان يقيم القلاع والحصون بلا مساعد ولا معين ؟.

إن ما تم في مدته كان بفضل إخلاص الرعية، وهل نخلص الرعية لجبارٍ مُستبد غشوم ؟.

إن هناك قوانين نفسية تصل بين الحاكمين والمحكومين، قوانين من تجاوب المشارب والأرواح، قوانين من أنس القلوب بالقلوب، وقرب العقول من العقول، ولا بدّ أن يكون رمسيس الثاني ظفر في زمانه بقبس من الجاذبية الروحية والعقلية استطاع بها وهو فردّ أن يسوق المصريين إلى ميادين المجد فاندفعوا يتصايحون فرحين وهم ألوف الألوف.

إن الذي يزور وادي الملوك في الأقصر، أو يزور وادي اللوار في فرنسا يقول « كانت هنا أمة » قبل أن يقول « كان هنا ملك » ولكن قضت سنة الخلود أن

يكون في كل أرضٍ جُنْدِيٌّ مجهول، والجود المجهولون لبسوا في عُرْفِ المجد بنكرات، فكل حجر أقيم هو الخلود لتلك السواعد التي أفلته من مكان إلى مكان، وكل نقش نُحِلْدُ يحمل اسم الفنان الذي تعب فيه، وإن لم تشهد بذلك رسوم، ولا حروف، وسيأتي زمان تنكشف فيه الحقائق وترى القلوب ما لا يرى العيون، وقد سَبَقْنَا نحن فرأينا بعين البصيرة خلود الصانعين ممثلاً في خلود التماثيل.

من الحق أنها الشاعر أن رمسيس ظفر بالسمعة الباقية، ولكن في أي آذان؟ في آذان من يقرؤون ولا يفقهون، أما الأمانة التي خلدت رمسيس فهي باقية في ذمة الصم الخوالد من أحجار الكرنك، على أيامه السلام.

وما هذا الظلم الذي تفترف أيها الشاعر، وأنت تتمثل ذلك الفرعون وهو في مضجع الداعرين؟

أنت تقول إنه سَخَّرَ الشعب، وهل تعرف كيف تُسَخَّرُ الشعوب؟ لقد أضجرتك سياسة (الفرقة القومية) وهم جماعة من الممثلين يُعدون على أصابع اليدين، وإن زادوا فهم يُعدون على أصابع اليدين والرجلين، فكيف تنتظر أن يُسَخَّرَ رمسيس أمة كاملة ويسوقها إلى تصارييف الحرب، وإلى تكاليف السلم؟ أيفعل ذلك وهو يَتَمَطَّى وَيَتَنَاءَب تحت أشجار الجميز؟ أم بفعل ذلك وهو عقلٌ يُفكر، ورأيٌ يُدبر، ولسانٌ يُبين؟

إن الرجل قد يعجز عن إقرار النظام في بيته، وفيه خمس أنفس، والمدرس قد يعجز عن إقرار النظام في درسه وليس تحت بصره غير عشرة تلاميذ، فمى عسى أن يكون الملك الذي يقيم قواعد النظام في أمة تُعد بالملايين، ولكل قلب سُهوات ولكل رأس نزوات، وبين الرؤساء والقواد ضغائن وحقوق! إن الملك الذى يجمع طوائف شعبه على رأي واحد هو رَجُلٌ سَخَّارٌ خُلِقَتْ إرادته من كل قلب، فسبطر على كل نفس، ووضع على عصره بدأ من حديد، وكذلك كان رمسيس الذي غَمَزْنُهُ في شعرك غَمَزَةً لا رفق فيها ولا إشفاف.

ولكن كيف اتفق لمطران أن يتحامل على رمسيس بلا سبب مبين؟

لقد فكرت في ذلك طويلاً، ثم بدا لي أن أرجع إلى الظرف الذي نظم فيه هذه القصيدة العصماء، فوجدت الدكتور محمد صبري يذكر أن مطران كان زار أهرام سقارة ثم أرسل إلى الأسناذ محمد أبيتاً لينشرها بالمؤيد، وأبيات مطران هي أصل ما في النونية، وفيها يقول عن فرعون :

شَادَ فَأَعْلَى وَبَنَى فَوَاطِدَا لَا لِلْعُلَا وَلَا لَهُ بَلْ لِلْعِدَا
مُسْتَعْبِدَا أُمَّتُهُ فِي يَوْمِهِ مُسْتَعْبِدَا بَيْنَهُ لِلْعَادِي غَدَا

وفيها يقول عن العمال الذين بنوا الأهرام :

إِنِّي أَرَى عَدَّ الرِّمَالِ هَا هُنَا خَلَائِقًا تَكْثُرُ أَنْ تُعَدَّذَا
مُحْتَمِعِينَ أَبْحُرًا مُنْفَرِعِينَ نَ أَنْهَرًا مُنْحَدِرِينَ صُعَدَا
صَفَرَ الْوُجُوهِ نَادِيًا جِبَاهُهُمْ كَالْكَلِ الْيَابِسِ يَعْلُوهُ النَّدَى
أَكَلْ هَذَا الْآنْفُسِ الْهَلَكَى غَدَا تَبْنِي لِفَانٍ جَدَثًا مُخْلَدَا

وهذا من الشعر الحق، والشاعر تتمثل نفسه واففاً بنظر العمال وهم يسون الأهرام، وكانت هذه القصيدة هي الباعث الذي حداً إسماعيل صبري على نظم نونيته الشماء.

ولكن متى زار مطران أهرام سقارة ؟ لقد اتصلت بالأسناذ مسعود تليفونيا، وسألته متى نشر داليه مطران، فأجاب بأنه لا يذكر بالضبط، وإنما يعرف أنه نرك جريدة المؤيد سنة ١٩٠٦.

ومعنى هذا أنه نظم قصيدته الأولى في غمز الفراعين منذ ثلاثين سنة أو تزيد. قد يسأل القارئ : وما حطر ذلك في هذه القضية ؟ ونجيب بأن بلاد الشام كانت منذ ثلاثين سنة نغلى غيظاً وحفداً على السلطان عبد الحميد، وكان الناس في أكثر البلاد برون في صورة عبد الحميد وحه الجبار السفاح، ولا سيما أهل الشام الذين شرّد عبد الحميد علماءهم وشعراءهم وكُتّابهم وضرب عليهم الذلة والمسكنة، وحكم على بعضهم بالنفي وعلى بعضهم بالسُنق، الآن عرفنا من كان يعني مطران وهو يحارب رمسيس، إنه كان يحارب عبد الحميد

وإن لم يخطر له ذلك على بال، ومهمه النقد الأدبي، هي إمطة اللثام عن المقنع من ضمائر الرجال.

عبد الحميد هو الشخصية العاتية التي كان يحاربها مطران، ولكنه ما كان يستطيع أن يجهر بعداوته، لأن مصر في ذلك الحين كانت نرى عبد الحميد خليفة المسلمين، ولأن السياسة المصرية لم تكن ترى من الذوق أن تسمح لشاعر بأن يغاضب الخليفة علانية ويصفه بالظلم والاعتساف، على حين يجار الخطباء فوق المنابر بالدعاء له، ويتنسّم الجمهور أخباره في المساجد والأسواق.

تأمل هذا أيها القارئ لتعرف كيف صح لمطران أن يقول في أعوان رمسيس :

هُمُ الَّذِينَ عَلَى عُسْرِ يَمْتَطِّلِيهِ	قَدْ أَسْعَفُوهُ بِأَمْوَالٍ وَفَتِيَانٍ
وَهُمْ عَلَى سَفَهٍ ذَانُوا بِمَنْ نَصَبُوا	فَخَوَّلُوهُ مَدِينًا حَقَّ دِيَانٍ
فِيمَ الْأُلَى صَنَعُوا أَنْصَابَهُ دَرَسَتْ	رُسُومُهُمْ مُنْذُ بَاتُوا زَهْنَ أَكْفَانٍ
وَمَا لِأَسْمَائِهِمْ دُونَ اسْمِهِ دُفِنَتْ	شُعْنًا مُنْكَرَةً فِي رُمْسٍ كَيْثَمَانٍ

وهذه الحال كانت حال أعوان عبد الحميد، الرجل الذاهية الذي طوّف عصره بطوّقٍ من فولاذ، واستطاع السيطرة والبطش عدداً من السنين.

ومطران في هذه اللفتة كان ابن عصره، ففي ذلك العهد كانت تؤسس الجمعيات السرية لمقاومة عبد الحميد، وكان أدباء السام يسلقون ذلك العاهل بالسنة حداد.

تلك كانت نفسية مطران، أما نفسية صبري فكانت ملكية أكثر من الملك كان صبري فيما أفترض على وفاف مع أعوان عبد الحميد، أو كان على الأقل من المحايدين، فلما رأى مطران يشتم فرعون ثارت في رأسه العصبية المصرية، وانطلق يقول في تمجيد الفراعين :

أَيْنَ الْأُلَى سَجَلُوا فِي الصَّخْرِ سِيرَتَهُمْ	وَصَعَرُوا كُلَّ ذِي مُلْكٍ وَسُلْطَانٍ
بَادُوا وَبَادَتْ عَلَى آثَارِهِمْ دُولٌ	وَأَدْرِجُوا طَيِّ أَخْبَارٍ وَأَكْفَانٍ
وَحَلَفُوا بَعْدَهُمْ حَرْبًا مُخَلَّدَةً	فِي الْكُونِ مَا بَيْنَ أَحْجَارٍ وَأَزْمَانٍ

فالمعارضة بين صبري ومطران لم تكن معارضة بين رجلين، وإنما كانت معارضة بين حزينين، والشعر الذي نقرؤه ونتغنى به لا يمثل عواطف فردية في أغلب الأحيان، وإنما يصور نزعات اجتماعية يهمس بها الشاعر أو يصيح.

ومطران قد يقرأ هذا الفصل ويعجب، لأنه لا يبعد أن تكون نفسه خَلَتْ خُلُوعاً ظاهرياً من المعنى الذي عرضناه، ولكن الناقد الذي يتخذ علم النفس وسيلةً لدرس سرائر الرجال لا يَصْغُب عليه أن يرى وجه الحق فيما نقول .

— ٦ —

على أن مطران لم يفته أن يتمنى للمصريين استعباداً مثل استعباد رمسيس، استعباداً ترتفع به هاماتهم في الدنيا فيقفون مواقف الرجال.

ولننظر كيف يقول :

لَيْتَ الْبِلَادَ الَّتِي أَخْلَقَهَا رَسَبَتْ	يَعْلُو بِأَخْلَاقِهَا تَيَّارُ طَغْيَانٍ
النَّارُ أَسْوَعُ وَرَدًا فِي مَجَالٍ عُلَا	مِنْ بَارِدِ الْعَيْشِ فِي أَقْبَاءِ هَيْتَانٍ
أَكْرَمُ بِذِي طَمَعٍ فِي حَسْبِ مَطْمَعِهِ	يَنْحُو الْأَذِلَّاءُ مِنْ خَسْفٍ وَخُسْرَانٍ
يَهْبُ فِيهِمْ كَأَعْصَارٍ فَبَنْقُلُهُمْ	مِنْ خَفْضِ عَيْشٍ إِلَى هَيْجَاءِ مِيدَانٍ
بَعْضُ الطُّغَاةِ إِذَا جَلَّتْ إِسَاءَتُهُ	فَقَدْ يَكُونُ بِهِ نَفْعٌ لِأَوْطَانٍ
فِي كُلِّ مَفْخَرَةٍ تَسْمُو الشُّعُوبُ بِهَا	نَفْسِي جُمُوعُ مُفَادَاةٍ لِأَحْدَانٍ
كَمْ فِي سَنَا الْكَوْكَبِ الْوَهَّاجِ مَهْلِكَةٌ	فِي كُلِّ لَمَحٍ لِأَضْوَاءِ وَالْوَانِ
لَمْ تَرَقْ فِي حَقْبَةٍ مِصْرٌ كَمَا رَقِيتْ	فِي عَصْرِهِ بَيْنَ أَمْصَارٍ وَبُلْدَانٍ
لَمَّا رَمَتْ كُلُّ نَائِي الشُّوْطِ مَمْتَنَعٍ	سَابِقِينَ إِلَى الْعَابَاتِ شُجْعَانٍ
أَلَا تَرَى فِي بَقَايَا الصَّرْحِ كَيْفَ مَضُوا	بِأَوْحِهِ بَادِيَاتِ الْبِشْرِ غُرَّانٍ
وَكَيْفَ عَادُوا وَرَمْسِيْسَ مُقَدَّمُهُمْ	إِلَى الرُّبُوعِ بِأَوْسَاقٍ وَغِلْمَانٍ.

هذا هو الشعر في منطق الحكماء، الآن يتمنى مطران لو أُتيح للبلاد الهوامد أن تظفر بطاغية ينقلها من حياة الخمول إلى حياة الإقدام، الآن يرى النار أرفق

بالشعوب من العيش الوادع في ظلال الترف واللين، والآن يُرْحَبُ بطمع الطامعين الذين يسجو بهم الأذلاء من الخسيف والخسرا فيُنْقَلُونَ من خفض العيش إلى ميادين القتال، الآن يرى من سُتِنَ المجد أن تَفْنَى الجموع في سبيل الأفراد، ويرى بعين الشاعر أن سَنَا الكوكب الوهاج يهلك ما يشاء من الأضواء والألوان، الآن يرى أن رمسيس الثاني رفع قومه بن الناس، وجعل وطنه فوق الأوطان، الآن يقرأ ما نقشَ على الصروح ليرى كيف كان البتسر يفيض من أوجه الجنود وهم يعودون إلى الوطن ظافرين.

فما معنى ذلك ؟ أيكون معناه أن مطران وقع في تناقض ؟
لا ! لم يقع في تناقض، وإنما عرض صورتين مختلفتين : الصورة الأولى في معايب الاستبداد، والصورة الثانية في محاسن الاستبداد، ولكل حقيقة وجهان : أحدهما دميم، والآخر جميل.

وبذلك نرى مطران انتهى إلى الغاية التي وُئِبَ إليها صري، ولكنه لم يصل إلى تلك الغاية إلا بعد جَوْلَةٍ شعرية عرض فيها لتفسيح الظلم والتكبل بالظالمين، وشعر مطران في طعن الاستبداد له وجه مقبول، هو وثْبَةُ شُعْبَةٍ تجول بالصدور في كل أرض، وفي كل جيل.

فلنسجل الآن أن مطران نفرد في نونيته بهذه المحاولة العقلية، وهي عرض جانبيين من الرأي في قصيدة واحدة، وهو نوع من التحليل لا يجيده من الشعراء إلا الأقلون.

ولنذكر أن بيت القصيدة في نونية مطران هو قوله وقد راعنه العظمة في تمثال رمسيس :

لَوْ لَا تَمَآثِيلُهُ الْأُخْرَى مُحَطَّمَةٌ مَا جَالَ فِي ظِلِّ فَا نِ أَنَّهُ فَا نِ
وما أحب أن نضيع الفرصة بدون أن أوجّه أنظار الرجال في مصر إلى ذلك التمثال، ولينهم يفكرون في نقله من الأقصر ليُنصب في ميدان باب الحديد، أليس من العجيب أن بنفل الفرنسيون من الأقصر مسلة مصرية ليصبوها في ميدان الكُونْكَورْد فتوحي إلى شعرائهم آيات الشعر الرفيع، ونعجز نحن عن نقل تمثال

رمسيس ليُنصَب في ميدان باب الحديد فيكون شاهداً على ماضي مصر في إعزاز العظيمة مخلدة بروائع الفن الجميل.

— ٧ —

نظم صبري قصيدته ليرد على مطران فكان لابد له من وقفة يشرح بها ما في الأهرام من جلال :

أَهْرَامُهُمْ تِلْكَ حَيَّ الْفَنِّ مُتَّخِذًا مِنْ الصُّخُورِ بُرُوجًا فَوْقَ كَيَوَانِ
قَدْ مَرَّ دَهْرٌ عَلَيْهَا وَهِيَ سَاحِرَةٌ بِمَا يُضَعِّضُ مِنْ صَرْحٍ وَإِيَوَانِ
لَمْ يَأْخُذِ اللَّيْلُ مِنْهَا وَالنَّهَارُ سِوَى مَا يَأْخُذُ التَّمَلُّ مِنْ أَرْكَانِ ثَهْلَانِ

أرأيتم كيف لا يأخذ الليل والنهار من أركان الأهرام إلا بمقدار ما يأخذ التمل من أركان الجبل ! لقد تمرّد ملوك على الأهرام ليهدموها فلم تخدش معاولهم غير الطلاء.

وما هذا البيت :

كَأَنَّهَا — وَالْعَوَادِي فِي جَوَانِبِهَا صَرَعى — بِنَاءُ شَبَاطِينِ لِشَيْطَانِ

ما هذا البيت ! من القليل أن نقول إنه بيت القصيد، فإن جملة « والعوادي في جوانبها صرعى » من أروع وثبات الخيال، وما أجدر هذا البيت بأن ينقش على الأهرام ليكون صفحة جديدة في سفر الفنون.

ثم ماذا يا صبري ؟ ماذا تقول في أحجار الأهرام ؟ أتقول :

كَأَنَّمَا هِيَ وَالْأَقْوَامُ خَاشِعَةٌ أَمَامَهَا صُحُفٌ مِنْ عَالَمٍ ثَانِي
تَسْقُبُ الْعَيْنَ فِي اثْنَائِهَا صُورٌ فَصِيحَةُ الرَّمْزِ دَارَتْ حَوْلَ جُذْرَانِ
لَوْ أَنَّهَا أُعْطِيَتْ صَوْتًا لَكَانَ لَهُ صَدَى يُرَوِّغُ صُمَّ الْإِنْسِ وَالْجَانِ

ما هذا الشعر أيها الناس ؟ هذا هو السحر الحلال الذي سمعنا باسمه في أخبار الأولين.

أما بعد : فأني أكاد أحكم بأن الشاعر اسماعيل صبري هو الذي سنّ مذاهب القول في وصف آثار الفراعين للشاعر أحمد شوقي، أليست ضادية شوقي مما نُظِمَ بعد نونية صبري ؟

إن كان فيما أحكم به شيء من الحق فإسماعيل صبري إمام أهل هذا العصر في الإشادة بآثار الفراعين.

وليس المجال في هذا الحديث ممتنع لدرس ضادية شوقي في قصر أنس الوجود، فليرجع إليها القارئ في الجزء الثاني من الشوقيات، ولينذكر أن قول شوقي :

رُبَّ سِرٍّ بِجَانِبَيْكَ مُذَالٍ كَانَ حَتَّى عَلَى الْفَرَاعِينَ غَمُضًا

إنما أخذ من قول صبري :

وَزُحْزِحُوا عَنْ بَقَايَا مَجْدِهِمْ وَسَطًا عَلَيْهِمُ الْعِلْمُ ذَاكَ الْجَاهِلُ الْجَانِي
وَيْلٌ لَهُ هَتَكَ الْأُسْتَارَ مُقْتَحِمًا جَلالُ أَكْرَمِ آثَارِ وَأُعْيَانِ
لِلْجَهْلِ أَرْجَحُ مِنْهُ فِي جَهَالَتِهِ إِذَا هُمَا وَزْنَا نَوْمًا بِمِيزَانِ

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءُ، وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾.

البحث الثلاثون

بين البارودي وأبي نواس

نحن أمام قصيدتين تعدّان من ذخائر البيان : قصيدة أبي نواس في مدح الأمين وقصيدة البارودي في الترحم على صباه.

أما قصيدة أبي نواس فهي الميمية التي فتحت له قلب الأمين بفضل وساطة الفضل بن الربيع، وكان الأمين قد عرف أبا نواس في حياة أبيه الرشيد، فلما سمع منه الميمية وصله بألف دينار وأمره بملازمة القصر، فظل في رعايته إلى أن صنعت الأقدار ما صعت يوم قضت بالنصر للمأمون.

لا نعرف بالضبط متى نظم أبو نواس قصيدته، ولكن من المرجح أنه قالها في أول خلافة الأمين أي في سنة ١٩٣هـ. وأبو نواس ولد سنة ١٤١ فيكون عمره حين نظم الميمية اثنتين وخمسين سنة أو تزيد.

ولمّا اهتممنا بهذا التاريخ لنعرف أن أبا نواس كان يجدّ كل الجد في التحسر على ملاعب الشباب، ولم يكن في تحزنه من المتكلفين، واثنتان وخمسون سنة تهدّ عزم الرجل الصلب إذا اتفق له ما اتفق لأبي نواس من قضاء الشباب بين عواصف الكؤوس، وزوابع الدسائس والتمائم، وأعاصير الجد العاثر والزمن الكنود.

كان أبو نواس يسخر من الشعراء الذين ييكون الديار ويقفون على الأطلال،

كان يسخر من هؤلاء في صباه يوم كان في الكؤوس والرياحين والوحوه الصباح ما يشغله عن بكاء الرسوم الهوامد والدمن العافيات، فلما فعلت الاثنتان والخمسون فعلها الأثيم في شبابه وفي قواه، تلفت فرأى الديار مما يسحق البكاء... والله يعلم أي حسرة كانت تسحق قلب هذا الرجل هو يقول :

يَا دَارُ مَا فَعَلْتَ بِكَ الْيَّامُ لَمْ تَبْقَ فِيكَ بِشَاشَةٌ تُسْتَامُ
عَرَمَ الزَّمَانُ عَلَى الَّذِينَ عَهَدْتُهُمْ بِكَ قَاطِنِينَ وَلِلزَّمَانِ عُرَامُ^(١)
أَيَّامٌ لَا أَعْشَى لِأَهْلِكَ مَنْزِلًا إِلَّا مُرَاقِبَةً عَلَيَّ ظِلَامُ^(٢)

وأبو نواس في هذه الأبيات بقاسي لوعتين : لوعة الوجد على الدار التي ذهبت ببشاشتها الأيام، ولوعة الوجد على الرفاق المساميح الذين أوجلّتهم عن دار الهوى أحداث الزمان، والشاعر يحدثنا أنه لم يكن يغشى تلك الدار إلا في ظلمات الليل أيام كان يتذوق حياة يراها الشاعر أرق من النجوى، وأطيب من شهى العتاب.

ثم انظروا هذه الصورة، صورة الفتك، في هذا البيت :
وَلَقَدْ نَهَزْتُ مَعَ الْعَوَاةِ بِدَلْوِهِمْ وَأَسْمَتُ سَرْحَ اللَّهْوِ حَيْثُ أُسَامُوا
تأملوا هذه الصورة البدوية التي أخذت ألوانها من حياة الأعراب، ثم انظروا كيف جمعت أطراف المغامرات الجنونية، مغامرات اللهو والشباب.

وانظروا بعد ذلك كيف وصف خاتمة المطاف حين قال :
وَبَلَغْتُ مَا بَلَغَ امْرُؤٌ بِشَبَابِهِ فَإِذَا عُصَارَةٌ كُلُّ ذَلِكَ آثَامُ
الله أكبر، هذا هو الشعر، وذلك هو الشاعر أبو نواس !

قصيدة أبي نواس عدتها عشرون بيتاً، وقصيدة البارودي عدتها أربعون بيتاً، ولكن هذه الأبيات الخمسة، أو هذه الفاتحة في السورة النواسية هي التي هاجت البارودي، وأذكت لوعته، وأضرمت شجاءه، فقال :

(١) العرام . الشدة والعنف.

(٢) جملة (على ظلام) جملة حالية

ذَهَبَ الصَّبَا وَتَوَلَّى الْأَيَّامُ فَعَلَى الصَّبَا وَعَلَى الزَّمَانِ سَلَامٌ
تَاللَّهِ أَنْسَى مَا حَيِّتُ عُهُودَهُ وَلِكُلِّ عَهْدٍ فِي الْكِرَامِ ذِمَامٌ

وهذه النفثة أقل حرارة من نفثة أبي نواس، وأكاد أحكم بأن البارودي كان يتكلف بعض التكلف، فإن نفثته لم تكن نفثة ملناع، وإنما كانت نزوة شاعر مفتون بالوصف، ومفتون بأخلاق الماجدين، فقد اندفع يحدث عن رفاقه في أيام صباه فلم يجعلهم من الفتيان الماجنين الذين كان يعرف أمثالهم أبو نواس، وإنما جعلهم من أقطاب الدولة الذين يجلسون إلى مائدة السلاف وفيهم شمائل الأبطال.

ومعنى ذلك أن ندمان البارودي لم يكونوا من المغامرين الذين تعصف برؤوسهم الصهباء فلا يدرون ما يفعلون، على نحو ما كان ندمان أبي نواس، وإنما كانوا من الأجواد المغاوير الذين لا يعرفون الحانات، وإنما يعاقرون الكأس في القصور، وتظل قلوبهم موصولة الأواصر بمعاني البأس، ومعاني الجود.

فالبارودي وهو يصف رفاق الصهباء لا يخلص في الشوق إلى أيام صباه؛ وإنما يتمدح ويتمجد، وتلك حال من يعقل، لا حال من ذهب الوجد بقلبه الملتاع.

وانظروا كيف يقول :

وَلَنَا بِمُعْتَرِكِ الْهَوَى آثَامٌ	إِذْ نَحْنُ فِي عَيْشٍ تَرَفٌ ظِلَالُهُ
فِيهَا السَّلَامُ تَعَانُقٌ وَلِزَامٌ	تَجْرِي عَلَيْنَا الْكَأْسُ بَيْنَ مَجَالِسٍ
وَبِمَاهُمُ التَّبَجِيلُ وَالْإِعْظَامُ	فِي فِتْنَةٍ فَاضَ النَّعِيمُ عَلَيْهِمُو
تَلْعَابِهِمْ هَذَرٌ وَلَا إِبْرَامُ	ذَهَبَتْ بِهِمْ شِيمُ الْمُلُوكِ فَلَيْسَ فِي
سُمُحِ الثُّفُوسِ عَلَى الْبَلَاءِ كِرَامُ	لَا يَنْطِقُونَ بِغَيْرِ آدَابِ الْهَوَى
كَالْبَذْرِ حَلَى صَفْحَتَيْهِ غَمَامُ	مِنْ كُلِّ أَبْلَجٍ يُسْتَضَاءُ بِنُورِهِ
بَيْنَ الْمَقَامَةِ وَاضِحٌ بَسَامُ	سَهْلُ الْخَلِيقَةِ لَا يَسُوءُ جَلِيسُهُ
مَوْلَى لَهُمْ فِي الدَّارِ وَهُوَ هُمَامُ	مُتَوَاضِعٌ لِلْقَوْمِ تَحْسَبُ أَنَّهُ
وَتَسِيرُ تَحْتَ لَوَائِهِ الْأَقْوَامُ	تَرُبُّو الْعُيُونُ إِلَيْهِ فِي أَفْعَالِهِ
وَإِذَا تَنَاهَضَ فَالْصُّفُوفُ قَامُ	فَإِذَا تَكَلَّمَ فَالرُّؤُوسُ خَوَاضِعُ
لَيْسَتْ بِغَيْرِ خِيُولِنَا تُسْتَامُ	نَلْهُو وَنَلْعَبُ بَيْنَ خُضِرِ حَدَائِقِ

حَتَّى أَتَنَبَّهَنَا بَعْدَ أَنْ ذَهَبَ الصَّبَا إِنَّ اللَّذَاذَةَ وَالصَّبَا أَحْلَامُ

وهذا الشعر في غاية من الجودة إذا نظرنا إلى طرافة معناه، فهؤلاء الندمان العابثون هم رجال أعمال، وليسوا فتيان غواية، هم أقطاب الحرب، وأعلام السلم، ولهم مع ذلك آثام في معترك الهوى، والإثم ألوان : هناك إثم الأطفال، وهناك آثام الأبطال، وما أبعد الفرق بين الآثام النواسية والآثام البارودية، ولست بهذا أحكم بأن آثام البارودي أضخم من آثام أبي نواس. هيهات، وإنما أحكم بأن آثام البارودي يغمرها التجمل والتعقل والافتعال، وأمثال هذه الآثام لا ترجع صورها إلى القلب إلا موصولة بأطراف المجد المفقود ومن أجل ذلك قلت : ان الشاعر لم يخلص الشوق إلى غفلات الصبا ونزوات الشباب، ومن أجل ذلك أيضاً نراه يتكلف الحكمة إذ يقول :

لَا تَحَسِّنِ الْعَيْشَ دَامَ لِمُتَرَفٍ هَيْهَاتَ لَيْسَ عَلَى الزَّمَانِ دَوَامُ
تَأْتِي الشُّهُورُ وَتَنْتَهِي سَاعَاتُهَا لَمَعَ السَّرَابُ وَتُنْقِضِي الْأَغْوَامُ
وَالنَّاسُ فِيَمَا يَبْنِ ذَلِكَ وَارِدٌ أَوْ صَادِرٌ تَجْرِي بِهِ الْأَيَّامُ
لَا طَائِرٌ يَنْجُو وَلَا ذُو مِخْلَبٍ يَبْقَى وَعَاقِبَةُ الْحَيَاةِ حَمَامُ

* * *

كانت قصيدة أبي نواس في مدح الأمين، وكذلك منعه الأدب من الحديث عن الصهباء وهو شاعر الصهباء، أما البارودي فقد قصر قصيدته على شجون قلبه وهموم دنياه، فرأيناه يندفع في وصف الخمر فيقول :

فَادْفَعْ هُمُومَ النَّفْسِ عَنْكَ إِذَا اعْتَرَتْ بِالْكَأْسِ فَهِيَ عَلَى الْهُمُومِ حُسَامُ
فَالْعَيْشُ لَيْسَ يَدُومُ فِي الْوَانِهِ إِلَّا إِذَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْجَامُ
مِنْ خَمْرِهِ نَذَرُ الْكَبِيرَ إِذَا آتَتْشَى بَعْدَ أَشْنَعَالِ الشَّيْبِ وَهُوَ غَلَامُ
لَعَبَ الزَّمَانُ بِهَا فَعَادَرَ جِسْمَهَا شَبَحاً تَهَافُتُ دُونَهُ الْأَوْهَامُ
خَمْرَاءُ دَارَ بِهَا الْحَبَابُ فَصُورَتْ فَلَكَا تَحْفُ سَمَاءُهُ الْأَوْهَامُ
لَا تَسْتَقِيمُ الْعَيْنُ فِي لَمَعَانِهَا وَتَزِلُّ عِنْدَ لِقَائِهَا الْأَقْدَامُ
نَعْشُو الرِّكَابُ فَإِنْ نَبَّلَجَ كَأْسُهَا سَارُوا وَإِنْ زَالَ الضِّيَاءُ أَفَامُوا

حُبِسَتْ بِأَكْلَفَ لَمْ يَصِلْ بِفَنَائِهِ نُورٌ وَلَمْ يَتَرَحَّ عَلَيْهِ ظَلَامُ
حَتَّى إِذَا اضْطَفَقَتْ وَطَارَ فِدَامُهَا وَثَبَتْ فَلَمْ تَثْبُتْ لَهَا الْأَجْسَامُ
وَقَدَّتْ حَمِيَّتَهَا فَلَوْلَا مَرْجُهَا بِالْمَاءِ بَعْدَ الْمَاءِ شَبَّ ضِرَامُ
تَسِيمُ الْعُيُونِ يَنُورُهَا لَكِنَّهَا بَرْدٌ عَلَى شُرَائِبِهَا وَسَلَامُ
فَاصْطَلَّ بِهَا صَدَا الْهُمُومِ وَلَا تَكُنْ غِرًّا تَطْلِيشُ بِلْبِهِ الْأَلَامُ

وهذا شعر جميل، ولكن ما رأيكم فيمن يحدثكم أن البارودي قال هذه الأبيات وهو تعبان ؟ إن هذه الخمرية ينقصها الروح، هي نظم منسجم مسبوك، ولكنها كالكأس التي قُتِلت بالماء فلم يبق منها غير الشعاع الخامد الذي لا يقدر على نقل العقل من مكان إلى مكان.

أيرانا القارئ نتحامل على البارودي ؟ وكيف، وقد قرأنا أبياته هذه مرة ومرة، فلم تعصف بالنفس نوازع الفتك، ولم تطف بالראس غاشيات الضلال. إن خمرية البارودي هذه لن تهوي بأحد إلى الجحيم، ولن يسأل عنها يوم الحساب، أما خمریات أبي نواس فقد صيرت قبره سعيراً لا يخمد له أوار، وسيكون يوم الدين جبلاً يتفجر بالبراكين.

قلت لكم : إن البارودي نظم قصيدته وهو تعبان، ومن آيات ذلك أنه عاد إلى تكلف الحكمة، فقال :

يَهْوَى الْفَتَى طُولَ الْحَيَاةِ وَإِنَّهَا دَاءٌ لَهُ لَوْ يَسْتَيِّنُ عُقَامُ
فَاطْمَحَ بِطَرْفِكَ هَلْ تَرَى مِنْ أُمَّةٍ خَلَدَتْ وَهَلْ لِابْنِ السَّبِيلِ مَقَامُ
هَذِي الْمَدَائِنُ قَدْ خَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا بَعْدَ النِّظَامِ وَهَذِهِ الْأَهْرَامُ
لَا شَيْءَ يَحْلُدُ غَيْرَ أَنَّ خَدِيعَةً فِي الدَّهْرِ تَنْكُلُ دُونَهَا الْأَحْلَامُ
وَلَقَدْ تَبَيَّنَتْ الْأُمُورَ بغيرِهَا وَأَتَى عَلَيَّ السَّقْضُ وَالْإِبْرَامُ
فَإِذَا السُّكُونُ تَحَرَّكَ وَإِذَا الْخُمُومُ دُ تَلْهُبُ وَإِذَا السُّكُوتُ كَلَامُ
وَإِذَا الْحَيَاةُ وَلَا حَيَاةَ مَيِّتَةٍ تَحْيَا بِهَا الْأَجْسَادُ وَهِيَ رِمَامُ

هَذَا يَحُلُّ وَذَاكَ يَرْحُلُ كَارِهًا عَنْهَا فَضْلُحْ تَارَةً وَخَصَامُ
فَالثُّورُ لَوْ يَبْنُ أَمْرَكَ ظُلْمَةً وَالْبَدُّ لَوْ فَكَّرْتَ فِيهِ خَنَامُ
وهذا شعر رجل تعبان، واليأس نفسه يحتاج في تصويره إلى قوة، وكان
البارودي ضعف فلم يستطع أن ينال من الدنيا ما نال منها أبو العتاهية حين قال :
لِدُوا لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ فَكُلُّكُمْو يَصِيرُ إِلَى تَابِ

هذا ولم نعرض لبقية قصيدة أبي نواس، لأنها في المديح، ولأن البارودي وقف
في المعارضة عند وصف الخمر وبكاء الشباب، على أنه لا مانع من الإشارة إلى
أن البارودي حين وصف رفاقه برجاحة الأحلام وهم يشربون أطاف بقول أبي
نواس في مدح الأمين :

مَلِكٌ أَغْرُ إِذَا شَرِبْتَ يُوْجِّهْ لَمْ يَعْذُكَ التَّجِيلُ وَالْإِعْظَامُ

ولا بأس من توجيه القارئ إلى العذوبة البادية في قول أبي نواس:
وَإِذَا الْمَطِيُّ بِنَا بَلَعْنَ مُحَمَّدًا فَظُهُورُهُنَّ عَلَى الرِّحَالِ حَرَامُ
قَرَّبْنَا مِنْ خَيْرٍ مَنْ وَطِئَ الْحَصَا فَلَهَا عَلَيْنَا حُرْمَةٌ وَذِمَامُ
رُفِعَ الْحِجَابُ لَنَا فَلَاحَ لِنَظِيرِ فَمَرَّ تَقَطَّعَ دُونَهُ الْأَوْهَامُ
مَلِكٌ إِذَا عَلَقْتَ بِدَاكِ بِحَبْلِهِ لَا يَعْتَرِيكَ الْبُؤْسُ وَالْإِعْدَامُ
سَبَطُ الْبَنَانِ إِذَا احْتَبَى بِنَجَادِهِ فَرَعَ الْجَمَاجِمَ وَالسَّمَاطُ قِيَامُ
مَلِكٌ إِذَا اعْتَبَرَ الْأُمُورَ مَضَى بِهِ رَأْيِي يَفُلُّ السَّيْفُ وَهُوَ حُسَامُ

ويكاد هذا الشعر يذهب بقالة السوء التي دنس بها أنصار المأمون أخبار
الأمين.

البحث الحادي والثلاثون

بين البارودي وأبي فراس

في كل لغة شعراء وكُتّاب وخطباء يخلقون أجواء^(١) من الفكر والعبقريّة فيزيّدون في عمر لغتهم ويصلون بينها وبين القلوب والعقول، فتزداد تأصلاً وقوةً وحيويةً، فاللغة الفرنسيّة مدينة في حياتها لأمثال هوجو وميسيه ولامرتين، واللغة الإنجليزيّة مدينة لأمثال بيرون وشلي وشكسبير، واللغة الألمانيّة مدينة لأمثال شلر وجوته، والناس متفقون على أن اللغة الإبطالية مدينة لداني أثقل الدّين.

ولغة العرب مدينة لجماعة من الشعراء والمفكرين منهم أبو فراس صاحب الروميات، أبو فراس الذي وصف الضعف الإنساني أجمل وصف، وشرحه أحسن شرح، ومثّله أصدق تمثيل.

أبو فراس ضحية الكبرياء، والحبّ والمجد، أبو فراس الوتر الحثّان الذي خلّد على الدهر مجد الألم ومجد الأنين، أبو فراس الذي أبكى كل عين، وأحزن كل قلب، وشغل كل بال، أبو فراس الأسد الذي استعذب الدمع بعد الزئير، وعلمته الليالي كيف تعصف الخطوب بأحلام الرجل.

(١) الجو يجمع على حواء بكسر الحيم، وهي اللمعة التي آثرناها في كتاب النثر العربي. ولكنا آثرنا هنا أن نجمعها على أجواء

كن كيف شئت من قوة القلب تم اقرأ رومياب أبي فراس فستعرف أن القوة الانسانية في حاجة إلى من ييكها حين تزول، وليت القلم بطاوعني لأشرح بعض ما أريد، وأنا أريد أن أقول : إن عنفوان الرجال من كنوز الحياة، ولكنها كنوز معرّضة للتزييف حين يعرفوها الخمود، العنفوان في الرجال الشجاع هو أنضر من الصباحة في الوجه الجميل، والصباحة تجد من ييكها حين تزول، أما العنفوان حين يخمد فلا يجد من يشيعه بطيف من الرثاء.

وما قرأت رومياب أبي فراس إلا تمثلت زوال الجبال، تمثلت عنفوان الفارس الفاتك الذي قضت الأقدار بأن يمسي وهو في ظلمات من ذلة الأسر، وهزيمة القلب وانصهار الروح.

لا تذكروا آلام المتنبي، ولا أشجان المعري، ولا وجد ابن زيدون، كل أولئك أحماهم خفاف بجانب ما حمل أبو فراس، وما ظنكم بقائد عظيم يذله الأسر حتى يعود طفلاً يتوجع من جراحه ويشكو لأمه فيقول :

مُصَابِي جَلِيلٌ وَالْعَزَاءُ جَلِيلٌ	وَذُنِي بِأَنَّ اللَّهَ سَوْفَ يُدِيلُ
جَرَّاحٌ تَحَامَاهَا الْأَسَاءَةُ مَخَافَةٌ	وَسُقْمَانٌ بَادٍ مِنْهُمَا وَدَجِيلٌ
وَأُسْرٌ أَقَاسِيهِ وَلَيْلٌ نُجُومُهُ	أَرَى كُلَّ شَيْءٍ غَيْرُهُنَّ يَزُولُ
تَطُولُ بِي السَّاعَاتُ وَهِيَ قَصِيرَةٌ	وَفِي كُلِّ ذَهْرٍ لَا يَسْرُكُ طُولُ
تَنَاسَانِي الْأَصْحَابُ إِلَّا عِصَابَةٌ	سَتَلْحَقُ بِالْآخِرَى غَدًا وَتَحُولُ
وَإِنَّ الَّذِي يَبْقَى عَلَى الْعَهْدِ مِنْهُمْ	وَإِنْ كَثُرَتْ دَعَوَاهُمْ لِقَلِيلُ
أَقْلَبُ طَرْفِي لَا أَرَى غَيْرَ صَاحِبٍ	يَمِيلُ مَعَ النِّعْمَاءِ حَيْثُ تَمِيلُ
وَصَبْرُنَا نَرَى أَنَّ الْمُتَارِكَ مُحْسِنٌ	وَأَنَّ خَلِيلًا لَا يَضُرُّ وَضُولُ
أَكُلُ زَمَانٍ أَنْكَدُ غَيْرُ مُنْصِفٍ	وَكُلُّ زَمَانٍ بِالْكَرَامِ بَخِيلُ
فَيَا حَسْرَتِي مَنْ لِي بِخِلٍّ مُوَافِقٍ	أَقُولُ بِسَجْوِي بَارَهُ وَيُقُولُ
وَإِنَّ وَرَاءَ السُّتْرِ أَمَّا بُكَائُهَا	عَلَيَّ وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ طَوْبِلُ
فَيَا أُمَّنَا لَا تَخْطِي الْأَجَرَ إِنَّهُ	عَلَى قَدَرِ الصَّبْرِ الْجَمِيلِ جَمِيلُ
تَأْسِي كَفَاكَ اللَّهُ مَا تَحْذَرِبَنَّهُ	فَقَدْ غَالَ هَذَا الدَّهْرُ قَبْلَكَ غُولُ

لَقِيتُ نُجُومَ اللَّيْلِ وَهِيَ صَوَارِمٌ وَخُصْتُ سَوَادَ اللَّيْلِ وَهُوَ يَهُولُ
وَلَمْ أَرْغِ لِلنَّفْسِ الْكَرِيمَةِ خُلَّةً عَشِيَّةً لَمْ يَعْطِفْ عَلَيَّ خَلِيلُ
وَلَكِنْ لَقِيتُ الْمَوْتَ حَتَّى تَرَكْتُهَا وَفِيهَا وَفِي حَدِّ الْحَسَامِ فُلُولُ

أثرون كيف صبحٌ للفارس المغوار أن يبكي كما يبكي الطفل ؟ إن التوجع لآلام
الأمهات شريعة إنسانية لا يعرفها أبطال الحروب إلا يوم ينهزمون أو يُؤسرون،
وكذلك قضت الدنيا على أبي فراس أن ينهزم وأن يُؤسر، وقضت عليه أن ينتظر
من يُفديه فلا يظفر بالفداء، قضت عليه الدنيا أن يعاني آلام الجروح فلا يسعفه
طبيب، ولا يواسيه رفيق، قضت عليه الدنيا أن يتمثل أمه باكيةً مُلْتَأَعَةً لا يَرَقَأُ
لها دمع، وَلَا يَهْدَأُ لها فؤاد، ويا ويل من تَضَعُفُ نفسه فيرق لأحزان الأمهات !

على أن أبا فراس كان يتجلد أحياناً في أسره فلا يزيدنا ذلك التجلد إلا علماً
بما وصل إليه من فقد الصبر وانعدام العزاء، كان يتجلد فيستطيع أن يَقَرَّعَ سيف
الدولة بمثل هذا العتاب :

أَمَّا لِجَمِيلٍ عِنْدَكُنْ ثَوَابٌ
وَلَا لِمَسِيءٍ عِنْدَكُنْ مَتَابٌ
لَقَدْ ضَلَّ مَنْ تَحْوِي هَوَاهُ خَرِيدَةً
وَقَدْ ذَلَّ مَنْ تَقْضِي عَلَيْهِ كَعَابُ
وَلَكِنِّي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ حَارِمٌ
أَعِزُّ إِذَا ذَلَّتْ لَهُنَّ رِقَابُ
وَلَا تَمْلِكُ الْحَسَنَاءُ قَلْبِي كُلَّهُ
وَإِنْ مَلَكْتَهَا رَوْقَةً وَشَبَابُ^(١)
إِذَا الْخِلُّ لَمْ يَهْجُرَكَ إِلَّا مَلَأَةً
فَلَيْسَ لَهُ إِلَّا الْفِرَاقُ عِتَابُ

(١) الروقة والروق : أول الشباب. ويقال أيضاً مضى ريق الشباب.

إِذَا لَمْ أَجِدْ فِي بَلَدَةٍ مَا أُرِيدُهُ
 فَعِنْدِي لِأُخْرَى عَزْمَةٌ وَرِكَابُ
 فَلَيْسَ فِرَاقٌ مَا اسْتَطَعْتُ فَإِنْ يَكُنْ
 فِرَاقٌ عَلَيَّ حَالٍ فَلَيْسَ إِيَابُ
 صَبُورٌ وَلَوْ لَمْ تَبْقَ مِنِّي بَقِيَّةُ
 قَوْلٍ وَلَوْ أَنَّ السُّيُوفَ جَوَابُ
 وَقُورٌ وَأَهْوَالُ الزَّمَانِ تُوشِي
 وَلِلْمَوْتِ حَوْلِي جِيئةٌ وَذَهَابُ
 وَالْحَظُّ أَحْوَالُ الزَّمَانِ بِمُقْلَةٍ
 بِهَا الصِّدْقُ صَدَقَ وَالْكَذَابُ كِذَابُ
 بَمَنْ يَشُقُّ الْإِنْسَانُ فِيمَا بَنُوهُ
 وَمِنْ أَيْنَ لِلْحُرِّ الْكَرِيمِ صَحَابُ
 وَقَدْ صَارَ هَذَا النَّاسُ إِلَّا أَقْلُهُمْ
 ذُنَابًا عَلَى أَجْسَادِهِمْ يُثَابُ
 تَغَابَيْتُ عَنْ قَوْمِي فَظَنُّوا غِبَاؤِي
 بِمَفْرِقٍ أَغْبَانَا خَصًّا وَثَرَابُ
 وَلَوْ عَرَفُونِي حَقَّ مَعْرِفَتِي بِهِمْ
 إِذَا عَلِمُوا أَنِّي شَهِدْتُ وَغَابُوا
 وَمَا كُلُّ فَعَالٍ يُجَازَى بِفِعْلِهِ
 وَلَا كُلُّ قَوْلٍ لَدَيَّ يُجَابُ
 وَرَبُّ كَلَامٍ مَرَّ فَوْقَ مَسَامِعِي
 كَمَا طَنَّ فِي لَوْحِ الْهَجِيرِ ذُبَابُ
 إِلَى اللَّهِ أُسْكُو أَنَا بِمَنَازِلِ
 تَحَكُّمٍ فِي آسَادِهِمْ كَلَابُ
 تَمُرُّ اللَّيَالِي لَيْسَ لِلنَّفْعِ مَوْضِعُ
 لَدَيَّ وَلَا لِلْمُعْتَفِينَ جَنَابُ

وَلَا شُدَّ لِي سَرَجٌ عَلَى ظَهْرٍ سَابِحٍ
 وَلَا ضُرِبَتْ لِي بِالْعَرَاءِ فِئَابُ
 وَلَا بَرَقَتْ لِي فِي اللَّقَاءِ قَوَاطِعُ
 وَلَا لَمَعَتْ لِي فِي الْحُرُوبِ حِرَابُ
 سَتَذْكُرُ أَبَايَ نُمَيْرُ بْنُ عَامِرٍ
 وَكَعْبٌ عَلَى عَادَاتِهَا وَكِلابُ
 أَنَا الْعَجَارُ لَا زَادِي بَطِيءٌ عَلَيْهِمُو
 وَلَا دُونَ مَالِي فِي الْحَوَادِثِ بَابُ
 وَلَا أَطْلُبُ الْعَوْرَاءَ مِنْهُمْ أُصِيبُهَا
 وَلَا عَوْرَتِي لِلطَّلَبِينَ تُصَابُ
 وَأَسْطُو وَحْبِي تَابَتْ فِي قُلُوبِهِمْ
 وَأَحْلُمُ عَنْ جُمَالِهِمْ وَأَهَابُ
 بَنِي عَمَّنَا لَا تَرْكُوا الْحَرْبَ إِنَّنَا
 شِدَادٌ عَلَى غَيْرِ الْهَوَاكِ صِلَابُ
 بَنِي عَمَّنَا مَا يَصْنَعُ السَّيْفُ بَيْنَنَا
 إِذَا فُلَّ مِنْهُ مَضْرِبٌ وَذُبَابُ
 بَنِي عَمَّنَا نَحْنُ السَّوَاعِدُ وَالظُّبَا
 وَيُوتِيكَ يَوْمًا أَنْ بَكُونَ ضِرَارُ
 وَإِنَّ رِجَالًا مَا ابْنُهُمْ كَابِرُ أَخْتِهِمْ
 حَرَبُونَ أَنْ بُقِضَى لَهُ وَيُهَابُ
 فَعَنْ أَيِّ عُذْرٍ إِنْ دَعُوا وَدُعِيتُمُو
 أَيُّتُمْ بَنِي أَعْمَامِنَا وَأَجَابُوا
 وَمَا أَدْعِي مَا يَعْلَمُ اللَّهُ غَيْرُهُ
 رِحَابُ عَلِيٍّ لِلْعَفَاكِ رِحَابُ
 وَأَفْعَالُهُ بِالرَّاعِبِينَ كَرِيمَةٌ
 وَأَمْوَالُهُ لِلطَّلَبِينَ نِهَابُ

وَلَكِنْ نَبَا مِنْهُ بِكَفِّي صَارِمٍ
 وَأَظْلَمَ فِي عَيْنِي مِنْهُ شَهَابٌ
 وَأَبْطَأَ عَنِّي وَالْمَنَائِبَا سَرِيعَةً
 وَلِلْمَوْتِ ظَفَرٌ قَدْ أَظْلَلَ وَنَابُ
 فَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَدٌّ قَرِيبٌ نَعْدُهُ
 وَلَا نَسَبٌ دُونَ الرَّجَالِ قُرَابُ
 فَأَخْوَطُ لِلْإِسْلَامِ أَنْ لَا يُضِيعَنِي
 وَلِي عَنْهُ فِيهِ حَوَاطَةُ وَمَثَابُ
 وَلَكِنِّي رَاضٍ عَلَى كُلِّ حَالَةٍ
 لِنَعْلَمَ أَيُّ الْخُلَّتَيْنِ سَرَابُ
 وَمَا زِلْتُ أَرْضَى بِالْقَلِيلِ مَخْبَةً
 لَذِيهِ وَمَا دُونَ الْكَثِيرِ حِجَابُ
 وَأَطْلُبُ إِبْقَاءَ عَلَى الْوُدِّ أَرْضَهُ
 وَذِكْرِي مُنَى فِي غَيْرِهِ وَطِلَابُ
 كَذَلِكَ الْوَدَادُ الْمَحْضُ لَا يُرْتَجَى لَهُ
 ثَوَابٌ وَلَا يُخْشَى عَلَيْهِ عِقَابُ
 وَقَدْ كُنْتُ أَرْضَى الْهَجَرَ وَالشَّمْلَ جَامِعَ
 وَفِي كُلِّ يَوْمٍ لُقِيَّةٌ وَخَطَابُ
 فَكَيْفَ وَفِيمَا بَيْنَنَا مُلْكٌ قَيْصَرُ
 وَلِلْبَحْرِ حَوْلِي زُخْرَةٌ وَعُجَابُ
 أَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ النَّفْسِ فِيمَا تُرِيدُهُ
 أَثَابُ بِمُرِّ الْعُثْبِ حِينَ أَثَابُ
 فَلَيْتَكَ تَحْلُوَ وَالْحَيَاةُ مَرِيرَةٌ
 وَلَيْتَكَ تَرْضَى وَالْأَنَامُ غَضَابُ
 وَلَيْتَ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَامِرُ
 وَبَيْنِي وَبَيْنَ الْعَالَمِينَ خَرَابُ

وإنما نقلنا هذه القصيدة على طولها لنمكن القارئ من التعرف إلى روح أبي فراس، فذلك رجل أسير ضُغْضَعه اليأس، ولكنه لا يزال مشغول البال بمكايد الأحزاب، وهو يتكلم كلام الطليق، لا كلام الأسير، ويعتب على هذا وذاك عتب من يملك الضر والنفع، والعقاب والثواب، ويسمو إلى أبعد آفاق الرجولة حين يقول :

تَمُرُّ اللَّيَالِي لَيْسَ لِلنَّفْعِ مَوْضِعٌ لَدَيَّ وَلَا لِلْمُعْتَفِينَ جَنَابُ
وَلَا شُدُّ لِي سَرَجٌ عَلَى ظَهْرٍ سَابِحٍ وَلَا ضَرْبٌ لِي بِالْعَرَاءِ قَبَابُ
وَلَا بَرَقَتْ لِي فِي اللَّقَاءِ قَوَاطِعُ وَلَا لَمَعَتْ لِي فِي الْحُرُوبِ جِرَابُ

وأقصى ما يعاني الرجل أن يمسي لا يملك الضر، ولا يملك النفع، وغايات الفتوة أن يكون الرجل نفاعاً ضرراً يخشاه العدو ويرجوه الصديق، وشكاية أبي فراس في قصيدته هذه شكاية رجال، أما شكايته في القصيدة الماضية فشكاية أطفال، ومعاذ الأدب أن يتجنى عليه، فنحن لا نعرف كيف كان يعامل الأسرى في بلاد الروم، ولا نعرف كيف كان يرى الدنيا وهو أسير، ولا نعرف ما قوبل به أسره في بلاط سيف الدولة، فقد يكون أسره قوبل بالشماتة من بعض الأمراء، وذلك إن وقع شيء منه كافٍ لأن ينقل الرجل من الصبر إلى الجزع، يحوِّله إلى إنسان لا يعرف غير الندم على ما قدّم في الحرب من حسن البلاء.

قلت : إن الشاعر يتكلم في هذه القصيدة كلام الطليق. ألم نر كيف ابتدأها بالنسيب ؟ ألم نر كيف دعا إلى مواصلة الحرب ؟ ألم نر كيف يمتدح بأنه يتجاهل أقوال القادحين فيقول :

وَرُبَّ كَلَامٍ مَرَّ فَوْقَ مَسَامِعِي كَمَا طَنَّ فِي لَوْحِ الْهَجِيرِ ذُبَابُ

ولنتذكر أن كل شعره في الأسر لم يكن إلا حديث النفس إلى النفس، فمن المستبعد جداً أن نتصور أن الرجل كان يرسل قومه من يوم إلى يوم، أو من أسبوع إلى أسبوع، فالدنيا في ذلك العصر لم تكن تسمح بأن يكون للأسرى بريد، وهل سمحت الدنيا في هذا العصر بأن يكون للأسرى بريد حتى تسمح لأبي فراس بأن يعاتب سيف الدولة ويخاشن أنصاره بمثل ما رأينا في هذا القصيد ؟

إن الصلة بين الفصيديين الماضيين ليست بعيدة، فالأولى نوجع، والناس تجلد،
وليس بين التوجع والتجلد إلا فرق ضئيل.

والتساعر في القصيدتين غير متكلف، وإنما هو يمثل ما يمر بالنفس الإنسانية
من صور وأطياف، والنفس الإنسانية فيها قوة وضعف، وفيها جبروت واستخذاء،
والشاعر الحق هو الذي لا يكذب على الطبع : وإنما ينهج وبتنس، وبفسو وبلين،
وفقاً لبسمات العيش أو نكد الزمان.

قد يقول معترض : وكيف صح لأبي فراس أن ينظم أشعار الحماسة وهو
في القيد ؟

ونجيب بأن الليث المأسور في حديقة الحيوان ينمتل أحداث الغابة في كل حين.
والنفس تجتر ماضي النعيم في أيام الحرمان، وصور النعيم السالف هي القبس
الذي يبدد غياهب البؤس، ويمحق ظلمات البأساء.

وكيف نحتاج إلى شرح هذه النزعة النفسية وعدنا البارودي، البارودي رحل
السيف، الذي لم بصور أيام الحرب والفنوة إلا بعد أن ألقنه الحوادث منفيا في
جزيرة سيلان.

إن إحساس البارودي بمجده الحق لم يتم له إلا بعد أن نزلت عنه الحوادث
شارات المجد، وكل إنسان حساس لا يدرك ما كان عليه من قوة وفنوة ونعمة
إلا بعد أن تسطو عليه الخطوب، ونريه الدنيا كبح تصوِّح الأرهاق، وكيف تجف
الأنهار، وكيف نذل الرباحين.

إن إحساس أبي فراس والبارودي بعظمة المجد بعد الهزيمة هو إحساس طبيعي
مألوف، فقد رأينا ورأى الناس أن المرء لا تتمدح بماضيه إلا حين يصبح حاضره
لا يكبب العدو ولا بسر الصديق.

ومن عجب الشابه بين البارودي وأبي فراس أنهما ظلّا في أيام الخنة واليأس
بتذكران الأحباب ويشكوان سفه الواشين، وقد مرّ شاهد من شعر أبي فراس،
فلدكر خانج ذلك فول البارودي :

رُدُّوا عليَّ الصِّبا منْ عَصْرِي الحَالِي وهلْ بَعُودُ سِوَاكَ اللَّمَّة البَالِي
ماضٍ من العيش مالاحت محابله في صفحة الفكر إلا هاج بلبالي

سَلَتْ قُلُوبٌ فَقَرَّتْ فِي مَصَاحِعِهَا
لَمْ يَذَرِ مَنْ بَاتَ مَسْرُوراً بِلَدَّتِهِ
يَا غَاضِبِينَ عَلَيْنَا هَلْ إِلَى عِدِهِ
غَيْثٌ فَأَظْلَمَ يَوْمِي بَعْدَ فُرْقَتِكُمْ
قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُنِي مِنْكُمْ عَلَى نِفَةٍ
لَمْ أَجْنِ فِي الْحُبِّ ذَنْباً أَسْتَحِقُّ بِهِ
وَمَنْ أَطَاعَ رُؤَاةَ الشُّوءِ نَفَرَهُ
أَذْهَى الْمَصَائِبِ غَدْرٌ قَبْلَهُ ثِقَةً

فماذا ترون في هذه الأبيات ؟ إن البارودي يصنع كما يصنع أبو فراس، هو يتكلم كلام الطليق، هو يرجو ألا يسمع أحبابه كلام الوائتين والمرجفين ولم يكن في دنيا النفي ما يتسع لوشابة ولا إرجاف.

تلك نزوات نفسية، هي نزوات الطائر المحبوس في القفص، وهو مع ذلك يتوئب من ركن إلى ركن كأنه من ملوك الهواء. وإنما توغلت في هذه المسالك لأدلل القارئ على أسرار التناقض فيما يقرأ للبارودي، وما يقرأ لأبي فراس. هما شاعران يشتركان في كثير من النوازع، ويشتركان في كثير من الصفات، وبليّة النفي والأسر بلبة واحدة وإن اختلفت الصور والظروف.

والتشابه بين الحياتين والمصيرين عند البارودي وأبي فراس يجعل الموارنة بين الرائيين فرصه لاتتاح في كل حين، فكلا الشاعرين يتغزل، وكلاهما يذكر ماضيه في الحرب، وأنفاسهما في هذين البابين أنفاس حاراً لا بدرك وفدّها إلا من ذاق الأسر والنفي، وقد ذقنا الأسر مرتين^(١)، أما النفي فعرفناه في صورة جديدة هي الغربه الروحية والغربة العقلية، وإلى الله نشكو ما نعاني من قسوة الاعترا ب في هذا الزمان.

(١) كان المؤلف من الدين اعتقلتهم السلطة العسكرية البريطانية، وكان اسمه مقدماً في أسرى الحرب وكانت الثورة المصرية حقاً شعلة من الحرب، وكانت حلقة بأن ترهب انخلرا وبرعجها لو دامت بضع سنين.

البحث الثاني والثلاثون

الموازنة بين الرائيين

— ١ —

ونشرع في الموازنة بين الرائيين فنقول :
يظهر أن البارودي لم يحتفل بقصيدته على نحو ما احتفل أبو فراس، فقصيدة
البارودي خمسة وعشرون بيتاً، وقصيدة أبي فراس جاوزت الأربعين.

قد يقال : وما قيمة الكمية ؟ ونجيب بأن البارودي حين عارض ميمية أبي
نواس نظر فراها عشرين بيتاً، فجعل قصيدته أربعين، وذلك من شارات الاهتمام
والاحتفال.

والنسيب في قصيدة أبي فراس عشرون بيتاً، وهو في قصيدة البارودي أحد
عشر بيتاً.

ومن الفوارق بين الشاعرين أن أبا فراس اقتضب فانتقل فجأة من النسيب
إلى الفخر، أما البارودي فترفق في التخلّص حين قال :

وَكَفَّكَفْتُ دَمْعاً لَوْ أَسَلْتُ شُؤُونَهُ عَلَى الْأَرْضِ مَا شَكَّ أَمْرُؤُ أَنَّهُ بَحْرُ
حَيَاءٍ وَكِبَرٍ أَنْ يُقَالَ تَرَجَّحْتُ بِهِ صَبُوءٌ أَوْ فَلَّ مِنْ غَرْبِهِ الْهَجْرُ

وَإِنِّي أَمْرُو لَوْلَا الْعَوَائِقُ أَذْعَنْتَ لِسُلْطَانِهِ الْبَدُو الْمُغِيرَةَ وَالْحَضْرُ
مِنَ النَّفَرِ الْعُرِّ الَّذِينَ سُيُوفُهُمْ لَهَا فِي حَوَاشِي كُلِّ دَاجِيَةٍ فَجَرُّ

وابتدا أبو فراس قصيدته بحوار بينه وبين رفيق موهوم عاب عليه التجلد فقال :
أَرَاكَ عَصِيَّ الدَّمْعِ شِيمَتِكَ الصَّبْرُ أَمَا لِلْهَوَى نَهْيٌ عَلَيْكَ وَلَا أَمْرُ
بَلَى، أَنَا مُشْتَاقٌ وَعِنْدِي لَوْعَةٌ وَلَكِنَّ مِثْلِي لَا يُدَاغُ لَهُ سِرُّ

وهذان البيتان غاية في وصف أقدار الرجال، فإن الرجل لا يعاب عليه
الحب، وإنما يعاب عليه أن يصير أحبابه مضغة، الأفواه، ثم جعل الشكوى
بينه وبين الليل، فقال :

إِذَا اللَّيْلُ أَضَوَانِي بَسَطْتُ يَدَ الْهَوَى وَأَذَلْتُ دَمْعًا مِنْ خَلَائِقِهِ الْكِبَرُ
تَكَادُ تَضِيءُ النَّارُ بَيْنَ جَوَانِحِي إِذَا هِيَ أَذَكَّتْهَا الصَّبَابَةُ وَالْهَجَرُ

وقد عارض البارودي مطلع أبي فراس فجعل أمره في الحب أخطر من أن
يُدَارَى بالكتان، وتمثل نفسه مُحِباً جَاحِماً لا يصدّه تهيب، ولا يَرُدُّعُهُ إشفاق،
وكذلك قال :

طَرَبْتُ وَعَادَتْنِي الْمَخِيلَةُ وَالسُّكْرُ وَأَصْبَحْتُ لَا يُلْوِي بِشِيمَتِي الزَّجَرُ
كَأَنِّي مَخْمُورٌ سَرَتْ بِلِسَانِهِ مُعْتَقَةٌ مِمَّا يَضُنُّ بِهَا التَّجَرُ
صَرِيحٌ هَوَى يُلْوِي بِي الشُّوقُ كُلَّمَا تَلَأَّ بَرَقَ أَوْ سَرَتْ دِيمَةٌ غَزُرُ
إِذَا مَالَ مِيزَانُ النَّهَارِ رَأَيْتَنِي عَلَى حَسَرَاتٍ لَا يُقَاوِمُهَا صَبْرُ

فالبارودي لم يصنع صنيع أبي فراس الذي حدثنا أنه عرف كيف يكتُم أسرار
الحب، وأنه لا يشكو بثه إلا إلى ظلمات الليل، وإنما سلك البارودي مسلكاً آخر،
حين جعل هواه فوق التجلد وفوق الكتان، وحين أعلن أن ما به أخطر من السحر
وأخطر من الجنون، وحين أعلن العجز عن مقاومة الحب، لأن الحب في رفته
ولُطْف مداخله لا يُرد بالسيوف وبالرماح، وهي كل ما يملك ذلك الفارس الذي
كانت مواقفه مما يشيب ناصية الزمان :

بَقُولِ أَنَا نَسْ إِنَّهُ السَّحَرُ ضَلَّةٌ وَمَا هِيَ إِلَّا نَظْرَةٌ دُونَهَا السَّحَرُ
فَكَيْفَ يَعْيبُ النَّاسُ أَمْرِي وَلَيْسَ لِي وَلَا لِأَمْرِي فِي الْحُبِّ نَهْيٌ وَلَا أَمْرُ

وَلَوْ كَانَ مِمَّا يُسْتَطَاعُ دِفَاعُهُ لَأَلَوْتُ بِهِ الْبَيْضَ الْمَبَانِيرُ وَالشُّمُرُ
وَلَكِنَّهُ الْحُبُّ الَّذِي لَوْ تَعَلَّقْتُ سَرَارَتُهُ بِالْجَمْرِ لاحتَرَقَ الْجَمْرُ

وهذا من أصدق ما قال المحبون، فلا يعلم أحد إلى اليوم كيف نستطيع العيون
النواعس أن تفعل بالرجال مالا نفعل الصهباء، لا يعلم أحد كيف ينفق للرجل
أن يذلَّ ويخضع في ميدان الحب، لا يعلم أحد كيف يستطيع الخد
الأسيل — وهو أرف من الورد — أن بنال من قلب الرجل ما لا ينال السيف
الصقيل.

لقد يخطر ببال الخليين أن الشعراء يبالغون حين يرون الحب أعنف من الجمر،
وأفتك من الخمر، وأقفل من الداء العضال، ولكن الذي مارس دنيا الصباحة،
وعرف ما فيها من مهالك ومعاطب، لا يزال بعجب من هذه المصاير
المحزنة : مصاير الرجال الذين يعيشون بعزائم من الصخر وقلوب من الهواء.

لقد كان البارودي ولا ريب من أقوىاء الرجال، ولكنه مع ذلك عاش في الحب
عيش الأطفال، وأخذ يحمل قلبه الجريح من أرض إلى أرض، وظل بهذي بأحلام
« حلوان » هذيان المحموم، فلم تفارقه لوعته في سفر ولا حضر، ولم برحمه جواه
في سنده ولا رخاء، ومن أجل ذلك نراه تجس بلواه كل الاحساس وهو يقول :
وَلَكِنَّهُ الْحُبُّ الَّذِي لَوْ تَعَلَّقْتُ سَرَارَتُهُ بِالْجَمْرِ لاحتَرَقَ الْجَمْرُ

وللقارئ أن يتأمل هذه الصورة الشعرية، له أن يتصور كيف تتعلق شراره
الحب بالجمر فيحترق الجمر، فالجمر يحرق ولكنه حين يمسه الحب يحترق، ونلك
من وثبات الخيال.

وقد عز على البارودي أن يكون أقل جلدًا من أبي فراس وأن يصبح حدث
السامنين، وكذلك اسندرك فقال :

عَلَى أَنِّي كَاتَمْتُ صَدْرِي حُرْقَةً مِنْ الْوَجْدِ لَا يَقْوَى عَلَى مَسِّهَا صَدْرُ
وَكَفَّكَتْ دَمْعًا لَوْ أَسَلْتُ شُؤْنَهُ عَلَى الْأَرْضِ مَا شَكَّ امْرُؤُ أَنَّهُ بَحْرُ
حَيَاءٍ وَكِبَرًا أَنْ يُقَالَ تَرَجَّحَتْ بِهِ صَبَوَةٌ أَوْ فَلَ مِنْ عَرَبِ الْهَجْرِ

ونحن نحمد الله تعالت أسماؤه على أن لطف بعباده فعصم هذا الشاعر من الضعف وأسبغ عليه نعمه الصبر الجميل، ولولا لطف الله لغرق الناس في « بحر » من الدموع وهي ملح أجاج.

لقد أعجبني من البارودي أن يُعرب في الوهم، فبقول :
وَكَفَّكْتُ دَمْعًا لَوْ أَسَلْتُ سُوءَهُ عَلَى الْأَرْضِ مَا شَكَّ امْرُؤٌ أَنَّهُ بِحَرِّ
وعبارة « ما شك امرؤ » عبارة طريفة لأنها تدل على أن الشاعر بقطر إلى أنه مقبل على أكاذيب، والكاذب في حاجة إلى القسم وإلى التأكيد.

وكنا نود لو اعذرنا عنه، ولكن هذا العلو المكشوف لم يُوشَّ بصورة شعرية على نحو ما وشى البيت البكر الذي جعل به الجمر وقوداً لنار الحب، والدنيا كلها وقوداً لتلك النار التي يعذب الله بها من بشاء من عباده الشعراء.

— ٢ —

لم يحض البارودي في حديث هواه، أما أبو فراس فقدم صوراً من الشبيب، عاب حبيبته فقال :

مُعَلَّلَتِي بِالْوَصْلِ وَالْمَوْتُ دُونَهُ إِذَا مِتُّ ظِمَانًا فَلَا نَزَلَ الْقَطْرُ
وهذا البيت عرض له سوقي في مقدمة الطبعة الأولى من الشوقيات فراه من صُور الأثره وفضل عليه قول أبي العلاء :

فَلَا هَطَلْتُ عَلَى وَلَا بِأَرْضِي سَحَائِبُ لَيْسَ تَنْفِظُمُ الْبِلَادَا

ونحن نرى أبا فراس أصدف من أبي العلاء، فإن الأثره من مظاهر الحيوية، والشاعر الحي لا يفكر إلا في نفسه، لأن الحياة تفرض الاسبداد، ونظرة أبي العلاء فيها كرم ولكنها تمثل الضعف، والأثره هي سر كل شيء، فالسجرة العظيمة لم تعظم إلا بفضل ما استبدت في مص الأرض واستنشاف الهواء وهي لا تعظم إلا بعد أن تقتل ما حولها من شجر ونبات، والرجل العظيم لا يعظم إلا بفضل ما يغير على معاصريه، فهو لا يظهر إلا بعد أن يُخمل الألوفا والملايين، والشمس

لم تعظم إلا منذ استطاعت أن تكسف بضيائها جميع الكواكب فلا ترى العين غيرها في كبد السماء، وكان القمر أقل عظمة من الشمس لأنك ترى بجانبه نجومًا يخطئها العدّ فتحكم بأنه عجز عن الاستبداد بملك السماء، وقد يتفق أحياناً أن نرى القمر نهاراً، ولكن كيف نراه ؟ نراه في صورة التابع الذليل، وهو لم يظهر إلا بفضل ما أفاءت عليه الشمس، ولو كفت برّها عنه لعاش وهو مجهول.

فقول أبي فراس :

إِذَا مِتُّ ظِمَانًا فَلَا نَزَلَ الْقَطْرُ

من الكلمات القوية التي لا تصدر إلا عن رجل يحمل قلب الملوك، أما كرم أبي العلاء فهو كرم العاجز الذي لا يتصرف في شيء، وإنما يبذل عطايا الوهم بلا حساب، والأنس بنعيم الناس لا يكون إلا بمن يملك الإفضال على الناس، أما الذي يسره أن يجود المطر جميع الوهاد والنجاد فهو يُسر بما لا يبذل، والسرور بما لا تبذل سرور الضعفاء.

وقد فرح ناس بملاحظة شوقي فراحوا يعيدونها في كل مجتمع، وهم لا يفقهون !

ومضى أبو فراس فامتعنا بهذين البيتين :

بَدَوْتُ وَأَهْلِي حَاضِرُونَ لِأَنْسِي أَرَى أَنَّ دَارًا لَسْتُ مِنْ أَهْلِهَا قَفَرُ
وَحَارَبْتُ قَوْمِي فِي هَوَاكِ وَإِنَّهُمْ وَإِيَّايَ تَوَلَّا حُبُّكَ الْمَاءُ وَالْخَمْرُ

وهذا شعر بديع حقاً، وإن كان البيت الأول مأخوذاً من قول جميل :
أَبَيْتُ مَعَ الْهَلَاكِ ضَيْفًا لِأَهْلِهَا وَأَهْلِي قَرِيبٌ مُوسِعُونَ ذُرُوءَ فَضْلٍ

وكان البيت الثاني أخذ برفق من قول جميل في كلمة ثانية :
كَأَنَّ لَمْ نُحَارِبْ يَا بُنَيْنَ تَوَلَّاهَا تَكَشَّفُ غَمَّاهَا وَأَنْتَ صَدِيقُ

ولننصّ على أن البيت الأول عند أبي فراس أروع من بيت جميل، أما البيت الثاني من شعر جميل فهو أقوى وأعمق من البيت الثاني من شعر أبي فراس.

ثم انظروا هذا البيت :
وَفَيْتُ وَفِي بَعْضِ الْوَفَاءِ مَذَلَّةٌ لِلْإِنْسَانَةِ فِي الْحَيِّ شِيَمَتُهَا الْعَذْرُ
انظروا هذا البيت وتأملوه، فعبرة « وفي بعض الوفاء مذلة » تصور ما يلقي
الرجل في الحب، والوفاء في الحب ذلة يقبل عليها الرجال وهم كارهون، والرجل
لا يحب إلا وهو مخبول، ولو كان يملك من أمره شيئاً لعرف أن نعيم الحب نعيم
صغير بالإضافة إلى ما يُذال فيه عز النفوس.

وهذا البيت :
وَقُورٌ وَرَيَّعَانُ الصَّبَا يَسْتَفْزُهُمَا فَتَارِنُ أَحْيَانَا كَمَا يَارِنُ الْمُهْرُ
هذا بيت نادر، وهو قليل الأمثال عند من يفهم دقائق البيان، ولك أن تتذكر
وقار العقلية المليحة التي تحيا برزانة الجبال، ثم يستفزها الصبا فتجرح إلى التعقب
والتغضب، ولبعض الملاح غضبات كلها سحر وفثون، وهي أملح في العين
وأندى على القلب من بسمات الرضا ونغمات الحنين.

وانظروا هذا الحوار الطريف :
تَسَائِلُنِي مَنْ أَنْتَ وَهِيَ عَلِيمَةٌ وَهَلْ بَفَتِي مِثْلِي عَلَى حَالِهِ نَكْرُ
فَقُلْتُ كَمَا شَاءَتْ وَشَاءَ لَهَا الْهَوَى قَتِيلُكَ، قَالَتْ: أَيُّهُمْ؟ فَهُمُو كُتْرُ
فَقُلْتُ لَهَا لَوْ شِئْتَ لَمْ تَتَعَنَّتِي وَلَمْ تَسْأَلِي عَنِّي وَعِنْدَكَ بِي خُبْرُ
وَلَا كَانَ لِلْأَحْزَانِ عِنْدِي مَسْلَكُ إِلَى الْقَلْبِ لَكِنَّ الْهَوَى لِلْبَلَا جِسْرُ
فَأَيَّقَنْتُ أَنْ لَا عِزَّ بَعْدِي لِعَاشِقٍ وَأَنَّ يَدِي مِمَّا عَلِقْتُ بِهِ صِفْرُ
فَقَالَتْ لَقَدْ أُرَى بِكَ الدَّهْرُ بَعْدَنَا فَقُلْتُ مَعَاذَ اللَّهِ بَلْ أَنْتِ لَا الدَّهْرُ

وهذا أيضا شعر، ولكن أي شعر ! إنه من أقوى لفحات الصبابة، وأطيب
نَفَحَاتِ الوجدان، والدنيا هكذا تصنع بالرجال، فذلك الفارس الذي فتك بمن
فتك من الأبطال، وهدم ما هدم من الحصون، هذا الجبل يقف خاشعاً ذليلاً أمام
إنسانة تقول : من أنت ؟ فيقول : عاشق ! فتقول : ولكن من أنت في
العشاق ؟ فيقول في ذلة المهزوم : أنت تعلمين !

ومس كانت هذه الإنسانية التي عنها أبو فراس ؟
ولكن ما قيمة هذا السؤال ؟ أكان من الحتم أن يكون لمثلها شأن حتى تكوي
مثله على الجمر المشبوب ؟ إن من أعجب تصارييف القدر أن لا ينبب الحسن
المرموق إلا في المراتع التي لا يُنصب حول حماها حصن، ولا يرفرف فوقها لواء.
إن أبا فراس لا يكذب في مثل هذا التحرق، ولكن من كان يحب ! كان يحب
إنسانية هي اليوم في ضمير شعره، لا في ضمير صدره، إنسانية أنطقته بهاءه
اللوعة الخالدة، ثم اندرجت في أكفان الفناء.

ثم انظروا هذا المصير المحزن، مصير كل عاشق حيله الهوى فضاخ :
وَقَلَّبْتُ أَمْرِي لَا أَرَى لِي رَاحَةً إِذَا الْبَيْنُ أُنْسَانِي أَلَجَّ بِي الْهَجْرُ
فَعُدْتُ إِلَى حُكْمِ الزَّمَانِ وَحُكْمِهَا لَهَا آذَنْبٌ لَا نُجْزَى بِهِ وَلِي الْعُذْرُ
هذا مصير كل عاشق : لغيره أن يُذنب وعليه أن يعتذر. والعشق ذاته خروجٌ
على المنطق، منطق الحياة التي تسمو بصاحبها إلى الترفع عن كل دنية، إلا أن بُتبت
البحث أن الحب أسلوبٌ من الظفر بمكونات الجمال، وأن مدامع العشق هي
في عالم العقول كالمخلب والنايب في عالم المحسوس، فالأسد بفترس، والعاشق
يفتسر، وإن اختلفت وسائل الافتراس.

نحن إذن نبكي لنُخَدَّرَ الفريسة، وعلى ذلك بكون الدمع في عين العاشق كالسم
في ناب التعبان ! ! أتروني كشفت سرَّ المهنة ؟ لا نراعوا أيها العنساقي فلأهل
الجمال غفلة هي أعجب العفلات، هم يرون السرك ويسحاهلون، لحكمه بعلمها
من يصل القلوب بالقلوب، وينقل الطباء طائعه إلى مراضى الأسود.

وكان أبا فراس لحظ هذه النظرة الفلسفية حين قال :
كَأَنِّي أَنَادِي دُونَ مَيْثَاءَ ظَنِّيهِ عَلَى شَرَفِ ظُمِيَاءَ حِلْيَتِهَا الذُّعْرُ
نَجْفَلُ جِنًا نَمَّ نَدْنُو كَأَنَّمَا تُنَادِي طَلَابًا بِالْجَرِي أَعْجَزُهُ الْحُضْرُ
وهو خيال بدويّ أطف به كثير من الشعراء، والمليحة هكذا حلفت بأمن
ونخاف، وبين الخوف والأمن يكون جحيم الهجر ونعيم الوصال.

نتقل إلى الموازنة بين الشاعرين في الفخر فنقول :
يُحْسُ البارودي أن أيامه انتهت، أيام المجد الحربي، فبزفر :
وَإِنِّي أَمْرُؤُ لَوْلَا الْعَوَائِقُ أَذْعَتُ لِسُلْطَانِهِ الْبَدُو الْمُغِيرَةُ وَالْحَضَرُ
وعبارة « لولا العوائق » فيها تحفظ معقول : لأنه كان في القيد، أما أبو فراس
فيشمخ :

وَإِنِّي لَنَزَالُ بِكُلِّ مَخُوفَةٍ كَثِيرٍ إِلَى نَزَالِهَا النَّظَرُ الشَّرُّ
وحال الشاعرين مختلف، فالبارودي كان انهزم وانهزمت أمته فاحتل الانجليز
بلادهم ونفوه إلى جزيرة نائية لا يُرجى له منها معاد، فهو خَلْبِقُ بأن يراعي ذلك
في فخره. أما أبو فراس فكان لابن عمه ولقومه دولة وكان لهم جيش، وكان
ينتظر أن يُفك من الأسر، وفي ذلك ما يفسح أمام نفسه مجال القوة فيزهى ويخال،
ويتمجد فبقول :

وَإِنِّي لَجَرَّارٌ لِكُلِّ كَتِيبَةٍ مُعَوَّدَةٌ أَنْ لَا يُخِلَّ بِهَا النَّصْرُ
فَأَصْدَى إِلَى أَنْ تَرْتَوِي الْبَيْضُ وَالْقَنَا وَأَسْعَبُ حَتَّى يَشْبَعَ الذُّبُّ وَالنَّسْرُ
وهذا نهاية الفخر، والخيال هنا بارع، فالفراس يظل صديان حتى نرتوي الرماح
والسيوف، ويظل جوعان حتى تشبع النسور والذئاب من لحوم الأعداء.

وأبو فراس لا يذكر غير نفسه، أما البارودي فيجعل مجده من مجد قومه :
مِنَ النَّفَرِ الْعُرِّ الَّذِينَ سُيُوفُهُمْ لَهَا فِي حَوَاشِي كُلِّ دَاجِيَةٍ فَجَرُّ
إِذَا اسْتَلَّ مِنْهُمْ سَيِّدٌ غَرَبَ سَيْفِهِ تَفَزَّعَتِ الْأَفْلَاكُ وَالتَّتَفَتِ الدَّهْرُ
والبيت الثاني وثبة هائلة من وثبات الخيال، ولا يخلو البيت الأول من حُسْنِ
مَرْمُوقٍ.

ونحن نفهم لماذا سكت أبو فراس عن التمدح بقومه، فقد بُحَّ صوته وهو
يستنجد بهم ليفدوه فلم يلتفتوا إليه، أما البارودي فلم نكن له بقية من مجد غير
آبائهم الذين وصفهم بالجود والبأس فقال :

لَهُمْ عُمْدٌ مَرْفُوعَةٌ وَمَعَاقِلٌ وَالْوَيْةُ حُمْرٌ وَأَفْنِيَّةٌ خُضْرُ
وَنَارٌ لَهَا فِي كُلِّ شَرْقٍ وَمَغْرِبٍ لِمُدَّرِعِ الظَّلَمَاءِ أَلْسِنَةُ حُمْرُ
تَمُدُّ يَدًا نَحْوَ السَّمَاءِ خَضِييَّةٌ تُصَافِحُهَا الشُّعْرَى وَبَلْثُمُهَا الْغَفْرُ
وَحَيْلٌ يَرْجُ الْخَافِقِينَ صَهْلُهَا نَزَائِعُ مَعْقُودٌ بِأُغْرَافِهَا النَّصْرُ
مُعَوَّدَةٌ قَطَعَ الْفَيَافِي كَانَهَا حُدَارِيَّةٌ فَتَحَاءُ لَيْسَ لَهَا وَكْرُ^(١)

والجود في هذه الأبيات وضع في أخيلة بدوية، فأقامة النار لمداية السارين لا يعرفها القاهريون، وقوم البارودي الذين يتمدح بهم كانوا سادة مصر من المماليك، وكان للبارودي فيما يقال أجداد من المماليك، وكان هذا النسب الصحيح أو المصنوع يغريه بالفتك، ويحبب إليه الصيال.

وعبارة : « وَحَيْلٌ يَرْجُ الْخَافِقِينَ صَهْلُهَا » عبارة قوية جدا، وهي لا نقل جمالاً عن تلفت الدهر وتفزع الأفلاك.

والبارودي يجعل خيل قومه « مُعَوَّدَةٌ قَطَعَ الْفَيَافِي » وهو تعبير طريف فهي ليست من الخيل المدللة التي تحيا في نعيم المرباض وتُشمسُ أُغْرَافِهَا مسح التلطف والترفق، على نحو ما يقع في مرباض الوادعين الذين يقتنون الخيل للزينة لا للحرب.

والبارودي كان يئس من كل شيء، يئس من نفسه لأن الذين نفوهُ كانوا مُتَنَصِّرِينَ، ولأن قومه انهزموا هزيمة انتهت بتجريدهم من السيوف، والقوم الذين أعنيهم أنا هم المصريون، أما القوم الذين تحدث عنهم البارودي فهم أسلافه القدماء، وهؤلاء لم تبق منهم بقية، ولذلك بكاهم فقال :

أَقَامُوا زَمَانًا ثُمَّ بَدَدَ شَمْلَهُمْ أَخُو فَتَكَاتٍ بِالْكَرَامِ أَسْمُهُ الْدَهْرُ
فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ غَيْرُ آثَارِ نِعْمَةٍ تَضَوُّعُ بَرِيَاها الْأَحَادِثُ وَالْدُكْرُ
وَقَدْ تَنَطَّقُ الْآثَارُ وَهِيَ صَوَامِيٌّ وَيُثْنِي بَرِيَاهُ عَلَى الْوَابِلِ الزَّهْرُ
لَعَمْرُكَ مَا حَيٌّ وَإِنْ طَالَ سَيْرُهُ يُعَدُّ طَلِيقًا وَالْمُنُونُ لَهُ أُسْرُ
وَمَا هَذِهِ الْأَيَّامُ إِلَّا مَنَازِلُ يَحُلُّ بِهَا سَفَرٌ وَيَرْكُهَا سَفَرُ

(١) الحُدَارِيَّةُ بالضم : العقاب، والفتحاء من العفصان : اللسه الحماح.

فَلَا تَحْسَبَنَّ الْمَرْءَ فِيهَا بِخَالِدٍ وَلَكِنَّهُ يَسْعَى وَغَايَتُهُ الْعُمُرُ

ونهاية هذا الشوط ختمت بضعف، لأن الشاعر كان من اليائسين.

أما أبو فراس فقد انفسح أمامه مجال القول، فتحدث عن أدب الحرب فقال :
وَلَا أَصْبِحُ الْحَيَّ الْعَيُورَ بِعَارَةٍ أَوْ الْجَيْشَ مَا لَمْ تَأْتِهِ قَبْلِي التُّدْرُ

ومن أشرف آداب الحرب أن تُسبق بالنذير فلا يكون فيها تَبَيُّتٌ ولا اغتيال

وبلغ غاية الفخر حين قال :

وَيَا رَبَّ دَارٍ لَمْ تَخَفْنِي مَنِعَةً طَلَعْتُ عَلَيْهَا بِالرَّدَى أَنَا وَ الْفَجْرُ

وكلمة « لَمْ تَخَفْنِي » وكلمة « مَنِعَةً » من الكلمات الأصلية في هذا البيت،

وعبارة :

« طَلَعْتُ عَلَيْهَا بِالرَّدَى أَنَا وَ الْفَجْرُ »

فيها رَشَاقَةٌ وفيها خيال.

ولم يفت أبا فراس أن يتمجد بأدب النفس، وأن يذكر أنه كان يعفو ويصفح

حين تتقدم حسناء فتشفع لقومها عند ذلك المُغِيرِ البطّاش :

وَسَاجِبَةُ الْأَذْيَالِ نَحْوِي لَقِيَتْهَا فَلَمْ يَلْقَهَا جَافِي اللَّقَاءِ وَلَا وَعْرُ

وَهَبْتُ لَهَا مَا حَارَهُ الْجَيْشُ كُلُّهُ وَرُحْتُ وَلَمْ يُكْشَفْ لِأُيُنَاتِهَا سِتْرُ

وَلَا رَاحَ يُطْفِئُنِي بِأَثْوَابِهِ الْغَنَى وَلَا بَاتَ يَثْنِينِي عَنِ الْكَرَمِ الْفَقْرُ

وَمَا حَاجَتِي فِي الْمَالِ أَبْغَى وَفُورُهُ إِذَا لَمْ أَفِرْ عِرْضِي فَلَا وَفَرَ الْوَفْرُ

وهذا استطراد إلى محاسن نفسية يتمدح بها كرام الرجال.

وانقل أبو فراس إلى الحديث عن أسره فقال :

أُسِرْتُ وَمَا صَحْبِي بِعُزْلٍ لَدَى الْوَعَى

وَلَا فَرَسِي مُهَرَّ وَلَا رَبُّهُ غِمْرُ

وَلَكِنْ إِذَا حُمَّ الْقَضَاءُ عَلَى امْرِئٍ

فَلَيْسَ لَهُ بَرٌّ يَقِيهِ وَلَا بَحْرُ

والكلام عن القضاء والقدر هو العلالة البافية التي يفزع إليها الأبطال المنهزمون،

والقدّر له في الأدب الشرقي مكان، فنراه عند العرب ونراه عند الهنود، وفي كتاب
كليلة ودمنة فقرات كثيرة عن القدر وتصريفه لشؤون الناس، وما نحى أن نفعل
كما يفعل كتاب العرب فنقول إن هذا دليل على ضعف النفس الشرقيّة، ههنا،
فالناس في الشرق والغرب ضعفاء، وإن فنيهم النصر في بعض الأحيان، والإنسان
حيوانٌ لئيم فهو لا يذكر القدر إلا حين يُغلب، وهو عند العاقبة ينسأى إلى منزلة
الإله المعبود.

وما أخطر ما يلقي الرجال في مآزق الكرب والضيم، حين يُخبر في الحرب
بين بلتين : بلية الفرار، وبلية الهلاك، وقد صوّر هذا أبو فراس أصدق تصوير
حين قال :

وَقَالَ أَصِيحَابِي الْفَرَارُ أَوْ الرَّدَى فَقُلْتُ هُمَا أُمْرَانِ أَحْلَاهُمَا مُرٌّ
وَلَكِنِّي أَمْضِي لِمَا لَا يَعِينِي وَحَسْبُكَ مِنْ أُمْرَيْنِ خَيْرُهُمَا الْأَسْرُ

وما رأيت كلمة صغرت بحق كما صغرت في هذا الموطن كلمة « أصيحاب »
فإن لم يكن الوزن هو الذي قضى بذلك فأبو فراس إذن من أبصر الشعراء بصياغة
الكلام.

وتلفت أبو فراس فرأى أسريه يمتنون عليه بأن لم يخلعوا ثيابه كما يصنعون
بالأسرى، ولعلمهم لاحظوا أنه أمير، وأن الأمراء لهم في الأسر مقام ملحوظ،
فقرّعهم بهذين البيتين :

يَمْنُونَ أَنْ خَلَّوْا ثِيَابِي وَإِنَّمَا عَلَيَّ ثِيَابٌ مِنْ دِمَائِهِمْوُ حُمْرُ
وَقَائِمُ سَيْفٍ فِيهِمْوُ دُونَ نَصْلِهِ وَأَعْقَابُ رُمَحٍ فِيهِمْوُ حُطْمُ الصَّدْرِ

وبكاد هذا الشعر يفصح عن الوقت الذي قبل فيه هذا القصيد، وأغلب الظن
أنه قاله في الأسبوع الأول من الأسر، وإن كان في بنية القصيدة ما يسعر بالعتب
على فومه إذ قال :

سَيَذْكُرُنِي قَوْمِي إِذَا جَدَّ جَدُّهُمْ وَفِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ بُفْتُذُ الْبَدْرِ
وَلَوْ سَدَّ غَيْرِي مَا سَدَّدْتُ اكْتَفَوْا بِهِ وَمَا كَانَ يَغْلُو النَّبْرُ لَوْ نَفَى الصُّفْرُ

فإن في هذين البيتين دلالة على أنهم أبطؤوا في افتدائه، وكابوا من
الآثمين، تم قال :

وَنَحْرُ أَنَاسٍ لَا تَوَسُّطَ بَيْنَا لَنَا الصَّدْرُ دُونَ الْعَالَمِينَ أَوْ الْقَبْرِ
نَهْوُنُ عَلَيْنَا فِي الْمَعَالِي نُفُوسَنَا وَمَنْ بَحْطُبِ الْحَسَنَاءِ لَا بُغْلِهِ الْمَهْرُ
أَعَزُّ بَيْنِي الدُّنْيَا وَأَعْلَى بَيْنِي الْعُلَا وَأَكْرَمُ مَنْ فَوْقَ الثَّرَابِ وَلَا فَحْرُ

وفي هذه الأبيات رجعة إلى قومه الذين تجاهلهم في صدر القصيد.

— ٤ —

أما بعد؛ فقد سارت قصيدة أبي فراس في كل أرض، ونعسى بها الناس في جميع
البلاد العربية، وما فيها من التشبيب حفظ في لوحة من ألواح الغناء سجلتها شركة
أوديون للآنسة أم كلثوم، وكلمة :
« لَنَا الصَّدْرُ دُونَ الْعَالَمِينَ أَوْ الْقَبْرِ »

يخفظها كل أديب. .. والبيت :
نَهْوُنُ عَلَيْنَا فِي الْمَعَالِي نُفُوسَنَا وَمَنْ يَخْطُبِ الْحَسَنَاءِ لَا بُغْلِهِ الْمَهْرُ

كُتِبَ أَلْفَ مَرَّةٍ وَمَرَّةٍ فِي دِفَاطِرِ الْإِنْسَاءِ.
أما قصيدة البارودي فقد نُسِيَتْ مع الأسف الموحع، ولم يُحْفَظْ منها
غير هذا البيت :
إِذَا أَسْتَلَّ مِنْهُمْ سَيْدٌ غَرَبَ سَبْفِهِ تَفَرَّعَتْ الْأَفْلَاكُ وَالنَّفْتُ الدَّهْرُ
وكذلك نُكِبَ البارودي مريين : نُكِبَ حِينَ نَفَى وَلَمْ يَرْجِعْهُ قَوْمُهُ بِفَوْةِ
السيف، وَنُكِبَ حِينَ نَسِيَ النَّاسُ شَعْرَهُ فِي مِفَاهِ.

وأكد أحكم بأن البارودي كان في الحرب أفتك من أبي فراس، والحرب بين
الحيش المصري ومن ساوره من الجيوش كانت أخطر من الحروب التي اسنرك
فما أبو فراس.

ولكن البارودي لظروف كثيرة فقد الحظَّين معاً، فلم يَنْصِرْ سيفه، ولم يسر
شعره، والدنيا حظوظ، وإلا فكيف انخفضت هامة البارودي وكان عزمه يذكُّ
الحبل.

أبها البارودي العظيم !
لست أتكلف الغضب لك، والإشفاق عليك، أنت عبقرية أضاعها المصريون
وأضاعها الزمان، ولكن لا تأس، ولا تخزن، فلسنت أول من أضاعهم المصريون
وأضاعهم الزمان !

البحث الثالث والثلاثون

بين أبي نواس وعبد الباقي إبراهيم

ملاعب الكرة في الشعر العربي

— ١ —

مَلَّاعِبُ الكُرَّةِ فيها لطف وجاذبية، وفيها سحرٌ وفُتُون، ومع ذلك لم يتكلم عنها الشعراء إلا قليلاً، ولعل من أسباب تفصير الشعراء في هذا الباب أنهم كانوا في أغلب الأحوال لا يتشاركون السباب في ألعاب يأبأها أدب الكهول، والشاعر يظل فتى القلب والروح، ولكنه يَتَوَقَّرُ كثيراً فلا يشارك الشباب في ألعاب تنشأ أول ما تنشأ بين الأطفال.

ولست أعرف ما صنع شعراء الانجليز في وصف ملاعب الكرة، وهم من أمهر اللاعبين، ولكنني أعرف جيداً أن شعراء العصر الحاضر في مصر لم يُعْنُوا بوصف ملاعب الكرة على نحو ما عُنُوا بوصف المراقص مع أن لعب الكرة أحفل بالمعاني الحيوية، وهو أقدر من الرقص على العبت بأخيلة الشعراء.

ويمكن الحكم بأن اللعب تغلب عليه الصبغة الجدية بخلاف الرقص، ولكن أيكون الجدُّ مما يقضي على قرائح الشعراء بالركود؟ إن الجد في اللعب له معانٍ تغلب الألباب، وهو خليق بأن يحوّل الشعراء إلى شباطين، فلنعرف ذلك ولننظر

من شعراء مصر أن يُسجّلوا في أشعارهم روعات الحفلات السنوية التي نقام بالحزيرة، والتي ينبض فيها دم الشباب بأشرف الحيوانات وهم يتقابلون صعين في ميدان الحرب العاتبة التي تنتهي دائماً بالسلام والصفاء.

وما أنس لا أنس ملعب الكرة في رحاب الجامعة المصرية، وقد أفهم في قصر الرعفران في شتاء سنة ١٩٢٦، وكانت المباراة يومئذ بين طلبة الجامعة المصرية وبين فريق من فتيان الأمريكان زاروا مصر في ذلك الحين، وكان الزعيم سعد زغلول يشهد ذلك الاحتفال. لم مسّه البرد فانتقل إلى مكتب مدير الجامعة ووضعت المدفأة بين قدميه، ولبت تنتظر أخبار المباراة، وانتصر يومئذ النصارى المصريون على الشباب الأمريكان، ولكنهم تطامسوا في النهاية عامدين ليسكنوا الصقور الأمريكية من الظفر المصنوع.

في ذلك اليوم كنت أتمنى أن يتقدم شاعر فيصف ذلك الملعب الجذاب، ولكن أين الشعراء؟ إن ملاعب الكرة تقام في منتصف الساعة الثالثة بعد الظهر، وهي لحظة يقضيها شعراؤنا فوق الوسائد بعد غداء العدى والصول، وليس في مصر شاعر يتخذ قوته من الحب والنسيم.

مالي ولهذا؟ أنا لا أكتب هذا الفصل لأفصل في قضية الشعراء، فلنتركهم للحياة تؤدب منهم من تشاء، وتنسى من تشاء، ولننقل إلى وصف ملعب الكرة في قصيده أبي نواس، وقصيدة عبد الباقى إبراهيم.

— ٢ —

حدث حمزة الأصفهاني أن أبا نواس خرج يوماً مع العباس بن موسى الهادي إلى « عيسانا باذ » فوجد في الميدان رهبر بن المسبب والصقر بن مالك الخزاعي يلعبان بالصواخرة فدخل مع القوم فصاروا حزينين فغلبهم، ثم أكل معهم وشرب، فلما طرب قال هذه الأرجورة :

قد أشهد اللهو بفتيان عرر من ولد العباس سادات البشر

وَمِنْ بَنِي قَحْطَانَ وَالْحَيِّ مُضَرٌ
 زَيْنٌ حُسْنٌ وَجْهَهُ طَيْبٌ الْحَبَرُ
 مِنْ كُلِّ طَرْفٍ أَعُوجِيٌّ قَدْ ضَمَرَ^(٢)
 جَنْ عَلَى جَنْ وَإِنْ كَانُوا بَشَرٌ
 أَوْ سُمَرُ الْفَارِسُ فِيهَا فَانْسَمِرُ
 مُكَلَّلَاتٍ بِيَهَارٍ وَزَهَرُ
 إِذْ ذَرَّ قَرْنُ الشَّمْسِ فِي عِبِّ مَطَرُ
 مَحْنِيَّةٌ أَطْرَافُهَا فِيهَا زَوْرُ^(٣)
 فَلَمْ يَعِْبْ طُولٌ وَلَا شَانَ قِصَرُ
 مُدْمَجَةٌ الْأَرْكَانِ مُدْمَاةُ الطَّرَرُ
 أَحْكَمَهَا صَانِعُهَا لَمَّا فَطَرَ
 فَلَيْسَ لِلْإِشْفَاءِ بِالْجُلْدِ أَثَرُ
 حَتَّى إِذَا مَا أُغْلِقَ الْقَوْمُ الْخَطَرُ
 مُحَرَّبًا يَوْمَ الرَّهَانِ الْمُحْتَصِرُ
 فَلَمْ بَحُرْ مِنْهُمْ وَلَا الْعَيْنُ فَنَرُ
 بِكُرَةٍ دَحَا بِهَا تُمْ زَجَرُ
 رَفْعًا وَوَضْعًا أَيُّمَا ذَاكَ اسْتَقَرُ
 نَدَافَعُ الثَّبَلِ بِإِزْعَاجِ الْوَتَرُ

مِنْ كُلِّ مَالُوفٍ كَرِيمٍ الْمُعْتَصِرُ^(١)
 عَلَى حِيَادٍ كَتَمَائِيلُ الصُّوَرُ
 لَمْ يَكُوهِ الْبَيْطَارُ مِنْ دَاءِ الْحَمَرِ^(٣)
 كَانَمَا خَبِطُوا عَلَيْهَا بِالْإِبَرُ
 بَيْنَ رِيَاضٍ مِثْلَ مَوْشِي الْحَبَرُ
 فَانْتَدَبُوا فِي يَوْمٍ قُرٌّ وَخَصَرُ
 صَوَالِحًا يَصْبُو إِلَيْهَا مَنْ نَظَرُ
 قَدَرَهَا شَابِرُهَا لَمَّا شَبَرُ
 وَقَدْ نَنَادُوا فَتَرَامُوا بِالْأَكْرُ^(٤)
 شَدَّدَ صِفْقِي مَتْنِهَا حَسُو الشَّعْرُ^(٥)
 الْطَفَ بِالْإِشْفَاءِ خَرَزًا إِذْ دَسَرُ^(٦)
 يُحْسِنُ تَفَاحًا تَدَلَّى فِي شَجَرُ
 وَوَكَّلُوا بِالْبَزِّ مِقْدَامًا ذَكَرُ^(٧)
 فَضَّلَهُ حَذَقٌ وَصَرَبٌ مُشْتَهَرُ
 وَأَسْتَقْدَمَ الْقَوْمَ رَيْسُ ذُو خَطَرُ
 فَانْحَدَرَتْ كَالنَّجْمِ وَلَّى فَانْكَدَرُ
 تُدْفِعُ بِالضَّرْبِ إِذَا الضَّرْبُ اسْتَمَرُ
 فَلَمْ نَرَى فِيهِمْ حَلِيمًا ذَا وَقَرُ

(١) كرم المعتصر : جواد عبد السؤال

(٢) الأعوجي : سة إلى أعوج، فرس كان لنبي هلال نسب إليه الأعوجيات

(٣) الحمر — بفتح ح — داء بعري الدواب من كثره أكل الشعير فتش أخواها.

(٤) الرور بالحررك : الميل..

(٥) الأكر جمع أكرة، وهي لعة في الكره.

(٦) الصمقان : مثنى صمق وهو الحانب.

(٧) الإشماء — بالمد للصرورة — مثقب بخرر به الحلد. ودر: أدخل الإتمى في الحلد،

(٨) البر . الغلبة والقهر.

إِذَا أَجَادَ الضَّرْبَ فَدَى وَنَعَرَ وَعَطَعَطَ الْمَرْءُ الَّذِي يَرْحُو الظَّفَرَ^(١)
وَأَكْتَأَبَتْ نَفْسُ الَّذِي خَافَ الْغَيْرَ وَأَيَّقَنُوا أَنْ فِدَ عِلَاهُمْ وَقَهَرَ
حَتَّى يُفَوِّزَ بِالرَّهَانِ مِنْ قَمَرٍ يُسَاءُ هَذَاكَ وَهَذَاكَ يُسِرُّ
« كَذَلِكَ آلَدَهْرُ وَنَضْرِيْفُ الْقَدْرِ »

وهذه أرجوزة رشيقة نحب أن بتأملها القارئ، ليدرك ما فيها من خفة الحركة ودقة التصوير، وعيساناباد شحلة كانت بشرقي بغداد منسوبة إلى عيسى بن المهدي، و« ناباذ » كلمة فارسية معناها العمارة، وهذه الخلة حلاها أبو نواس في هذا الرجز الطريف.

— ٣ —

أما عبد الباقي إبراهيم فقال فصيدته في وصف مباراة كرة القدم بين تلامذة مدرسة شحرم بك، وتلامذة مدرسة رأس النين بمدينة الاسكندرية، مدينة الملاعب في الصيف وغير الصيف.

وإليكم أرجوزته :

أَذْكُرُ يَوْمًا أَغْلَنَ السُّرُورَا	مَتَّعْتُ فِيهِ الْعَيْنَ وَالضَّسِيرَا
يَوْمَ الْخَمِيسِ الضَّاحِكِ النَّخِيرَا	لَا بَارِدَ الْجَوِّ وَلَا مَطِيرَا
صَحْنُ فِيهِ مَعْشَرًا مَبْرُورَا	طَوَوْا عَلَى حَتِّ الْعِلَا ضُورَا
حَتَّى أَتَيْنَا مَعْهَدًا مَشْهُورَا	يَفِيضُ لِلشَّعْبِ هُدًى وَنُورَا
حَيْثُ شَهِدْنَا لَعِبًا مَشْكُورَا	فَبِهِ الصُّقُورُ بَارَتِ الصُّقُورَا
أَبْنَاءُ (رَأْسِ الثَّيْنِ) كَانُوا سُورَا	أَمَامَ جَيْشٍ جَاءَهُمْ مُغِيرَا
جَيْشَانِ مَا طَلَا دَمًا طُهورَا	وَلَا بَرَى مِنْ بَيْنِهِمْ مُؤْتُورَا
قَدْ نَظَّمُوا صُفُوفَهُمْ سَطُورَا	بَعْضُ لِبَعْضٍ قَدْ عَادَا ظُهورَا
وَمَمَرُوا بَابَهُمْ تَنْمِيرَا	مِنَ الْعَدُوِّ مِيرَ التَّصِيرَا

(١) عططط : صاح.

تَسَاجَلُوْهَا كُورَةً فَرُورًا
فَمَرَّةً تَخْتَرِفُ الْأَيْسَرَ
وَمَرَّةً تُصَادِمُ - التُّسُورَا
تَرْمِي سَهَا الرَّحْلُ الْمَدَى الْقَصِيرَا
وَإِنْ بُرِدَهَا الرَّأْسُ أَنْ تَطِيرَا
لَا تَلْمَسُ الْكَمُ لَهَا شَكِيرَا
وَأُسْعَلُوا وَطِيسَهَا سَعِيرَا
فَإِذَا تَرَاهُ أَسَدًا هَضُورَا
وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ هَوَى مَكْسُورَا
ظَلُّوا عَلَى هَذَا مَدَى قَصِيرَا
فَمَا أَشْتَكُوا عِيًا وَلَا فُتُورَا
حَتَّى إِذَا مَا سَمِعُوا صَفِيرَا
وَأَنْصَرَفُوا تَحْسِبُهُمْ مَنُثُورَا
نَمْ آخَتَمَعْنَا نُكْمِلُ الْحُبُورَا
أَفَاضَتْ الْحَلَوَى عَلَيْهِ الثُّورَا

وهذا أيضاً رَجَزٌ طريف، ولكن انظروا قليلاً في الموازنة بين الفصيدتين.

— ٤ —

ولنذكر في بداية هذه الموازنة أن أبا نواس هو دائماً أبو نواس، وبالرغم من الطرافة البادية في قصيدة عبد الباقي فإن قصيدة أبي نواس أرسنى وأبدع وأظرف، وكيف لا تكون كذلك وقد قالها بعد لعب ختم بكؤوس الصهباء، على حين ختمت حملة رأس التين بفناجين الشاي !

وربما كان من أسباب نفوق أبي نواس أنه اشترك في اللعب ثم فاز، أما عبد الباقي فكان من المتفرحين، وحماسة اللاعب أقوى وأعنف من حماسه المتفرج، بضاف إلى هذا أن الذين تلاعبوا في ملعب رأس التين كانوا من التلاميذ، على

حين كان الذين تلاعبوا في عيساناباذ من الفتيان الميامين أمراء بني العباس.
وألفاظ أبي نواس كلها مُتَّخِزَةً، أما ألفاظ عبد الباقي ففيها القوى والضعف
يقول أبو نواس :
قَدْ أَشْهَدُ اللَّهَ الْفَتَيَانِ غُرَّرَ مَنْ وَلَدَ الْعَبَّاسِ سَادَاتِ الْبَشَرِ
ويقول عبد الباقي :

صَحِبْتُ فِيهِ مَعْشَرًا مَبْرُورًا طَوَّوْا عَلَيَّ حُبَّ الْعَلَا ضُدُورًا
ولكم أن تنظروا الفرق بين « الفتيان الغرر » في كلام أبي نواس، و « المعشر
المبرور » في كلام عبد الباقي، ولكن لا بأس فأبو نواس يصف اللاعبين، أما عبد
الباقي فيصف جماعة من الأساتذة قوَّس الدهر ظهورهم فمشوا إلى الملعب منشاقين.
والمشهد مختلف بعض الاختلاف، فأصحاب أبي نواس يلعبون وهم فوق ظهور
الجياد، أما أصحاب عبد الباقي فيلعبون فوق ظهر الأرض، ومن أحل ذلك نفردت
قصيدة أبي نواس بهذه الشطرات في وصف ثبات اللاعبين على ظهور الخيل.
« جَنَّ عَلَى جَنٍّ وَإِنْ كَانُوا بَشَرٌ »
« كَانَمَا خِيطُوا عَلَيْهَا بِالْإِبَرِ »
« أَوْ سُمِّرَ الْفَارِسُ فِيهَا فَانْسَمِرَ »

وكذلك تفرد أبو نواس بوصف الجياد، وليس لذلك في ملعب رأس النسر
مجال، ولم نكن نعرف لماذا شغل عبد الباقي نفسه بوصف الجوّ فذكر أنه لم يكن
بارداً ولا مطيراً، مع أن الحفلات السنوية للألعاب نقام في مطلع الربيع، ولبس
في مصر برد ولا مطر، والآن نرحح أن هذه اللفته وردت إلى ذهنه من قول
أبي نواس :

« فَانْتَدَبُوا فِي يَوْمٍ فُرٍّ وَنَحْصَرُ »
« إِذْ ذَرَّ قَرْنُ الشَّمْسِ فِي غَبِّ مَطَرٍ »

ونفرد أبو نواس بوصف الكرة، وكيف تأنق فيها الصانع فلم يبق في جلدها
أثر للخمر حتى بدت كالنفاح تدلى من الشجر، وهو وصف حسني ولكنه حمل

لدلالته على قوة الكرة وصلاحتها للكرّ في الفضاء، ولم يتحدث عبد الباقي عن شيء من ذلك، لأن الكرة في عصرنا لم نعد شعباً غريباً يوصف بالملاسة ومتانة الأركان.

ووصف أبو نواس حركة الكرة بهذه الشطرات :

« فَأَنحَدَرْتُ كَالْتَّجَمِ وَلَّى فَأَنكَدَرْتُ »
« رَفَعًا وَوَضَعًا أَيُّمَا ذَاكَ اسْتَقَرَّ »
« تَدَافَعُ التَّبَلُّ بِإِرْعَاجِ الْوَتَرِ »

وأكد أحكم بأن أبيات عبد الباقي في هذا المعنى أبرع إذ يقول :

نَسَاجِلُوهَا كُورَةً فَارُورَا نَصْدِفُ عَنْ وَجْهِ الثَّرَى نُفُورَا
فَمَرَّةً تَخْتَرِفُ الْإِيْرَا قُبْلَةً تَهْدُمُ الْفُصُورَا
وَمَرَّةً تُصَادِمُ النَّسُورَا تَزْفِرُ فِي مَطَارِهَا زَفِيرَا
نَرْمِي بِهَا الرَّجُلُ الْمَدَى الْقَصِيرَا يَرْجِعُ طَرْفِي دُونَهُ حَسِيرَا
وَإِنْ يُرِدهَا الرَّأْسُ أَنْ تَطِيرَا سَمَتْ كَمِنْطَادٍ بَدَا صَغِيرَا

واشترك الشاعران في وصف حسرة المنهزمين، وفي هذا قصّر عبد الباقي فلم يزد على أن يقول :

وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ هَوَى مَكْسُورَا يَنْدُبُ فِيهِمْ حَظُّهُ الْعُورَا

أما أبو نواس فقد ساق ذلك مساق الحكمة البافية فقال :

« وَآكُنَّا بَتَ نَفْسُ الَّذِي خَافَ الْغَيْرَ »
« يُسَاءُ هَذَاكَ وَهَذَاكَ يُسَرُّ »
« كَذَلِكَ الدَّهْرُ وَتَصْرِيفُ الْقَدَرِ »

ومتل أبو نواس جدل الفائزين تمثيلاً طريفاً إذ قال بصف طيش اللاعبين :

« فَلَمْ نَرَى فِيهِمْ حَلِيمًا دَا وَقَرَّ »
« إِذَا أَجَادَ الصُّرْتُ فَدَى وَنَعَرَ »

أما عبد الباقي فقد سما بلاعبيه إلى أفن الجدّ حين قال :

وَأَشْعَلُوا وَطِيسَهَا سَعِيرًا وَرَأَتْ أَضْوَانَهُمْ زَيْمًا
فَإِذَا نَرَاهُ أَسَدًا هَضُورًا وَدَا تَرَاهُ بَازِيًا حَدُورًا

وتفرد عبد الباقي بالإشارة إلى تياب الملعب إذ قال :
وَنَمَرُوا ثِيَابَهُمْ تَنْمِيرًا مِنْ الْعَدُوِّ مَبَزَ النَّصِيرَا
وتفرد كذلك بالحديث عن خاتمة اللعب حين قال :

وَأَنْصَرَفُوا تَحَسِبُهُمْ مَثُورًا مِنَ الْأَقَاحِ ضَاخَكِ الْمَثُورَا
تُمْ أَجْتَمَعْنَا نُكْمِلُ الْحُبُورَا حَوْلَ حِوَانٍ يَشْرَحُ الصُّدُورَا
أَفَاضَتِ الْحَلَوَى عَلْبَهُ الثُّورَا وَأَغْرَتِ الْأَعْيُنَ وَالشُّعُورَا

والذي يحكم بين اللاعبين هو في لغة هذا العصر، وفي أرجوزة عبد الباقي
اسمه « الحَكَم » وفي أرجوزة أبي نواس اسمه « الرئيس ».

وتفرد أبو نواس بوصف الصوالج ولم يكن لها في ملعب رأس الثين مكان.
وتفرد عبد الباقي بالحديث عن صفاء القلوب في صدور اللاعبين حين قال :
أُبْنَاءُ رَأْسِ الثَّيْنِ كَانُوا سُورَا أَمَامَ جَبْشٍ جَاءَهُمْ مُغِيرَا
جَيْشَانِ مَا طَلَّا دَمًا طَهُورَا وَلَا تَرَى مِنْ بَيْنِهِمْ مَوْتُورَا
ومن غريب ما اتفق للشاعرين أن اشتركا في إشباع فعل محزوم، فقال أبو
نواس :

« فَلَمْ نَرَى فِيهِمْ حَلِيمًا ذَا وَقَرٍ »

وقال عبد الباقي :

« وَلَمْ تَرَى فِي لِعْبِهِمْ مَنُكُورَا »

ولم أفهم كلمة « الضمير » في قول عبد الباقي :
« مَتَّعَتْ فِيهِ الْعَيْنَ وَالضَّمِيرَا »

ولعله يريد القلب.

تلك وجوه من المفاضلة بين قصيدتين في ملعب الكرة، وقد بقيت أشياء نمتس
اللغة، وتمس الأسلوب، ولكنها لا تخفى على المتأدبين من ذوي الألباب.

البحث الرابع والثلاثون

بين شوقي وابن زيدون

— ١ —

نحن مقبلون في هذا البحث على وادٍ ظليل من أودية البيان : مقبلون على الموازنة بين نونية شوقي، ونونية ابن زيدون، مقبلون على مصافحة شاعرين من أهل العبقرية، ومراجعة قصيدتين شغلت احدهما الناس تسعة قرون، وشغفت الثانية ألوف القلوب.

وابن زيدون صاحب النونية، شخصية تمتاز بميزة ظاهرة، فهو رجل خلقه الدسائس في الحب والملك، ولا يمكن أن نعرف فضل الشر إلا إذا تمنلنا مصير ابن زيدون، فالدسائس من ألوان الشر الوضيع، ولا يعتصم بالدسائس إلا الضعاف العجزة من صغار الناس، ولكن الدسائس تعود بالنفع والخير في أكثر الأحيان، فلولا الدسائس في الحب والملك لما تفجرت عبقرية ابن زيدون، ولا رأى العالم تلك الأقباس الخالدة التي تسطع من أدبه الرفيع.

ومن عجائب ما يقع في الحياة أن تكون المنازل الأدبية العالية من نصيب من أصيبوا بالحرمان في دنيا الحب والمجد، فالرجل حين يُحرّم تتفجر عبقريته ويسيطر على الدنيا سيطرة أدبية تعوض عليه ما ضاع من نعيم الراحة الروحية والدينية،

والمجد الأدبي متاعٌ ليس بالليل، وهو جدير بأن بوضع في الميزان ولا يُعَضُّ من قيمة هذه الغنيمة ما عرف وبعرف الناس من أن العفريين لا يُحْسُون أثر هذا العوض، ولا يرضون عن زمانهم، وإن بلغت شهرتهم آفاق السماء، هذا لا يعض من قيمة تلك الغنيمة، فقد بظهر بعد حين أن الأرواح تأنس أسا مكنونا بظفرها في عالم الفكر والبيان.

وقد شاعت المقادير أن تخص ابن زبدون بنفحة فريدة بليتين لا يتلى بهما رجل كريم إلّا عرف كيف يكون العز والذل، والشهد والعلقم، والنعم والجحيم. أما البلية الأولى فهي الحبّ، وأما البلية الثانية فهي المجد، وبين الحب والمجد أخطار ومصاعب تهد العزائم وتدق الأعناق.

ولا يهمننا في هذا المقام أن نشير إلى منزلة ابن زبدون الوزير، وإنما يهمننا أن نشير إلى منزلة ابن زبدون العاشق، فالوزارة منصب غادر يتنقل من يد إلى يد، كما يتنقل القرش المثقوب من جيب إلى جيب، أما الحب فنفحة روحانية لا عبّق طيّها إلّا في كرام القلوب.

الحب هو الذي فجّر العبقريّة في صدر ابن زبدون، ولكن أيّ حب ؟ لقد كان ذلك الرجل يحب امرأة حطيرة تجمع بين الحسن والذكاء.

والحسن منحة إلهية نرفها الله إلى من يشاء، وهو خَلِيقٌ بأن يصنع ما يصنع فيعزّزُ وبُذِلَ، ويرفّع ويضع، ويكرّم ويهين، ولكن الحسن وحده لا يأسر القلوب، وإنما يُسَيِّطِرُ ويستطيع حين يحد رفبقاً من خفة الروح ومن لطف الذكاء.

كان ابن زبدون يحب امرأة جميلة ذكية على جانب من حلاوة السمائل ولطف الوجدان، وهذا النوع نادر الوجود، والمرأة حين تُمنحُ الجمال والذكاء نحارب بسيفين مرهفين، ونحوّل الدنيا إلى مآتم وأفراح، والشاعر الذي يحب امرأة جميلة ذكية يصبح إحساسه كالوقود الذي يُقدّم إلى النار، ومن قلب العاشق الحساس وذكاء المرأة الجميلة تقوم دنبا الشعر الجميل.

أعرفتم الآن كيف نبغ ابن زبدون ؟

إن لم نعرفوه فاسمعوا هذه الزفرة، وهو ينشوق إلى تلك المحبوبة التي ملكت قلبه، واستأنرت بنُهاه :

هَلْ رَاكِبٌ ذَاهِبٌ عَنْهُمْ يُحْيِيَنِي
قَدْ مِتُّ إِلَّا ذِمَاءً فِي يَمْسِكُهُ
مَا سَرَّحَ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنِي وَأَطْلَفَهُ
صَبْرًا لَعَلَّ الَّذِي بِالْبُعْدِ أَمْرَضَنِي
كَيْفَ أَضْطَبِّارِي وَفِي كَأُنُودٍ فَارَقَنِي
شَخْصٌ بَذَكَرْنِي فَاهُ وَغُرَّتُهُ
لَعْنٌ عَطِشْتُ إِلَى ذَاكَ الرُّضَابِ لَكُمْ
وَإِنْ أَفَاضَ دُمُوعِي نَوْحٌ بَاكِيةً
وَإِنْ بَعُدْتُ وَأَضْنَتَنِي الْهُمُومُ لَقَدْ
أَوْ حَلَّ عَقْدَ عَزَائِي نَابُهُ فَلَكُمْ
يَا حُسْنَ إِشْرَاقٍ سَاعَاتِ الدُّنُو بَدَتْ
وَاللَّهُ مَا فَارَقُونِي بِاخْتِيَارِهِمْ
وَمَا تَبَدَّلْتُ حُبًّا غَيْرَ حُبِّهِمْ
أَفْهِي الْحَبِيبَ الَّذِي لَوْ كَانَ مُقْتَدِرًا

إِذْ لَا كِتَابَ يُؤَافِينِي فَيُحْيِيَنِي
أَنَّ الْفُؤَادَ بِلِقْيَاهُمْ رُجِّيَنِي
إِلَّا آعْتِيَادُ أَسَى فِي الْقَلْبِ مَسْجُونٍ
بِالْقُرْبِ بَوْمًا يُدَاوِيَنِي فَيَشْفِيَنِي
قَلْبِي وَهَذَا نَحْنُ فِي أَعْقَابِ تَشْرِيبِ
شَمْسِ النَّهَارِ وَأَنْفَاسِ الرِّيَّاحِينَ
قَدْ بَاتَ مِنْهُ يُسْقِيَنِي فَيُروِيَنِي
فَكَمْ أَرَاهُ يُعْنِيَنِي فَيُشْجِيَنِي
عَهْدُهُ وَهُوَ يُدْنِيَنِي فَيُسْلِيَنِي
حَلَلْتُ عَنْ خَصْرِهِ عَقْدَ الثَّمَانِينَ
كَوَاجِبًا فِي لَبَالِي بُعْدِهِ الْجُونِ
وَإِنَّمَا الدَّهْرُ بِالْمَكْرُوهِ بِرَمِينِي
إِذَا تَبَدَّلْتُ دِينَ الْكُفْرِ مِنْ دِينِي
لَكَانَ بِالنَّفْسِ وَالْأَهْلِينَ يَفْدِيَنِي

ولنسارع فنذكر أن هذه المحبوبة هي ولادة بنت المستكفي التي يقول فيها ابن خاقان :

« كانت من الأدب والظرف، وتتييم المسمع والطرف، بحيث تختلس القلوب والألباب، ونعيد الشيب إلى أخلاق الشباب ».

كانت ولادة فاتنة الجمال، وكانت أدبية تنظم الشعر البارع، وتدرك أسرار الكلام البليغ. والشاعر الذي يهوى فتاة أديبه ينعم مرين، ينعم بالحب، وينعم بالشعر، والشعر لا يقوى وبنضج إلا إذا عرف الحب أنه يوجه أنغامه إلى أدب سمع وقلب يذوق.

وإليكم هذا القصيد في خطاب تلکم الأدبية الحساء :
 إِنِّي ذَكَرْتُكَ بِالزَّهْرَاءِ مُشْتَاقًا
 وَالْأَفْقُ طَلَقٌ، وَمَرَأَى الْأَرْضَ قَدْ رَاقَا
 وَلِلنَّسِيمِ آعِثَلَالٌ فِي أَصَائِلِهِ
 كَانَهُ رَقٌّ لِي فَاعْتَلَّ إِشْفَاقَا
 وَالرَّوْضُ عَنِ مَائِهِ الْفِضِّيِّ مُبْتَسِمٌ
 كَمَا شَقَقْتُ عَنِ اللَّبَاتِ أَطْوَا
 يَوْمَ كَأَيَّامٍ لَذَاتٍ لَنَا انْصَرَمَتْ
 بِشَا لَهَا حَبْنُ نَامِ الدَّهْرِ سُرَاقَا
 نَلْهُو بِمَا يَسْتَمِيلُ الْعَيْنَ مِنْ زَهْرٍ
 جَالَ النَّدى فِيهِ حَتَّى مَالِ أَغْنَا
 كَأَنَّ أَعْيُنَهُ إِذْ عَايَنْتِ أَرْقِي
 بَكَتْ لِمَا بِي فَجَالَ آلَدَمْعُ رُفُوقَا
 وَرَدَّ تَأَلَّقَ فِي ضَاحِي مَنْابِتِهِ
 فَازْدَادَ مِنْهُ الضُّحَى فِي الْعَيْنِ إِسْرَافَا
 سَرَى يُنَافِحُهُ نَيْلُوفَرٌ عَيْقُ
 وَسَنَانُ نَبِّهِ مِنْهُ الصُّبْحُ أَحْدَا
 كُلُّ يَهْيِجُ لَنَا ذِكْرَى تَشْوُقُنَا
 إِلَيْكَ لَمْ يَعُدْ عَنْهَا الصَّدْرُ أَنْ ضَا
 لَا سَكَنَ اللَّهُ قَلْبًا عَنْ ذِكْرِكُمْ
 فَلَمْ يَطِيرْ بِجَنَاحِ السُّوقِ خَفَافَا
 لَوْ شَاءَ حَمَلِي نَسِيبُ الصُّبْحِ حِينَ سَرَى
 وَأَفَاكُمُ يَفْتِي أَضْنَاهُ مَا لَاقَى
 لَوْ كَانَ وَفَى الْمُنَى فِي جَمْعِنَا بِكُمْ
 لَكَانَ مِنْ أَكْرَمِ الْأَيَّامِ أَخْلَاقَا

كَانَ التَّجَارِي بِمَحْضِ الْوُدِّ مِنْ زَمَنٍ
مَيْدَانِ أَنْسِرَ جَرَيْنَا فِيهِ أَطْلَاقًا
فَالآنَ أَحْمَدُ مَا كُنَّا (لِعَهْدِكُمْ)
سَلَوْتُمْ وَبَقَيْنَا نَحْنُ عُشَاقًا

— ٢ —

لا يمكن أن يتسع الحديث لتفصيل غرام ابن زيدون، وإنما أردنا أن نمهد لتلك النونية البديعة التي نفحنها بها ذلك الغرام الطريف.

ونونية ابن زيدون هذه قصيدة نادرة يحفظها جميع الأدباء في جميع البلاد العربية، وهي في الشعر العربي تذكر بليالي موسيه في الشعر الفرنسي، فكما أن الفرنسيين جميعاً يعرفون ليالي موسيه، فالعرب يعرفون جميعاً نونية ابن زيدون، فإن كان في القراء من يجهل هذه القصيدة فليعرف واجبه نحو لغته وقوميته، فإنه لا يليق بشاب مثقف أن يجهل نونية ابن زيدون التي سارت مسير الأمثال.

وقد يكون في القراء من يقول: إنها قصيدة في الحب، وما هو الحب؟ والمجال لا يتسع مع الأسف لبيان خطر الحب الذي لا يعرف غير قلوب الفحول من الرجال، وإنما نشير إلى أن رواية الأدب الحق الذي يصدر عن صدق المشاعر والقلوب، هي في ذاتها متعة ذوقية لا يَصْدِفُ عنها إلا العاقلون.

وإلى آذانكم وقلوبكم نسوق هذه القصيدة العصماء^(١) :
أَصْحَى التَّنَائِي بَدِيلًا مِنْ تَدَانِينَا وَنَابَ عَنْ طَيْبِ لُقْيَانَا تَجَافِينَا
أَلَّا وَقَدْ حَانَ صُبْحُ الْبَيْنِ صَبَّحْنَا حِينَ فَقَامَ بِنَا لِلْحَيْنِ نَاعِينَا
مَنْ مُبْلَغُ الْمُلبِسِينَا بِانْتِزَاجِهِمْ حُزْنًا مَعَ الدَّهْرِ لَا يَبْلَى وَيُؤَلِّينَا

(١) رأينا أن نسوق هذه النونية كاملة لأنها في غرض واحد لا يظهر جماله. إلا وهي مؤلفة الشمل ولا كذلك نونية شوقي، فانها مختلفة الأغراض، وستكشف الموازنة عن نقل شوق من هن إلى فن ونفاذه من مسلك إلى مسلك.

أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِي مَازَالَ يُضْحِكُنَا
غَيِظَ الْعِذَا مِنْ تَسَاقِينَا الْهَوَى فَدَعَوْا
فَانْحَلَّ مَا كَانَ مَعْقُودًا بِنَفْسِنَا
وَقَدْ نَكُونُ وَمَا يُخْسَى تَفَرُّقُنَا

أُنْسًا بِفُرْبِهِمْ فَدَّ عَادَ يُنْكِنَا
بِأَنَّ نَغَصْرَ فَقَالَ أَلَدَّهْرُ آمِينَا
وَأَنْبَتَ مَا كَانَ مَوْضُوعًا بِأُبْدِينَا
فَالْيَوْمَ نَحْنُ وَمَا يُرْجَى تَلَاوِينَا

بَالَيْتَ بِعُزِّي وَلَمْ نُعْتَبِ أَعَادِبَكُمْ
لَمْ نَعْتَقِدْ بَعْدَكُمْ إِلَّا الْوَفَاءَ لَكُمْ
مَا حَقُّنَا أَنْ تُقَرُّوا عَيْنَ ذِي حَسَدٍ
كُنَّا نَرَى الْيَأْسَ تُسَلِّبُنَا عَوَارِضُهُ
بَنْتُمْ وَبَنَّا فَمَا ابْتَلَتْ جَوَانِحُنَا
نَكَادُ حِينَ تَنَاجِيكُمْ ضِمَائِرُنَا
حَالَتْ لِفَقْدِكُمْ أَيَّامُنَا فَغَدَتْ
إِذْ جَانِبُ الْعَيْشِ طَلَّقَ مِنْ تَأَلُّفُنَا
وَإِذْ هَمَصَرْنَا فُنُونِ الْوَصْلِ دَانِيَةً
لِيَسْقَ عَهْدُكُمْ عَهْدَ السُّرُورِ فَمَا
لَا تَحْسَبُوا نَأْيَكُمْ عَنَّا بُغَيْرُنَا
وَاللَّهِ مَا طَلَبْتَ أَرْوَاحَنَا بَدَلًا
يَا سَارِي الْبَرْقِ غَادِرَ الْقَصْرِ فَاسْقَ بِهِ
وَأَسْأَلُ هُنَالِكَ هَلْ عَنَى تَذَكُّرُنَا
وَيَانِسِيْمَ الصَّبَا بَلِّغْ تَحَبُّتَنَا
فَهَلْ أَرَى الدَّهْرَ بَفُضْنَا مُسَاعِفَةً

هَلْ نَالَ حِظًّا مِنْ الْعُتْبَى أَعَادِينَا
رَأْيَا وَلَمْ نَتَقَلَّدْ غَيْرَهُ دِينَا
بِنَا وَلَا أَنْ نَسْرُوا كَاسِحًا فَنَا
وَقَدْ يَنْسَا فَمَا لِلْيَأْسِ بُعْرِينَا
شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَلَا حَفَّتْ مَاقِينَا
بِقُضْيِ عَلَيْنَا الْأَسَى لَوْلَا تَأْسِبُنَا
سُودًا وَكَانَتْ بَكُمْ بِيضًا لِلْبِنَا
وَمَرْبَعُ اللَّهِ وَصَافٍ مِنْ تَصَافِينَا
فَطُوفُهُ فَجَنِينَا مِنْهُ مَاشِينَا
كُنْتُمْ لِأَرْوَاحِنَا إِلَّا رِبَاحِينَا
إِذْ طَالَمَا غَيَّرَ اللَّتَائِي الْمُحِبِّينَا
مِنْكُمْ وَلَا انْصَرَفَتْ عَنْكُمْ أُمَامِينَا
مَنْ كَانَ صَرْفُ الْهَوَى وَالْوَدَّ بِسُقْبِنَا
إِلْفًا نَدَّكَرُهُ أَمْسَى بُعْنِينَا
مَنْ لَوْ عَلَى الْبُعْدِ حَبِي كَانَ يُحْيِينَا
مِنْهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَبًّا تَقَاضِينَا

رَبِّبُ مُلْكٍ كَانَ اللَّهُ أَنْشَاءُ
أَوْ صَاغَهُ وَرَقًا مُحَضًّا وَنَوَّحَهُ
إِذَا تَأَوَّدَ آدَنُهُ رِفَاهِيهِ
كَانَتْ لَهُ الشَّمْسُ ظِلًّا فِي أَكَلَتِهِ

مُسْكَأً وَفَدَّرَ إِنْشَاءَ الْوَرَى طِينَا
مَنْ نَاصَعَ النَّبْرَ إِبْدَاعًا وَنَحْسِينَا
نَوْمُ الْعُقُودِ وَأُدْمَتُهُ الْبَرَى لَبِنَا
بَلْ مَا تَجَلَّى لَهَا إِلَّا أَحَابِينَا

كَأَنَّمَا أُثْبِتَتْ فِي صَحْنٍ وَجَبَتْهُ
مَاصِرٌ أَنَّ لَمْ نَكُنْ أَكْفَاءَهُ سَرَفًا
زُهِرَ الْكَوَاكِبِ تَعَوِّدًا وَتَرْبِيَا
وَفِي الْمَوَدَّةِ كَافٍ مِنْ تَكَافِيَا

يَا رَوْضَةً طَالَمَا أَحَبْتُ لَوَاحِظُنَا
وَيَا حَيَاةً تَمَلَّيْنَا بِزَهْرَتَيْهَا
وَيَا نَعِيمًا خَطَرْنَا مِنْ غَضَارَتِهِ
لَسْنَا نُسَمِّيكِ إِحْلَالًا وَتَكْرِمَةً
إِذَا انْفَرَدْتَ وَمَا شُورِكَ فِي صِفَةٍ
وَرَدًا جَلَاهُ الصَّبَا غَضًّا وَنَسْرِبَا
مُنَى ضُرُوبًا وَلَذَاتٍ أَفَائِنَا
فِي وَشْيٍ نُعْمَى سَحْبِنَا ذَيْلُهُ حِينَا
فَقَدْرُكَ الْمُعْتَلَى عَنْ ذَلِكَ يُغَيِّنَا
فَحَسْبُنَا الْوَصْفُ بِإِضَاحَا وَتَبْيِينَا

يَا حَتَّةَ الْحُلْدِ أَبَدَلْنَا بِسَلْسِلَيْهَا
كَأَنَّمَا لَمْ نَبِتْ وَالْوَصْلُ ثَالِثُنَا
سِرَّانٍ فِي حَاطِرِ الظُّلَمَاءِ يَكْتُمُنَا
لَا غَرُوفِي أَنْ ذَكَرْنَا الْحُبَّ حِينَ نَهَتْ
إِنَّا قَرَأْنَا الْأَسَى يَوْمَ التَّوَى سُورًا
أَمَّا هَوَاكَ فَلَمْ نَعْدِلْ بِمَنْهَلِهِ
لَمْ نَجِفْ أَفَقَ جَمَالٍ أَنْتِ كَوَكْبُهُ
وَلَا اخْتِيَارًا تَجَنَّبَاهُ عَنْ كَثْبِ
نَاسِي عِلْبِكَ إِذَا حُتَّتْ مُسْعَشَعُهُ
لَا أَكُؤُسُ الرِّاحِ نُبْدِي مِنْ سَمَائِلِنَا
دُومِي عَلَى الْعَهْدِ مَا دُمْنَا مُحَافِظَةً
فَمَا اسْتَعَصْنَا خَلِيلًا مِنْكَ يَحْسُنَا
وَلَوْ صَبَا نَحُونَا مِنْ غُلُوِّ مَطْلَعِهِ
أَبْلَى وَفَاءً وَإِنْ لَمْ نَبْدُلِي صِلَهُ
وَفِي الْجَوَابِ مَاعٍ إِنْ شَفَعْتَ بِهِ

وَالْكَوْنَرِ الْعَذْبِ رَقُومًا وَغَسْلِينَا
وَالسَّعْدِ قَدْ غَضَّ مِنْ أَحْقَانٍ وَانِينَا
حَتَّى تَكَادَ لِسَانُ الصُّبْحِ يُفْتِسِنَا
عَنْهُ الشَّهَى وَبَرَكْنَا الصَّبْرَ نَاسِيَا
مَكْنُوبَةً وَأَخَذْنَا الصَّبْرَ نَلْقِينَا
شِرْبًا وَإِنْ كَانَ بَرُوبَا فَبُظْمِينَا
سَالِينَ عَنْهُ وَلَمْ نَهْجُرْهُ قَالِبَا
لَكِنْ عَدَّتْنَا عَلَى كُرْهِ عَوَادِينَا
فِينَا الشُّمُولُ وَغَنَابَا مُعْنِيَا
سِبْمَا أَرْيَاحٍ وَلَا الْأَوَارُ تُلْهِينَا
فَالْحُرُّ مَنْ دَانَ إِنْصَافًا كَمَا دِينَا
وَلَا اسْتَفَدْنَا حَبِيبًا عَنْكَ يُنِينَا
بَذَرُ الدُّحَى لَمْ يَكُنْ حَاسَاكَ بُصِينَا
فَالطَّيْفُ يُقْبِعُنَا وَالذِّكْرُ بَكْفِينَا
بِيضَ الْأَنَادِي النَّيِّ مَازِلِ نُولِينَا

تلكم هي النونية التي شغلت الناس نسعه فرون.
ومن الظلم للحو أن نحكم بأن ابن ربدون وفف هواه على تلك الحساء

هيهات فلن يمكن أن يكون مثله هوىً واحد، وكيف وهو رجل طامح القلب،
مُرْهَف الإحساس.

ولكن التاريخ لم يتحدث إلا عن تلك المليحة الحسنة، ولو أنه دون جميع
مطاف بقلب ذلك العاشق لحدثنا عمن قال فيه ابن زيدون هذه الأبيات :
وَدَّعِ الصَّبْرَ مُجِبُّ وَدَّعِكَ ذَائِعٌ مِنْ سِرِّهِ مَا اسْتَوْدَعَكَ
يَقْرَعُ السِّنَّ عَلَى أَنْ لَمْ يَكُنْ زَادَ فِي تِلْكَ الْخُطَى إِذْ شَيَّعَكَ
يَا أَتَحَا الْبَدْرَ سَنَاءً وَسَنَاءً رَجِمَ اللَّهُ زَمَاناً أَطْلَعَكَ
إِنْ يَطُلْ بَعْدَكَ لَيْلِي فَلَكُمْ بَتُّ أَشْكُو قِصَرَ اللَّيْلِ مَعَكَ

البحث الخامس والثلاثون

الموازنة بين القصيدتين

— ١ —

عرفنا ابن زيدون العاشق الذي يحسن التحدث عن مآسي القلوب، ويكاد يعرف أسرار النفوس، فماذا نقول عن شوقي؟ لقد طال الحديث عن هذا الشاعر في فصول هذا الكتاب، ونخشى أن يتحيف حُقوق من عرضنا لهم من الشعراء، ولكن كيف نستكثر القول في شوقي، وقد ندّ ابن زيدون؟ إن نونية شوقي أعجوبة من الأعاجيب، وقد أرسلها من الأندلس في أعقاب الحرب العالمية فضجّ لها شعراء مصر وأجابه إسماعيل صبري، وحافظ إبراهيم، وعبد الحليم المصري، ولكنهم عجزوا جميعاً عن الجري في ميدانه، ولم يُؤثر لهم في معارضته شيء ذو بال بالقياس إلى نونية أمير الشعراء.

ابتدأ ابن زيدون نونيته بشكوى البين والأعداء والزمان، وكانت الأبيات السبعة التي تحدث بها عن جواه زفرة محرقة لم يعبها ما وشيت به من الزخرف، ولكن أين هي من بداية شوقي حين خاطب الطائر الحزين في وادي الطلح بضاحية اشبيلية؟ لقد تمثل الطائر شبيهاً به في لوعته وجواه فاندفع يقول:

با نَائِحَ الطَّلَحِ أَسْبَاهُ عَوَادِنَا نَسْجِي لَوَادِبِكَ أُمَ نَأْسَى لَوَادِنَا
 مَاذَا نَقُصُّ عَلَيْنَا غُرَّ أَنْ سَدَا قَصَّتْ جَنَاحُكَ جَالَتْ فِي حَوَاشِينَا
 رَمَى بِنَا الْبَيْنُ أَيْكََا غَيْرَ سَامِرْنَا أَحَا الْغُرْبَ وَطَلًّا غُرَّ نَادِينَا
 كُلُّ رَمْتُهُ النَّوَى، رِيَشُ الْفِرَاقِ لَنَا سَهْمَا، وَشَلَّ عَلَيْكَ الْبَيْنُ سَكِينَا
 إِذَا دَعَا الشَّوْقُ لَمْ نَبْرَحْ بِمُنْصَدِعٍ مَنِ الْجَمَاحِينَ عَيَّ لَا تُلَبِّسَا
 فَإِنْ يَكُ الْجَنْسُ بَا آبَنَ الطَّلَحِ فَرَقَا إِنَّ الْمَصَائِبَ بِجَمْعِنَ الْمُصَابِينَا
 لَمْ تَأُلْ مَاءَكَ تَحَنُّنًا وَلَا ظَمًا وَلَا آذَكَارَا وَلَا سَجَّوَا أَفَانَا
 تَجُرُّ مِنْ فَنَنِ ذَبْلًا إِلَى فَنَنِ وَتَسْحَبُ الدَّيْلُ تَرْتَاذُ الْمُوَاسِينَا
 أَسَاهُ جِسْمِكَ شَتَّى حِينَ تَطْلُبُهُمْ فَمَنْ لِرُوحِكَ بِالتُّطْسِ السُّدَاوِينَا

والشاعر في هذه الأبيات حيران، يجعل الطائر في حالين : حال المعرب
 وحال المقبم، فما تدري أيكي من الغربة أم ينوح من فقد الأليف، ومع
 حيرة الشاعر وضلاله عن تحديد ما يريد براه بلغ غايته الرفق حين قال :
 تَجُرُّ مِنْ فَنَنِ ذَبْلًا إِلَى فَنَنِ وَتَسْحَبُ الدَّيْلُ تَرْتَاذُ الْمُوَاسِينَا

وهي حال نشهدها في الطائر الحزون، فقد نرى الطائر يتقل على غير
 هُدًى من أَيْكِ إِلَى أَيْكِ، فنعرف أنه يبحث عمن بواسيه، ولكن أين من
 يواسي الطائر الحزين ؟ إن شوقي نفسه أخطأ حين قال :
 أَسَاهُ جِسْمِكَ شَتَّى حِينَ تَطْلُبُهُمْ فَمَنْ لِرُوحِكَ بِالتُّطْسِ السُّدَاوِينَا
 فإن الطائر لا يجد من يأسو جسمه، وإنما حد من بذبحه وبسنويه، والناس
 أَلَمَ مِنْ أَنْ يَطُؤُوا لَطَائِرَ جَرِيحٍ !

وانتقل ابن زيدون من شكوى البين والأعداء والزمان إلى معاناة حبسه
 فذكر أنه لم يستمع وشاية ولم يعنفد إلا الوفاء، أما سُوفِي فَقَدْ انْقَلَبَ مِنْ
 حَطَابِ الطَّائِرِ إِلَى نِكَاءِ الْأَنْدَلُسِ وَالْحَنِينِ إِلَى مِصْرَ، فقال :

وَاهَاً لَنَا نَارِحِي أَيْكِ بِأَنْدَلُسٍ وَإِنْ حَلَلْنَا رَفِيفًا مِنْ رَوَائِينَا
 رَسْمٌ وَقَفْنَا عَلَى رَسْمِ الْوَفَاءِ لَهُ نَجِيشٌ بِالْدَمْعِ وَالْإِجْلَالِ يُتَبْنَا

لِفَتْنَةٍ لَا تَنَالُ الْأَرْضَ أَدْمَعُهُمْ وَلَا مَفَارِقَهُمْ إِلَّا مَصْلَيْنَا
لَوْلَمْ يَسُودُوا بِدِينٍ فِيهِ مَنبَهَةٌ لِلنَّاسِ كَانَتْ لَهُمْ أَخْلَاقُهُمْ دِينَا
لَمْ نَسْرِ مِنْ حَرَمٍ إِلَّا إِلَى حَرَمٍ كَالْخَمْرِ مِنْ بَابِلٍ سَارَتْ لِدَارِنَا
لَمَّا نَبَا الْخُلْدُ نَابَتْ عَنْهُ نُسَخَتُهُ تَمَائِلُ الْوَرْدِ حِيرِيًّا وَنَسْرِينَا
نَسْقِي ثَرَاهُمْ ثَنَاءً كُلَّمَا نُثَرَّتْ دُمُوعُنَا نُظِمَتْ مِنْهَا مَرَاثِينَا
كَادَتْ عُيُونُ قَوَافِينَا تُحَرِّكُهُ وَكَيْدُنْ يُوقِظُنْ فِي الثَّرْبِ السَّلَاطِينَا

وللقارىء أن يتأمل الحسن في هذه الأبيات، فالتساعر يغلبه الدمع، وهو يتذكر ملوك الأندلس، ولكن الإجلال يثنيه عن البكاء، لأنه في ديار قوم لم تل الأرض أدمعهم ومفارقهم إلا عند السجود، فهم لم يعرفوا الخشوع لغير الله، وذلك من أبعد الغايات في الثناء.

ويأبى شوقي إلا أن يحرص على المعاني الشعرية، فهو في الأندلس لا يسري من حرم إلا إلى حرم، ولكن كيف؟ كالخمر سارت من بابل إلى دارين! وفدسية الخمر لا تجوز في غير مذاهب الشعراء.

ثم قال في الحنين إلى وطن النيل :
لَكِنَّ مِصْرَ وَإِنْ أَغْضَبَتْ عَلَى مِقَّةٍ عَيْنٌ مِنَ الْخُلْدِ بِالْكَافُورِ تَسْقِينَا
عَلَى جَوَانِبِهَا رَفَّتْ تَمَائِمُنَا وَحَوْلَ حَافَاتِهَا قَامَتْ رَوَاقِينَا

وهذا معنى قديم سبقه إليه من قال :
أَحَبُّ بِلَادِ اللَّهِ مَا بَيْنَ مَنَعَجٍ إِلَيَّ وَسَلَمَى لَوْ يَصُوبُ سَحَابُهَا
بِلَادٌ بِهَا نَيْطَتْ عَلَيَّ تَمَائِمِي وَأَوَّلُ أَرْضٍ مَسَّ جِسْمِي ثَرَابُهَا

والبكر هو قول شوقي :
مَلَاعِبُ مَرَحَتْ فِيهَا مَارِبُنَا وَأَرْبُعُ أُنْسَتْ فِيهَا أَمَانِينَا
وإنما كان هذا معنى بكرًا لما فيه من طرافة الخيال، رأيتم كيف نمرح المآرب، وكيف تأنس الأمانى؟

لقد رأيت شوقي أول ما رأيته سنة ١٩٢١، وكان دعائي للغداء عنده بالمطرية

مع الأصدقاء الأكرمين مصطفى القشاشي، وسعيد عبده، وأحمد علام، فعجبت يومئذ لذلك المبسم الساحر، وسألت نفسي : كيف كان ذلك الملاك في صباه ! إن حنين شوقي إلى مصر حنين عميق، وإنما كان كذلك لأن الشاعر شهد في مصر دنيا من الحب والمجد لم يظفر بها إلا الأقلون، ودنيا شوقي لم تكن مثل دنيا الناس في هذا الزمان، كانت الدنيا في شباب شوقي تفيض بالبشر والإيناس، وكان الشاعر يعيش فيها عيشة مُضمخةً بالسحر والفُتُون، وكان للجمال قُدسيّة، وكان للصباء سلطان، وكانت خطوب الزمن لا تهدّ النفوس كما تفعل في هذه الأيام.

ومن البكر أيضاً قول شوقي :

بِنَّا فَلَمْ نَخُلْ مِنْ رَوْحِ يُرَاوِحُنَا مِنْ بَرِّ مِصْرَ وَرِيحَانِ يُعَادِينَا
كَأَمْ مُوسَى عَلَى اسْمِ اللَّهِ تَكْفُلُنَا وَيَاسْمِهِ ذَهَبَتْ فِي الْيَمِّ تُلْقِينَا
يريد أن يقول : إن مصر لم تلقه في يَمِّ النَّفْيِ إلا خوفاً عليه من كيد فرعون،
فرعون القرن العشرين المستر جون بول !

— ٢ —

تذكرون قول ابن زيدون :

يَا سَارِي الْبَرْقِ غَادِ الْقَصْرِ فَاسْقِي بِهِ مَنْ كَانَ صِرْفَ الْهَوَى وَالْوُدِّ بِسْقِينَا
وَأَسْأَلُ هُنَالِكَ هَلْ عَنَى تَذَكُّرُنَا إِنْ تَذَكَّرَهُ أُمْسَى يُعْنِينَا

وهذا شعر جميل، ولكن انظروا كيف عارضه شوقي فقال :

يَا سَارِي الْبَرْقِ يَزِمِي عَنْ جَوَانِحِنَا بَعْدَ الْهُدُوءِ وَيَهْمِي عَنْ مَا قِينَا
لَمَّا تَرَقَّرَ فِي دَمْعِ السَّمَاءِ دَمًا هَاجَ الْبُكَاءُ فَخَضَبْنَا الْأَرْضَ بَاكِينَا
الَّيْلُ يَشْهَدُ لَمْ نَهْتِكْ دِيَارِيهِ وَلَمْ نَهْتِفْ بِسَالِينَا
وَالنَّجْمُ لَمْ يَرَنَا إِلَّا عَلَى قَدَمِ قِيَامِ لَيْلِ الْهَوَى لِلْعَهْدِ رَاعِينَا
كَزَفَرَةٍ فِي سَمَاءِ اللَّيْلِ حَائِرَةٍ مِمَّا نُرَدِّدُ فِيهِ جَيْنَ بَضُؤِينَا
بِاللَّهِ إِنْ جُبَّتْ ظُلُمَاءُ الْعُبَابِ عَلَى نَجَائِبِ النُّورِ مَحْدُوءًا (بَجْرِينَا)

تَرُدُّ عَنْكَ يَدَاهُ كُلُّ عَادِيَةٍ
حَتَّى حَوَتْكَ سَمَاءُ النَّيْلِ عَالِيَةً
وَأَحْرَزَتْكَ شُفُوفُ اللَّازُورِدِ عَلَى
وَحَاذِكَ الرَّيْفُ أَرْجَاءَ مُورَجَةٍ
فَقِفْ إِلَى النَّيْلِ وَاهْتِفْ فِي خَمَائِلِهِ
وَأَسِرْ مَابَاتَ يَذْوِي مِنْ مَنَازِلِنَا
إِنْسَاءً يَعْنُنَ فَسَاداً أَوْ شَيَاطِينَا
عَلَى الْعُيُوثِ وَإِنْ كَانَتْ مَيَّامِينَا
وَشَيْبِ الزَّبْرِجَدِ مِنْ أَفْوَافِ وَادِينَا
رَبَّتْ خَمَائِلَ وَاهْتَزَّتْ بَسَاتِينَا
وَأَنْزَلُ كَمَا نَزَلَ الطَّلُّ الرِّيَاحِينَا
بِالْحَادِثَاتِ وَيَضُوى مِنْ مَعَانِينَا

انظروا. ابن زيدون يسأل البرق أن يسقي القصر، وشوقي يسأل البرق أن يأسو المنازل الداوية، والمغاني الضاوية، والمعنيان مقتربان، ولكن شوقي أعطانا صورة شعرية لتنقل البرق من أفق إلى أفق، وانحداره من أرض إلى أرض، وأعطى صوراً من ريف مصر وخمائل النيل لا تشوق إلا شاعراً ودَّعَ دنياه حين ودَّعَ النيل.

وقال ابن زيدون :

وَيَا نَسِيمَ الصَّبَا بَلِّغْ تَحِيَّتَنَا
مَنْ لَوْ عَلَى الْبُعْدِ حَيٌّ كَانَ يُحْيِينَا

عارضه شوقي فقال :

وَيَا مُعْطَرَةَ الْوَادِي سَرَتْ سَحَرًا
ذَكِيَّةَ الذَّلِيلِ لَوْ خِلْنَا غِلَاكْتَهَا
جَشِئْتِ شَوْكَ السُّرَى حَتَّى أَتَيْتِ لَنَا
فَلَوْ جَزَيْنَاكِ بِالْأُرُوحِ غَالِيَةً
هَلْ مِنْ ذُبُولِكِ مِسْكِي نُحْمِلُهُ
إِلَى الدِّينِ وَجَدْنَا وَدَّ غَيْرِهِمُو
فَطَابَ كُلُّ طَرُوحٍ مِنْ مَرَامِينَا
قَمِيصَ يُوسُفَ لَمْ نُحَسِبْ مُعَالِينَا
بِالْوَرْدِ كُثْبًا وَبِالرَّيَا عَنَاوِينَا
عَنْ طِيبِ مَسْرَاكِ لَمْ تَنْهَضْ جَوَارِينَا
غَرَائِبَ الشَّوْقِ وَشَيْئاً مِنْ أَمَالِينَا
دُنْيَا وَوُدَّهُمُ الصَّافِي هُوَ الدِّينَا

إن ابن زيدون لم يزد على أن قال : « يانسيم الصبا »، وهو تعبير ورد في مئات القصائد، أما شوقي فراح يفتن أفتناناً يدل على قوة الشاعرية، وبراعة الخيال، فوصف السمة بأنها معطرة الوادي وأنها سارت في السحر فطاب بمسراها كل مَرَمَى سَحِينٍ، وأنها ذكيَّة الذليل كأنها قميص يوسف، وأنها جَشِئْتِ شَوْكَ

السرى حتى أتت بالورد مُجسماً في رسائل، وأتت بالرياً مُمثلةً في عناوين، وشكر لها النُعمى فقال :

فَلَوْ جَزَيْنَاكَ بِالْأَرْوَاحِ غَالِيَةً عَنْ طِيبِ مَسْرَاكِ لَمْ تَنْهَضْ جَوَازِينَا

وابن زيدون يقول « بَلِّغْ تَحِيَّتَنَا » وهي عبارة جافية، لأنها وردت في صورة الأمر، أما شوقي فيترفق، ويقول :

هَلْ مِنْ دُيُولِكِ مِسْكِي نُحْمِلُهُ غَرَائِبَ الشَّوْقِ وَشَيْئاً مِنْ أُمَالِينَا

وابن زيدون يصف أحبابه بالقدرة على إحيائه لو أسعفوه بتحية، وشوقي يجعل كل هوى غير هوى أحبابه بمصر صورة من الدنيا، أما هوى أحبابه الذين يتشوق إليهم فهو، في صفاء الدين.

ولا ننكر أن بعض أخيلة شوقي مقتبس من ابن زيدون، فقول شوقي :
يَا سَارِيَّ الْبَرْقِ يَرْمِي عَنْ جَوَانِحِنَا بَعْدَ الْهَدُوءِ وَيَهْمِي عَنْ مَا فِينَا

اخْتُلِسَ بَرْقِي وَحِذْقٍ مِنْ قَوْلِ ابْنِ زَيْدُون :
يَنْتُمْ وَبِنَا فَمَا آبَتَلْتِ جَوَانِحُنَا شَوْقاً إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَّتْ مَا قِينَا

والمعنى الذي عرضه ابن زيدون في ثلاثة بسطه شوقي في ثمانية عشر بيتاً، وإنما اتفق له ذلك لأنه كان يعارض ابن زيدون، فكان لا بد له من توسية بارعة تُعفى على النظرة الفطرية في أبيات ابن زيدون. ولابن زيدون فضل السبق، ولشوقي فضل البراعة في تلوين الصور الشعرية، وهو فضل ليس بالقليل.

— ٣ —

وأراد ابن زيدون أن يتذكر أيام الأُنس فقال :
حَالَتْ لِفَقْدِكُمْ أَيَّامُنَا فَعَدَّتْ سُوداً وَكَانَتْ بِكُمْ بَيْضاً لِيَالِينَا
إِذْ جَابِ الْغَيْشِ طَلَقٌ مِنْ تَأْلِفِنَا وَمَرْبُعُ اللَّهِوَ صَافٍ مِنْ نَصَافِينَا
وَإِذْ هَضَرْنَا فُنُونَ الْوَصْلِ دَائِبَةً قُطُوفُهُ فَجَنِينَا مِنْهُ مَا شِينَا
لِيُسْقَ عَهْدُكُمْ عَهْدُ السُّرُورِ فَمَا كُنْتُمْ لِأَرْوَاحِنَا إِلَّا رِيَاحِينَا

وهذا شعر صافي الديباجة، رائع المعاني، ولكن انظروا كيف عارضه شوقي فجمع بين الأسى والفخر حين قال :

سَقِيًّا لِعَهْدٍ كَأَكْنَفِ الرُّبَا رِفَةً^(١) أَنَّى ذَهَبْنَا وَأَعْطَاكِ الصَّبَا لِينَا
إِذِ الزَّمَانُ بِنَا غِيَاءُ زَاهِيَةً تَرَفُّ أَوْفَاتُهَا فِيهَا رَبَّاحِبُنَا
الْوَصْلُ صَافِيَةٌ وَالْعَبْسُ نَاقِيَةٌ وَالسَّعْدُ حَاشِيَةٌ وَالذَّهْرُ مَا تَبِينَا
وَالشَّمْسُ تَخْتَالُ فِي الْعَقِيَانِ تَحْسِبُهَا بَلْقَيْسَ تَرْفُلُ فِي وَسْطِ الْيَمَانِينَا
وَالنَّيْلُ يُقْبَلُ كَالدُّنْيَا إِذَا آخَتَفَلَتْ لَوْ كَانَ فِيهَا وَفَاءٌ لِلْمُصَافِينَا
وَالسَّعْدُ لَوْ دَامَ وَالذُّنْيَا لَوْ آطَرَدَتْ وَالسَّيْلُ لَوْ عَفَّ وَالْمَقْدَارُ لَوْ دِينَا
أَلْقَى عَلَى الْأَرْضِ حَتَّى رَدَّهَا ذَهَبًا مَاءً لَمْ سَنَا بِهِ الْإِكْسِيرُ أَوْ طِينَا
أَعْدَاهُ مِنْ يُمْنِهِ (التَّابُوتُ) وَآرْتَسَمَتْ عَلَى جَوَانِبِهِ الْأَنْوَارُ مِنْ سِينَا
لَهُ مَبَالِغُ مَا فِي الْخُلُقِ مِنْ كَرَمٍ عَهْدُ الْكِرَامِ وَمِيثَاقُ الْوَفِينَا
لَمْ يَجْرِ لِلدَّهْرِ إِغْدَارٌ وَلَا غُرُسٌ إِلَّا بِأَيَّامِنَا أَوْ فِي لَيَالِينَا^(٢)
وَلَا حَوَى السَّعْدُ أَطْعَى فِي أُعْنَتِهِ مِنَّا جِيَادًا وَلَا أَرْخَى مِيَادِنَا
نَحْنُ الْيَوَاقِيتُ خَاضَ النَّارَ جَوْهَرُنَا وَلَمْ يَهْنُ يَدِ التَّشْتِيتِ غَالِينَا
وَلَا يَحُولُ لَنَا صَبْعٌ وَلَا خُلُقٌ إِذَا نَلَوْنَ كَالْحِرْبَاءِ شَائِنَا

والقارئ حين يوازن بين هاتين القطعتين لا يدري أيهما أجود، لأن ابن زيدون على قصر نفسه في هذا الشوط بلغ غاية الرشاقة حين قال :
وَإِذْ هَمَّصْنَا فُنُونَ الْأَنْسِ دَانِيَةً فَطُوفُهُ فَجَنِينَا مِنْهُ مَا شِينَا
وبلغ غاية الدقة حين قال :

إِذْ جَانِبُ الْعَيْشِ طَلَقَ مِنْ تَأَلُّفِنَا وَمَوْرِدُ اللَّهِوِ صَافٍ مِنْ تَصَافِينَا
والدقة في هذا البيت تؤخذ من صدق التعليق، فالعيش لم تتسع جوانبه إلا بفضل التألف، نألف القلبين، واللهم لم يصف مورده إلا بفضل التصافي تصافي

(١) الرفة : الضرة.

(٢) الإعدار : طعام ينحد لأيام السرور.

الحبيبين، والدنيا لا كدر فيها ولا صفاء، وإنما تصفو حين تصفو النفوس، وتقسو حين تقسو القلوب، فالزهر الذي ييسم لك لا ييسم لك وحدك، وإنما تراه يخلصك بالرفق لأن الدنيا صَفَتْ لك، وقد يراه غيرك في ابتسامة صورة من صور العبوس، والنهر الذي تنظر إليه في الليالي المقمرة فتراه عاشقاً يغازل القمر ويتلقى دعابته في حنان، هذا النهر لا يتمثل لك كذلك إلا لأنك تشاهد أمواجه الفضية بقلبٍ مَرِحٍ وحسنٍ طروبٍ، وهو نفسه قد يبدو للمحزون صورة من صور الاكتئاب.

ويروقنا قول شوقي :

سَقِيًّا لِعَهْدٍ كَأَكْنَفِ الرُّبَا رِفَةً أَنَّى ذَهَبْنَا وَأَعْطَافِ الصَّبَا لِينَا
إِذِ الزَّمَانُ بَنَا غَيْثَاءُ زَاهِيَةً تَرَفُّ أَوْقَاتُنَا فِيهَا رَيَّاحِينَا
الْوَصْلُ صَافِيَةٌ، وَالْعَيْشُ نَاقِيَةٌ وَالسَّعْدُ حَاشِيَةٌ، وَالذَّهْرُ مَا شِينَا
وَالنَّيْلُ يُقْبَلُ كَالدُّنْيَا إِذَا احْتَفَلَتْ لَوْ كَانَ فِيهَا وَفَاءٌ لِلْمُصَافِينَا

يروقنا هذا الشعر، لأن الشاعر جعل عهده في نضرة الزهر الذي يتفتح في أكفاف الربوات، ولأنه رأى اللين في أيام الأُنس شبيهاً باللين في أعطاف الصبا، وأعطاف الصبا جوهرٌ نبيل لا يعرف طيب لينها إلا شاعرٌ أمكنته من أعطاف الصبا سَوْرَةُ الصَّبَوَاتِ، ويروقنا أيضاً لطرافة هذا الخيال :

« تَرَفُّ أَوْقَاتُنَا فِيهَا رَيَّاحِينَا »

ورفيف الأوقات معني يعرفه العشاق الذين دار بهم الزمن في أَرْجُوْحَةِ اللهو الجمُوح.

ويروقنا هذا الشعر مرة ثالثة لأن الشاعر يرى إقبال النيل كالدنيا حين تحتفل، وانظروا كيف تكون الدنيا حين تحتفل، ثم تأملوا روعة هذا الاستدراك :

« لَوْ كَانَ فِيهَا وَفَاءٌ لِلْمُصَافِينَا »

ولكن هذه الطرافة في أخيلة شوقي لا تنسينا براعة ابن زيدون حين جعل محبوبته كلَّ شيء حين قال :

يَا رَوْضَةً طَالَمَا أُجِنْتُ لَوَاحِظَتَا وَرَدًّا جَلَاهُ الصَّبَا غَضًّا وَنَسْرِينَا

وَيَا حَيَاةَ تَمَلِّينَا بِزَهْرَتِهَا مُنَى ضُرُوباً وَلَذَاتِ أَفَانِينَا
وَيَا نَعِيماً خَطَرْنَا مِنْ نَضَارَتِهِ فِي وَشْيِ نُعْمَى سَحَبْنَا ذَيْلَهُ حِينَا

إن لم يكن هذا هو الشعر فما عسى الشعر أن يكون ؟ أترون العذوبة في الهاتف بالروضة التي « طَالَمَا أُجْنْتُ وَرُداً جَلَاهُ الصَّبَا » تأملوا عبارة « أُجْنْتُ لَوَاحِظُنَا » وانظروا كيف تغزونا الروضة فتقهرنا على تذوق جناتها المرموق، والشاعر لا ينتظر حتى تهفو نفسه إلى مناعم الروضة، وإنما تهجم الروضة عليه فتعلمه كيف يهصر الأفنان، وكيف يجني القطوف. وعبرة « جَلَاهُ الصَّبَا » ما رأيكم فيما تحويه من سحرٍ أخاذٍ ؟ ثم ما هذا التعبير الطريف :
« مُنَى ضُرُوباً وَلَذَاتِ أَفَانِينَا »

أتعرفون كيف يكون للمنى ألوانٌ وللذاتِ أفانين ؟ إن هذا خيال شاعر غرق مرةً في كُوثر الوصال.

وانظروا هذا البيت :

وَيَا نَعِيماً خَطَرْنَا مِنْ نَضَارَتِهِ فِي وَشْيِ نُعْمَى سَحَبْنَا ذَيْلَهُ حِينَا
أُتَحَسُّونَ قُوَّةَ هَذَا الْمَعْنَى ؟ أَلَا يُرِيكُمْ الْخِيَالُ صُورَةَ فَتَى مُنْعَمٍ يَسْحَبُ ذَيْلَ النِّعَمِ ؟ إِنَّ ابْنَ زَيْدُونَ فِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ أَقْوَى مِنْ شَوْقِي فِي الْحَسْرِ عَلَى مَا ضَاعَ مِنْ دُنْيَا الْهَوَى الْمَفْقُودِ.

— ٤ —

واشترك شوقي وابن زيدون في التفجع والحنين، أما ابن زيدون فيقول :
يَا جَنَّةَ الْخُلْدِ أَبْدِلْنَا بِسَلْسَلِهَا وَالْكُوثرِ الْعَذْبِ زَقُوماً وَغَسْلِينَا
كَأَنَّا لَمْ نَبْتَ وَالْوَصْلُ ثَالِثُنَا وَالْدَّهْرُ قَدْ غَضَّ مِنْ أَجْفَانِ وَأَشِينَا
سِرَّانِ فِي خَاطِرِ الظُّلُمَاءِ يَكْتُمُنَا حَتَّى بَكَادَ لِسَانُ الصُّبْحِ يُفْشِينَا
لَا غَرَوْا أَنَا ذَكَرْنَا الْحُبَّ حِينَ نَهَتْ عَنْهُ النَّهْيُ وَتَرَكْنَا الصَّبْرَ نَاسِينَا
إِنَّا قَرَأْنَا الْأَسَى بَوْمَ النَّوَى سُوراً مَكْتُوبَةً وَأَخَذْنَا الصَّبْرَ تَلْقِينَا

أَمَّا هَوَاكَ فَلَمْ نَعْدَلْ مِنْهُلِكَ شَرِبًا وَإِنْ كَانَ بُرُونًا فَبُطْمِينًا
لَمْ نَجْفُ أَفْقُ جَمَالِ أَنْتِ كَوَكْبُهُ سَالِبِنَ عَنْهُ وَلَمْ نَهْجُرْهُ فَالِنَا
وَلَا اخْتِبَارًا نَجَبْنَاكَ عَنْ كَثَبٍ لَكِنْ عَدْتْنَا عَلَى كُرْهِ عَوَادِنَا

والشاعر في هذه الأبيات بصف أبام الوصل أحمل وصف، ويرى نفسه انتقل
من كوثر الخلد إلى الزقوم والغسلين ويرى ورد الهوى القديم شربًا لا يعدله
شرب، وإن كان يرويهِ فيظلميه. ونعيم الوصل يُرهف الحس فيزيد القلب ظمًا
إلى ظمًا والتياغاً إلى التياغ. وتحدث الشاعر عن البين فذكر أنه لم يقع عن سلوة
ولا صدود، وإما أكرهته العوادي.

وبروقنا هذا التعبير المونق :
« لَمْ نَجْفُ أَفْقُ جَمَالِ أَنْتِ كَوَكْبُهُ ».

فكان الدنيا لعهد أفقاً من المفاتن، وكانت محبوبته كوكب ذلك الأفق المطلول
بأنداء الفتون.

هذا جزع من صنع الدهر صرخ به ابن زيدون، وعارضه شوقي يصصف قسوة
الليل وفسوة الفراق :

وَنَابِغِي كَأَنَّ الْحُسْرَى آخِرُهُ تُمِيشُنَا فِيهِ ذَكَرَاكُمْ وَتُخَيِّبُنَا
نَطْوِي دُحَاهُ بِجُرْحٍ مِنْ فِرَاقِكُمُو يَكَادُ فِي غَلَسِ الْأَسْحَارِ يَطْوِينَا
إِذَا رَسَا النَّجْمُ لَمْ تَرُقَا مُحَاجِرُنَا حَتَّى يَزُولَ وَلَمْ تَهْدَا نَرَاقِينَا
بُنَا نُقَاسِي الدَّوَاهِي مِنْ كَوَاكِبِهِ حَتَّى فَعَدْنَا بِهَا حُسْرَى نَفَاسِينَا
بُدُو النَّهَارُ فَيُخَفِّبُهُ بَجَلْدُنَا لِلشَّامِبِينَ وَيَأْسُوهُ نَأْسِينَا

وهذا من الشعر الرفيع، ومن العجز أن لا نجد غير هذا الوصف، وإلا فكيف
نصل إلى بيان الفتنة في هذا البيت :

نَطْوِي دُحَاهُ بِجُرْحٍ مِنْ فِرَاقِكُمُو يَكَادُ فِي غَلَسِ الْأَسْحَارِ يَطْوِينَا
أنرون كيف يطوى الدجى بالجرح ؟ أنرون كيف نكون الجراح أعظم من
ظلمات الليل ؟

ثم ما هذه الوثبة الشعرية حين بقاسي الشاعر بطء الكواكب، ثم ينظر فيراها
أَبْتُلَيْتْ به فباتت تقاسه، وهى حسرى لواغب؟ والشاعر قد يَعْظُم سلطانه على
الوجود فيرى الدنيا تجزع لجزعه ونأسى لأساه.

وكان الشعراء الأقدمون برون النهار يبدد الأشحان بفضل ما فيه من الشواغل،
أما شوقي فبرى أَسْجانه لا تهدأ نهراً إلا بفضل التأسي والنجلد للسامتين.

— ٥ —

بقي النظر فيما نفرد به الشاعران.

ونحن نرى ابن زيدون نفرد بهذين البيتين في خطاب حبيته التي أفصاه عنها
الزمان :

نَأْسَى عَلَيْكَ إِذَا حُتَّتْ مُسْعَسَعَةً فِينَا الشَّمُولُ وَغَنَانَا مُعْنِينَا
لَا أَكُوسُ الرِّاحِ تُبْدِي مِنْ شَمَائِلِنَا سِبْمَا ارْتِيَا حِ وَلَا الْأَوْتَارُ نُلْهِينَا

وهذا من أدق المعاني النفسية، فالشراب والغناء يهيجان العواطف الغافنة،
ويبعثان الوجد الدفين، وللشوق في أمال هذه اللحظات لذعات أعنف من الجمر
المشبوب، وأين الحمر محانب ما يتور في القلب عند الشراب والسماع؟ إن هذه
لحظات تكتشف المُقَنَّع من سرائر النفوس، وتصنع ما نصنع الحمى العاتية حين
تنطق المحموم بأسماء لم يهذ بها لسانه ولا وجدانه منذ سنين.

وقول ابن زيدون :

وَلَوْ صَبَا نَحْوَنَا مِنْ غُلُوِّ مَطْلَعِهِ بَدْرُ آلدُّجَى لَمْ يَكُنْ حَاسَاكَ نُصْبِينَا

هو أصل المعنى الذي ساقه شوقي في السينية :

وَطَنِي لَوْ سُغِلْتُ بِالْخُلْدِ عَنْهُ نَارَعَتْنِي إِلَهِي فِي الْخُلْدِ نَفْسِي

وهو أخذ رفبق لا بحاسب على مثله الشعراء

وتفرد شوقي بالفخر، الفخر بنفسه وبأعجاد النيل، فقال :

لَمْ يَجْرَ لِلدَّهْرِ إِعْذَارٌ وَلَا عُرْسٌ إِلَّا بِأَيَّامِنَا أَوْ فِي لَيَالِينَا

وَلَا حَوَى السَّعْدُ أَطْعَى فِي أُعْنَيْهِ
نَحْنُ الْيَوَاقِيتُ خَاصَ النَّارِ جَوْهَرُنَا
وَلَا يَحُولُ لَنَا صَبْعٌ وَلَا خُلُقٌ
لَمْ تَنْزِلِ الشَّمْسُ مَيْدَانًا وَلَا صَعِدَتْ
أَلَمْ تُوَلِّ عَلَى خَافَاتِهِ وَرَأَتْ
إِنْ غَازَلَتْ شَاطِئِيهِ فِي الضُّحَى لِبْسَا
وَبَاتَ كُلُّ مُجَاجِرِ الْوَادِ مِنْ شَجَرٍ

مَنَا جِيَادًا وَلَا أُرْخَى مَيَادِينَا
وَلَمْ يَهْنُ بِيَدِ التَّشْتِيتِ غَالِينَا
إِذَا نَلَوْنَ كَالْجِرْبَاءِ شَانِينَا
فِي مُلْكِهَا الضَّخْمِ عَرْشًا مِثْلَ وَادِينَا
عَلَيْهِ أُنْبَاءُهَا الْغُرِّ الْمِيَامِينَا
خِمَائِلِ السُّنْدُسِ الْمُؤَسِّيَةِ الْغِينَا^(١)
لَوَافِظِ الْقَزْرِ بِالْخَيْطَانِ تَرْمِينَا

وبهذا دافع الشاعر عن الوثنية المصرية أجمل دفاع، وهل عبد المصريون الشمس إلا لأنهم عرفوا فضل الشمس؟ وما الدنيا بدون الشمس إلا وجود تافه سخيف !

وشوقي لم يعن إلا نفسه حين قال :

نَحْنُ الْيَوَاقِيتُ خَاضَ النَّارِ جَوْهَرُنَا
وَلَمْ يَهْنُ بِيَدِ التَّشْتِيتِ غَالِينَا
وقد صدق، فقد قامت في وجه الرجل أحداث تهد الجبال، وانتاشه الخصوم أسوأ انتياش، ولكن من كان يملك مثل قلبه وإحساسه وشاعريته يصعب هدمه، وإن تكاثرت المعاول واستحصدت سواعد الهادمين.

وتفرّد شوقي بالحديث عن الأهرام فقال :

وَهَذِهِ الْأَرْضُ مِنْ سَهْلٍ وَمِنْ جَبَلٍ
وَلَمْ يَضَعْ حَجَرًا بَانٍ عَلَى حَجَرٍ
كَأَنَّ أَهْرَامَ مَصْرَ حَائِطٌ نَهَضَتْ
إِيوَانُهُ الْفَخْمُ مِنْ عَلَيَا مَقَاصِرِهِ
كَأَنَّهَا وَرِمَالٌ حَوْلَهَا التَّطَلَّمَتْ
كَأَنَّهَا تَحْتَ لَأْلَاءِ الضُّحَى ذَهَبًا

قَبْلَ الْقَبَاصِرِ دَنَاهَا فِرَاعِينَا
فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى آثَارِ بَانِينَا
بِهِ بَدَأَ الدَّهْرُ لَا بُنْيَانُ بَانِينَا
يُفْنِي الْمُلُوكَ وَلَا يُبْقِي الْأَوَاوِينَا^(٢)
سَفِينَةٌ غَرَقَتْ إِلَّا أُسَاطِينَا
كُنُوزُ فِرْعَوْنَ غَطَّيْنَ الْمَوَازِينَا

وللقارئ أن يتأمل هذه الأبيات، له أن يتأمل قوة الفخر في هذا البيت :

(١) العن : جمع أعين، وهو الأحضر، والمؤث عياء.

(٢) الأواوين : جمع إوان.

وَلَمْ يَصْغُ حَجَرًا بَانَ عَلَى حَجَرٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى آثَارِ بَانِنَا

وله أن يعجب من روعة الخيال في هذا البيت :
كَانَ أَهْرَامُ مِصْرٍ حَائِطٌ نَهَضَتْ بِهِ يَدُ الدَّهْرِ لَا بُنْيَانَ بَانِنَا

وله أن يتأمل دقة التشبيه في هذا البيت :
كَانَهَا وَرِمَالًا حَوْلَهَا التَّطَلَّتْ سَفِينَةٌ غَرِقَتْ إِلَّا أُسَاطِينَا

ذلك شوقي، وتلك آياته اليبينات

— ٦ —

وتفرد ابن زيدون بوصف الجمال الإنساني، وتفرد شوقي بوصف الجمال الطبيعي، أعطى ابن زيدون محبوبته صورة هي تحفة في الصور الإنسانية، وأعطى شوقي مفاتن النيل صورة هي غرة في الصور الطبيعية، أما صورة النيل فقد رآها القارئ من قبل، وأما محبوبة ابن زيدون فقد صورها بهذه الأبيات :

رَبِيبُ مُلْكٍ كَانَ اللَّهُ أَنْشَأَهُ مِنْ نَاصِعِ الثَّبَرِ إِنْشَاءَ الْوَرَى طِينًا
أَوْ صَاغَهُ وَرَقًا مَحْضًا وَتَوَجَّهَ تُوْمُ الْعُقُودِ وَأَدَّتُهُ الْبُرَى لِينًا
إِذَا تَأَوَّدَ آدَتُهُ رَفَاهِيَّةً بَلْ مَا تَجَلَّى لَهَا إِلَّا أَحَايِنَا
كَانَتْ لَهُ الشَّمْسُ ظُفْرًا فِي أَكْلَتِهِ زَهْرُ الْكَوَكِبِ تَعْوِيدًا وَتَزِينَا
كَانَمَا أُثْبِتَ فِي صَحْنٍ وَجَنَّتِهِ وَفِي الْمَوَدَّةِ كَافٍ مِنْ تَكَايُنَا
مَا صَرَّ أَنْ لَمْ نَكُنْ أَكْفَاءَهُ شَرَفًا

وهذه نظرة شاعر يعرف جواهر الصبابة. وفي الحسن ألوف من الأفانين يعرفها الراسخون في علم الجمال، فالجمال المنعم غير الجمال المحروم، والزهر النضير الذي يضحك الشمس في حديقة غناء بقصر من قصور الملك غير الزهر الظمان المنسي الذي يفتح وهو مهجور في ربوة قاصية لا يعرفها غير الذئاب. إن جواهر الجمال تختلف أشد الاختلاف، ولكل لون من ألوان الجمال وحي خاص. وجوهر الشعر يتبع جوهر الجمال، وهل يمكن أن يكون ما يوحيه الجمال

المُحَجَّب شبيهاً بما يوحيه الجمال المباح ؟ إن الطليعة قد يبدو لها أحياناً أن تُكادِ الناس فَتُشَيَّ من الحسن في حيّ بولاق ما تغيظ به الناعمس في حيّ القصر العالي^(١). ولكنها لا نفلح، فالجمال الذي ينبت في البيئات السُوفية يظل سوقيّ الشمائل والنوازع، أما الجمال الذي يتفتح في البيئات المعمّة فيظل مَلْحوظَ المشارب والميول.

فمعشوقة ابن زيدون رَبيبة مُلك، وَرَبِية الملك تألف السيطرة منذ أيام المهد، ويظل دلالُها طول الحياة دلالاً سماوياً بأخذ فيضه من قوة الطبع، لا من لؤم التمتع، وينزل رضاها على القلب نزول الطل على الريحان. وابن زيدون يتمثل محبوبته خُلقت من المسك، ويرى الناس ما عداها خُلِقُوا من طين، وكلمة (طين) وقعت قبيحة في شعر ابن زيدون، إلّا أن يكون أراد الإشارة إلى بعض الناس، والمرء حين يغضب يرى الناس خُلِقُوا من طين، وإن كان الطين أشرف من بعض من نرى من المخلوقات، والطين تُربةٌ يحيا بها الزهر وينغذى منها الشوك، وفوقه تتخطر الظباء، وعليه تزحف الأفاعي والصُّلال.

وبلغ ابن زيدون نهاية الترفق حين قال :
إِذَا تَأَوَّدَ آدَتُهُ رِفَاهِيَّةً تُومُ الْعُقُودِ وَأُذْمَتُهُ الْبُرَى لِيَا
والجمال الذي تؤذبه العقود والدمالج والأساور والخلاخيل جمال غَضُّ رقيق يشبه في رفته نواظر العيون، ولفائف القلوب، وهذا الجمال منشور في المدائن نثر الزهر واللؤلؤ، ولولا وجوده في هذه الدنيا لما عرف شاعر قيمة النعمة العظيمة، نعمة البصر والحس والدوق، لولا الجمال المنعم المصُون الذي لا يطمع في تَفْيُؤِ ظلاله غَبيٍّ ولا لئيم لأَقْفَرَتِ الدُّنيا من الشَّعرِ وخَلَّتْ من الأنفاس العَطْرة أنفاس السُّعراء، لولا الجمال المنعم المصُون الذي لا يطمع في تَفْيُؤِ ظلاله غَبيٍّ ولا لئيم لما اسنطاب شاعرٌ سَهَرَ الليل، وألم الجفون، وهل يُعنى القلب في سبيل الجمال المُبتدل الذي نرنو إليه جميع العيون ؟ إن الجمال المُبتدل شبيه بالكوكب المتهالك

(١) القصر العالى . حي بالقاهرة يشارف السل، وسميه السحفاء « حاردين سني ».

الذي لا تألم من النظر إليه عَيْنٌ رَمَدَاءُ، أما الجمال المنعم المصون فشبيهة بالشمس لا يقوى على النظر إليه إلا الفحول من الشعراء، والأقطاب من الكتّاب، هو الجمال الفرد، ولا يصاوله إلا الرجل الفرد، وإن كان يتواضع فيقول :
 ما ضَرُّ أَنْ لَمْ نَكُنْ أَكْفَاءَهُ شَرْفًا وَفِي الْمَوَدَّةِ كَافٍ مِنْ تَكَاثُفِنَا
 هذا تَوَاضَعٌ، فإن جوهر الحب في قلب الشاعر أنفَس من جوهر الحسن في وجه الجميل، وهل تُعَرِّدُ معاني الصباحة في الوجه الملبح كما تُعَرِّدُ عرائس الشعر في قلب الشاعر الذي يلقي الأنوار والظلمات وحوله جَيْشٌ من الهوى المتمرد والوجد المشبوب ؟

إن قلب الشاعر جوهر نفيس، ولولا فضله على الدنيا ما عرف أحدٌ جمال الصبح المشرق، ولا تنبه مخلوق إلى لمح الكواكب ولألاء النجوم، ولا نلف باحث إلى شعر ابن زيدون، وقد طمره الزمن بتسعة أحجار تسمى تسعة قرون.

— ٧ —

ثم ماذا ؟ بقي أن نَشْرَبَ صُبَابَةَ الكَأْسِ من نونية سُوقِي، وكل صباغة في الكأس صاب، بقي أن نَتَوَجَّعَ لبلواه وهو يتشوق إلى مصر فيقول :
 أَرْضُ الأُبُوَّةِ وَالْمِيلَادِ طَيِّبَهَا مَرُّ الصَّبَا فِي ذُبُولٍ مِنْ تَصَابِيهَا
 كَانَتْ مُحَجَّلَةً فِيهَا مَوَاقِفُنَا غُرًّا مُسْلَسَلَةَ المَجْرَى قَوَافِينَا
 فَآبَ مِنْ كُرَّةِ الأَيَّامِ لِاعْبِنَا وَثَابَ مِنْ سِنَةِ الأَحْلَامِ لِاهِينَا
 وَلَمْ نَدْعُ لِلْيَالِي صَافِيًا فَدَعَتْ (يَا نَعْصَ فَقَالَ الدَّهْرُ آمِينَا)
 لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخُضْنَا الجَوَّ صَاعِقَةً وَالْبَرَّ نَارَ وَغَى وَالْبَحْرَ غَسِيلَا
 سَعِيًّا إِلَى مِصْرَ نَقْضِي حَقَّ ذَاكِرِنَا فِيهَا إِذَا نَسِيَ الوَافِي وَبَاكِينَا

أرأيتم هذا الشعر ؟ أرأيتم الخيال في هذا البيت :
 فَآبَ مِنْ كُرَّةِ الأَيَّامِ لِاعْبِنَا وَثَابَ مِنْ سِنَةِ الأَحْلَامِ لِاهِينَا
 أرأيتم صورة الهول المقتحم في هذا البيت :

لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخُصْنَا الْجَوَّ صَاعِقَةً وَالْبَرَّ نَارًا وَغَيَّ وَالْبَحْرَ غَسِيلِينَ

ثم ماذا ؟ بقي ختام القصيدة، وهي أبيات ما قرأتها إلا بكيت على أمي يرحمها الله، وانظروا كيف هفا قلب الشاعر إلى أمه في حلوان :

كَتَزَّ بِحُلُوانَ عِنْدَ اللَّهِ نَطْلُبُهُ خَيْرَ الْوَدَائِعِ مِنْ خَيْرِ الْمُؤَدِّينَا
لَوْ غَابَ كُلُّ عَزِيزٍ عَنْهُ غَيَّبَتْنَا لَمْ يَأْتِهِ الشُّوقُ إِلَّا مِنْ نَوَاحِينَا
إِذَا حَمَلْنَا لِمَضَرَ أَوْ لَهُ شَجَنَّا لَمْ نَدْرِ أَيَّ هَوَى الْأُمَيْنِ شَاجِينَا

طيب الله ثراك أيها الشاعر، ورحم والدي ووالديك، فالدعاء في أعقاب شعرك كالدعاء في أعقاب الصلوات.

البحث السادس والثلاثون

معارضات أبي نواس

نعقد هذا الفصل للنظر في معارضات أبي نواس، ونريد بهذه المعارضات ما وقع له من المناقضات مع معاصريه، وما أبدع الشعراء من بعد في معارضة قصائده المشهورات، وهذا وذاك يدلان أبلغ الدلالة على سيطرة العبقرية النواسية على أخيلة الشعراء.

ومن الكلام الجيد في تقويم المعارضات الشعرية ما قاله الدكتور أحمد زكي أبو شادي في الجزء الثاني من مجلة (أدبي) :

« ليس تعتمد معارضة الشعر من الفن الصحيح في شيء، بل هو محض صناعة، والشعر قبل كل شيء عاطفة فكرية عميقة الجذور، لا بهرج سطحي زائف، وقد نقرأ عن بعض الشعراء الممتازين أنه حاول محاكاة شاعر آخر بقصيدة معينة، ولكن الحقيقة أنه نأثر بموسيقاه أو بموضوع القصيدة، فأثار ذلك نفسه الشاعرة، متال ذلك معارضات البارودي للشعراء المتقدمين، ومعارضة كيتس لسبنسر، وقد كانت تلك المعارضة أول تجربة شعرية لكيتس، فإن تلك المعارضات هي نتيجة الإعجاب بالآثار السابقة، وأثر وحيها في النفس ».

ومعنى هذا الكلام أن الشاعر الموهوب لا بنصنع القول حين يعارض شاعراً، وإنما تتفجر المعاني من نبع القلب، وإذا كلام عرفنا صحته حين وازناً بين المعارضات،

فمن العسير أن نتصور الشاعر مسنّعباً لمن يعارضه، وإن تأثر خطوانه في الوزن والفافية والموضوع، والمعارضة في صميمها هي تلاقي روحين، واثلاف فلبين، أو اصطدام نفسين، واقتتال عبقريتين.

فمن المعارضات التي وفعت باثلاف الذوق والقلب ما وقع بين أبي نواس والخزاز، فإن أبا نواس لما قال :

يَا رِيْمُ هَاتِ الدَّوَاةَ وَالْقَلَمَا	أَكْتُبْ سُوْقِي إِلَى الَّذِي ظَلَمَا
مَنْ صَارَ لَا يَعْرِفُ الْوِصَالَ وَقَدْ	زَادَ فُؤَادِي فِي حُبِّهِ وَنَسَا
غَضْبَانَ قَدْ عَزَّنِي هَوَاهُ وَلَوْ	يُسْأَلُ مِمَّا غَضِبْتَ مَا عَلَمَا
فَلَيْسَ يَنْفَكُ مِنْهُ غَاشِقُهُ	فِي جَمْعٍ عُدْرٍ مِنْ غَيْرِ مَا آجَرَمَا
لَوْ نَظَرْتُ عَيْنُهُ إِلَى حَجَرٍ	وَلَدَ فِيهِ فُتُورُهَا سَقَمَا
أُظِلُّ يَقْظَانٍ فِي تَذْكُرِهِ	حَتَّى إِذَا نَمْتُ كَانَ لِي حُلَمَا

لما قال أبو نواس هذه الأبيات عارضه الخزاز، فقال :

إِنْ بَاحَ قَلْبِي قَطَالَمَا كَتَمَا	مَا بَاحَ حَتَّى جَفَاهُ مَنْ ظَلَمَا
وَكَيْفَ يَقْوَى عَلَى الْجَفَاءِ فَتَى	فَدُمَاتِ أَوْ كَادَ أَوْ أَرَاهُ وَمَا
أَشْكُ أَنْ الْهَوَى سَبَقُنُنِي	مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَلَا يُرَبُّ دَمَا
كَيْفَ آخِيبَالِي لِشَادِنٍ غَبَجٍ	أَصْبَحَ بَعْدَ الْوِصَالِ قَدْ صَرَمَا
مَا قُلْتُ لَمَّا عَلَا الصُّدُودُ بِهِ	يَا رِيْمُ هَاتِ الدَّوَاةَ وَالْقَلَمَا
لَكِنْ سَفَحْتُ الدُّمُوعَ مِنْ حَزَنِ	لَمَّا تَمَادَى الصُّدُودُ ثُمَّ نَمَا
إِنَّ الرَّسُولَ الَّذِي أَتَاكَ بِمَا	أَنَّكَ عَنِّي قَدْ حَرَفَ الْكَلَمَا

وأبيات أبي نواس من الشعر الكريم، وهي من المطمع المستنع، وفيها ومضات من السحر المبين، وأي غزل أرق وأظرف من هذا البت الذي يعد من أدق ما قبل في تلون الملاح :

غَضْبَانَ قَدْ عَزَّنِي هَوَاهُ وَلَوْ يُسْأَلُ مِمَّا غَضِبْتَ مَا عَلَمَا

وفوله في فنك العيون :

لَوْ نَظَرْتُ عَيْنُهُ إِلَى حَجَرٍ وَلَدَ فِيهِ فُتُورُهَا سَقَمَا

وقوله في أخذ الهوى بأحلام الحب :
أَظْلُ يَقْظَانِ فِي نَذْكُورِهِ حَتَّى إِذَا نِمْتُ كَانَ لِي حُلْمًا
أما أبيات الخراز فهي من الشعر المقبول، ولبست من الشعر الجيد، وقد ربط
فيها بعض المعاني ببعض على طريقته لم تألفها الأذواق العربية، ولولا أنها قيلت
في معارضة أبي نواس لما نقلها راوية، ولا حفظها كتاب.

ومن المعارضة التي جرت مجرى المطارحة ما وقع بين أبي نواس وبين العباس
ابن الأحنف، وكان بين هذين الساعرين مودة قوية أساسها تبادل الثقة
والإعجاب. والحق أن أبا نواس والعباس كانا يقبسان من شعلة واحدة، فقد جمع
بينهما العزل والظرف، وصفاء الروح، بالرغم من اختلاف المذهبين، فقد كان أبو
نواس متلونا في الحب يتنقل من فنن إلى فنن، على حين كان ابن الأحنف قد
وقف قلبه على هوى واحد، هو محبوبته « فوز » التي خلده اسمها على الزمان.

حدث حمزة الأصفهاني قال : اجتمع أبو نواس مع العباس بن الأحنف في
مجلس فقام عباس لحاجة، فسئل أبو نواس عن رأيه فيه وفي شعره فقال : هو
أرق من الوهم، وأنفذ من الفهم، وأمضى من السهم، ثم عاد عباس وفام أبو
نواس كذلك فسئل عنه عباس، وعن رأيه فيه وفي شعره، فقال : إنه لأقر للعين
من وصل بعد هجر، ووفاء بعد غدر، وإنجاز وعد بعد يأس. فلما صار إلى التبيذ
أعلم كل واحد منهما قول الآخر فيه، فقال أبو نواس :
إِذَا ارْتَدَّتْ فَتَى الْكَاسِ فَلَا تَعْدِلْ بِعَبَّاسِ

فقال العباس :

إِذَا نَارَعَتْ صَفْوَ الْكَاسِ يَوْمًا أَخَا ثِقَةٍ فِيمِثَلَ أَبِي نَوَاسِ
فَتَى يَشْتَدُّ حَبْلُ الْوُدِّ مِنْهُ إِذَا مَا خُلَّةٌ رَنَّتْ لِنَاسِ

فتناول أبو نواس قدحا وقال :

أَبَا الْفَضْلِ أَشْرِبْنِ ذَا الْكَاسِ سَ إِئِى شَارِبُ كَاسِي

فقال العباس :

نَعَمْ يَا أَوْحَدَ النَّاسِ عَلَى الْعَيْنَيْنِ وَالرَّاسِ

فقال أبو نواس :

فَقَدْ حَفَّ لَنَا الْمَجْلُ سُبُ بِالنَّشْرِ وَالْأَسِ

فقال العباس :

وَإِخْوَانٍ بِهَالِكٍ سَرَاةٍ سَادَهُ النَّاسِ

فقال أبو نواس :

وَحَوْدٍ لَذَّةٍ الْمَشْمُوعِ عِ مِنْهُ الْغُصْنِ الْكَاسِي

فقال العباس :

وَقَدْ أَلْبَسَهَا الرَّحْمُ نُ مِنْ أَحْسَنِ الْبَاسِ

فقال أبو نواس :

فَقَدْ زِينْتُ بِإِكْلِيلِ يَوَاقِيْتِ عَلَى الرَّاسِ

فقال العباس :

فَلَا تَحْبِسْ أَخِي كَأْسًا فَإِنِّي غَيْرُ حَبَّاسِ

قال الأصفهاني : فكان مانسي من معارضتهما أكثر مما حفظ.

ويذكرنا بهذه المطارحة ما وقع بين إسماعيل صبري، وخليل مطران، فقد مضى يوماً صبري باشا بأحد شوارع القاهرة، فرأى مطران يشرب الصهباء على قارعة الطريق، فقال صبري باشا : يا مطران، لا يليق بمثلك أن يشرب تحت أبصار الناس، فابتدعه مطران، وقال :

وَهَلْ يَضِيرُ الْمَجْدَ أَنْ أَشْرَبَا وَأَجْعَلَ الْحَانَةَ لِي مَلْعَبَا

فطرب صبري باشا، وقال :

وَأَنْ بَرَانِي كُلُّ مَنْ مَرَّ بِي وَسَطَ الدِّيَاجِي حَامِلًا كَوَكَبَا

كذلك حدثنا الأستاذ إبراهيم الدباغ، فلما لقيت الشاعر مطران سألته عن القصة، فقال : كان يقع لنا من ذلك شيء كثير، أما أنتم يا شعراء هذا العصر،

فقد بددت الشواغل أحلامكم، ولم يبق لكم من روعة المطارحة نصيب.. وقد صدق مطران !

واتفق يوماً أن لقي مسلم بن الوليد رسولاً لأبي نواس يحمل رقعة إلى عنان، وفيها هذه الأبيات :

لَا تَأْمِنَنَّ عَلَى سِرِّي وَسِرِّكُمْو غَيْرِي وَغَيْرِكَ أَوْطَيَّ الْقَرَّاطِيسِ
أَوْ طَيْرَ فَيْرُودَج^(١) إِنِّي سَأُبْعُثُهُ قَدْ كَانَ صَاحِبَ تَأْلِيفٍ وَتَدْسِيسِ
وَكَانَ هَمُّ سُلَيْمَانَ لِيَذْبَحَهُ لَوْلَا قِيَادَتُهُ فِي أَمْرِ بَلْقِيسِ

فأخذ مسلم الرقعة من الرسول وخرقها فانصرف الرسول إلى أبي نواس فأخبره بما صنع مسلم برقعته، فقال أبو نواس:

لَمْ يَقَوْ عُنْدِي عَلَى تَخْرِيقِ قِرْطَاسِي إِنْ الْقَرَّاطِيسَ فِي قَلْبِي بِمَنْزِلَةِ
لَوْلَا الْقَرَّاطِيسُ مَاتَ الْعَاشِقُونَ مَعًا فَلَيْتَ أَنْ إِمَامَ النَّاسِ سَلَّطَنِي
حَتَّى أَصْبَحَهُ مِنْ حَيْثُ مَا مَنَّهُ مَا أَعْجَبَ الْحَارِقَ الْقِرْطَاسَ أَقْرَأَهُ
مَاذَا عَلَيْكَ إِذَا أَحْبَبْتَ كَاتِبَهُ أَلَيْسَ قَدْ مَشَقَّتْ فِيهِ أَنَا مِلَّهُ

إِلَّا فَتَنِي قَلْبُهُ مِنْ صَخْرَةٍ قَاسِي كَمْوَضِعِ السَّمْعِ وَالْعَيْنَيْنِ وَالرَّاسِ
هَذَا بَعْمٌ وَهَذَا كُمْ يَوْسُوَسِ فَلَمْ أَدْعُ خَارِقًا فِيهِمْ لِقِرْطَاسِ
كَأَسَاءَ مِنَ الْمَوْتِ لَمْ يَسْلَمْ لَهُ حَاسِي يَأْسًا فَحَرَّقَهُ مِنْ خَيْرَةِ الْيَاسِ
مَا كَانَ فِي بَطْنِهِ يَا أَحْمَقَ النَّاسِ وَجَازَ أَقْلَامُهُ فِيهَا بِأَنْفَاسِ

وبلغت هذه الأبيات مسلماً فعارضه فقال :

يَا مَنْ يَلُومُ عَلَى تَخْرِيقِ قِرْطَاسِ الْحَزْمِ تَخْرِيقَهُ إِنْ كُنْتَ ذَا حَذَرٍ
فَشُقَّ قِرْطَاسَ مَنْ تَهَوَّى صَيَانَتُهُ إِذَا أَتَاكَ وَقَدْ أَدَّى أَمَانَتَهُ
وَشُقَّ قِرْطَاسَ مَنْ تَهَوَّى وَكُنْ فَطِنًا كَمْ مَرَّ مِثْلُكَ فِي الدُّنْيَا عَلَى رَاسِي
وَإِنَّمَا الْحَزْمُ سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ قُرْبٌ مُفْتَضِحٌ فِي خَطِّ قِرْطَاسِ
فَاجْعَلْ كَرَامَتَهُ فِي بَطْنِ أَرْمَاسِ كَمْ ضَيَّعَ السِّرُّ فِي حِفْظِ لِقِرْطَاسِ

(١) هو الهدهد بالفارسية.

فأجابه أبو نواس :
مَاذَا أُرَدْتُ إِلَى تَخْرِيقِ قِرْطَاسِي
هَلْ كَانَ عِنْدَكَ فِي الْقِرْطَاسِ مِنْ بَاسٍ
سَبَبَتْ كَاتِبَهُ مِنْ غَيْرِ مَا سَبَبٍ
هَلْ كَانَ فِيهِ سِوَى شَكْوَى إِلَى نَاسِي
كَتَبْتُ أَشْكُو بِلِيَّاتِي فَسَاءَ كُفُو
مَا يَذْكُرُ النَّاسُ مِنْ شَوْقٍ إِلَى النَّاسِ

وهذه المعارضة تبدو تافهة لمن ينظر فيها وهو خالي الذهن من ألوان الحياة لذلك العهد، ولكن الذين سايروا تطور التقاليد الأدبية يرون مسألة الرسائل الغرامية كانت يوماً من المشكلات، حتى صبح لمثل أبي محمد بن حزم أن يعقد لها فصلاً في طوق الحمامة، ولو كانت هذه المسألة من التوافه لما اهتم بها ذلك الإمام الجليل.

والحق أن تاريخ الأدب عرضة للطمس إذا حكمنا فيه ذوق الناس في هذا العصر، فأهل هذا الزمن يتصنعون الوقار، ويتكلفون الاحتشام، وتبدو منهم بدوات تنقلهم إلى عوالم لا تعرف المجون مع أن حياتهم في صميمها ملوثة بعبث أشنع من المجون، وهو الرياء.

ولكن مهلاً. من الذي يحكم بأن من العبث أن يكون للرسائل الغرامية أدب يحرص عليه مثل مسلم بن الوليد؟ ألسنا برى في أبا مناه هذه كيف تقدم الرسائل الغرامية إلى المحاكم لتكون من أقوى الأسانيد، وتثبت بها حقوق تصل أحياناً إلى المواريث؟

إن النفس الإنسانية ستظل مجهولة ما لم تكشف عنها الصغائر في حيوات الناس، وأكثر من ترون من العظماء هم أطفال في عالم الحب، وقد تكون تلك الطفولة هي أساس العظمة عند من يفقهون.

ألم تر كيف كان فيكتور هوجو يتكلف الحب ليعرف بعض ما يجهل من أسرار
القلوب ؟

ألم تر كيف كان جوته يتكلف الحب ليعرف المستور من خلائق النساء ؟
ليس العلم كل العلم أن نرعى في بيتك طائفة من الحشرات لتعرف كيف
تصح، وكيف تمرض، وكيف نحس، وكيف تعقل، وكيف تحيا، وكيف
تموت. ليس هذا كل العلم، وإن ضاعت فيه أعمار وبددت في سبيله أموال،
وأنشئت من أجله معاهد وكليات. للعلم ميادين أعلى وأشرف، هي ميادين
السرائر والقلوب، وهي ميادين لا يعرفها غير الشعراء.

البحث السابع والثلاثون

بين أبي نواس وابن المعتز والخليع

كان من حظ أبي نواس أن يسيطر على أهل عصره، وأن يتخطى زمانه فيسيطر على أخيلة الشعراء من جيل إلى جيل، وكان أهم ما اشتهر به وصف الصهباء، وإنما برع في هذا الفن لأنه نشأ في العراق، والعراق منذ الزمن القديم قطر مرح طروب، استطاع أن يكون ملتقى الروحين العظيمين : روح العرب وروح الفرس، ولو نشأ أبو نواس في بلد مثل مصر لما استطاع أن يظفر بكل هذه السهرة الأدبية : لأن مصر لم تكن من الأقطار ذوات الخطر في صنع الخمر، ولم يكن أهلها يوماً من كبار الشاربين، وإن زعموا أنها تفردت بشراب « المريوتيك » الذي أسكرت به كيلوباترة من أسكرت من عشاقها الابطال.

ولم يكن لمصر شأن يذكر في زراعة الأعناب، لأن جوّها لا يصلح كثيراً لصنوف العنب الجيد الذي يحمل أهلها على الاهتمام بصناعة الخمر، على نحو ما بنفق ذلك في بعض الأقطار الشرقية والغربية، ومن أجل هذا ظل المصريون أجيالاً طوالاً وهم لا يعرفون من الخمر إلا صنوفاً رديئة يحتفظ بها جماعة من الأقباط نوارثوها عن أجدادهم، فكانوا شرّ ورثة لأقبح مبراث !

ولا كذلك العراق، فقد عرف الخمر منذ عهد الآشوريين والكلدانيين وظل يُفَنّن في تقطيرها أظرف افتنان. وقصائد ابن الرومي في وصف العنب ندل على

أن العراقيين كانوا ينظرون إلى العنب نظرة تقديس، لأنهم كانوا يتمثلون فيه ما يضمّر من أسرار الصهباء.

وحرمان مصر من جيد الخمر يشرح جانباً مهماً من حياتها العقلية، فقد نبغت مصر نبوغاً عظيماً في التأليف، وكانت هي القطر الإسلامي الوحيد الذي أنتج أعظم المؤلفات في الأدب واللغة والتاريخ والتشريع، وإنما كان الأمر كذلك لأن «الصحو» من أقوى الشواهد على سلامة العقل، أما الأقطار العربية التي عرفت الخمر، فكانت لها ميادين غير التأليف، كان لها الشعر والخيال، على نحو ما نرى في الأندلس، والشام، والعراق.

وهذا الحكم لا نريد به التعميم، فمن التعسف أن نقول إن الشعر انعدم في مصر، أو إن التأليف انعدم في غير مصر، لا، وإنما نحكم بأن الخصائص الأساسية تختلف هنا وهناك، فالمصريون يعيشون في بلد محافظ على التقاليد منذ خلق، فلم يكن فيهم فاجر، ولا زنديق، على نحو ما توثب الفجور واستطارت الزندقة في بلد مثل العراق.

والشاهد أمامي واضح صريح : هو هذه الهمزيات الثلاث لابن المعتز والخليع، وأبي نواس، ففي هذه القصائد أحيلة يجهلها المصريون.

وإليكم الحديث.

وصف أبو نواس الخمر فقال :

دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءُ وَدَاوِي بِالَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ

وعارضه الخليع فقال :

بُدِّلَتْ مِنْ نَفَحَاتِ الْوَرْدِ بِالْآءِ^(١) وَمِنْ صَبُوحِكَ دَرَّ الْإِبِلُ وَالشَّاءُ

وعارضه ابن المعتز فقال :

أَمْكَنْتُ عَاذِلْتِي مِنْ صَمْتِ آبَاءِ مَا زَادَهُ النَّهْيُ شَيْئاً غَيْرَ إِغْرَاءِ

(١) الآء : ثمر شجر، واحده آءة. قال الفيروزآبادي : وأوت الأديم دهنه به، والأصل : أوت فهو مؤء، والأصل مأووء.

والشاهد هنا هو المشكلة التي أثارها الهمزية النواسية، فأعلب الظن أن أبا نواس لو خاطب بها أهل مصر لخاطبهم بما لا يفهمون، ولكنه خاطب أهل العراق فخاطب قوماً يعرفون من الخمر ما يعرفون.

كانت همزية أبي نواس من المشاكل العراقية، وكانت الموازنة بينها وبين همزية ابن الضحاك مما يشغل الناس، ومضى الحديث إلى مكة، مكة المكرمة التي شرعت للعالم بغض الصهباء، نعم في مكة وجدوا فقيها يفصل بين همزية ابن الضحاك، وهمزية أبي نواس.

انظروا في هذا، واسألوا أنفسكم : أيكن نقل الحديث من مكة المكرمة إلى الأزهر الشريف ؟

هيهات، هيهات !

وإنما جاز في مكة ما لم يجز في مصر، لأن مصر كما حدثنكم لا تعرف الخمر، وإن كان الخواجة خرمبو فتح فيها عشرات الحانات.

مصر فضولية في شرب الشمول، ومن الخير أن تقف حيث أقامها الله، فلا تقول : هات وهاك !

لا تحسبوني أمزح، فالمصري لا ينقع غلته غير الماء القراح، وقد نرونه في مجالس السلاف يصرخ فجأة في طلب كوب من الماء، والطبيعة الأصلية تميز خصائص الشعوب.

ما هذا ؟ أتصدقون أنني أهرب من الهمزيات الثلاث، لأني لا أجد من الحماسة لنقدها بعض ما وجد أدناء العراق.

ولنواجه الموضوع فنقول :

همزية أبي نواس لا تزيد على عشرة أبيات، ولكنها تحدثنا عن أمور جوهرية في حياة العراق، تحدثنا أولاً عن قيمة الخمر في العلاج، وهي عادة عراقية، وجدت من قبل عند العرب في الجاهلية، فقد روي أن الأعشى قال :
وَكَاسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ وَأُخْرَى نَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

وكان الأعشى شاعراً فاجراً عرف الخمر والنساء. ومشت به شهواته إلى الحدود الفارسية فنقل من تقاليد الفرس ما شاء.

فجاء أبو نواس وأفصح عن عادات قومه أبرع إفصاح حين قال :
دَع عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءٌ وَدَاوِي بِالَّتِي كَانَتْ هِيَ آدَاءُ

وبين الأعشى وأبي نواس تفلسف مجنون بني عامر فقال :
تَدَاوَيْتُ مِنْ لَيْلَى بِلَيْلَى مِنَ الْهَوَى كَمَا يَتَدَاوَى شَارِبُ الْخَمْرِ بِالْخَمْرِ
والنداوي بالخمر يراه أهل مصر من المشكلات، وله فتوى في العدد الأخير من مجلة الأزهر ختمها المفتي بعبارة « والله أعلم » كأن الله لم يهد خلقه إلى بعض أسرار الصهباء.

وتحدثنا الهمزية ثانياً عن عادة اجتماعية كان لها خطر في بغداد، وتلك العادة هي إلباس الجوارى ملابس الغلمان، والظاهر أنَّ الفتنة في عالم الجمال لم يكن يراها البغداديون المترفون إلا في تلك الثياب، فكانت الجارية لا تملح إلا مذكرة، ولهذه النزعة المقلوبة بقايا في أدب أهل الشرف والغرب فقد حدثنا الأستاذ لطفي جمعة في رواية (عائدة) التي نشرها في (البلاغ) أن محبوبته في السوبس لبست ثياب الفتى فبدت له جميلة جداً، واندفع يقبلها بعنف حتى أدمى خديها بالتقبيل. وقد رأينا بأعيننا بعض الفتيات في أوروبا يلبسن ملابس الفتيان، فإن لم يكن هذا بدعاً حديث العهد، فهو إذن بقية من عبث أهل بغداد القدماء الذين أطغاهم الغنى والملك.

وهذا بيت أبي نواس :
مِنْ كَفِّ ذَاتِ جِرْفِي زِيٍّ ذِي ذَكْرِ لَهَا مُجَبَّانِ لُوطِيٍّ وَزَنَاءُ
والدعارة واضحة في هذا البيت، ولكن ناقل الكفر ليس بكافر، وناقل الفسق لبس بفاسق.

وتحدثنا الهمزية ثالثاً بأن فسقة بغداد كانت عندهم نزعة صوفية ترمي إلى الاعتماد على عفو الله، ومن الصوفية من يرى من الإثم أن تتخوف من الذنوب :

لأن التخوف من الذنب يشعر بأنك تعتد بالأعمال، والاعتداد بالأعمال ينافي أدب الأبرار، وذلك ما عناه الفاجر أبو نواس حين قال :
لَا تَحْظُرِ الْعَفْوُ إِن كُنْتَ أَمْرًا حَرَجًا فَإِنَّ حَظْرَكَهُ بِالْدِّينِ إِزْرَاءُ
تلك هي الأمور التي أفصح بها أبو نواس عن بعض الأحوال الاجتماعية في بغداد، فلم يبق إلا النص على ما في قصيدته من المعاني الشعرية :

ونبادر فنذكر أن النقاد القدماء أجمعوا على سبقه بهذا البيت :
صَفْرَاءُ لَا تَنْزِلُ الْأَحْزَانُ سَاحَتَهَا لَوْ مَسَّهَا حَجَرٌ مَسَّتُهُ سَرَاءُ
أما نحن فنستعيد قوله في الراح :

فَأُرْسِلَتْ مِنْ فَمِ الْإِبْرِيقِ صَافِيَةٌ كَأَنَّمَا أَخَذَهَا بِالْعَيْنِ إِغْفَاءُ
جَفَّتْ عَنِ الْمَاءِ حَتَّى مَا يُلَائِمُهَا لَطَافَةٌ وَجَفَا عَنْ شَكْلِهَا الْمَاءُ
فَلَوْ مَزَجْتَ بِهَا نُورًا لَمَازَجَهَا حَتَّى تَوَلَّدَ أَنْوَارٌ وَأَضْوَاءُ

وهذه الأبيات في غاية من الجودة، وللقارئ أن يتأمل هذه الشطرة :
« كَأَنَّمَا أَخَذَهَا بِالْعَيْنِ إِغْفَاءُ »

فهي كلمة شاعر مبدع يتمثل الصور الشعرية تمثل الشاعر الفنان.
وفي البيتين الآخرين تنزيه للخمر عن ملابسة الماء، ورجعها إلى التوافق مع عنصر أشرف هو عنصر النور، وهذا معنى لا يلتئم إلا مع خمر الفردوس.

أما قوله :

دَارَتْ عَلَى فِتْيَةٍ دَانَ الزَّمَانُ لَهُمْ فَمَا يُصِيبُهُمْو إِلَّا بِمَا شَاؤُوا

فهو صورة لجماعة من الندمان الفتيان الذين مكنهم الغنى والشباب من ناصية الزمان، وأبو نواس الفاجر يرى أعداء الراح من الجاهلين، ويقول :
فَقُلْ لِمَنْ يَدَّعِي فِي الْعِلْمِ فَلْسَفَةً حَفِظْتَ شَيْئًا وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ

وهي سخرية لم يوجه مثلها إلى أهل التقى والعفاف.

* * *

تلك همزية أبي نواس، فماذا قال الخليل الحسين بن الضحاك ؟

لقد بدأ فسخر من العرب الذين يقنعون بألبان الإبل والشاء بين أشواك البادية، فقال :

بُدِّلَتْ مِنْ نَفَحَاتِ الْوَرْدِ بِالْآءِ وَمِنْ صَبُوحِكَ دَرَّ الْإِبِلِ وَالشَّاءِ
مَا بَيْنَ بَطْنِ ثُبَيْرٍ إِنْ حَلَلْتَ بِهَا إِلَى الْفَرَادِيسِ إِلَّا شَوْبُ أَقْدَاءِ
فَعَدَّ هَمَّكَ عَنْ حِلْفٍ تُمَارِسُهُ حِلْفٍ تَلْفَعُ طِمْرًا بَيْنَ أُحْنَاءِ

والسخرية من العرب ومعايش العرب نزعة شعوبية كان لها في ذلك العهد مجال، فكان أبو نواس وندماؤه من شياطين بغداد لا يملون القدح في شمائل الأعراب، وكانت السخرية من الأزهار البدوية والأشواك البدوية هي الفاتحة والخاتمة لكل قصيد، وكذلك صبح للخليع أن ينقل نديمه إلى حياة الحضارة فيقول :

فَفِي غَدٍ لَكَ مِنْ زَهْرَاءَ صَافِيَةٍ بِطَيْرٍ نَابَازَ مَاءٍ لَيْسَ كَالْمَاءِ
مِمَّا تَخَيَّرَ أُولَاهَا وَأَوْدَعَهَا رَبُّ الْخَوَرَنَقِ فِي جَوْفَاءِ مَيْمَاءِ
رَاحَ الْفُرَاتِ عَلَيْهَا فِي جَدَاوِلِهِ وَبَاكَرَتْهَا سَحَابَاتُ بَانُوءِ

وقد أطال الخليل في قصيدته اطالة مملة تملأنا نحن المصريين، ولكنها تمتع أمثال العراقيين. فقد وصف تنقل الراح من عهد إلى عهد، وسره أن تدفن في الأرض، وأن تمر عليها أزمان وهي سر مكنون، فلننس ما لا نعرف من تلك العهود، ولننتقل إلى عهدها الأخير بعد أن رأيت نور الوجود :

فُضِّتْ خَوَاتِمُهَا فِي نَعْتٍ وَاصِفِهَا عَنْ مِثْلِ رَفَرَقَةٍ فِي جَفْنِ مَرْهَاءِ^(١)
لَمْ يَبْقَ مِنْ شَخْصِهَا إِلَّا تَوْهْمُهُ فَالْشَّيْءُ مِنْهَا إِذَا اسْتَشَبَّتْ كَاللَّاءِ^(٢)
تُمَارِجُ الرُّوحَ فِي أَخْفَى مَدَاخِلِهِ كَمَا تَمَارِجُ أَنْوَارٍ بِأَضْوَاءِ
لَا يُدْرِكُ الْجِسُّ مِنْهَا جِينَ تَبَعُثِهَا إِلَّا التَّنَسُّمُ أَوْ لَذْغًا بِأَحْشَاءِ
يَحْكِي تَطَوُّقَهَا بِالْكَاسِ مِنْ ذَهَبٍ طَوْقًا أَطَافَتْ بِهِ وَأَوَاتُ عَسْرَاءِ

(١) المرهاء، هي التي ابيضت حماليق عيها.

(٢) اللاء هنا السراب.

ثُمَّ اسْتَحَالَ لَهَا دُرٌّ فَعَرَّشَهُ حَتَّى اسْتَقَلَّ لَهَا عَرْشٌ عَلَى الْمَاءِ
عَرْشٌ بِلَا طُنْبٍ مِنْ فَوْقِهِ زَبَدٌ قَدْ جَلَّ عَنْ صِفَةٍ فِي حُسْنٍ لَأَلَاءِ
لَا يَسْتَطِيعُ سَنَا نُورِ لَهَا نَظَرًا حَتَّى تَعُودَ لَهُ لَحْظَاتُ حَوْلَاءِ
كَأَنَّ تَأْلِيفَ مَاحَاكَ الْمِزَاجُ لَهَا سَلَخَ تُحَلِّلُهُ عَنْ ظَهْرِ رَقَشَاءِ
لَا شَيْءَ أَحْسَنُ مِنْهَا فِي تَصَرُّفِهَا مِنْ كَفِّ مُخْتَلِجِ الْأَعْطَافِ وَضَاءِ

هذه الأبيات تخيرناها تخيراً، ولو عرضنا هذه القصيدة كاملة لبدت فيها أشياء لا يفهمها أهل هذا الجيل.

ونحن لا نستسيغ اليوم وصف الخمر بأنها بدت « مثل رفرقة في جفن مرهء » ولا يسرنا أن يكون الحب ألف فوقها صورة تشبه ظهر الحية الرقشاء، ولكنها نستظرف وصف الراح بأنها تمازج الروح في أدنى مداخلة ممازجة الأنوار للأضواء، ولعل هذه الصورة هي أجمل ما في قصيدة الخليع.

ولا ننس النص على أن الخليع ختم قصيدته بغمز العرب فقال .
هَذَا النَّعِيمُ وَلَا عَيْشٌ نَكُونُ بِهِ هُنْدٌ بِرَايَةٍ مِنْ بَعْدِ أَسْمَاءِ^(١)
فكانت الفاتحة والخاتمة من النزوات الشعوبية.

بقي ابن المعتز، فماذا قال :

إن ابن المعتز جرى في همزيته مجرى الفنك فانطلق يتحدث عن صبواته حديث الغويّ المفتون، ويقول :

أَمْكَنْتُ عَاذِلَتِي مِنْ صَمْتِ آبَاءِ مَا زَادَهُ النَّهْيُ شَيْئًا غَيْرَ إِغْرَاءِ
أَيْنَ التَّوَرُّغِ مِنْ قَلْبٍ يَهِيمُ إِلَى حَانَاتِ قُطْرُبُلٍ بِالْعُودِ وَالنَّاءِ^(٢)

(١) أسماء اسم امرأه أصلها « وسماء » من الوسامة وهي الحسن الباب. فلت الواو هـره فورها فعلاء.

(٢) الناء هو الناي.

وَصَوْتُ فَتَانَةِ التَّغْرِيدِ نَاطِرُهُ
جَرَّتْ ذُيُولَ الثِّيَابِ الْبَيْضِ حِينَ مَسَتْ
وَقَرَعَ نَاقُوسٌ دَيْرِيٌّ عَلَى شَرْفِ
وَكَّاسٍ حِيرِيَّةٍ شَكَّتْ بِمِيزْلِهَا
بَعِينَ ظَبْيٍ يُرِيدُ النَّوْمَ حَوْرَاءِ
كَالشَّمْسِ مُسِيلَةً أَذْبَالَ لَأْلَاءِ
مُسَبِّحٍ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ دَعَاءِ^(١)
أَحْشَاءَ مُشْعَرِهِ بِالْفَارِ جَوْفَاءِ

والبيت الأول مولد من صدر قصيدة أبي نواس، والبيت الثالث بيت عذب والمعنى فيه قديم، ولكنه ورد في معرض طريف، أما البيت الرابع فهو تحفة لأنه جعل محبوبته في الثياب البيض كالشمس تسيل أذبال اللآلئ، وفي البيت الخامس حنين إلى الواقيس، ولكن أي حنين؟ أهو حنين الخاشعين؟ هيات، إنه حنين الفجرة الذين كانوا يتخذون الديرة ملاعب صباهه ومجالس سلاف.

ثم مضى يذكر أعمار الخمر فقال :

جَاءَتْ بِهَا حُفْلُ الْأَثْمَارِ يَانِعَةٌ
تَرْفُو الظَّلَالَ بِأَغْصَانٍ مُهْدَلَةٍ
أَجْرَى الْفَرَاتُ إِلَيْهَا مِنْ سَلَاسِلِهِ
وَطَافَ بِكُلُّهَا مِنْ كُلِّ قَاطِفَةٍ
مُوَكَّلٍ بِالْمَسَاحِي فِي جَدَاوِلِهَا
فَآبَ فِي آبٍ بَحْنِيهَا لِعَاصِرِهَا
فَظَلَّ بَرَكُضُ فِيهَا كُلُّ ذِي أَشْرٍ
ثُمَّ اسْتَقَرَّتْ وَعَيْنُ الشَّمْسِ تَلْفَحُهَا
حَتَّى إِذَا بَرَدَ اللَّيْلُ الْبَهِيمُ لَهَا
صَبَّ الْخَرِيفُ عَلَيْهَا مَاءً غَادِيَةً
بَطِيرَنَا بَاذًاوُ كُوشَى وَسُورَاءِ^(٢)
سُودِ الْعَنَاقِيدِ فِي خَضِرَاءِ لَفَاءِ
نَهْرًا تَمَسَّى عَلَى جَرَعَاءِ مِثَاءِ^(٣)
رَاعٍ بَعِينَ وَقَلْبٍ غَيْرِ نَسَاءِ
حَتَّى بَدُلَ عَلَيْهَا حَيَّةُ الْمَاءِ^(٤)
كَأَنَّ كَفِّهِ قَدْ غُلَّتْ بِحَنَاءِ
قَاسٍ عَلَى كَبِدِ الْعُنُقُودِ وَطَاءِ
فِي بَطْنٍ مَخْتُومَةٍ بِالطِّينِ كَلْفَاءِ
وَبَلَّهَا سَحَرٌ مِنْهُ يَانِدَاءِ
أَقَامَهَا فَوْقَ طِينٍ نَعْدَ رَمَضَاءِ

(١) دعاء . كثير الدعاء

(٢) كل هذه أسماء أماكن.

(٣) الحرعاء : الرملة الطيبة المست والمشاء اللينه.

(٤) المساحي : الأراضي المهيأة للزرع.

تِلْكَ الَّتِي إِنْ تُصَادِفَ قَلْبَ ذِي حَزَنِ تُجْزِلُ عَطِيَّتَهُ مِنْ كُلِّ سَرَّاءٍ
يَسْقِيكَهَا خَبْثُ الْأَلْحَاطِ ذُو هَيْفٍ كَأَنَّ أَجْفَانَهُ أَفْرَقْنَ مِنْ دَاءٍ

وجملة القول ان هؤلاء الشعراء ركضوا في ميدان واحد فوصفوا الخمر
والسقاة وصفاً يختلف بعض الاختلاف، وكان أقصرهم نفساً أبو نواس، ولكنه
كان أعرفهم بأسرار الصهباء.

والقصيدة الوحشية هي قصيدة الخليع فقد أكثر فيها من العمل والافتعال،
فظلت سجينة لا يعرفها من الناس غير أهل العراق، وقد وقع ابن المعتز
في بعض ما وقع فيه الخليع، فأخذ يؤرخ الخمر يوم كان لها تاريخ، فأصبحت
قصيدته غريبة في زمن تكتهل فيه الصهباء وهي بنت يوم واحد لأن أهل
هذا الزمن عرفوا من العناصر، ما لم يعرف الأقدمون واستطاع آثمهم أن يكوي
الصهباء فيردها ناراً تأكل الهشيم من أحلام الرجال.

أما أبو نواس فقد وقف عند المعاني الفطرية التي يعرفها الناس في جميع
البلاد، وكذلك ظلت قصيدته موصولة الأواصر بأرباب الأذواق. وأجود الشعر
ما استطاع مداعبة القلوب في كل أرض وفي كل جيل.

البحث الثامن والثلاثون

أقطاب الموازين

— ١ —

رأى القارىء طائفة من الآراء في نقد الشعر والموازنة بين الشعراء، وهي آراء داتية لمؤلف هذا الكتاب.

فمن الخير أن نضيف إلى هذه الطبعة فصلاً نبين به فضل من سبقونا إلى الموازنة بين الشعراء، وأظهر أولئك الباحثين رجلاً من أحدهما من رجال القرن الرابع، وثانيهما من رجال القرن الرابع عشر.

أما الأول فهو أبو الحسن الآمدي صاحب كتاب « الموازنة بين الطائيين : أبي تمام والبحتري » وهو باحث عظيم فصّلت الكلام عليه تفصيلاً في الجزء الثاني من كتاب « النثر الفني »^(١) فليرجع إليه القارىء إن شاء، فمن تبديد الوقت أن أعيد هنا ما فصلته هناك.

وأما الثاني فهو أستاذي، وصاحب الفضل عليّ : المغفور له الشيخ محمد المهدي بك، وكان أديباً نادر المثال، ولكن لم ينشر له شيء، وقد فصّلت آراءه

(١) انظر الصفحات ٨٢ — ٩٣.

الأدبية في الجزء الأول من كتاب « البدائع »^(١) ولكن بقي مجالاً للقول في ذلك الباحث الجليل، فإني لم أكتب عنه في « البدائع » إلا الصور الرائعة من أسلوبه في الدرس، ومذهبه في الحياة الاجتماعية، وهنا أستطيع أن أبين كيف كان يوازن بين الشعراء، وأستطيع أن أنشر إحدى موازناته في هذا الكتاب، لأن آثاره مع الأسف لن تنشر أبداً، ولن يفرغ تلاميذه من شواغل دنياهم حتى يقدموا لذكره ما يجب من الوفاء كان الشيخ المهدي يوازن في دروسه بين الكتاب والخطباء والشعراء، وكان يوازن بين العصور الأدبية.

أما موازناته بين الشعراء فكانت كثيرة جداً وأظهرها الموازنة بين زهير والأعشى^(٢) وأما موازناته بين الخطباء فأذكر منها قوله في الموازنة بين قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي، وهو يقول : « الموازنة بينهما من جهات » :

الجهة الأولى : الموضوع، ونرى أن موضوع قس لا يكاد يتخطى الموعظة بالموت، وتوجيه الناس إلى توحيد الله، ونبذ ما هم عليه من عبادة الأصنام وأما أكثم فإنه يزيد عن هذا نصيح قومه في مسائل الدنيا، ونصح ذريته، وتوجيههم إلى طرق الخير مفصلة.

الجهة الثانية : العبارة، والفرق فيهما بينهما ظاهر، فإن عبارة قس عبارة البديهة، وإن كانت مسجوعة، فهي العبارة الصالحة للدهماء، وهي بمقام الخطبة أليق : لسهولة، ووضوح معناها، وأخذ بعضها بحجز بعض في طريق المقصد الذي يريده، وهي تكاد تكون مغسولة من الأمثال والحكم.

وأما عبارة أكثم فهي عبارة متفاهة يكثر فيها المجاز والكناية والأمثال والحكم، فهي مجموعة مختارات جيدة تكاد تكون عديمة النظر؛ فهي أشبه بكلام الحكماء، ولا غرو فقد كان أكثم حكيماً محكماً عالماً بالأنساب، وقد أثر عنه ما قال في آخر حياته وهو خلاصة تجاربه، فعبارته في نظر عشاق المعاني والبلاغة والإيجاز

(١) انظر الطبعة الثالثة ج ١ ص ١ — ١٨ .

(٢) عديب صوره من هذه الموارد.

أعلى ، وعبرة قس في نظر الخطباء وأهل الدعوة أليق وأبلغ. وإن شئت قلت :
عبرة قس أخطب، وعبرة أكنم أحكم.

الجهة الثالثة : المعاني — والفرق بينهما جليّ أيضاً، فإن معاني قس عامة قليلة،
نظرية، ليس فيها توليد، ولا كذلك معاني أكنم : فإنك تجدها كثيرة مفصلة في
ضروب عدة، وكلاهما يكرر المعنى ويرادف، وهذا شأن الخطباء : إذا أرادوا
تثبيت ما يدعون إليه.

الجهة الرابعة : حال الخطيبين — فإن قسا كان يخطب للعرب كافة وهو راكب
حمّله، ويشير بيده وبالخصرة، ويفصل الكلام بـ(أما بعد) ويتقلب في البلاد
لهذا، حتى طار ذكره، واشتهر في الخافقين قدره؛ وكان من أمره أن ذكره النبي
ﷺ، وقرظه.

وأما الثاني فقد كان يخطب قومه، ويتحرى العقلاء مهم، ويقول « لا تحضروني
سفيهاً » ولم يؤثر عنه ما أثر عن قس في موقفه ولباسه، واستعداده — فيما أعلم
— من هذه الجهة أعرق في الخطابة.

الجهة الخامسة : أن قساً كان يقول الأستعار من روح خطبته سهلة متقبّلة
لثحفظ إذا لم يحفظ الكلام، وكان أكنم يستعين بالأمثال لحماها وقصرها، وبالرائع
من الحكمة كذلك، ولا يخفى أن الشعر البين السهل إنما هو للدعوى، وهو أليق
بمقام الخطابة، وأن الأمثال الحكيمة التي تحتاج إلى روية في فهمها إنما هي للخاصة،
وهي لا تفيد إلا في الخطب الخاصة، وعلى هذا يكون قسّ أخطب، وأكنم أحكم،
وكذلك لم تكن هنالك غرابة في شهرة قس بالخطابة، مع أن كلام أكنم فيها أبلغ
في نظر الحكماء، ومن بتعشقون الجزل الموحز الدقيق المعنى، الرصين المبسّ.

ثم أشار الأستاذ رحمه الله إلى أنه كان يود أن يقارن بين الكلام المشترك ولكنه
لم يجد من الشواهد ما يروي الغلة، فاكتفى بالحكم بأن الأول كان يتكلم عن
سجية، وأن الثاني كان يتفنن ويدقق ويحكم، وكذلك كان لكل منهما مَزَع
وطريق.

وأما موازناته بين العصور الأدبية فهي كثيرة جداً، وليس تحت يدي الآن إلا كلمة قصيرة عن بيان حال الشعر في زمن البعثة، والخلافة الراشدة. قال :

إذ أردنا أن نتعرف حال الشعر في صدر الإسلام وجب علينا أن نلمح ما كان له من المكانة قبل ذلك، ثم نكشف عن مكانته الثانية، لتجلى صورتاه في المكانتين، ويعرف شأنه في الزمانين، فنقول :

كان الشعر في الجاهلية يسير مع السيف في الدفاع عن الأعراض والأحساب والذود عن البَيضة، فكما يغير الفارس برمحه وحسامه، يُغير الشاعر بقافيته وإنشاده، فإذا فت السيف في الأعضاء، فتّ الشعر في القلوب، وإذا أصاب النبال بنبلة الجسوم، أصاب الشاعر بكلماته النفوس بتخذيّل الأعداء، وتعميس الأولياء، فإذا نظرنا إليه بعد الإسلام من هذه الجهة وجدناه ماثلاً فيها لم يتزحزح عنها.

فقد روي أن النبي ﷺ قال ليلة وهو في بعض أسفاره : أين حسان بن ثابت ؟ فقال حسان : نبيك يا رسول الله وسعديك. قال أخذ فجعل يُنشد ويُصنعي إليه، فما زال يستمع إليه وهو سائق راحلته حتى فرغ من نشيده، فقال عليه الصلاة والسلام : لهذا أشدّ عليهم من وقع النبل.

وقد كان حسان ينافح عنه، ويشجع قومه، ويخذل عدوه. وقد بلغ من أمر حسان أن بنى له النبي ﷺ منبراً في مسجده ينشد عليه الشعر.

وكذلك القول في عبد الله بن رَوَاحَةَ الذي شهد العقبة وبدراً والمشاهد كلها إلا الفتح، ومات في غزوة مؤتة، فقد كان النبي ﷺ يرتجز ببعض رجزه في تلك الغزوة، وهو قوله حينما أصيبت إصبعة :

هَلْ أَنْتَ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِينِ
يَا نَفْسُ إِلَّا تُقْتَلِي تَمُوتِي هَذِي جِيَاضُ الْمَوْتِ قَدْ ضَلَيْتِ

وَمَا تَمَنَّيْتُ فَقَدْ لَقِيتُ إِنَّ تَفْعَلِي فِعْلَهُمَا هُدَيْتُ^(١)

وكذلك الشأن في كعب بن مالك الأنصاري الذي كان يعارض ابن الزُّبَيْرِ من شعراء المستركين، ويدافع مدافعة من ملأ قلبه اليقين، ومنه قوله في قصيد طويل ذكره ابن هشام في سيرته في يوم الخندق :

وَمَوَاعِظُ مَنْ رَبَّنَا نَهْدِي بِهَا بِلِسَانٍ أَزْهَرَ طَيِّبِ الْأَثْوَابِ
عُرِضَتْ عَلَيْنَا فَاشْتَهَيْنَا ذِكْرَهَا مِنْ بَعْدِ مَا عُرِضَتْ عَلَى الْأَحْزَابِ
حَكْمًا يَرَاهَا الْمُجْرِمُونَ بِزَعْمِهِمْ حَرَجًا وَيَفْهَمُهَا أُولُو الْأَلْبَابِ
جَاءَتْ سَخِينَةُ كَيْ تُعَالِبَ رَبَّهَا وَلِيُعْلَبَنَّ مُعَالِبُ الْغُلَابِ

مراده بسخينة قريش، لأنها كانت تأكلها، وهي حساء من دقيق، والأمثلة من هذا النوع مستفيضة.

فإذا نظرنا إليه من ناحية أنه كان يجاز عليه في الجاهلية وجدناه في صدر الإسلام كذلك بيد أن كثيراً من الشعراء رغبوا عن الجوائز إلى ثواب الله، وكثر في كلامهم ذكر الجنة وما أعدَّ الله لعباده من النعيم المقيم، فأما الجوائز في الإسلام فقد بدأ بها رسول الله ﷺ، فإنه أعطى كعب بن زهير بردته حينما جاءه تائباً بعد أن هجاه وأنشد بين يديه في مسجده قصيدته التي مطلعها :

بَانَ سَعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتَبُولٌ مَتِيماً إِثْرَهَا لَمْ يُفَدَ مَكْبُولٌ

يقول فيها بعد أن تغزل ما شاء في سعاد على عادة الشعر الجاهلي يذكر حيرته من ذنبه وانصراف الأخلاء عنه وتأمله العفو :

وَقَالَ كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ آمُلُهُ لَا إِلَهِيَّكَ إِنِّي عَنْكَ مَشْغُولٌ
فَقُلْتُ خَلُّوا سَبِيلِي لَا أَبَالِكُمْ فَكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَفْعُولٌ
أَنْبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولٌ
مَهْلًا هَذَا الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةَ الْ قُرْآنَ فِيهَا مَوَاعِظٌ وَتَفْصِيلُ
لَا تَأْخُذْنِي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ أَذْنِبُ وَإِنْ كَثُرَتْ فِي الْأَفَاوِيلِ

(١) يريد صاحبه اللدين استشهدا قلبه، وهما : زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب.

وكذلك حبا قرة بن هُبيرة وكساه بُردَيْن وحمله على فرس بعد أن أسلم وهو من الشعراء، فقال يذكر ذلك في قصيد طويل ويمدحه :
حَبَاها رَسُولُ اللَّهِ إِذْ نَزَلَتْ بِهِ وَأَمَكَنَها مِنْ نَائِلٍ غَيْرِ مُفَنَّدٍ
فَمَا حَمَلَتْ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ رَحْلِها أَبْرٌ وَأَوْفَى ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدٍ
وَأَكْسَى لُبْدِ الْحَالِ قَبْلَ ابْتِدَالِهِ وَأَعْطَى لِرَأْسِ السَّابِحِ الْمُنْجَرَّدِ^(١)
فإن قال قائل إن هذا العطاء للتألف لا للشعر، قلنا له : ومن التألف أن يعطي الشاعر وهو ما نريد في مقالنا هذا.

وإن نظرنا إليه في الجاهلية فوجدناهم يكبرونه ويرفعون درجته عن المنور، ويبالغون في إعظام شأنه إلى حد أن ينسبوه إلى الجن، وإن كثيراً منه في نظرهم من فوق القدرة الإنسانية لما وجدوه فيه من هز أنفسهم إلى الكرم، والدلالة على محاسن الشيم، وذكر الأيام والمشاهد والمفاخر في أسلوب ساحر، إلى غير ذلك، فإننا نجده في الإسلام لم ينزل كثيراً عن هذه المنزلة، ولم يغض منه أن النبي ﷺ ما علم الشعر وما ينبغي له إلا بمقدار ما تقضي أميته من الكتابة، فكما لا نقول قائل بفضيلة الأمية للناس لأن الرسول كان أمياً لا يقول قائل بفضيلة الجهالة في الشعر لأن الرسول لم يعلمه، ولهذا أكثر الحض على تعلمه واستاعه وروايته على شريطة أن يكون في الحث على فضيلة، أو ذم رذيلة، فقد كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري بقول له :

« مُرْ مَنْ قَبْلَكَ يَتَعَلَّمُ الشَّعْرَ فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى مَعَالِي الْأَخْلَاقِ، وَصَوَابِ الرَّأْيِ، وَمَعْرِفَةِ الْأَنْسَابِ ».

ولقد كانت عائشة رضي الله عنها كثيرة الرواية للشعر، وكان مما نرويه جميع شعر لبید.

وقد روى الحسن بن رشین القيرواني أن أعرابيا وقف على علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه، فقال إن لي إليك حاجة رفعتها إلى الله قبل أن

(١) هو الحصان.

أرفعها إليك، فإن أنت قضيتها حمدت الله تعالى وشكرتك، وإن لم تقضها حمدت الله تعالى وعذرتك، فقال عليّ : خطّ حاجتك في الأرض، فأني أرى النصر عليك. فكتب الأعرابي على الأرض إني فقير، فقال عليّ : يا قنبر، ادفع له حلتي الفلانية، فلما أخذها مثل بين يديه فقال .

كَسَوْتَنِي حُلَّةً تَبْلَى مَحَاسِنُهَا فَسَوْفَ أَكُفُّوكَ مِنْ حُسْنِ الثَّنَا حُلَلَا
إِنَّ الثَّنَاءَ لِيُحْيِي ذَكَرَ صَاحِبِهِ كَالْعَيْثِ يُحْيِي نَدَاهُ السَّهْلُ وَالْجَبَلَا
لَا تَزْهَدُ الدَّهْرُ فِي عُرْفٍ بَدَأَتْ بِهِ فَكُلُّ عَبْدٍ سَيُجْزَى بِالَّذِي فَعَلَا
فقال عليّ : يا قنبر أعطه خمسين ديناراً، أما الحلة فلمسألتك، وأما الدنانير فلا أدبك.

فأنت تراه أعطاه لأدبه كما قال بعد أن أعطاه لفقره لما وجدته في شعره من شكر النعمة، وتمحيض النصيحة، والترغيب في الآجل.

هذا وقد قال الشعر ورواه آل البيت النبوي الكريم.
ولي من بني عبد المطلب رجلاً ونساء من لم يقل الشعر حاشا رسول الله،
وناهيك بالعباس فقد كان شاعراً مجيداً وله شعر مأثور معدود في الطبقة العالية،
من ذلك قوله يوم حنين :

أَلَا هَلْ أَتَى عِزِّي وَمَوْقِفِي بِوَادِي حُنَيْسٍ وَالْأَيْسَنُ تُشْرِعُ
وَقَوْلِي إِذَا مَا النَّفْسُ حَاشَتْ لَهَا قَدَى وَهَامَ تَذْهَدَى وَالسَّوَاعِدُ تُقْطَعُ
وَكَيْفَ رَدَدْتَ الْحَيْلَ وَهِيَ مُغِيرَةٌ بِزُورَاءَ نُعْطَى بِالْيَدَيْنِ وَتَمْنَعُ^(١)

وكذلك كان الخلفاء الراشدون والجللة من الصحابة والتابعين.
وكانوا يتغنون به ولهم في ذلك أخبار طويلة، فمن ذلك ما رواه السائب بن يزيد : بينا نحن مع عبد الرحمن بن عوف في طريق إذ قال لرباح بن المغترف غنّ، فقال له عمر بن الخطاب : فإن كنت آخذاً فعليك بشعر صرار بن الخطاب (وضرار هذا من أجلاء الصحابة فارس معوار، وشاعر مفلح مقدم على ابن

(١) لعلها تعطي السهام، وتمنع العدو.

الزبيري فهو أشعر قريش) ومن شعره :

يَا نَبِيَّ الْهُدَى إِلَيْكَ لَجَا حَيْدٌ رَى قُرَيْشٍ وَلَاتَ حِينَ لَجَاءِ
حِينَ ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ سَعَةُ الْأَرْضِ ضَوْعَادَاهُمْ إِلَهُ السَّمَاءِ
وَأَلْتَقَتْ حَلَقَتَا الْبَطَانِ^(١) عَلَى الْقُوَى مَرُّوْذُوا بِالصَّيْلَمِ الصَّلْعَاءِ^(٢)
إِنَّ سَعْدًا يُرِيدُ قَاصِمَةَ الظُّهْرِ بِرِ بَأْهْلِ الْحَجُونِ وَالْبَطْحَاءِ
فَأَنْهِنِي فَإِنَّهُ أَسَدُ الْأُسْدِ دَلَدَى الْعَابِ وَالْعِ فِي الدِّمَاءِ
إِنَّهُ مُطَرِّقٌ يُرِيدُ لَنَا الْأَمْنَ مَرُّ سَكُوتًا كَالْحَيَّةِ الصَّمَاءِ^(٣)

وقد كان ضرار قالها يوم فتح مكة يسترحم رسول الله ﷺ على قومه وأراد بسعد سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي، وقد كانت راية رسول الله يوم الفتح بيده. فإن نظرنا إليه من جهة أنه يستشفع به في حقن الدماء، فقد كان الأمر في الإسلام على ما كان عليه في الجاهلية كما رأيت في هذا الحديث. وإن كان من جهة الاستغاثة والنجدة فكذلك وهو في الإسلام أشد أثراً منه في الجاهلية لما داخله من المعطفات الدينية.

فقد روى سعيد بن المسيب أن عمرو بن سليم الخزاعي وفد على رسول الله ﷺ وكانت خزاعة حلفاء له فلما كانت الهدنة بينه وبين قريش أغاروا على حي من خزاعة يقال لهم بنو كعب فقتلوا فيهم، وأخذوا أموالهم فاستنجد بالنبي ﷺ وأنشده بين يديه :

يَا رَبِّ إِنِّي نَاشِدُ مُحَمَّدًا حَلَفَ أَيْبِنَا وَأَيْبِهِ الْأَنْلَدَا^(٤)
نَحْنُ وَلَدْنَاهُمْ فَكَانُوا وَلَدًا ثُمَّتَ أَسْلَمْنَا فَلَمْ نَنْزِرْغَ يَدَا
إِنَّ قُرَيْشًا أَخْلَفُواكَ الْمَوْعِدَا وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمُؤَكَّدَا
وَنَصَبُوا لِي فِيكَ ذَاةً رَصَدَا وَبَيَّتُونَا بِالْوَتِيرِ هُجَّجَا
وَقَتَّلُونَا رُكْعًا وَسُجَّجَا وَزَعَمُوا أَنَّ لَسْتَ تَدْعُو أَحَدَا

(١) البطان : حزام يجعل تحت بطن البعير وهو مثل في بلوع الأمر شدة.

(٢) أي الداهية الشديدة.

(٣) أي التي لا تقبل الرقية.

(٤) الأنلد : صفة للحلف، ومعاها القدم.

وَهُمْ أَذَلُّ وَأَقْلُّ عَدَدًا فَأَنْصُرْ هَذَاكَ اللَّهُ نَصْرًا أَبَدًا
وَأَذْغُ عِبَادَ اللَّهِ يَأْتُوا مَدَدًا فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ تَجَرَّدَا
إِنْ سِمْ خَسَفًا وَجْهَهُ تَرَبَّدَا^(١) فِي فَيْلَقٍ كَالْبَحْرِ يَجْرِي مُزِيدًا

فدمعت عينا رسول الله ﷺ، وخرج بمن معه لنصرهم. فإذا نظرنا إليه من ناحية ثلم الأعراض والفخر بما لا يحل كالخمر والميسر، فإن الإسلام أثر في الشعر من هذه الجهة أثراً صالحاً، فقد كان الرسول وأصحابه يعاقبون الهجائين عقاباً صارماً حتى إنهم أهدروا دم ناس من الشعراء كانوا يصدون عن سبيل الله، ويظاهرون أعداءهم عليهم، فأما غيرهم فقد كان عقابهم التعزير بالحبس ونحوه كما فعل عمر بالخطيئة حتى كثرت أشعاره في الاسترحام والتوبة، وكان من استرحامه قوله :

مَاذَا تَقُولُ لِأَفْرَاحٍ بِذِي مَرَّخٍ زُغِبِ الْحَوَاصِلِ لَامَاءٌ وَلَا شَجَرُ
الْقَيْتِ كَأَسْبَهُمْ فِي قَعْرِ مُظْلَمَةٍ فَأَغْفِرْ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ يَا عُمَرُ

ولهذا كان الشعر في صدر الإسلام أنزه منه قبله، وإن لم يسلم من عيوب الجاهلية سلامة تامة.

فأما النظر من حيث جودة السبك، وغزارة المعنى، وتشخيصه، فهو في صدر الإسلام أعلى منه قبله على الجملة إذا نظرت في مجموع ما ورد في العصرين، لأن العصر الثاني غزر معناه بالكتاب والسنة، وما وصل إلى الأمة من آثار الأمم الأخرى، ومال كثير من الشعراء إلى وضوح المقصد خصوصاً منهم الشعراء العشاق، وشعراء الحكم والأمثال. فأما من جهة المتانة، وصفاء العربية، فإن الجاهلية ما زالوا أصحاب هذين.

وأما من حيث الموضوعات فهي في الإسلام أوسع منها في الجاهلية خصوصاً الموضوعات الدينية. هذا، ولا يفوتنا أن نبين أن ناساً تنسكوا وزهدوا في الشعر، وزهدوا فيه الناس، أخذوا بظاهر ما جاء في الكتاب العزيز من قوله تعالى ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴿وَمَا

(١) تربد : تغير.

ورد من الأخبار في ذم الشعر، ولم يفتنوا إلى أن هذا محمول على الشعر الضار كالهجو والغزل فيما لا يباح، وكإثارة الأحقاد به وغير ذلك مما لا يجوز أن يؤدي لا ينثر ولا يظم، وقد نغالي بعضهم حتى ظن أن رواية الشعر في رمضان سقض الوضوء فكان ابن عباس وابن سيرين بنهيان الناس عن ذلك، وقد قبل لسعد ابن المسيب إن قوماً بالعراق يكرهون الشعر، فقال : نسكوا نسكاً أعجمياً، ولكن هذه الحالة لم تلبث أن زالت في عصر بني أمية.

وملخص الفوارق :

أن الجائزة عليه في الإسلام دونها في الجاهلية.
أن درجته في الإسلام دون درجته في الجاهلية لأن الكتاب زاحمه.
أنه في الإسلام أنزه منه في الجاهلية.
أنه في الإسلام أعلى من جهة غزارة المادة، وتنخيص المعنى.
أنه في الإسلام أوسع موضوعاً.
أنه في الإسلام دون الجاهلية في المتانة.
أنه في الإسلام دون الجاهلية في صفاء العربية.
أن الرغبة فيه في صدر الإسلام دونها في الجاهلية.
فأما من جهة النجدة به فهو في الإسلام أظهر.

وهذه الفروق كلها متفاربة لا يكاد يميزها إلا كثير الاطلاع المنذوق لكلام العرب.

هذا وقد لا حظت أن أكثر تلاميذ الشيخ المهدي أولعوا بالمواريث الشعرية فقد نشر الأستاذ الشيخ عباس الجمل بحثاً في الموازنة بين أبي تمام وشوقي، وهي نزعاً وصلت إليه من ذلك الباحث العظيم. والأستاذ الشيخ عباس الجمل من أظهر تلاميذ المهدي، ومن الذين يستظهرون أكثر نواذره الأدبية، وقد حصرت منذ أشهر وهو يلقي محاضرة في جمعية الاقتصاد السياسي فرأيت إشارات ونبراته صورة جديدة من الشيخ المهدي، وإن لم نفتن لذلك. والأستاذ العظيم هو الذي يطبع تلاميذه بطابعه فيكونون خلفاءه في عالم الفكر والبيان.

الفهرس

٥	مقدمة
٧	البحث الأول: أهواء النقاد
١٥	البحث الثاني: عود إلى أهواء النقاد
٢٢	البحث الثالث: أنفس الشعراء
٣٠	البحث الرابع: شعراء الأحزاب
٣٧	البحث الخامس: نفسية الناقد
٤٥	البحث السادس: الحاسة الفنية
٥٦	البحث السابع: خطر الإيهام والغموض
٦٣	البحث الثامن: الصور الشعرية
٦٨	البحث التاسع: أهمية الصور الشعرية
٧٧	البحث العاشر: اختلاف الصور الشعرية
٨٣	البحث الحادي عشر: الصور الشعرية في القرآن
٩٣	البحث الثاني عشر: المعاني والأغراض
١٠٢	البحث الثالث عشر: الحصري وشوفي
١١٣	البحث الرابع عشر: البحرى وشوفي
١٢٥	البحث الخامس عشر: بكاء الممالك عند البحرى وشوفي
١٣٢	البحث السادس عشر: حنين شوقي إلى مصر
١٤٢	البحث السابع عشر: بين البحرى وشوقي

البحث الثامن عشر: الفصل بين البحتري وشوقي	١٤٩
البحث التاسع عشر: البوصيري وشوقي	١٥٧
البحث العشرون: بين البوصيري وشوقي والبارودي	١٦٦
البحث الحادي والعشرون: أسلوب البارودي	١٧٧
البحث الثاني والعشرون: التخلص والاقتضاب	١٨٥
البحث الثالث والعشرون: المعجزات	١٩٤
البحث الرابع والعشرون: وصف القرآن	٢٠١
البحث الخامس والعشرون: أبو نواس وابن دراج	٢١٢
البحث السادس والعشرون: نفحة من الأدب الأندلسي	٢٢١
البحث السابع والعشرون: حياة ابن دراج	٢٢٣
البحث الثامن والعشرون: بين صبري ومطران	٢٤٣
البحث التاسع والعشرون: الموازنة بين النونيتين	٢٥٢
البحث الثلاثون: بين البارودي وأبي نواس	٢٦٥
البحث الحادي والثلاثون: بين البارودي وأبي فراس	٢٧١
البحث الثاني والثلاثون: الموازنة بين الكرائيتين	٢٨٠
البحث الثالث والثلاثون: بين أبي نواس وعبد الباقي ابراهيم	٢٩٣
البحث الرابع والثلاثون: بين شوقي وابن زيدون	٣٠١
البحث الخامس والثلاثون: الموازنة بين القصيدتين	٣٠٩
البحث السادس والثلاثون: معاني أبي نواس	٣٢٥
البحث السابع والثلاثون: بين أبي نواس وابن المعتز والخليع	٣٣٢
البحث الثامن والثلاثون: أقطاب الموازين	٣٤١

ولد الدكتور زكي مبارك في الخامس من اغسطس سنة ١٨٩١. وقال : « ولدتني أمي في الخامس من أغسطس، فأضيف الى الوجود خيرُ جديد وشرُّ جديد » .

ورحل زكي مبارك الى عالم البقاء في الثالث والعشرين من يناير ١٩٥٢ .

وللدكتور زكي مبارك مئات المقالات لم تجمع حتى الآن من الصحف والمجلات.

وللدكتور زكي مبارك الاديب والناقد عشرات الكتب في الادب والنقد والفلسفة منها على سبيل المثال : « النثر الفني في القرن الرابع الهجري، التصوف الاسلامي، الاخلاق عند الغزالي، ليلى المريضة في العراق، عبقرية الشريف الرضي، اللغة والدين والتقاليد والمدائح النبوية » .

وللشاعر زكي مبارك عدة دواوين منها : ديوان زكي مبارك، الحان الخلود، اطياب الخيال احلام الحب وقصائد في التاريخ » .

To: www.al-mostafa.com